الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

حقيقة جريمة الحديقة

The Sweetness at the Bottom of the Pie

رواية

آلان برادلي

Alan Bradley

116

مكتبة الرمحي أحمد

حقيقة جريمة الحديقة

The Sweetness at the Bottom of the Pie

رواية

للمزيد والجديد من الكتب والروايات زوروا صفحتنا على فيسبوك

مكتبة الرمحي أحمد

تأليف

آلان برادلي

Alan Bradley

ترجمة

مروان سعد الدين

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة

https://t.me/ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
Sweetness at the Bottom of the Pie

الطبعة الأولى

1431 هـ - 2010 م

ردمك 978-9953-87-965-9

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

مكتبة الرمحي أحمد

واحد

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

كان الظلام حالكاً في الخزانة مثل دماء قاتمة جفت منذ وقت طويل. كانتا قد دفعتاني إلى الداخل وأوصدتا الباب. كنت أتنفس بصعوبة من أنفي، وأحاول يائسة الحفاظ على هدوئي. حاولت العدّ إلى عشرة مع كل شهيق، وإلى ثمانية مع كل زفير أطلقته ببطء في الظلام. لحسن حظي، كانتا قد أحكمتا شد كعام على فمي المفتوح من دون أن تضعاه على أنفي، وكان بمقدوري ملء رئتيّ بشهيق تلو الآخر من الهواء الفاسد المتعفن.

حاولت دفع أظفاري تحت الوشاح الحريري الذي يحكم وثاق يديّ خلفي، لكن، لأنني كنت أقضمها دائماً، لم يكن هناك شيء يمكنني إمساكه به. لحسن الحظ أنني تذكرت عندها أن أجمع أناملي معاً، أستخدمها كعشر قواعد قوية صغيرة لإبعاد راحتيّ كفيّ عن بعضهما، عندما كانتا تُحكمان ربط العقد.

قمت بتحريك معصميّ آنذاك، ضغطتهما معاً حتى شعرت أن الوثاق ارتخى قليلاً، واستعملت إبهاميّ لدفع الوشاح الحريري إلى الأسفل حتى أصبحت العقد بين راحتيّ كفيّ، ثم بين أصابعي. لو أنهما كانتا ذكيتين بما يكفي للتفكير في ربط إبهاميّ معاً، لما استطعت الهروب أبداً. لقد كانتا مغفلتين تماماً.

بعد أن حرّرت يديّ أخيراً، أزحت الكعام عن فمي بسهولة.

مكتبة الرمحي أحمد

اقتـــربت بعـــد ذلـــك من الباب. لكن أولاً، لأتأكد أنهما لا تتربصان بانتظاري، جلست القرفصاء وحدّقت من ثقب المفتاح إلى العلية. الحمد لله أنهما كانتا قد أخذتا المفتاحَ معهما. لم يكن هناك أحـــد في مرمـــى البـــصر؛ ومـــا عدا فوضاها المعتادة من الظلال، الخردوات، وسقط المتاع، كانت العلية الطويلة فارغة. كان الساحل واضحاً للعيان.

مـــددت يديّ فوق رأسي إلى أعلى الخزانة، وفككت إحدى خطّافـــات تعلـــيق المعاطـــف من اللوح المثبتة عليه. بوضع الطرف المعقوف في ثقب المفتاح ورفع الطرف الآخر، كان بمقدوري تشكيل أداة علـــى شكل حرف "أل" والتي دفعتها إلى داخل القفل العتيق. نجـــم عـــن خبرة ضئيلة بصيد الأسماك والعبث بآلة الكمان بطقطقة بسيطة. كان ذلك سهلاً جداً. فُتح الباب على مصراعيه وأصبحت حرة.

قفزت على السلم الحجري العريض نـــزولاً إلى الردهة، توقفت عـــند باب غرفة الطعام بما يكفي فقط لأرمي بضفيرتيّ من فوق كتفيّ إلى موقعهما المعتاد.

كـــان والدي لا يزال يصر على أن يتم تقديم العشاء عندما تدق الـــساعة وتناول الطعام حول طاولة سنديان ضخمة، تماماً كما كانت الحال عندما كانت والدتي على قيد الحياة.

ســـأل بحـــنق: "ألم تنـــزل أوفيليا ودافني بعد، يا فلافيا؟". أشاح ببـــصره عـــن آخر عدد من *بريتش فيلاتليست* [جامع الطوابع البريدية البريطاني]، التي كانت مفتوحة إلى جانب اللحم والبطاطا.

قلت: "لم أرَهما منذ وقت طويل".

مكتبة الربيعي أحمد

كان ذلك صحيحاً. لم أكن قد رأيتهما، ليس منذ أن قامتا بتكميمي ووضع عصبة على عينيّ، ثم دفعتاني بصعوبة على الدرج المؤدي إلى العلية، وأوصدتا علي باب الخزانة.

نظر إلي والدي من فوق نظارته لأربع ثوانٍ كالمعتاد قبل أن يعود ليتمتم فوق كنوزه الدبقة.

نظرت إليه بابتسامة عريضة، ابتسامة عريضة بما تكفي لتظهر الأسلاك المثبتة على أسناني بوضوح. بالرغم من أنها كانت تجعلني أبدو مثل منطاد من دون قماش، إلا أن والدي كان يحب أن يتم تذكيره دائماً أنه ينفق أمواله على أشياء تستحق ذلك. لكنه هذه المرة كان مشغولاً جداً ولم يلاحظ شيئاً.

رفعت الغطاء عن طبق الخضار الخزفي، ومن قعره المرسوم عليه باليد فراشات وعلّيق، أخرجت بالملعقة مقداراً كبيراً من البازلاء. باستخدام سكينتي كمسطرة وشوكتي كمنخس، دفعت حبوب البازلاء حتى شكلت صفوفاً وأعمدةً على طبقي: صفاً تلو الآخر من كرات خضراء صغيرة، بينها مسافات دقيقة كانت ستسعد قلب أفضل صانع ساعات سويسري. ثم، ابتداءً من الأسفل واليسار، طعنت أول حبة بازلاء بشوكتي وأكلتها.

كان ذلك كله خطأ أوفيليا. كانت، بالمحصلة، في السابعة عشرة من عمرها ولهذا يُتوقع منها أن تتمتع على الأقل بالقليل من النضج الذي ينبغي أن تكون عليه كراشدة. لم يكن تآمرها ضدي مع دافني، التي تبلغ من العمر ثلاث عشرة سنة، ببساطة عادلاً. كان مجموع عمريهما معاً يصل إلى ثلاثين سنة. ثلاثين سنة! ضدي أنا في الحادية عشرة من العمر. لم يكن ذلك قاسياً فقط، وإنما كان بغيضاً بصراحة أيضاً. وكان يستلزم، ببساطة، الانتقام.

مكتبة الرمحي أحمد

في صـــبيحة اليوم التالي كنت مشغولة بين قوارير وأباريق مختبري الكيميائـــي في الطابق العلوي من الجناح الشرقي عندما دخلت أوفيليا من دون استئذان.

"أين قلادة اللؤلؤ خاصتي؟".

هززت كتفيّ من دون اهتمام. "لست المسؤولة عن حليّك".

"أعـــرف أنـــك أخـــذتها. قطع نعناع إمبريال التي كانت بين ملابسي الداخلية اختفت أيضاً، وكنت قد لاحظت أن قطع النعناع المفقودة في هذا المنـــزل ينتهي بها الأمر دائماً إلى الفم الصغير القذر نفسه".

عدّلت قوة لهب مشعل كحولي كان يسخن كوباً من سائل أحمر. "إذا كـــنت تلمحين إلى أن نظافتي الشخصية لا ترقى إلى المعايير العالية نفسها التي تتمتعين بها، يمكن أن تذهبـــي لتلعقي حذائي المطاطي".

"فلافيا!".

"حـــسناً، يمكنك فعل ذلك. أشعر بالملل والتعب من تحمّل تبعات كل شيء، فيلي".

لكـــن سخطي العارم هدأ فجأة عندما ألقت أوفيليا نظرة سريعة على قارورة السائل الأحمر، الذي كان على وشك أن يغلي.

"ما تلك الكتلة الدبقة في القعر؟". نقرت بأظفارها الطويلة المطلية على الزجاج.

"إنها تجربة. احترسي يا فيلي، إنه حمض!".

شحب وجه أوفيليا. "تلك هي حليّ! لقد كانت لماما!".

كانـــت أوفيليا الوحيدة من بنات هاريت التي تقول عنها "ماما". الوحـــيدة بيننا وكبيرة بما يكفي لتكون لديها أي ذكريات حقيقية عن المرأة التي كانت قد حملتنا داخل جسدها، وهي حقيقة لم تتعب أوفيليا

مكتبة الرمحي أحمد

أبـــداً من تذكيرنا بها. كانت هاريت قد لقيت حتفها في حادث تسلق جـــبال عندما كنت في السنة الأولى من عمري، و لم يكن اسمها يتردد كثيراً في بكشو.

هـــل كنت أغار من ذكريات أوفيليا؟ هل كنت أشعر بالاستياء منها؟ لا أظن ذلك، لقد كان الأمر أعمق بكثير. بطريقة غريبة نوعاً ما، كنت أزدري ذكريات أوفيليا عن والدتنا.

رفعـــت بـــصري ببطء عن عملي حتى تلمع العدستان الدائريتان لـــنظارتي بلون أبيض ساطع عليها. كنت أعرف أنه كلما كنت أفعل هذا، كان ينتاب أوفيليا شعور مروّع أنها أمام عالم ألماني مجنون من فيلم لغامونت بالأبيض والأسود.

"شقية!".

رددت بالمـــثل: "شقية!". لكن ليس قبل أن تستدير أوفيليا على عقبيها - برشاقة كبيرة، كما ظننت - وتخرج بسرعة من الغرفة.

لم يكـــن الـــرد يتأخر في الوصول، لكن مع أوفيليا، لم يكن يأتي بـــسرعة. كانت أوفيليا، مثلي، تخطط لمدى بعيد، وتعتقد بترك حساء الانتقام يغلي على نارٍ هادئة.

فجـــأة بعـــد العشاء، عندما كان والدي يجلس بهدوء في مكتبه ويحـــدّق بحبور إلى مجموعته من الطوابع البريدية، وضعت أوفيليا جانباً بهـــدوء شـــديد سكين الزبدة الفضية التي كانت تتأمل، مثل عصفور صـــغير، انعكـــاس صـــورتها علـــيها طيلة ربع ساعة. قالت من دون اســـتهلال: "أنـــا لست شقيقتك حقاً... وكذلك دافني. لهذا لا نحبك أبداً. لا أظن أنه قد خطر لك على الإطلاق أنك متبناة".

رميت ملعقتي التي أصدرت رنيناً. "ذلك ليس صحيحاً. أنا صورة طبق الأصل عن هاريت. الجميع يقول هذا".

مكتبة الربيعي أحمد

قالــت أوفيليـا، ووجهها ممتعض: "لقد جاءت بك من منـزل *الأمهات العازبات* بسبب الشبه الصارخ بينكما".

"كيف يمكن أن يكون هناك شبه بيننا بينما كانت راشدة وأنا لا أزال طفلة؟". كنت أفهم الأمر من مجرد تلميح.

"لأنــك كنت تذكرينها بصور طفولتها. يا الله، لقد أخذتها معها ووضعتها إلى جانبك للمقارنة".

لجــأت إلى دافــي، التي كان أنفها ملتصقاً بنسخة ذات غلاف جلــدي مــن *ذا كاســل أوف أوترانتو [قلعة أوترانتو]*. "ذلك ليس صحيحاً، أليس كذلك يا دافني؟".

قالت دافني وهي تقلب بتمهّل صفحة رقيقة من الكتاب: "أخشى أنه كذلك. كان والدي يقول دائماً إن تلك ستكون صدمة لك. جعل كلتيــنا نقــسم على ألا نخبرك أبداً. أو على الأقل حتى تبلغي الحادية عشرة من العمر. لقد جعلنا نقطع عهداً".

قالــت أوفيليا: "حقيبة غلادستون خضراء. لقد رأيتها بأم عيني. راقــبت والــدتي تحــشو صور طفولتها في حقيبة غلادستون خضراء لــتأخذها معهــا إلى الملجأ. بالرغم من أنني كنت أبلغ من العمر ست سنوات في ذلك الوقت - بالكاد سبعة - إلا أنني لن أنسى أبداً يديها البيضاوين... أصابعها على الإبزيم النحاسي".

قفزت من خلف الطاولة وخرجت من الغرفة والدموع تملأ عينيّ.

لم أفكر حقاً في السم حتى صبيحة اليوم التالي على الفطور.

كما هي حال كل الخطط العظيمة، كان أمراً بسيطاً.

كانــت بكشو موطن عائلتنا، آل دي لوس، منذ وقت موغل في القدم. كان المنــزل الحالي الجورجي [فن العمارة الذي كان سائداً في

مكتبة الرمحي أحمد

حقبة الملك جورج] قد بُني مكان المنزل الإليزابيثي [الهندسة خلال حكم الملكة إليزابيث] الأصلي الذي احترق عن آخره على أيدي مزارعين اشتبهوا أن آل دي لوس كانوا متعاطفين مع الحركة البرتقالية [منظمة سرية بروتستانتية]. كوننا كاثوليك محافظين منذ أربعمئة سنة آنذاك، وما زلنا كذلك، لم يعنِ شيئاً لرعية بيشوب لاسي [بلدة الثائرين. كانت النيران قد شبّت في "المنزل القديم"، كما كان يدعى آنذاك، وكان المنزل الجديد الذي بُني مكانه قد دخل قرنه الثالث.

كان سلفان لاحقان من آل دي لوس، هما أنطوني وويليام دي لوس، اللذان كانا قد اختلفا بشأن حرب القرم، قد غيّرا تصميم البناء الأصلي. قام كل منهما لاحقاً بإضافة جناحين، لويليام الجناح الشرقي، ولأنطوني الجناح الغربي.

أصبح كلاهما ناسكين في معتزليهما الخاصّين، وحظر كلاهما على الآخرين تجاوز الخط الأسود الذي كانا قد أمرا بطلائه من الردهة في المقدمة، عبر البهو، وصولاً إلى حمام كبير الخدم وراء السلالم الخلفية. يلتف مبنياهما المبنيان من آجر أصفر، بطراز فيكتوري، مثل جناحين مكبّلين لملاك أبيض واللذين كانا، وفقاً لما تراه عيناي، يمنحان النوافذ الطويلة وأغطيتها المتحركة منظر خادمة عجوز تعقص شعرها بإحكام خلف رأسها.

خرّب دي لوس آخر، هو تاركين - أو تار كما كان يدعى - في أعقاب انهيار عصبي، ما كان سيصبح سيرة مهنية رائعة في الكيمياء، وتم طرده من أوكسفورد في الصيف الذي احتفلت فيه الملكة فيكتوريا بيوبيلها الفضي.

لم يكن والد تار المتحرر، القلق من اعتلال صحة الغلام، قد بخل بالمال لإنشاء مختبر في الطابق العلوي من جناح بكشو الشرقي: مختبر

مجهّــز بأوانٍ زجاجية ألمانية، مجاهر ألمانية، مطياف [منظار تحليل طيفي] ألمـــاني، موازين كيميائية نحاسية من لوسيرن، أنبوب غيسلر ألماني معقد الـــشكل مفتوح من أحد طرفيه والذي كان بمقدور تار وصل أسلاك كهربائية به لدراسة الطريقة التي تشع بها غازات متنوعة.

على طاولة قرب النافذة كان هناك مجهر ليتز، الذي كانت مادته النحاســية لا تزال تلمع بالطريقة الجميلة نفسها التي كانت عليه عندما نقلـــته عربة تجرها فرس من القطار في محطة بكشو. كان يمكن تعديل زاويـــة إسقاط مرآته العاكسة لالتقاط أولى أشعة شمس الصباح الباهتة، بينما في أيام غائمة أو لاستعماله بعد حلول الظلام، كان مزوداً بمصباح مجهـــري يعمـــل علـــى البارافين [مادة شمعية من الفحم الحجري] من دافيدسون وشركائه في لندن.

كان هناك حتى هيكل إنسان متمفصل على منصة متحركة، منحه لتار عندما كان لا يزال في الثانية عشرة فقط عالم الطبيعة الشهير فرانك بوكلاند، الذي كان والده قد تناول القلب المحنّط للملك لويس الرابع عشر.

كانت ثلاثة جدران في هذه الغرفة مغطاة من الأرض إلى السقف بخـــزائن لها واجهات زجاجية، اثنتان منها تمتلئان، رفاً فوق رف، بمواد كيميائـــية في أوعية زجاجية صيدلانية، وعلى كل منها صفيحة نحاسية صـــغيرة خطّها تار دي لوس بيده، والذي كان قد عاند القدر وعاش مـــدة أطول منها كلها. توفي سنة 1928 عن عمر ناهز الستين عاماً في وسط مملكته الكيميائية، حيث عثرت عليه مدبرة منـــزله صبيحة أحد الأيام، وكانت إحدى عينيه لا تزال تحدق من خلال ليتز العزيز عليه. ســـرت إشاعة أنه كان يدرس تحليل خامس أوكسيد النيتروجين. إذا ثبـــتت صـــحة ذلك، سيكون ذلك أول بحث مدوّن عن تفاعل كان سيقود أخيراً إلى تطوير القنبلة الذرية.

مكتبة الربيعي أحمد

كان قد تم إغلاق مختبر العم تار واعتباره سراً دفيناً طيلة سنوات غابرة حتى بدأت ما دعاها والدي *مواهبي الغريبة* تظهر للعيان، وقد استطعت الادعاء أن المختبر لي وحدي.

لا أزال أرتعش فرحاً كلما فكّرت في اليوم الخريفي الماطر الذي شهد دخول الكيمياء حياتي.

كنت أستعرض خزائن الكتب في المكتبة، وأتظاهر أنني متسلقة جبال خبيرة، عندما زلّت قدمي ووقع كتاب ثقيل على الأرض. عندما كنت أرفعه لتسوية صفحاته التي تجعدت، رأيت أنه لم يكن مليئاً بكلمات فقط، وإنما بعشرات الرسوم أيضاً. في بعضها، كانت أيدٍ منفصلة تسكب سوائل في مستوعبات زجاجية غريبة الشكل، تبدو كأنها أدوات موسيقية من عالم آخر.

كان عنوان الكتاب دراسة أولية في الكيمياء، وخلال لحظات كان قد علّمني أن كلمة اليود مشتقة من كلمة تعني بنفسجي، وأن الاسم برومين مشتق من كلمة لاتينية تعني نتنة. كانت تلك نوعية الأشياء التي أرغب في معرفتها! وضعت الكتاب الأحمر السميك تحت سترتي وأخذته معي إلى الأعلى، ولم يمضِ وقت طويل حتى لاحظت اسم إيتش. دي لوس مكتوباً على صفحة بيضاء في أول الكتاب. كان الكتاب يخص هاريت.

بسرعة، وجدت نفسي أستغرق بقراءة صفحاته في كل لحظة توفرت لي. كانت هناك أمسيات لم أطق فيها صبراً حلول موعد النوم. كان كتاب هاريت قد أصبح صديقي السري.

كانت فيه تفاصيل عن كل معادن الفلزات: معادن تحمل أسماء غريبة مثل ليثيوم وروبيديوم، ومعادن قلوية مثل سترونتيوم، باريوم، وراديوم. هتفت عالياً عندما سمعت أن امرأة، هي السيدة كوري، قد اكتشفت الراديوم.

مكتبة الربيعي أحمد

ثم كانت هناك الغازات السامة: فوسفين، أرسين (كان معروفاً أن فقاعة واحدة منه تقتل شخصاً)، بيروكسيد النيتروجين، كبريتد الهيدروجين... اللوائح طويلة جداً. عندما اكتشفت وجود تعليمات محددة لتركيب تلك المواد، شعرت بسعادة بالغة.

حالما علّمت نفسي التآلف مع المعادلات الكيميائية مثل K4FeC6N6 + 2K = 6KCN + Fe (التي تصف ما يحدث عندما يتم غلي ملح البوتاس الأصفر مع البوتاسيوم لإنتاج سيانيد البوتاسيوم)، أضحى الكون مكشوفاً أمامي؛ كان ذلك أشبه بالعثور صدفة على كتاب وصفات يخص الساحرة في الغابة.

ما أدهشني أكثر من أي شيء آخر كان اكتشاف الطريقة التي يرتبط بها كل شيء، كل المخلوقات، جميعها! معاً بروابط كيميائية غير مرئية، ووجدت راحة غريبة، لا يمكن تفسيرها من معرفة أنه في مكان ما، بالرغم من أننا لا نستطيع رؤية ذلك في عالمنا، هناك استقرار حقيقي.

لم ألاحظ الرابطة الواضحة في البداية بين الكتاب والمختبر المهجور الذي كنت قد اكتشفته صغيرة. لكن عندما أدركتها، أصبحت حياتي مفعمة بالنشاط، إذ كان ذلك يبدو منطقياً.

هناك في مختبر العم تار، كانت توجد كتب الكيمياء رفاً فوق رف، والتي كان قد جمعها بشغف، وسرعان ما اكتشفت أنه بجهد متواضع لم تكن معظمها خارج نطاق قدرتي على الفهم.

قمت بإجراء تجارب بسيطة بعد ذلك، وحاولت أن أتذكر التقيّد بالتعليمات تماماً. لا يمكنني القول إنه لم تنبعث بعض الروائح وتقع بعض الانفجارات، لكن من الأفضل ألا أتكلم عن تلك الأمور.

بمرور الوقت، أصبحت دفاتر ملاحظاتي أكبر. كان عملي يصبح أكثر تعقيداً بعد أن كشفت أسرار الكيمياء العضوية نفسها لي،

مكتبة الربيعي أحمد

واســـتمتعت بمعـــرفتي الجديدة عما يمكن استخلاصه بسهولة بالغة من الطبيعة.

كنت شغوفة بشكل خاص بالسم.

نـــزعت أوراق النباتات بعصا مشي مصنوعة من الخيزران أخذتها من سلّة للمظلات على شكل قائمة فيل في الردهة الأمامية. في الخلف في حديقـــة المطبخ، لم تكن الجدران العالية المبنية من الآجر قد سمحت لأشعة الشمس الدافئة بالدخول بعد؛ وكان كل شيء لا يزال مبللاً من المطر الذي كان قد هطل في الليل.

شـــققت طريقي عبر بقايا الأعشاب التي كانت لا تزال من السنة الماضـــية، وبحثت على طول قاعدة الجدار حتى وجدت ما كنت أبحث عـــنه، قطعة أرض فيها نباتات نضرة كان لونها القرمزي الفاقع يسهّل رؤية أوراقها الثلاثية بين نباتات متسلقة أخرى. جذبت قفازي حديقة قطنـــيين كانـــا معلقين بحزامي، قلّدت بصوتٍ عالٍ عبارة "بيبيدي - بوبيدي - بو"، وانطلقت للعمل.

لاحقاً، بأمان ملاذي الخاص، حشوت الأوراق الملونة في إناء تقطير زجاجـــي، وكنت حريصة على ألا أنـــزع قفّازيّ حتى أصبحت النباتات اللامعة متراصة داخل الوعاء. كان الجزء الذي أحبه يأتي بعد ذلك.

سددت الإناء، ووضعت أحد طرفيه على قارورة فيها ماء يغلي، والطرف الآخر على أنبوب تكثيف زجاجي علّقت طرفه المفتوح فوق كـــوب فارغ. مع غليان الماء، شاهدت البخار يجد طريقه عبر الأنبوب ويصل إلى القارورة بين الأوراق. كانت قد بدأت تتجعد وتلين بعد أن فـــتح الـــبخار الحار الجيوب الصغيرة بين خلاياها، محرراً الزيوت التي كانت تشكل نسغ النبات الحي.

مكتبة الربيعي أحمد

كانت تلك هي الطريقة التي مارس فيها الخيميائيون القدامى فنهم: نار وبخار، بخار ونار. تقطير.

كم كنت أحب هذا العمل.

تقطير. قلتها بصوت عالٍ: "تق - طي - ر!".

نظرت للحظة بينما كان البخار يبرد ويتكثّف في الأنبوب، وفركت يديّ ابتهاجاً عندما علقت فيه أولى قطرات السائل الشفاف، ثم نزلت مُحدثة صوت *بلوب!* مسموعاً إلى الوعاء الذي ينتظرها.

عندما تبخر الماء تماماً واكتملت العملية، أطفأت النار، ووضعت راحتي كفيّ حول ذقني لأراقب بافتتان السائل في الإناء ينفصل إلى طبقتين متمايزتين: الماء المقطّر الصافي في الأسفل، وسائل أصفر باهت يطفو فوقه. كان ذلك الزيت الأساسي للأوراق. كان يدعى يورشيول [مادة سمية في النباتات] ويتم استخدامه، ضمن أشياء أخرى، في تصنيع الورنيش.

أدخلت يدي في جيب سترتي، أخرجت أنبوباً ذهبياً صغيراً لامعاً. نزعت غطاءه، ولم يسعني سوى أن أبتسم عندما انكشف طرفه الأحمر. قلم شفاه أوفيليا، المُختَلس من درج خزانة ملابسها، إلى جانب عقد اللؤلؤ والإمبريال بالنعناع. وفيلي - الآنسة سنوتراج - لم تلاحظ حتى اختفاءه.

تذكرت قطع النعناع، وضعت واحدة داخل فمي، سحقتها بصوتٍ مسموعٍ بين أضراسي.

أخرجت نواة قلم الشفاه بسهولة متناهية، وشغّلت مشعل الكحول مجدداً. لم يكن مطلوباً سوى حرارة معتدلة لتحويل المادة الشمعية إلى كتلة دبقة. لو أن فيلي كانت تعرف فقط أن قلم الشفاه

مكتبة الربيعي أحمد

مـــصنوع من حراشف الأسماك، كما فكّرت، ربما كانت ستصبح أقل تلـــهفاً لـــدهن تلك المادة على فمها. ينبغي أن أتذكر قول ذلك لها. كشّرت. لاحقاً.

باستخدام مرشف [أنبوب دقيق لنقل السوائل من وعاء إلى آخر]، سحبت بضعة ميلمترات من الزيت المقطّر الذي يشكل الطبقة العليا في كوب الصيدلاني ثم، قطرة بعد أخرى، رششته على عجينة قلم الشفاه الدبقة، وخلطت المزيج بأداة خشبية.

رقيقة جداً كما ظننت. أحضرت مرطباناً، وقمت بإضافة مقدار صغير من شمع العسل لإعادته إلى كثافته السابقة.

كـــان الـــوقت قد حان لوضع القفازين مجدداً، وقالب الرصاصة الحديـــدي الـــذي كنت قد أخذته من متحف بكشو للأسلحة النارية الرائع حقاً.

أمـــر غـــريب، أليس كذلك! أن يكون قياس قلم الشفاه بحجم قذيفـــة عيار 0.45 ملم. إنها معلومة مفيدة، حقاً. كان يجب أن أتذكر الـــتفكير في نـــتائجها الأوسع نطاقاً تلك الليلة عندما آوي بسلام إلى فراشي. آنذاك، كنت مشغولة للغاية.

بعـــد انتـــزاعها مـــن قالـــبها وتبريدها تحت ماءٍ جارٍ، عادت النواة الحمراء المعاد تشكيلها بأناقة إلى داخل غلافها الذهبـــي.

حـــرّكتها صـــعوداً وهبوطاً عدّة مرات لأتأكد من أنها تعمل. ثم استبدلت الغطاء. كانت فيلي تتأخر بالنوم صباحاً، ولا بد أنها كانت لا تزال تتناول فطورها آنذاك.

"أين قلم شفاهي، أيتها الحيوانة الصغيرة؟ ماذا فعلت به؟".

قلت: "إنه في درجك. رأيته عندما سرقت حليّك".

مكتبة الرمحي أحمد

في حـــياتي القصيرة، كنت الوسطى بين شقيقتين، وقد أصبحت بحكم الضرورة ماهرة في الكذب.

"إنه ليس في درجي. لقد بحثت للتو، وهو ليس هناك".

سألت وأنا أبتسم بتكلّف: "هل كنت تضعين نظارتك؟".

بالرغم من أن والدي كان قد زوّدنا جميعاً بنظارات، إلا أن فيلي كانت ترفض وضع نظارها، وكانت نوعية زجاج نظارتي أفضل بقليل مـــن زجـــاج نوافذ. لم أكن أضعها سوى في المختبر لحماية عينيّ، أو لاكتساب التعاطف.

ضـــربت فيلي بباطني يديها على الطاولة، وخرجت مسرعة من الغرفة.

عـــدت لـــسبر أعماق وعائي الثاني من الويتابكس [وجبة قمح وحبوب كاملة].

لاحقاً، كتبت في دفتر ملاحظاتي:

الجمعة، الثاني من حزيران 1950، 9:42 صباحاً. المظهر طبيعي لكن المزاج نكد.
(أليست كذلك على الدوام؟). البداية قد تستغرق من 12 إلى 72 ساعة.

كان بمقدوري الانتظار.

كانت السيدة موليت، القصيرة ذات الشعر الأشيب والممتلئة مثل حجـــر رحى والتي كانت، بكل تأكيد، تظن نفسها إحدى شخصيات قـــصيدة كتبها أيه. أيه. ميلني، في المطبخ تحضّر إحدى فطائر الكسترد [مزيج محلّى من الحليب والبيض] التي تشبه القيح. كالمعتاد، كانت تعاني الأمرّين من فرن آغا الكبير الذي يهيمن على المطبخ الصغير والضيق.

"آه، آنسة فلافيا! هنا، ساعديني بالفرن يا عزيزتي".

مكتبة الرمحي أحمد

لكن قبل أن أتمكن من التفكير في رد مناسب، كان والدي خلفي.

"فلافيا، كلمة". كان صوته ثقيلاً مثل الأوزان الرصاصية على حذاء غوّاص أعماق البحار.

ألقيت نظرة خاطفة على السيدة موليت لأرى كيف تنظر إلى الأمر. كانت تهرب دائماً عند أدنى إشارة على تعكر الأجواء، ومرة عندما رفع والدي صوته، قامت بلف نفسها بسجادة ورفضت الخروج منها حتى تم استدعاء زوجها.

أغلقت باب الفرن بهدوء كما لو أنه كان مصنوعاً من كريستال وترفورد.

قالت: "يجب أن أذهب. الغداء في الفرن الدافئ".

قال والدي: "شكراً لك يا سيدة موليت، سنتدبر الأمر". كنا نتدبر أمرنا دائماً.

فتحت باب المطبخ، وأفلتت صرخة مفاجئة مثل غرير محاصر: "آه، يا الله! أستميحك عذراً أيها العقيد دي لوس، لكن، آه، يا الله!".

كنت ووالدي مضطرين إلى دفعها قليلاً لنرى ما الذي يجري خلفها.

كان طائر شُنقب، وكان ميتاً. كان يرقد على ظهره على عتبة الباب، كان جناحاه المتيبسان ممتدين مثل زاحف مجنح صغير، وعيناه جاحظتين بشكل بشع، ومنقاره الأسود الطويل يتجه نحو السماء. كان هناك شيء فوقه يهتز في نسيم الصباح، قصاصة ورق صغيرة.

لا، ليست قصاصة ورق، وإنما هي طابع بريدي.

انحنى والدي لإلقاء نظرة أكثر قرباً، ثم لهث قليلاً. وفجأة كان يقبض على حنجرته، يداه تهتزان مثل أوراق حور في الخريف، وأصبح وجهه بلون الرماد المشبع بالماء.

مكتبة الرمحي أحمد

اثنان

تحـــوّل عمودي الفقري، كما يقولون، إلى قطعة جليد. للحظة، ظننت أنه قد تعرض لنوبة قلبية، كما يحصل للآباء الذين لا يتحركون كثيراً. في لحظة يصرخون عليك لتمضغ كل لقمة تسع وعشرين مرة، وفي اللحظة التالية تقرأ عنهم في *ذا ديلي تلغراف*:

كالـــدرود، جابيـــز، مـــن بارسونيج، فرينتون. توفي فجأة في مسكنه يوم الأحـــد، الـــرابع عشر. في عامه الثاني والخمسين. الابن البكر... إلخ... إلخ... ترك وراءه بناته: آنا، ديانا، وتريانا...

كان كالدرود، جابيز، وأفراد أسرته معتادين على الانتقال إلى دار الـــبقاء مـــثل أشخاص عاديين، وأن يتركوا خلفهم، ليعتنين بأنفسهن، مجموعة من البنات الحائرات في أمرهن.

ألم يسبق لي أن فقدت والدتي؟ بالتأكيد لم يكن والدي ليقوم بمثل تلك الخدعة الفاسدة.

أم أنه قد يفعل ذلك؟

لا. كـــان يتنفس بصوت مسموع عبر أنفه مثل حصان يجر عربة ويمـــد يده نحو الشيء الموجود على العتبة. كانت أصابعه، الطويلة نوعاً ما، مثل ملاقط بيضاء ترتعش، وانتزعت الطابع بهدوء من منقار الطائر المـــيت، ثم دفعـــت قصاصة الورق المثقوبة على عجل إلى أحد جيوب معطفه. أشار بسبابة ترتعش إلى الجثة الصغيرة.

مكتبة الربيعي أحمد

قال بصوت غريب بدا كأنه لشخص آخر، كأنه صوت شخص غريب: "تخلصي من ذلك الشيء يا سيدة موليت".

قالت السيدة موليت: "آه يا الله، أيها العقيد دي لوس. يا الله أيها العقيد. لا... أظن... أعني أن أقول...".

لكنه كان قد غادر المكان آنذاك، إلى مكتبه، متثاقلاً، يرغي ويزبد مثل محرك قاطرة.

عندما ذهبت السيدة موليت ويدها فوق فمها، لتجلب المكنسة، ولّيت الأدبار إلى غرفة نومي.

كانت غرف النوم في بكشو واسعة مثل حظائر مناطيد زبلن [تم استخدامها في الحرب العالمية الأولى]، وكانت غرفتي في الجناح الجنوبي - أو في جناح تار - كما كنا ندعوه، الأكبر بينها. كان ورق جدرانها من بداية العصر الفيكتوري (أصفر فاقع، مع أشياء متفرقة تبدو مثل خثرات دم حمراء) يجعلها تبدو حتى أكبر؛ مساحة باردة، شاسعة، ومقفرة. حتى في الصيف، كانت الرحلة عبر الغرفة إلى المغسلة البعيدة قرب النافذة تجربة قد تجعل سكوت مستكشف القطب الجنوبي يشعر بالإحباط، وهي أحد الأسباب التي كانت تجعلني أتغاضى عن ذلك وأصعد مباشرة إلى سريري ذي الأربع قوائم، أغطي نفسي ببطانيتي الصوفية، أجلس ساقاً على ساق حتى تعود الأبقار إلى حظائرها، وأفكر ملياً في حياتي.

فكّرت، للحظة، في المرة التي استعملت فيها سكين زبدة لكشط عينات من ورق جدران غرفتي الأصفر مثل يرقان. تذكرت دافني تسرد مشدوهة أحد كتب كرونيون التي يمرض فيها شاذ فقير ويموت بعد أن ينام في غرفة كانت أحد مكوّنات ألوان ورق الجدران الرئيسة فيها هي الزرنيخ. ممتلئة أملاً، حملت قصاصاتي إلى المختبر لتحليلها.

مكتبة الربيعي أحمد

لا يـــوجد اختبار قديم ممل بالنسبة إليّ، شكراً جزيلاً لك! كنت أفضّل الطريقة التي تم بها تحويل الزرنيخ أول مرة إلى ثالث أوكسيده، ثم تسخينه مع خلات الصوديوم لإنتاج أوكسيد كاكوديل؛ ليست إحدى المواد الأشد سمّية الموجودة على كوكب الأرض فقط، وإنما مادة تتمتع بميــزة إضافية تتجلّى في رائحتها الكريهة التي لا تُطاق، مثل رائحة ثوم متعفّن، لكن أسوأ بمليون مرة. لاحظ مكتشفها بنـــزن [مخترع مصباح الكاز] أن قطرة واحدة فقط من المادة لا تجعلك تشعر بوخزٍ في يديك وقدمـــيك فحـــسب، وإنما ستشكل طبقة سوداء كريهة على لسانك أيضاً. آه يا الله، إنها مضاعفات خطيرة!

يمكـــنك أن تتخيل خيبة أملي عندما رأيت أن عينتي لا تحتوي على زرنيخ. كان قد تم تلوينها بصبغة عضوية بسيطة، مصنوعة على الأرجـــح مـــن الصفـــصاف أو بعض الأصبغة النباتية الأخرى غير المؤذية.

بطريقة ما، دفع ذلك أفكاري للعودة إلى والدي.

ما الذي كان قد أخافه كثيراً عند باب المطبخ؟ وهل *كان* الخوف حقاً هو ما رأيته في وجهه؟

نعـــم، لم يكـــن هناك شك كبير في ذلك. لا يمكن أن يكون أي شـــيء آخر. كنت أعرف تماماً آنذاك غضبه، نفاد صبره، تعبه، مزاجه الحـــاد. كانت كلها حالات تظهر بين الفينة والأخرى على وجهه مثل ظلال سحب تتحرك فوق تلالنا الإنكليزية.

كنت أعرف حق المعرفة أنه لم يكن يخاف من الطيور الميتة. كنت قـــد رأيـــته يمد يده نحو العديد من إوز الميلاد السمين، ويلوّح بسكينه وشـــوكته مـــثل قاتل مأجور من الشرق. بالتأكيد، لا يمكن أن يكون السبب وجود الريش، أو عين الطائر الميت!

مكتبة الربيعي أحمد

ومن غير الممكن أن يكون السبب الطابع. كان والدي يحب الطوابع أكثـــر ممـــا يحـــب ذريته. كان الشيء الوحيد الذي أحبّه يوماً أكثر من قصاصاته الصغيرة من الورق هو هاريت. وهي، كما قيل لي، كانت ميتة.

مثل ذلك الشُنقب.

هل يمكن أن يكون ذلك سبب رد فعله؟

"لا! لا! ابــتعدي!". جاء الصوت الأجش من نافذتي المفتوحة، وأخرج قطار أفكاري عن سكته.

ألقيت البطانية بعيداً عني، قفزت من سريري، جريت عبر الغرفة، ونظرت إلى الأسفل إلى حديقة المطبخ.

رأيت دوغر. كان يستند إلى جدار الحديقة، وأصابعه الداكنة التي لفحتها الشمس ممدودة على الآجر الأحمر الباهت.

"لا تقتربـــي مني! ابتعدي!".

كان دوغر رجل والدي؛ مستخدمه. وكان وحده في الحديقة.

كـــان يُقال همساً – من قبل السيدة هاريت، كما يجب أن أقر – إن دوغـــر عاش سنتين في مخيم ياباني لأسرى الحرب، وتبع ذلك ثلاثة عـــشر شهراً آخر من التعذيب، التضور جوعاً، سوء التغذية، والعمل بالإكراه على سكة *حديد الموت* بين تايلاند وبورما حيث اضطر، كما يعتقد كثيرون، إلى تناول الجرذان.

قالت لي: "تكلمي بهدوء يا عزيزتي. إنه متوتر جداً".

نظـــرت – إلى الأســـفل – إلـــيه، هناك في قطعة الأرض المزروعة بالخـــيار، وكـــان شعره الذي أصبح أبيض قبل الأوان منتصباً على رأسه؛ وكانت عيناه الغافلتان عما يدور حوله شاخصتين نحو الشمس.

صـــرخت: "كل شيء على ما يرام يا دوغر. لقد سيطرت عليهم من هنا في الأعلى".

مكتبة الرمحي أحمد

للحظـــة، ظننت أنه لم يسمعني، لكنه أدار وجهه بعد ذلك ببطء، مثل زهرة دوار الشمس، نحو مصدر صوتي. حبست أنفاسي. لا يعرف المرء أبداً ما قد يقوم به شخص ما في مثل تلك الحال.

قلت بصوتٍ عالٍ: "هوّن عليك يا دوغر. كل شيء على ما يرام. لقد ذهبوا".

فجـــأة أخـــذ يترنح، مثل رجل كان قد أمسك بسلك كهربائي انقطع التيار الذي كان يمر فيه للتو آنذاك.

"آنـــسة فلافـــيا؟". تهـــدّج صـــوته. "هـــل تلك أنتِ يا آنسة فلافيا؟".

قلت: "أنا قادمة إلى الأسفل. سأكون هناك خلال لحظة".

ركضت نـــزولاً على السلالم الخلفية، بتهوّر، نحو المطبخ. كانت الـــسيدة موليت قد ذهبت إلى المنـــزل، لكن فطيرتها كانت تبرد عند نافذة مفتوحة.

لا، كما فكّرت؛ ما كان دوغر بحاجة إليه هو شيء يشربه. كان والـــدي يحـــتفظ بشرابه في خزانةٍ يغلقها بإحكام في مكتبه، ولم يكن بإمكاني إخراجها عنوة.

لحـــسن الحـــظ، وجدت إبريقاً من حليب بارد في خزانة المؤن. ملأت منها كأساً طويلة، واندفعت بها إلى الحديقة.

قلت وأنا أقدمها إليه: "خذ، اشرب هذا".

أمـــسك دوغر الشراب بكلتا يديه، حدّق إليه للحظة طويلة كما لـــو أنـــه لا يعرف ما يفعله به، ثم رفعه بيدين ترتعشان إلى فمه. تجرّع الحليب كلّه، وسلّمني الكأس الفارغة.

للحظـــة، كـــان يـــبدو مبـــتهجاً للغاية، لكن ذلك الانطباع اختفى بسرعة.

مكتبة الرمحي أحمد

قلت له: "لديك شارب أبيض". انحنيت نحو الخيار، انتزعت ورقة خضراء داكنة كبيرة من النبات، واستخدمتها لمسح شفته العليا.

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

كان البريق يعود إلى عينيه الخاويتين.

قال: "حليب وخيار... خيار وحليب...".

صرخت: "سم!". قفزت وحرّكت ذراعيّ مثل دجاجة، لأثبت له أن كل شيء تحت السيطرة. "سم قاتل!". وضحك كلانا قليلاً.

طرفت عيناه.

قال وهو ينظر حوله كما لو أنه أميرة أفاقت من حلم عميق: "يا الله! أليس يوماً جميلاً!".

لم يأتِ والدي لتناول الغداء. لأتأكد بنفسي، وضعت أذناً على باب مكتبه وأصغيت السمع بضع دقائق لتقليب الصفحات التي تحمل الطوابع البريدية ونحنحته المعتادة. عرفت أنه كان متوتراً.

إلى الطاولة، جلست دافني تدس أنفها في رواية والبول [هوراس]، وشطيرتها من الخيار بجانبها، مبللة ومنسية على طبق. كانت أوفيليا تتنهد طيلة الوقت، تضع قدميها فوق بعضهما، تبعدهما، ثم تضعهما فوق بعضهما مجدداً، وتحدّق من دون أي انفعال إلى الفراغ، ولم أستطع سوى الافتراض أنها كانت تضيع الوقت سدى مع نيد كروبر، صاحب الصنائع السبع في "ثلاثة عشر علجوماً". كانت مستغرقة تماماً في أحلام يقظتها المتغطرسة، ولم تنتبه إليّ عندما انحنيت إلى الأمام لإلقاء نظرة أقرب على شفتيها بينما كانت تمد يدها من دون اهتمام نحو مكعّب من سكر القصب، تضعه في فمها، وتبدأ مصّه.

مكتبة الرمحي أحمد

علّقت، من دون أن أوجه كلامي إلى أحد على وجه الخصوص: "آه، يبدو أن البثور ستتفتح في الصباح". اندفعت نحوي، لكن ساقيّ كانتا أسرع من يديها.

عدت إلى مختبري في الأعلى، وكتبت:

الجمعة، الثاني من حزيران 1950، 1:07 بعد الظهر. ليس هناك أثر ظاهر للعيان بعد. "الصبر عنصر ضروري للعبقري".

كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة، ومع ذلك لم أستطع النوم. في معظم الأحيان، عندما يتم إطفاء الضوء أسترخي تماماً، لكن تلك الليلة كانت مختلفة. استلقيت على ظهري، يداي مشبوكتان خلف رأسي، أستعيد ما جرى في ذلك اليوم.

أولاً، كان هناك والدي. حسناً، لا، ذلك ليس صحيحاً تماماً. أولاً كان هناك الطائر الميت على العتبة، ثم كان هناك والدي. ظننت أنني قد رأيته وعلى وجهه الخوف لكن، يبدو أن جزءاً صغيراً من دماغي لم يكن يصدق ذلك.

بالنسبة إليّ - لنا جميعاً - لم يكن والدي يعرف الخوف. كان قد رأى أشياء خلال الحرب؛ أشياء مروّعة لا ينبغي التحدث عنها أبداً. كان قد عاش بطريقة ما بالرغم من اختفاء هاريت وموتها المزعوم. وخلال ذلك كله كان شديد البأس، قوياً، عنيداً، ولا يهتز، كان بريطانياً بشكل لا يُصدّق، شفة عليا صارمة بشكل غير معقول. لكن الآن...

ثم كان هناك دوغر، آرثر ويلسلي دوغر، لأذكر اسمه الكامل (كما كان يدعى في أيام غابرة). كان دوغر قد جاء إلينا في بادئ الأمر ليكون خادماً خاصاً لوالدي، لكن بعد ذلك، نظراً إلى "التحولات الكبيرة التي طرأت على ذلك العمل" (تلك كلماته، وليست كلماتي) الملقى على عاتقه، وجد أنه "من الأجدى" له أن يصبح كبير الخدم،

مكتبة الرمحي أحمد

فسائقاً، ثم مستخدم بكشو العام، ثم سائقاً مجدداً لبعض الوقت. في الشهور الماضية، كان قد تأرجح في عدّة أعمال، مثل ورقة خريف تسقط، قبل أن يستقر به المقام أخيراً في عمله الحالي كبستاني، وكان والدي قد وهب عربة هيلمان الخاصة بنا إلى جمعية سان تانكريد.

دوغر المسكين! ذلك ما كنت أفكّر فيه، بالرغم من أن دافني أخبرتني أنه يجب ألا أقول ذلك أبداً عن أي شخص. قالت: "لا يعد ذلك ترفعاً فحسب، وإنما يعدّ فشلاً بأخذ المستقبل بالاعتبار أيضاً".

بالرغم من ذلك، من يستطيع نسيان منظر دوغر في الحديقة؟ رجل ضخم بسيط وبائس يقف هناك، شعره منفوش وأدواته مبعثرة، عربته مقلوبة، وهناك نظرة على وجهه كما لو أنه... لو أنه...

التقطت أذني صوت خشخشة. أدرت رأسي وأصغيت السمع.

لا شيء.

إنها حقيقة طبيعية بسيطة أنني أمتلك حاسة سمع مرهفة. سمع، كما أخبرني والدي مرة، يسمح لمن يمتلكه بسماع دبيب النمل يقعقع مثل حدوات جياد على الجدران. كانت هاريت تمتلكها أيضاً، وأحب أحياناً أن أتخيل أنني، بطريقة ما، بقية غريبة منها؛ أذنان مفصولتان تدوران في أرجاء قاعات بكشو المسكونة بالأشباح، تسمعان أشياء من الأفضل ألا يسمعها أحد أحياناً.

لكن، إصغِ! لقد تكرر مجدداً! صوت له صدى، أجش وأجوف، مثل همسة في علبة بسكويت فارغة.

انسللت بهدوء من السرير، ومشيت على أصابع قدميّ إلى النافذة. توخيت الحذر حتى لا أهز الستائر، نظرت إلى حديقة المطبخ عندما كان القمر يخرج ببطء من خلف غيمة ليضيء المكان، كما لو أنه إنتاج من الطراز الأول لفيلم حلم *ليلة صيف*.

مكتبة الربيعي أحمد

لكـــن لم يكـــن هناك شيء أراه سوى ضوئه الفضي يرقص بين الخيار والورود.

ثم سمعـــت صوتاً، صوتاً غاضباً، مثل طنين نحلة في أواخر الصيف تحاول اختراق زجاج نافذة مغلقة.

ارتـــديت على عجل ثوب هاريت الياباني الحريري الطويل (وهو أحد ثوبين كنت قد أنقذتهما من حملة التطهير العظيمة)، دفعت قدميّ في حـــذاء هـــندي مصنوع من الجلد، ومرصع بالخرز كنت أستعمله كخـــفّ، وتسللت إلى أعلى السلالم. كان الصوت يأتي من مكان ما داخل المنـــزل.

كـــان في بكشو سلّمان رئيسان، يلتف كل منهما إلى الأسفل كأنـــه صورة معكوسة عن الآخر، من الطابق الأول، وينـــزلان إلى الأرض قـــبل الخط الأسود الذي يقسم البهو. كانت السلالم، من "تار"، أو الجناح الشرقي، تنتهي في ذلك البهو الكبير الفارغ الذي يـــوجد خلفه، من جهة الجناح الغربـــي، متحف الأسلحة النارية، ووراءه مكتب والدي. كان الصوت يأتي من ذلك الاتجاه، تسللت نحوه.

وضعت أذني على الباب.

كـــان صـــوت خافـــت يقـــول على الطرف الآخر من اللوح الخـــشبـــي: "إضافة إلى ذلك يا جاك، كيف يمكنك أن تعيش في ضوء هذا الاكتشاف؟ كيف يمكنك المضي قدماً؟".

للحظـــة فقط ظننت أن جورج ساندرز قد جاء إلى بكشو، وأنه يوبخ والدي خلف أبواب موصدة.

قـــال والدي: "اخرج من هنا". لم يكن صوته غاضباً، لكن نبرة صوته على ذلك المستوى كانت تخبرني أنه يشتعل غضباً. في ذهني كان

مكتبة الرمحي أحمد

في استطاعتي رؤية جبينه متجهماً، قبضتيه مغلقتين بإحكام، وعضلات فكه مشدودة مثل وتر قوس.

قال الصوت المتملق: "آه، كف عن ذلك أيها العجوز. نحن في هذا معاً، لطالما كنا كذلك، وسنبقى دائماً. أنت تعرف هذا مثلي تماماً".

قال والدي: "كان توييننغ محقاً. هذا عذر كريه وخسيس لكائن بشري".

"توييننغ! العجوز كوبّا! لقد مات كوبّا منذ ثلاثين سنة يا جاكو مثل جيكوب مارلي. لكن، كما قال مارلي، لا يزال شبحه يحوم في الأرجاء، وربما تكون قد لاحظت ذلك".

قال والدي بصوت واضح تماماً: "ونحن قتلناه".

هل كنت قد سمعت ما سمعته؟ كيف يمكنه؟!

عندما أبعدت أذني عن الباب وانحنيت لأنظر من ثقب المفتاح، لم أسمع كلمات والدي التالية. كان يقف إلى جانب طاولته، يواجه الباب. كان ظهر الغريب بادياً لي. كان طويلاً جداً، ستّ أقدام وأربع بوصات، كما خمّنت. بشعره الأحمر وبذلته الرمادية العتيقة، ذكّرني بلقلق ساندهيل الذي كان يقف محنّطاً في زاوية معتمة من متحف الأسلحة النارية.

وضعت أذني مجدداً على الباب الخشبي.

كان الصوت يقول: "... ليست هناك حدود للعار. ما الذي تعنيه بضعة آلاف بالنسبة إليك يا جاكو؟ لا بد أنك قد حصلت على مبلغ كبير عندما ماتت هاريت. لماذا، التأمين لوحده...".

صرخ والدي: "أغلق فمك القذر. اخرج قبل أن...".

فجأة أمسك بي شخص من الخلف ووضع يده الخشنة على فمي. كاد قلبي يقفز من صدري.

مكتبة الربيعي أحمد

كان يمسك بـــي بقوة لم أستطع معها أن أفعل شيئاً.

همس صوت في أذني: "عودي إلى السرير يا آنسة فلافيا".

كان دوغر.

همس: "هذا ليس من شأنك. عودي إلى السرير".

خفّف قبضته قليلاً عني وحرّرت نفسي. نظرت إليه بلؤم.

في الدجنة، رأيت عينيه تلينان قليلاً.

همس: "اذهبـــي".

عدت إلى غرفتي، ومشيت فيها ذهاباً وجيئة لبعض الوقت، كما أفعل غالباً عندما أشعر بالإحباط.

فكّرت في ما كنت قد سمعته. والدي قاتل؟ كان ذلك مستحيلاً. كـــان هناك على الأرجح تفسير بسيط للغاية. لو أنني فقط سمعت باقي الحـــديث بين والدي والغريب... لو أن دوغر لم يكن قد أمسك بـــي في الظلام. من كان يظن نفسه؟ سأجعله يدفع الثمن، كما فكّرت.

قلت بصوت عالٍ: "عاجلاً وليس آجلاً!".

أخـــرجت أسطوانة خوسيه آتوربـــي [عازف بيانو إسباني] من غطائها الورقي الأخضر، جهّزت الحاكي كما يجب، ووضعت الجانب الـــثاني من بولونيز [رقصة بولندية] لشوبان على القرص الدوّار. رميت بنفسي على السرير وغنيت بصوتٍ عالٍ:

"**داه** – داه – داه، **داه** – داه – داه، **داه** – داه – داه، **داه** – داه – داه – داه...".

بـــدت الموسيقى كما لو أنها خاصة بفيلم يستخدم فيه شخص ما ذراع تدوير لتشغيل محرك سيارة بنتلي قديمة يهدر محركها. اختيار غير موفق لنقلك إلى أرض الأحلام...

مكتبة الربيعي أحمد

عندما فتحت عينيّ، كان فجر بلون المحار يبزغ على النوافذ. كان عقربا ساعة التنبيه النحاسية يقفان عند 3:44. بالتوقيت الصيفي، كان ضوء النهار يظهر مبكراً، وخلال أقل من ربع ساعة، ستكون الشمس قد أشرقت.

تمططــت، تثاءبت، ونهضت من السرير. كان الحاكي قد توقف عــن العمل، في منتصف أسطوانة شوبان، وإبرته تتمدد من دون حراك علـيها. للحظة عابرة فكّرت في تشغيلها مجدداً لإطلاق بوق استيقاظ بولـندي في المنــزل. ثم تذكرت ما كان قد جرى قبل بضع ساعات فقط.

ذهبت إلى النافذة، ونظرت إلى الحديقة. كان هناك كوخ صغير، يكلــل الــندى ألواحه الزجاجية، وخلفه في زاوية معتمة كانت هناك عربة دوغر اليدوية المقلوبة، منسية منذ أحداث الأمس.

مصممة على وضع الأمور في نصابها الصحيح، أن أرد له الصاع صــاعين بطــريقة ما، لشيء لم أكن حتى أعرفه حق المعرفة، ارتديت ملابسي، ونــزلت السلالم الخلفية بسرعة إلى المطبخ.

بيــنما كنت أتجاوز النافذة، لاحظت أنه قد تم اقتطاع شريحة من فطيرة كسترد السيدة موليت. كم كان ذلك غريباً، كما فكّرت، لأن أحــداً من آل دي لوس لم يكن قد فعل ذلك بالتأكيد. إذا كان هناك شــيء نتفق عليه جميعنا – شيء واحد يوحدنا كعائلة – فإنه اشمئزازنا من فطائر كسترد السيدة موليت. كلما كانت تبتعد عن الراوند [عشبة من الفصيلة البطاطية] أو الكشمس [عنب الثعلب] إلى الكسترد الفظيع، كنا نعتذر عادة عن تناولها، ندّعي المرض جميعاً، نرسلها إلى منــزلها مع الفطــيرة، ونــزوّدها بتعليمات مشدّدة لتقديمها هناك، مع تحياتنا، إلى زوجها الطيب آلف.

مكتبة الرمحي أحمد

عـــندما خطوت إلى الخارج، رأيت أن الضوء الفضي للفجر قد حـــوّل الحديقة إلى قطعة أرض جميلة، ظلالها قاتمة مع بقاء أشعة النهار الضعيفة خلف الجدران. كان الندى المتلألئ يغطي كل شيء، ولم أكن لأتفاجـــأ إطلاقاً لو أن وحيد قرن كان قد خرج من خلف أجمّة ورود وحاول وضع رأسه في حجري.

كـــنت أمشي نحو عربة اليد عندما تعثرت صدفة، وسقطت إلى الأمام على يديّ وركبتيّ.

قلت: "دوغر". ونظرت في الوقت نفسه حولي لأتأكد أن أحداً لم يكـــن قد سمعني. كنت ملطخة آنذاك بطفال [طين ورمل وقش] أسود رطب.

قلت مجدداً، بصوت أعلى قليلاً: "دوغر".

اســـتدرت في المكان لأرى ما الذي جعلني أتعثر، ولاحظته على الفـــور، كان شيئاً أبيض يبرز من الخيار. للحظة عابرة كان هناك جزء مـــني يكافح يائساً لأصدّق أنه كان مدمّة صغيرة، وهي مشط زراعي صغير بأشواك معقوفة بيضاء.

لكـــن المنطق عاد، وأقرّ عقلي أنها كانت يداً، يداً متصلة بذراع، ذراع خرجت خلسة من الأرض المزروعة بالخيار.

وهـــناك، في نهايتها، كان يوجد وجه منحته الأوراق الداكنة لون خـــيار أخـــضر مشبع بالندى. وجه كان يبدو لكل العالم مثل "الرجل الأخضر" في أسطورة الغابة.

مدفوعة بإرادة أقوى مني، وجدت نفسي أرتكز أكثر فأكثر على يـــديّ وركبتيّ إلى جانب ذلك الشبح، توقيراً من ناحية، ولإلقاء نظرة عن كثب من ناحية أخرى.

عندما كدت أصبح أنفاً لأنف مع ذلك الشيء، بدأ يفتح عينيه.

مكتبة الرمحي أحمد

كنت مذعورة للغاية و لم أستطع تحريك عضلة في جسمي.

شهق الجسد بين الخيار بأنفاس متقطعة... ثم، خرج زبد من أنفه، وأطلـــق زفيراً بكلمة واحدة، ببطء وحزن نوعاً ما، مباشرة في وجهي: قال: "فالي".

تغضنّ أنفي بشكل لاإرادي عندما شممت نفحة من رائحة غريبة، رائحة كان اسمها، للحظة، على طرف لساني.

نظرت العينان الزرقاوان، مثل طيور في نقش آنية خزفية، إلى عينيّ كمـــا لـــو أنهما تحدّقان إلى ماضٍ غابر، كما لو أن هناك اعترافاً ما في أعماقهما.

ثم انطفأتا.

أتمّنى لو كان بمقدوري القول إن قلبـــي قد انفطر، لكنه لم يكن كـــذلك. أتمـــنى لـــو كـــان بمقدوري القول إن فطرتي كانت تدفعني للهروب، لكن ذلك لم يكن صحيحاً. بدلاً من ذلك، راقبت ما يجري بدهشة، واستمتعت بكل تفصيل، بالأصابع التي ترتعش، اللون المعدنِي البرونـــزي الذي يكاد المرء لا يميّزه والذي ظهر على الجلد، كما لو أن الموت، أمام عينيّ، كان يتنفس منه.

وبعدها ران صمت مطبق.

أتمنى لو كان بمقدوري القول إنني شعرت بالخوف، لكنني لم أكن كذلك. على العكس تماماً. كان ذلك، إلى حدٍّ ما، الحدث الأكثر إثارة للاهتمام في حياتي كلها.

مكتبة الرمحي أحمد

ثلاثة

أسرعت بالصعود على السلالم الغربية. كانت أول فكرة خطرت ببالي أن أوقظ والدي، لكن شيئاً - مغنطيساً كبيراً خفياً - منعني من ذلك. كانت دافني وفيلي عديمتي الفائدة في حالات الطوارئ، ولم يكن من المفيد أن أناديهما. بسرعة وهدوء قدر المستطاع، ركضت إلى خلف المنزل، إلى الغرفة الصغيرة فوق سلالم المطبخ، وطرقت على الباب برفق.

همست: "دوغر، أنا فلافيا".

لم يكن هناك صوت في الداخل، وكرّرت الطرق.

بعد نحو دهرين ونصف، سمعت خفّ دوغر بينما كان يمشي متثاقلاً على الأرضية. صدر عن القفل *طقطقة* ثقيلة عندما تم سحب الرتاج إلى الخلف وفُتح الباب بحذر بضع بوصات. لاحظت أن وجهه كان منهكاً في الفجر، كما لو أنه لم ينم.

قلت: "هناك جثة ميت في الحديقة. أظن أنه من الأفضل أن تأتي معي".

ونقلت ثقل جسدي من قدم إلى أخرى وقضمت أظفاري، رمقني دوغر بنظرة لا يمكن وصفها سوى أنها مؤنّبة، ثم اختفى في ظلام غرفته ليرتدي ملابسه. بعد خمس دقائق كنا نقف معاً على أرض الحديقة.

كان واضحاً أن جثث الأموات لم تكن غريبة على دوغر. كما لو أنه كان يفعل ذلك طيلة حياته، جثا على ركبتيه، وتحسس بالسبابة

مكتبة الرمحي أحمد

والوســطى وجــود نبض على الزاوية الخلفية لعظم الفك. من خلال نظرته الخالية من أي تعبير عرفت أنه لم يكن هناك نبض.

نهض ببطء على قدميه، نفض يديه، كما لو أنهما كانتا قد تلوثتا بطريقة ما.

قال: "سأخبر العقيد".

سألت: "ألا يجب أن نخبر الشرطة؟".

مرّر دوغر أصابعه الطويلة فوق ذقنه غير الحليقة، كما لو أنه كان يفكّــر ملياً في سؤال له عواقب تهز الأرض. كانت هناك قيود صارمة على استخدام الهاتف في بكشو.

قال أخيراً: "نعم، أظن أننا يجب أن نفعل ذلك".

مشينا معاً، ببطء شديد، إلى المنــزل.

رفــع دوغــر سمّاعة الهاتف، ووضعها على أذنه، لكنني رأيت أنه كان يضغط إصبعه بإحكام على المبدّل. فتح وأغلق فمه عدّة مرات، ثم شــحب لون وجهه. بدأت ذراعه تهتز، وظننت للحظة أنه كان على وشك أن يلقي ذلك الشيء من يده. نظر إلي بيأس.

قلت وأنا آخذ سماعة الهاتف من يده: "ناولني إياها. سأفعل ذلك بنفسي".

قلت عبر الهاتف: "بيشوب لاسي اثنان اثنان واحد". وفكّرت في أثناء الانتظار أن شارلوك كان سيبتسم من المصادفة.

قال صوت رسمي على الطرف الآخر من الخط: "الشرطة".

قلــت: "الــشرطي ليــنت؟ أنــا فلافــيا دي لوس أتكلم من بكشو".

لم يسبق لي أن فعلت ذلك من قبل، وكان عليّ الاعتماد على ما كنت قد سمعته عبر المذياع ورأيته في السينما.

مكتبة الربيعي أحمد

قلت: "أود الإبلاغ عن حالة وفاة. ربما يمكنك إرسال مفتش؟".

قال: "هل تريدين سيارة إسعاف يا آنسة فلافيا؟ لا نستدعي عادة مفتشاً إلا إذا كانت الظروف مريبة. انتظري حتى أعثر على قلم رصاص...".

توقف عن الكلام بشكل يدفع للجنون، وأصغيت السمع بينما كان يبحث ضمن قرطاسيته قبل أن يتابع:

"حسناً، الآن، زوّديني باسم الفقيد، ببطء، وباللقب أولاً".

قلت: "لا أعرف اسمه. إنه غريب".

كانت تلك هي الحقيقة، لم أكن أعرف اسمه. لكنني كنت أعرف، حق المعرفة، أن الجثة في الحديقة - الجثة ذات الشعر الأحمر، الجثة بالبذلة الرمادية - كانت للرجل الذي رأيته من خلال ثقب مفتاح باب غرفة المكتب. الرجل الذي كان والدي قد...

لكن لم يكن بمقدوري إبلاغهم بذلك.

كرّرت: "لا أعرف اسمه. لم أرَه من قبل أبداً في حياتي".

كنت قد تجاوزت الخط.

وصلت السيدة موليت والشرطة في اللحظة نفسها، هي مشياً على القدمين من القرية وهم بسيارة فوكسهول زرقاء. بينما كانت سرعتها تتباطأ لتقف على الحصى، فُتح بابها الأمامي مُطلقاً صريراً وخرج منها رجل إلى الدرب.

قال، كما لو أن لفظ اسمي بصوت عالٍ يجعلني أخضع لسلطانه: "آنسة دي لوس، هل يمكنني مناداتك فلافياً؟".

أومأت موافقة.

"أنا المفتش هيوت. هل والدك في المنزل؟".

مكتبة الربيعي أحمد

كان المفتش رجلاً وسيماً بهي الطلة، شعره أجعد، عيناه رماديتين، يقف مثل كلب بولدغ، وذكّرني بدوغلاس بادر، طيار سبتفاير البارع، الـذي كـنت قد رأيت صوره في نسخ قديمة من مجلة *الحرب بالصور* المكدّسة فوق بعضها كيفما اتفق في غرفة الرسم.

قلـت: "نعـم، لكنه متوعك". كانت تلك كلمة استعرتها من أوفيليا. "سأدلّك على الجثة بنفسي".

فغرت السيدة موليت فمها، وجحظت عيناها دهشة. "آه، يا الله! أستميحك عذراً يا آنسة فلافيا، لكن، آه، يا الله!".

لـو أنهـا كانت ترتدي مئزراً، لرمت به من فوق رأسها وولت الأدبار، لكنها لم تكن ترتديه. بدلاً من ذلك، دخلت بسرعة عبر الباب المفتوح.

كان رجلان يرتديان بذلتين زرقاوين، بقيا جالسين، كما لو أنهما ينتظران تعليمات، على المقعد الخلفي للسيارة، قد بدأا آنذاك بالتعريف عن نفسيهما.

قال المفتش هيوت: "الرقيب المحقق ولمار، والرقيب المحقق غريفز". كـان الـرقيب ولمار ضخماً عريض المنكبين، أنفه مهشّماً مثل ملاكم محتـرف؛ بينما الرقيبِ غريفز ضئيل الجسم مثل عصفور صغير، أشقر الشعر، له غمّازتان، وقد ابتسم لي عندما صافحني.

قال المفتش هيوت: "والآن، إذا سمحت طبعاً".

أنـزل الـرقيبان المحققـان أدواتهما من صندوق الفوكسهول، وقدتهما بموكب مهيب عبر المنـزل إلى الحديقة.

بعد أن حدّدت مكان الجثة، راقبت بافتتان الرقيب ولمار يُخرج آلـة تصوير من علبتها ويضعها على مسند خشبـي ثلاثي القوائم، وأجـرت أصابعه البدينة كالسجق تعديلات طفيفة بشكل مدهش

مكتبة الربيعي أحمد

علــى أدوات التحكم الفضية الصغيرة. بينما كان يلتقط عدّة صور للحديقة، ويولي اهتماماً خاصاً بقطعة الأرض المزروعة بالخيار، كان الرقيب غريفز يفتح حقيبة جلدية بالية فيها قوارير مرتبة بأناقة صفاً بعــد آخــر، والتي لمحت فيها رزمة من مغلّفات مقاومة لنفاذ الهواء والدهن.

تقــدمت إلى الأمام بلهفة، يكاد لعابــي يسيل، لإلقاء نظرة عن كثب.

قــال المفتش هيوت، وهو يتقدم بحذر شديد نحو الخيار: "أتساءل يا فلافيا إن كان بمقدورك الطلب من أحدهم أن يُعدّ لنا الشاي؟".

لا بد أنه شاهد النظرة على وجهي.

"لقد بدأنا عملنا مبكراً هذا الصباح. هل تظنين أن بمقدورك جعل أحدهم يحضّر لنا شيئاً نأكله؟".

هكــذا كــان الأمر. في الولادة، كما في الوفاة. دون "قبّلني - بسرعة - وناولني - المربّى"، كان مطلوباً من الأنثى الوحيدة الموجودة هناك أن تهرول مبتعدة وتغلي الماء. تحضير شيء ما، بالفعل! ماذا كان يظنني، إحدى راعيات البقر؟

قلــت بــبرود، علــى ما آمل: "سأرى ما يمكن تحضيره أيها المفتش".

قــال المفتش هيوت: "شكراً لك". ثم، بينما كنت أتجه نحو باب المطبخ، نادى بصوتٍ عالٍ: "آه، فلافيا...".

استدرت بترقب.

"ســندخل إلى المنــزل لتناول الطعام. لا حاجة إلى خروجك إلى هنا مجدداً".

الأعصاب! الأعصاب اللعينة!

مكتبة الربيعي أحمد

كانت أوفيليا ودافني تجلسان آنذاك إلى طاولة الفطور. كانت السيدة موليت قد سرّبت الخبر السيئ، وكان هناك متسع من الوقت لهما لترتبا نفسيهما وتتظاهرا بعدم الاهتمام.

لم تكن شفتا أوفيليا قد تأثرتا بعد بالمادة الصغيرة التي أعدتها، ووضعت ملاحظة ذهنية لتسجيل وقت ما سأشاهده والنتائج لاحقاً.

قلت لهما: "وجدت جثة ميت في قطعة الأرض المزروعة بالخيار".

قالت أوفيليا: "هذا من شيمك". وتابعت تنظيم حاجبيها.

كانت دافني قد انتهت من *قلعة أوترانتو* وتقرأ آنذاك *نيكولاس نيكلبي*. لكنني لاحظت أنها كانت تعض شفتها السفلى في أثناء القراءة؛ وهي علامة مؤكدة على شرود الذهن.

أطبق صمت أوبرالي.

سألت أوفيليا أخيراً: "هل كانت هناك دماء كثيرة؟".

قلت: "لا. ولا حتى نقطة".

"لمن كانت تلك الجثة؟".

قلت، مرتاحة لانتهاز فرصة إخفاء الحقيقة: "لا أعرف".

أعلنت دافني بصوت جهوري مثل مذيع في هيئة الإذاعة البريطانية، بعد أن أبعدت نفسها عن ديكنز، وتركت إصبعاً على الكتاب لتعرف إلى أين وصلت: "موت غريب مجهول تماماً".

سألت: "كيف عرفت أنه غريب؟".

قالت دافني: "أمر بسيط. إنه ليس أنت، أنا، أو فيلي. السيدة موليت في المطبخ، دوغر في الحديقة مع الشرطة، وكان والدي في الأعلى قبل بضع دقائق فقط يستمتع بحمّامه".

كنت على وشك أن أقول لها إنها كانت قد سمعتني أنا في حوض الحمام، لكنني قررت عدم فعل ذلك؛ لأن أي ذكر للحمام كانت

مكتبة الرمحي أحمد

ستؤدي من دون أدنى شك إلى ظهور تعليقات ساخرة بشأن نظافتي العامة. لكن بعد أحداث الصباح في الحديقة، كنت قد شعرت بحاجة ملحة إلى الاستحمام.

قلت: "ربما تسمم، أعني الغريب".

قالت فيلي وهي ترفع شعرها بحركة مفاجئة: "إنه سم دائماً، أليس كذلك؟ على الأقل في تلك الروايات البوليسية الصفراء الرهيبة. في هذه الحال، ربما اقترف غلطة قاتلة بتناول طعام السيدة موليت".

بينما كانت تدفع بقايا البيض المسلوق اللزجة بعيداً عنها، ومض شيء في ذهني مثل جمرة خامدة اندفعت من إناء حديدي نحو الموقد، لكن قبل أن أتمكن من معرفة ماهيته، قوطعت سلسلة أفكاري.

قالت دافني، وهي تقرأ بصوتٍ عالٍ: "أصغيا إلى هذا. فاني سكويرز تكتب رسالة:

امتلأ وجه والدي بكدمات زرقاء وخضراء على حدٍّ سواء، كما لو أن شكلين مختلفين قد امتزجا فيه... فزعنا لرؤيته يُحمل إلى الأسفل إلى المطبخ حيث يستلقي ممدداً الآن...

بعد أن انتهى ابن أخيك الذي أوصيت به كمدرس من فعل ذلك لوالدي، وقفز فوق جثته بقدميه، وأمعن في ذلك أيضاً، وهو شيء لن أسمح لقلمي أن يصفه، هاجم والدتي بعنف مروّع، ألقى بها أرضاً، ودفع مشطها للخلف عدة بوصات على رأسها. لو أنه دفع قليلاً بعد، لكان المشط قد اخترق جمجمتها. لدينا تقرير طبي يقول إنه لو اخترقها فعلاً، لكانت الأسنان قد أثّرت في الدماغ".

الآن استمعا إلى الفقرة التالية:

مكتبة الربيعي أحمد

"أصـــبحت وشقيقي بعدها ضحيتين لغضبه وقد عانينا كثيراً منذ ذلـــك الوقت وهو ما دفعنا للاعتقاد أننا كنا قد تعرضنا لإصابة داخلية مـــا، خاصـــة أنه لم تكن هناك علامات عنف خارجية ظاهرة للعيان. أصرخ بصوت عالٍ طيلة الوقت الذي أكتب خلاله...".

كان الأمر يبدو لي حالة تقليدية لتسمم بالسيانيد، لكنني لم أشعر أنني أود مشاركة وجهة نظري مع هاتين الفظّتين.

كـــرّرت دافـــني: "أصرخ بصوتٍ عالٍ طيلة الوقت الذي أكتب خلاله. تخيلا!".

قلت: "أعرف الشعور". دفعت طبقي بعيداً، تركت فطوري على حاله، وصعدت ببطء السلالم الشرقية إلى مختبري.

كلما كنت أشعر بانـــزعاج، كنت ألجأ إلى ملاذي الآمن. هنا، بين القوارير والأباريق، كنت أسمح لنفسي بالتقوقع ضمن ما كنت أظن أنـــه "روح الكيمـــياء". هـــنا، أحياناً، كنت أدرس، خطوة بخطوة، اكتشافات الكيميائيين العظام. أو كنت أقوم بإنـــزال مجلد من خزائن مكتـــبة تـــار دي لوس الثمينة، مثل الترجمة الإنكليزية لكتاب أنطوان لافوازيّيه *عناصر الكيمياء*، المطبوع سنة 1790، والذي كانت صفحاته، حـــتى بعد مئة وستين عاماً، لا تزال تبدو جديدة مثل ورق جزّار. كم تهللت للأسماء العتيقة التي تنتظر فقط أن يتم قطفها من صفحاته: زبدة الأنتيمون، أزهار الزرنيخ...

كـــان لافوازيـــيّه يدعوها "سموماً مصنّفة". لكنني سُعدت بسرد أسمائها مثل حيوان في منتجع مياه معدنية.

قلـــت بـــصوتٍ عـــالٍ وأنا أستسيغ الكلمتين في فمي: "الأصفر الملكي!". أستمتع بهما بالرغم من طبيعتهما السامة.

مكتبة الربيعي أحمد

"كريستال فينوس! مشروبات بويل المعتّقة! زيت النمل!".

لكـــن الأمـــر لم يكـــن يجدي نفعاً هذه المرة، وكان ذهني يعود باســـتمرار إلى والـــدي، وفكّرت مراراً وتكراراً في ما كنت قد رأيته وسمعـــته. من كان تويننغ ذاك - "كوبّا العجوز" - الرجل الذي ادّعى والدي أنهما قد قتلاه؟ ولماذا لم يأتِ والدي لتناول الفطور؟ جعلني ذلك أقلـــق حقـــاً. كان والدي يصر دائماً على أن الفطور "وليمة الجسد"، ووفقـــاً لما كنت أعرفه لم يكن هناك شيء على وجه الأرض يمكن أن يجعله يفوّته.

ثم، أيضاً، فكّرت في المقطع من رواية ديكنـــز الذي قرأته دافني لنا: كدمات زرقاء وخضراء. هل تقاتل والدي مع الغريب وأُصيب بجروح لا يمكـــن إخفاؤها عندما يجلس إلى الطاولة؟ أم أنه عانى من تلك الإصابات الداخلـــية الـــتي وصفتها فاني سكويرز: إصابات لا تترك علامات عنف خارجية. ربما كان ذلك ما حدث حقاً للرجل أحمر الشعر. يجب أن يفسر ذلك لماذا لم أرَ أي دماء. هل يمكن أن يكون والدي قاتلاً؟ مجدداً؟

كان رأسي يدور. لم أكن أستطيع التفكير في شيء لتهدئته أفضل من معجم أوكسفورد للّغة الإنكليزية. بحثت في المجلد عن الأضداد. ما الكلمة التي كان الغريب قد نطقها في وجهي؟ *"فالي!"* . كانت تلك هي الكلمة.

قلّـــبت الصفحات: صعلوك... متشرد... عبثاً... ثم فالي: وتعني وداعاً، مع السلامة، إلى اللقاء. كانت تُلفظ "فال - يه"، وكانت صيغة الأمر للمخاطب من الفعل اللاتيني *فاليري*، لأكون دقيقة.

كان أمراً غريباً أن يقول رجل يحتضر ذلك لشخص لا يعرفه.

قاطعت جلبة مفاجئة من حجرة الطعام أفكاري. كان شخص ما قـــد قـــرع جرس الغداء القديم والذي أصدر صوتاً قوياً. لم يكن ذلك

مكتبة الرمحي أحمد

القرص الضخم، الذي كان يبدو من بقايا افتتاحية أحد أفلام جي آرثر رانـــك، قـــد رنّ منذ زمن طويل، مما قد يفسّر سبب فزعي من صوته الذي يصم الآذان.

خرجت مسرعة من المختبر ونـــزلت السلالم لأجد رجلاً ضخماً يقف عند الجرس، لا يزال ممسكاً بالمطرقة.

قـــال: "محقق جنائي". واعتبرت أنه كان يشير إلى نفسه. بالرغم مـــن أنه لم يزعج نفسه بالتعريف عن اسمه، إلا أنني عرفت فوراً أنه د. داربـــي، أحد الشريكين في العيادة الوحيدة في منطقة لاسي.

كـــان د. داربـــــي صورة طبق الأصل عن جون بول؛ له وجه أحمـــر، ذقن عريضة، وبطن يبرز إلى الخارج مثل شراع تنفخه الريح. كان يرتدي بذلة بنية مع صدرية صفراء مخططة بمربعات، ويحمل حقيبة طبيب تقليدية سوداء. ربما كان يتذكرني لأنني كنت الفتاة التي خاطت يـــده حـــين جرحها قبل سنة بعد الحادث، مع شظية حادة من أواني المختـــبر الـــزجاجية، لكن لم تصدر عنه أي إشارة بشأن ذلك ووقف هناك مترقباً مثل كلب صيد يتتبع أثراً.

لم يكـــن والدي قد ظهر بعد، ولا دوغر. كنت أعرف أن فيلي ودافـــني لـــن تتنازلا أبداً وتستجيبا لرنين جرس "بافلوفي [الفسيولوجي الروســـي إيفان بافلوف] للغاية" - كما قالت فيلي - وكانت السيدة موليت تبقى دائماً في مطبخها.

قلت له: "الشرطة في الحديقة. سأدلّك على الطريق".

عـــندما خرجنا حيث أشعة الشمس، أشاح المفتش هيوت بصره عن رباط حذاء أسود يبرز بشكل بغيض من قطعة الأرض المزروعة بالخيار.

قـــال: "صـــباح الخير يا فريد. ظننت أن من الأفضل أن تأتي وتلقي نظرة".

مكتبة الربيعي أحمد

قال د. داربــي: "مم". فتح حقيبته وبحث داخلها لحظة قبل أن يــسحب كيساً ورقياً أبيض. مدّ إصبعين داخله، وأخرج قطعة نعناع واحدة، دفعها داخل فمه ومصّها بصوتٍ مسموع.

بعد لحظة كان قد تقدم بجهد نحو البقعة الخضراء وجثا إلى جانب الجثة.

سأل وهو يلوك قليلاً قطعة النعناع: "هل هو شخص نعرفه؟".

قـــال المفتش هيوت: "لا يبدو كذلك. جيوب فارغة... لا توجد هوية... هناك سبب للاعتقاد، بالرغم من ذلك، أنه قد جاء مؤخراً من النرويج".

جاء مؤخراً من النرويج؟! كان ذلك بالتأكيد استنتاجاً يستحق أن يخـــرج به هولمز العظيم بنفسه، وكنت قد سمعته بأذنيّ! كنت مستعدة تقريباً لأغفر للمفتش فظاظته في وقت مبكر. تقريباً... لكن ليس تماماً.

"لقد أرسلنا نسأل في الموانئ وغيرها".

قـــال د. داربـــــي وهو يرفع ويغلق حقيبته: "نرويجيون لعينون! يأتون إلى هنا مثل طيور تندفع إلى منارة، حيث يموتون ويتركوننا ندفن جثثهم. هذا ليس عدلاً، أليس كذلك؟".

سأل المفتش هيوت: "ماذا يجب أن أسجل عن وقت الوفاة؟".

"مـــن الـــصعب معرفة ذلك، كما هي الحال دائماً. حسناً، ليس دائماً، لكن غالباً".

"خمّن؟".

"لا يمكـــنني تحديـــد ذلك من زرقة الجلد. يتطلب الأمر بعض الوقت لتحديد الموعد بدقة، كما تعرف. يمكن أن أقول ثماني إلى اثنتي عـــشرة ساعة. سأكون قادراً على إخبارك بالمزيد بعد أن نضع صديقنا على الطاولة".

مكتبة الربيعي أحمد

"وذلك سيجعلها...؟".

دفع د. داربـــي طرف ردنه إلى الخلف ونظر إلى ساعته.

"حـــسناً، دعني أرى... إنها الثامنة واثنتان وعشرون دقيقة الآن، لهذا لا يمكن أن تكون قبل نحو الساعة نفسها من الليلة الماضية أو بعد، لأقل، منتصف الليل".

منتصف الليل! لا بد أنني شهقت بصوت مسموع، لأن كلاً من المفتش هيوت ود. داربـــي استدارا لينظرا إلي. كيف كان بمقدوري أن أقـــول لهما، إنه منذ بضع ساعات فقط، كان الغريب من النرويج قد لفظ أنفاسه الأخيرة في وجهي؟

كـــان الحـــل سهلاً. ولّيت الأدبار من أمامهما. وجدت دوغر يشذّب الورود في مشتل الأزهار تحت نافذة المختبر. كان الهواء مفعماً برائحتها: الرائحة الزكية لصناديق الشاي من الشرق.

سألت: "ألم ينـــزل والدي بعد يا دوغر".

قال كما لو أن الجليد لا يذوب في فمه، كما لو أن لقاءنا السري غير المتوقع في الليل لم يحدث إطلاقاً: "الليدي هيلنغدون [وهي نوع من الـــورود] على خير ما يرام هذه السنة يا آنسة فلافيا". حسناً، قلت في نفسي إنني سأجاريه في لعبته.

قلت: "على خير ما يرام. ووالدي؟".

"لا أظن أنه نام جيداً. أتوقع أنه يأخذ قسطاً من الراحة".

قسطاً من الراحة؟ كيف يمكنه العودة إلى السرير بينما المكان يعج برجال القانون؟

"كـــيف تقـــبّل الأمـــر عـــندما أخبرته عن - أنت تعرف - في الحديقة؟".

استدار دوغر ونظر إلى عينيّ مباشرة. "لم أخبره يا آنسة".

مكتبة الربيعي أحمد

مـــدّ يده وبحركة مفاجئة من مقصّ التقليم، قطع وردة. سقطت بصوت مسموع على الأرض، حيث استقرت ووجهها الأصفر المتجعد يحدق إلى الأعلى علينا من الظلال.

كنّا نحدّق إلى الوردة المقطوعة نفكر في الخطوة التالية، عندما جاء المفتش هيوت من خلف زاوية المنـــزل.

قال: "فلافيا، أود أن أتكلم معك".

أضاف: "في الداخل".

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

مكتبة الرمحي أحمد

أربعة

سأل المفتش هيوت: "والشخص في الخارج الذي كنتِ تتكلمين معه؟".

قلت: "دوغر".

"الاسم الأول".

قلت، من دون أن أستطيع كبح جماح نفسي: "فلافيا".

كنا نجلس على إحدى أرائك ريجنسي في غرفة الورود. أغلق المفتش قلمه الجاف من نوع بيرو واستدار من خصره ليواجهني.

"إذا لم تعرفي بعد يا آنسة دي لوس – وأشك في ذلك – فإن هذا تحقيق في جريمة قتل. لن أطيق أي عبث. لقد مات رجل ومن واجبي أن أكتشف السبب، الوقت، الطريقة والفاعل. وعندما أقوم بذلك، سيكون من واجبي أيضاً شرح ذلك للتاج. ذلك يعني الملك جورج السادس، والملك جورج السادس رجل لا يحب العبث. هل هذا واضح؟".

قلت: "نعم يا سيدي. اسمه الأول هو آرثر؛ آرثر دوغر".

"وهو البستاني هنا في بكشو".

"إنه كذلك الآن، نعم".

كان المفتش قد فتح دفتر ملاحظات أسود ويسجل ملاحظات بيد مجهرية.

مكتبة الربيعي أحمد

"ألم يكن كذلك دائماً؟".

قلت: "إنه صاحب سبع صنائع. كان يعمل سائقاً لدينا حتى فقد أعصابه...".

بالـــرغم مـــن أنني أشحت بوجهي بعيداً، إلا أنني شعرت بعينه الشرطية الثاقبة علي.

قلت: "الحرب. كان أسير حرب. شعر والدي أنه... حاول أن –".

قـــال المفتش هيوت، وقد أصبح صوته فجأة رقيقاً: "أفهم ذلك. دوغر أسعد حالاً في الحديقة".

"إنه أسعد حالاً في الحديقة".

قـــال: "أنـــت فـــتاة مميزة. بشكل عام، يجب أن أنتظر حتى يكـــون أحـــد والـــديك موجوداً لأتكلم معك، لكن بما أن والدك متوعك...".

متوعك؟ آه، بالطبع! كدت أنسى كذبتي الصغيرة.

بالـــرغم من نظرة الارتباك الخاطفة التي بدت علي، إلا أن المفتش تابع كلامه: "ذكرت أن دوغر عمل كسائق. هل لا يزال والدك يحتفظ بسيارة؟".

كانـــت لديـــه واحدة في الواقع: فانتوم2 قديمة من رولز رويس، والـــتي كانت مركونة آنذاك في المرأب. كانت في واقع الأمر لهاريت، ولم يكن أحد قد قادها منذ اليوم الذي وصل فيه نبأ موتها إلى بكشو. علاوة على ذلك، بالرغم من أن والدي لم يكن يجيد القيادة بنفسه، إلا أنه لم يكن يسمح لأي شخص آخر أن يمسّ السيارة.

نتـــيجة لـــذلك، كانت فئران الحقل قد خرّبت منذ وقت طويل هـــيكل هـــذه الـــسيارة القديمة الرائعة. غطاء محركها الأسود الطويل ومـــشعّها الكـــبير من نوع بالاديان المطلي بالنيكل والمحفور عليه حرفا

مكتبة الرمحي أحمد

أر – أس، والـــتي كانـــت قد وجدت طريقها إليها عبر ألواح الأرضية الخشبية، واتخذت من صندوق القفّازات المصنوع من خشب الماهوغاني مـــأوى لهـــا. بالرغم من حالتها المزرية، إلا أنه كان يُشار إليها أحياناً "رويس"، كما يدعو مجتمع النخبة تلك المركبات.

كانـــت فيلـــي قد قالت مرة عندما نسيت نفسي للحظة واحدة أمامها: "وحده الفلاح سيدعوها رولز".

كلما كنت أريد الاختلاء بنفسي في مكان لا يزعجني أحد فيه، كـــنت أصعد إلى رولز هاريت العاتمة التي يغطيها الغبار، حيث كنت أجلس لساعات في ذلك المكان الحار الذي يشبه حاضنة الخدّج، محاطة ببقايا قطع القماش الفاخرة والجلد المشقوق والممزق.

مع سؤال المفتش غير المتوقع، عاد ذهني إلى يوم عاصف مظلم من الخريف الماضي، يوم شهد أمطاراً غزيرة وريحاً عاتية. لأن خطر سقوط أغصان أشجار كان قد جعل المشي في الغابة خلف بكشو أمراً ينطوي علـــى مجازفـــة كبيرة، كنت قد خرجت خلسة من المنـــزل وشققت طريقـــي في العاصفة إلى المرأب لأفكّر بهدوء هناك. في الداخل، كانت فانـــتوم تقـــف باهـــتة في الظلال بينما كانت الريح تعصف وتقصف وتضرب النوافذ مثل قطيع من النعام الجائعة. وضعت يدي على مقبض بـــاب الـــسيارة ثم أدركت أن هناك أحداً بداخلها. كدت أقفز فزعاً، لكنني أدركت بعدها أنه كان والدي. كان يجلس هناك والدموع تسيل على وجهه، غافلاً عن العاصفة.

كنت قد وقفت ساكنة من دون حراك لعدّة دقائق، خائفة من أن أتحـــرك، وأتـــنفس بصعوبة بالغة. لكن عندما مدّ والدي يده ببطء نحو مقـــبض الـــباب، اضطررت إلى الجثو بسرعة على يديّ وركبتيّ مثل لاعب جمباز والتدحرج تحت السيارة. رأيت بطرف عيني أحد أحذيته

مكتبة الربيعي أحمد

الويلنغــتون [جــزمة طــويلة الساق] اللامعة جداً ينــزل من جانب السيارة، وبينما كان يمشي ببطء مبتعداً، سمعت شيئاً مثل نشيج متقطع يفلـــت منه. لوقت طويل استلقيت هناك أحدّق إلى الأعلى على أرضية رولز رويس هاريت.

قلت: "نعم، هناك فانتوم قديمة في المرأب".

"ووالدك لا يجيد القيادة".

"لا".

"فهمت".

وضـــع المفتش قلمه الجاف من نوع بيرو ودفتر ملاحظاته جانباً بحرص شديد كما لو أنهما مصنوعان من زجاج البندقية.

قال (ولاحظت أنني لم أعد "الآنسة دي لوس"): "فلافيا، سأطرح عليك سؤالاً بالغ الأهمية. الطريقة التي ستجيبين بها ستكون حاسمة، هل تفهمين؟".

أومأت.

"أعـــرف أنك أنتِ من أبلغ عن هذه... الحادثة... لكن من هو الشخص الذي عثر على الجثة أولاً؟".

اضطربت الأفكار في ذهني. هل قول الحقيقة سيجرّم والدي؟ هــل تعــرف الشرطة سلفاً أنني قد رافقت دوغر إلى قطعة الأرض المــزروعة بالخيار؟ كان واضحاً أن الجواب هو لا، لأن المفتش قد عرف للتو هوية دوغر، لهذا كان يبدو منطقياً الافتراض أنه لم يكن قد استجوبه بعد. لكن عندما يفعلون، ماذا سيقول لهم؟ من منا يجب أن تــتم حمايته: والدي أم أنا؟ هل كان هناك اختبار جديد يمكنهم مــن خلالــه معرفة أن الضحية كان لا يزال على قيد الحياة عندما عثرت عليه؟

مكتبة الرمحي أحمد

قلت من دون تفكير: "أنا. أنا عثرت على الجثة". شعرت أنني مثل روبن كوك.

قال المفتش هيوت: "كما ظننت تماماً".

وأطبق صمت ثقيل، لم يكسره سوى وصول الرقيب ولمار، الذي كان يستخدم جسده الضخم ليدفع والدي إلى الغرفة.

قال: "وجدناه في المرأب يا سيدي داخل سيارة قديمة".

سأل والدي: "من *أنت* يا سيدي؟". كان يتقد غضباً وللحظة رأيت لمحة عن الرجل الذي لا بد أنه كان عليه من قبل. "من أنت، وماذا تفعل في منزلي؟".

قال المفتش، وهو ينهض ليقف على قدميه: "أنا المفتش هيوت يا سيدي. شكراً لك أيها الرقيب ولمار".

تراجع الرقيب خطوتين إلى الوراء حتى تجاوز إطار الباب، ثم اختفى.

قال والدي: "حسناً. هل هناك مشكلة أيها المفتش؟".

"أخشى ذلك يا سيدي. تم العثور على جثة في حديقتك".

"ماذا تعني بجثة؟ جثة ميت؟".

أومأ المفتش هيوت، وقال: "نعم يا سيدي".

"لمن؟ أعني الجثة".

أدركت في تلك اللحظة أن والدي لم يكن مصاباً بكدمات، خدوش، جروح، أو سحجات... على الأقل ما كان ظاهراً منها. لاحظت أيضاً أن وجهه قد بدأ يشحب، ما عدا أذنيه، اللتين بدأتا تصبحان بلون مادة لدنة وردية.

ولاحظت أن المفتش كان قد رأى ذلك أيضاً. لم يجب عن سؤال والدي في الحال، وإنما ترك ذلك معلقاً في الهواء.

مكتبة الربيعي أحمد

استدار والدي ومشى بخط مقوّس طويل إلى خزانة الشراب، مسّ بأطراف أنامله سطح كل قطعة أثاث مرّ بها. مزج لنفسه شراباً، وتجرّعه كله دفعة واحدة بسرعة أشارت إلى أنه كان أكثر اعتياداً على تلك الأمور مما كنت أتخيل.

"لم نحدد هوية الشخص بعد، أيها العقيد دي لوس. في الواقع، كنا نأمل في أن تتمكن من مساعدتنا على ذلك".

عندما سمع ذلك، أضحى وجه والدي أكثر شحوباً، إذا كان ذلك ممكناً، مما كان عليه من قبل، وأذناه أكثر احمراراً.

قال بصوتٍ يكاد يكون غير مسموع: "آسف أيها المفتش. من فضلك لا تطلب مني أن... لا أجيد التعامل مع الموت، إذا كنت تفهم ما أعنيه...".

لا يجيد التعامل مع الموت؟ كان والدي عسكرياً، والعسكر يعيشون مع الموت، يعيشون *من أجل* الموت، يعيشون *على* الموت. بالنسبة إلى جندي محترف، وبشكل غريب، كان الموت حياة. حتى أنا كنت أعرف ذلك.

عرفت مباشرة، أيضاً، أن والدي قد كذب للتو، وفجأة من دون سابق إنذار، في مكان ما داخلي، تحطم شيء صغير. كنت أشعر كما لو أنني كبرت قليلاً وأن شيئاً قديماً قد طقطق.

قال المفتش هيوت: "أفهم ذلك يا سيدي، لكن إن لم تكن هناك وسائل أخرى...".

سحب والدي منديلاً من جيبه ومسح جبينه، ثم عنقه.

قال: "إنها صدمة، كما تعرف. كل هذا...".

أشار بيد ترتعش إلى ما يحيط به، وكما فعل من قبل، أمسك المفتش هيوت بدفتر ملاحظاته، فتح الغلاف، وبدأ يكتب. مشى والدي

مكتبة الربيعي أحمد

ببطء إلى النافذة حيث تظاهر أنه يفكّر ملياً في ما جرى، وهو شيء كان بمقدوري رؤيته بوضوح بذهني؛ البحيرة الاصطناعية، الجزيرة بمبناها الفخم المتداعي، النوافير الجافة الآن، والتي كان قد تم إغلاقها منذ اندلعت الحرب، والتلال في الخلف.

سأل المفتش من دون أي مقدّمات: "هل كنت في المنزل هذا الصباح".

دار والدي على عقبيه: "ماذا؟".

"هل خرجت من المنزل منذ مساء أمس؟".

مرّ وقت طويل قبل أن يتكلم والدي.

قال أخيراً: "نعم، خرجت هذا الصباح إلى المرأب".

كان عليّ أن أكبح ابتسامة كادت تظهر على وجهي. كان شارلوك هولمز قد علّق على شقيقه، مايكروفت، قائلاً إن احتمال العثور عليه خارج نادي ديوجينس يشبه رؤية ترام يسير على خط في الأرياف. مثل مايكروفت، كانت لوالدي سككه الخاصة به التي يسير عليها. ما عدا دار العبادة والرحلة السريعة المعتادة إلى محطة القطارات لحضور معرض طوابع، قلما كان والدي يغادر المنزل.

"متى حدث ذلك أيها العقيد؟".

"عند الساعة الرابعة، ربما، قد يكون أبكر قليلاً".

"بقيت في المرأب نحو -". نظر المفتش هيوت إلى ساعة معصمه قائلاً: "- خمس ساعات ونصف، من الرابعة حتى الآن؟".

قال والدي: "نعم حتى الآن". لم يكن معتاداً أن يقوم أحد باستجوابه، وبالرغم من أن المفتش لم يلاحظ ذلك، إلا أنني شعرت بغضب يتزايد في صوته.

"فهمت. هل تخرج غالباً في ذلك الوقت من اليوم؟".

مكتبة الربيعي أحمد

كان سؤال المفتش يبدو عادياً، كما لو أنه يتبادل معه أطراف الحديث، لكنني كنت أعرف أنه ليس كذلك.

قال والدي: "لا، ليس كثيراً، لا أخرج عادة. ما الذي ترمي إليه؟".

نقر المفتش هيوت على أرنبة أنفه بقلمه الجاف من نوع بيرو، كما لو أنه يحضّر سؤاله التالي للجنة برلمانية. "هل رأيت أحداً آخر في الأرجاء؟".

قال والدي: "لا، بالطبع لا. لم أرَ أي كائن حي". توقف المفتش هيوت عن النقر مدة تكفي لتسجيل ملاحظة. "لا أحد؟".

"لا".

وكما لو أنه كان يعرف ذلك سلفاً، أومأ المفتش بحزن ولطف. بدا خائباً، وتنهد بينما كان يدفع دفتر ملاحظاته في جيب داخلي.

سأل فجأة، كما لو أن الفكرة قد خطرت له آنذاك: "آه، سؤال واحد أخير أيها العقيد، إذا كنت لا تمانع. ماذا كنت تفعل في المرأب؟".

نظر والدي عبر النافذة وتوترت عضلات فكه. ثم استدار ونظر إلى عينيّ المفتش مباشرة.

قال: "لست مستعداً لأقول لك ذلك أيها المفتش".

قال المفتش هيوت: "حسناً إذاً. أظن -".

في تلك اللحظة بالذات فتحت السيدة موليت الباب بقدمها، وتهادت في الغرفة تحمل صينية.

قالت: "لقد أحضرت لكم بعض بسكويت حبوب القمح الرائعة. أحضرت بسكويت حبوب القمح وشاياً وكأساً من الحليب للآنسة فلافيا".

مكتبة الرمحي أحمد

بسكويت حبوب القمح وحليب! كنت أكره بسكويت حبوب القمح الذي تعدّه السيدة موليت كما يكره بولس الإثم، وربما أكثر. أردت الصعود على الطاولة، أحمل سجقاً في طرف شوكة كصولجان، وأصرخ عالياً بصوت لورانس أوليفير: "ألن يخلصنا أحد من طاهية المعجنات اللعينة هذه؟".

لكنني لم أفعل، والتزمت الصمت.

بانحناءة احترام، وضعت السيدة موليت ما تحمله أمام المفتش هيوت، ثم فجأة رأت والدي، الذي كان لا يزال يقف عند النافذة.

"آه، العقيد دي لوس. كنت آمل أن أراك. أردت أن أقول لك إنني تخلصت من ذلك الطائر الميت الذي وجدناه على عتبة الباب أمس".

كانت السيدة موليت قد انتبهت بطريقة ما إلى فكرة أن مثل تلك العبارات لم تكن غريبة فقط، وإنما مجازية أيضاً.

قبل أن يتمكن والدي من تغيير مضمون الحديث، كان المفتش هيوت قد تولى زمام الأمور.

"طائر ميت على عتبة الباب؟ أخبريني عنه يا سيدة موليت؟".

"حسناً يا سيدي، كنت والعقيد والآنسة فلافيا في المطبخ. كنت قد أخرجت للتو فطيرة كسترد شهية من الفرن، ووضعتها لتبرد بجانب النافذة. كان ذلك في الوقت الذي يبدأ فيه ذهني عادة يفكر في العودة إلى آلف في المنزل. آلف زوجي يا سيدي، وهو لا يحب أن أكون خارج المنزل عندما يحين وقت تناول الشاي. يقول إن ذلك يجعل معدته تجيش لأن عملية الهضم لا تحصل في وقتها المحدد. عندما يُصاب بعسر هضم، يغضب كثيراً".

"الوقت يا سيدة موليت؟".

مكتبة الربيعي أحمد

قالت: "كانت قرابة الحادية عشرة، أو بعد ذلك بربع ساعة. آتي أربع ساعات في الصباح، من الثامنة حتى الثانية عشرة، وثلاث ساعات بعد الظهر، من الواحدة حتى الرابعة". كانت مندهشة ويتقطب جبينها عبوساً على والدي، الذي كان منشغلاً بالنظر عبر النافذة و لم يلاحظها. "أبقى عادة إلى ما بعد ذلك الوقت، لكن ما علاقة هذا بذاك".

"والطائر؟".

"كان الطائر على العتبة، ميتاً مثل حمار دوروثي. كان واحداً من طيور الشنقب. الله [جل جلاله] يعلم أنني كنت قد طهوت ما يكفي منها سابقاً لأكون واثقة من ذلك. لقد أرعبتني، فعلاً، رؤيته ملقى هناك على ظهره وريشه يهتز في الريح، كما لو أن جلده كان لا يزال حياً بينما قلبه ميت آنذاك". ذلك ما قلته لآلف. قلت: *آلف، كان ذلك الطائر ملقى هناك كما لو أن جلده لا يزال حياً* -.

قال المفتش هيوت: "لديك عين ثاقبة يا سيدة موليت". وازدهت غروراً مثل حمامة تتوهج حمرة. "هل كان هناك أي شيء آخر؟".

"حسناً، نعم يا سيدي، كان هناك طابع ملتصق بمنقاره الصغير، كما لو أنه كان يحمله في فمه، مثل لقلق يحمل طفلاً في مئزر، إذا كنت تعرف ما أعني، لكن بطريقة أخرى، ليست مثل تلك على الإطلاق".

"طابع يا سيدة موليت؟ أي نوع من الطوابع؟".

"طابع بريدي يا سيدي، لكن ليس من الأنواع التي تراها هذه الأيام. آه، لا، ليست مثلها على الإطلاق. كان ذلك الطابع يحمل صورة الملكة. ليس جلالتها الحالية، باركها الله، وإنما الملكة القديمة... الملكة التي كانت... الملكة فكتوريا. على الأقل كانت صورتها ستظهر عليه لو أن منقار الطائر لم يكن يبرز من المكان الذي كان يجب أن يكون عليه وجهها".

مكتبة الرمحي أحمد

"هل أنتِ واثقة تماماً بشأن الطابع؟".

"أحلـــف وأتمـــنى أن أموت يا سيدي. كانت لدى آلف مجموعة طوابع عندما كان غلاماً، ولا يزال يحتفظ بما تبقّى منها في علبة هنتلي وبالمرز قديمة تحت السرير في حجرة في الطابق الأعلى. لم يعد يُخرجها كمـــا كـــان يفعل عندما كنّا يافعين، يقول إن ذلك يجعله حزيناً. مع ذلك، أعرف "البنس الأسود" [أول طابع بريدي في العالم] عندما أراه، سواء أكان هناك منقار طائر يخترقه أم لا".

قال المفتش هيوت وهو يتناول قطعة من بسكويت حبوب القمح: "شكراً لكِ يا سيدة موليت، لقد كنت مفيدة للغاية".

انحنت السيدة موليت له احتراماً مرة أخرى ومشت نحو الباب.

"قلت لآلف إنه أمر غريب. لا نرى عادة طيور شُنقب في إنكلترا حـــتى أيلـــول. كنت قد قلّبت العديد من طيور الشُنقب على سفود وقدّمتها مشوية على أرغفة خبز محمّصة. لم تكن الآنسة هاريت، رحمها الله، تحب شيئاً أكثر من رغيف -".

سمعـــت تأوهاً خلفي، واستدرت في الوقت المناسب تماماً لأرى والدي يتكوّر على نفسه مثل كرسي مخيم وينهار على الأرض.

يجب أن أقول إن المفتش هيوت كان سريع الاستجابة. خلال لحظـــة كان إلى جانب والدي، يضع أذناً على صدره، يفك ربطة عنقه، ويتفحص بإصبع طويلة ما قد يسد مجرى التنفس. لاحظت أنه لم يكـــن ينام خلال صفوف الإسعاف في جمعية سان يوحنا الخيرية. بعـــد لحظـــة فـــتح النافذة على مصراعيها، ووضع إصبعيه الصغرى والسبابة على شفته السفلى، وأطلق صفيراً سأمضي وقتاً طويلاً قبل أن أتعلمه.

مكتبة الرمحي أحمد

صـــرخ: "د. داربـــــي! إلى هـــنا، من فضلك. بسرعة! أحضر حقيبتك".

بالنسبة إليّ، كنت لا أزال أقف ويدي على فمي عندما دخل د. داربـــــي بخطوات واسعة إلى الغرفة، وجثا بجانب والدي. بعد فحص مبدئي سريع، سحب قارورة زرقاء صغيرة من حقيبته.

قـــال للمفتش هيوت، للسيدة موليت، ولي: "حالة إغماء. ذلك يعني أنه أُصيب بدوار. لا داعٍ للقلق".

أف!

فـــتح سدادة القارورة، وفي اللحظات التي سبقت قيامه بوضعها أمـــام أنـــف والدي، تعرّفت إلى رائحة مألوفة. كانت صديقتي القديمة *كربونات النشادر* (آمون كربون)، أو كما كنت أدعوها عندما نكون معـــاً لوحدنا في المختبر، *أملاح الشم*، أو أحياناً أملاحاً اختصاراً. كـــنت أعـــرف أن جزء "آمون" من اسمها قد جاء من آمونيا، التي دُعـــيت بهذا الاسم لأنه تم اكتشافها أول مرة في مكان ليس ببعيد عن مقـــام آمـــون في مـــصر القديمة، حيث تم العثور عليها في بول جمل. وعرفت أنه في وقت لاحق، في لندن، سجل رجل براءة اختراع لوسيلة يمكـــن من خلالها الحصول على أملاح الشم من روث حيوانات منطقة باتاغونيا.

كيمياء! كيمياء! كم أحبها!

بعد أن وضع د. داربـــي القارورة أمام أنف والدي، أطلق والدي صوتاً مثل ثور في حقل، وارتفع جفناه مثل ستارة نافذة، لكنه لم ينبس ببنت شفة.

قـــال الطبيب، بينما كان والدي، مرتبكاً، يحاول أن يسند نفسه على مرفقه وينظر حوله في أرجاء الغرفة: "ها! عدت بين الأحياء، كما

مكتبة الرمحي أحمد

أرى". بالــرغم من نبرة صوته المرحة، إلا أن د. داربـــي كان يحتضن والـــدي مـــثل طفل ولد حديثاً. "انتظر قليلاً حتى تستعيد قواك. ابقَ مستلقياً على سجادة الأكزمنستر القديمة دقيقة".

وقف المفتش هيوت مستعداً حتى حان الوقت ليساعد والدي في الوقوف على قدميه.

مـــستنداً إلى ذراع دوغـــر - كان قد تم استدعاء دوغر - صعد والدي على السلالم إلى غرفته. لم يكن وجود دافني وفيلي مؤثراً، ليس أكثر، حقيقة، من وجهين شاحبين خلف الدرابزين.

توقفت السيدة موليت، في طريقها مسرعة إلى المطبخ، لتضع يدها على ذراعي تعبيراً عن قلقها.

سألت: "هل كانت الفطيرة شهية يا حبيبتي؟".

كنت قد نسيت الفطيرة حتى تلك اللحظة. انتزعت ورقة من دفتر ملاحظات د. داربـــي.

قلت: "مم".

كـــان المفـــتش هيوت ود. داربـــي قد عادا إلى الحديقة عندما صـــعدت بـــبطء على السلالم إلى مختبري. راقبت من النافذة بقليل من الحزن ومسحة من الأسى مجيء مسعفين اثنين من خلف زاوية المنـــزل، وقـــيامهما بوضع جثة الغريب على نقّالة من قماش القنّب. من بعيد، كـــان دوغر يدور حول نافورة بالاكلافا على المرج الشرقي، مشغولاً بقطع المزيد من ورود الليدي هيلنغدون.

كـــان الجميع مشغولين، وبقليل من الحظ، كان بمقدوري فعل ما ينبغي عليّ فعله والعودة قبل حتى أن ينتبه أحد إلى غيابـــي.

نـــزلت السلالم وخرجت من الباب الرئيس، سحبت غلاديز [دراجة هوائية] قديمة كانت لديّ من أيام الكشّافة والتي كانت تستند

مكتبة الرمحي أحمد

إلى حجـــر كبير، وبعد بضع دقائق كنت أحرك الدوّاستين بسرعة نحو بيشوب لاسي.

ما الاسم الذي كان والدي قد ذكره؟

تويـنـــنغ. إنـــه هـــو. "كوبّا العجوز". وكنت أعرف أين أجده بالتحديد.

مكتبة الربيعي أحمد

خمسة

كانـــت مكتبة بيشوب لاسي العامة تقع على درب البقرة، وهو طريق ضيق، تظلله الأشجار الممتدة على طوله، والذي يمتد من الشارع الرئيس وصولاً إلى النهر. كان المبنى الأصلي منـــزلاً جورجياً متواضعاً مـــن الآجـــر الأســـود، وقد ظهرت صورته مرة بالألوان على غلاف *كانتري لايف [حياة الريف]*. كان هدية إلى شعب بلدة بيشوب لاسي مـــن قـــبل اللورد مارغات، أحد السكان المحليين المحسنين (مثل أدريان تـــشيبنغ العجـــوز)، وقد حظي بالشهرة والثروة بوصفه المورّد الوحيد لـــ"بيف - تشيبز"، شرائح لحم العجل التي ابتكرها، لحكومة جلالتها خلال حرب البوير.

بقيت المكتبة قائمة مثل واحة صمت لغاية عام 1939. ثم، في أثناء إغلاقهـــا لتجديدها، شبّت النيران فيها عندما احترقت كومة من خُرق رسّـــام، تماماً عندما كان السيد تشامبرلين يُلقي على الشعب البريطاني خطابـــه الـــشهير "طالمـــا أن الحرب لم تندلع، هناك أمل بإمكانية منع وقـــوعها". نظـــراً إلى أن كل سكان بيشوب لاسي الراشدين كانوا يـــتجمّعون حول أجهزة مذياع بعضهم بعضاً، لم يكن أحد منهم، بمن فيهم الأعضاء الستة المتطوعين في قسم الإطفاء، قد لاحظ الحريق حتى فـــات الأوان. بحلول الوقت الذي وصلوا فيه يحملون مضخة المياه التي تعمل يدوياً، كانت النيران قد اندلعت في المكان وحوّلته إلى كومة من

مكتبة الربيعي أحمد

الرماد الحار. لحسن الحظ، كانت كل الكتب قد نجت من الحادث، لأنها كانت مخزّنة في أماكن أخرى بهدف الحفاظ عليها.

لكن، مع اندلاع الحرب بعدها، وانهماك عامة الشعب بأعمال السخرة منذ الهدنة، لم يتم استبدال المبنى الأصلي أبداً. لم يكن موقعه آنذاك أكثر من قطعة أرض تغزوها الأعشاب الضارة في شارع كاتر، على بعد ناصية فقط من "ثلاثة عشر علجوماً". لم يكن ممكناً بيع الملكية التي كان قد تم تقديمها هبة لقرويي بيشوب لاسي، وكان العقار الذي استضاف مؤقتاً مقتنياتها قد أصبح مقراً دائماً للمكتبة العامة في درب البقرة.

عندما وصلت إلى نهاية الشارع الرئيس، رأيت المكتبة، وكانت بناءً منخفضاً تم بناؤه في العشرينيات لتكون معرضاً للسيارات. عدّة لافتات ملونة أصلية تحمل أسماء سيارات لم تعد موجودة، مثل ويلسلي وشيفيلد - سمبلكس، لا تزال معلقة على أحد جدرانها تحت السقف مباشرة، في أماكن أعلى من أن تلفت انتباه لصوص أو مخرّبين.

الآن، بعد ربع قرن من خروج آخر لاغوندا من بابه، كان المبنى قد أصبح، مثل أوانٍ فخارية قديمة في مساكن الخدم، في حال يرثى لها.

خلف ووراء المكتبة، كانت مجموعة من الأبنية الإضافية الصغيرة، مثل شواهد قبور، مبعثرة حول دار عبادة ريفية، تستقر ضمن أعشاب طويلة بين صالة العرض القديمة والدرب المهجور الذي يحاذي ضفة النهر. كانت بعض تلك الأكواخ التي يكسو التراب أرضيتها، تحتضن بين جنباتها عدداً كبيراً من كتب المكتبة الجورجية القديمة. أضحت الأقسام الداخلية العاتمة للأبنية المؤقتة، التي كانت تشكل سابقاً مجموعة من ورشات تصليح السيارات، مقرات لرفٍ فوق آخر من الكتب غير المرغوب فيها، والتي تحمل لصاقات تدلّ على موضوعاتها: تاريخ،

مكتبة الربيعي أحمد

جغرافيا، فلسفة، علوم. كانت تلك المرائب الخشبية، التي لا تزال تعبق بـرائحة زيـوت المحركات القديمة، الصدأ، المراحيض البدائية، تدعى مجموعة مداخن، ويمكنني ملاحظة سبب ذلك! كنت آتي إلى هنا أحياناً لأقرأ ولأنها كانت، بعد مختبري الكيميائي في بكشو، أكثر بقعة أفضّلها على وجه الأرض.

كـنت أفكـر في ذلك عندما وصلت إلى الباب الأمامي وأدرت المقبض.

قلت: "آه، اللعنة!". كان موصداً.

عندما خطوت إلى الجانب لأنظر من خلال النافذة، لاحظت لافتة كُتب عليها كيفما اتفق بخط أسود ومعلقة على الزجاج: **مغلقة**.

مغلقة؟ كان يوم الأحد. كانت ساعات افتتاح المكتبة من العاشرة إلى الثانـية والنصف، من الخميس حتى الأحد. وكان ذلك واضحاً في لافتة بإطار أسود ظاهرة للعيان بجانب الباب. هل حدث شيء للآنسة بيكري؟

هـزت الـباب، ثم قرعته بعنف. ضممت كفّيّ على الزجاج ونظرت إلى الداخل، لكن ما عدا شعاعاً من أشعة الشمس الذي يضيء ذرات الغـبار العالقـة في الهـواء قبل أن يستقر به المقام فوق رفوف الروايات لم يكن ممكناً رؤية شيء آخر.

ناديت: "آنسة بيكري!". لكن ما من مجيب.

قلـت مجدداً: "آه، يا الله!". كان يجب أن أؤجل أبحاثي إلى وقت آخـر. بيـنما كنت أقف خارج المكتبة في درب البقرة، خطر لي أن الفـردوس يجـب أن يكون مكاناً تفتح فيه المكتبة مدّة أربع وعشرين ساعة في اليوم، سبعة أيام في الأسبوع.

لا... ثمانية أيام في الأسبوع.

مكتبة الربيعي أحمد

كنت أعرف أن الآنسة بيكري تعيش في شارع الحذاء. إذا تركت دراجتي هنا وسلكت طريقاً مختصراً بين الأبنية الإضافية الصغيرة التي تقع خلف المكتبة، سأمر من خلف ثلاثة عشر علجوماً، وأخرج بجانب كوخها.

اخترت طريقي عبر الأعشاب الرطبة الطويلة، وتوخيت الحذر حتى لا أدوس على أي قطع بالية من الآليات الصدئة التي تبرز هنا وهناك مثل عظام ديناصورات في صحراء غوبي. كانت دافني قد وصفت لي مضاعفات الكزاز. خدش واحد من عجلة سيارة قديمة وسيخرج الزبد من فمي، سأنبح مثل كلب، وأسقط أرضاً مصابة بتشنجات عندما أرى الماء. كنت قد استطعت تجميع كتلة من البصاق في فمي للتدرب على الأمر عندما سمعت أصواتاً.

كان صوت شاب يأتي من ساحة الخان: "لكن كيف سمحت له يا ماري؟".

أخفيت نفسي خلف شجرة، ثم نظرت خلسة من خلفها. كان المتكلم نيد كروبر، صاحب الصنائع السبع في ثلاثة عشر علجوماً.

نيد! كان مجرد التفكير فيه يجعل أوفيليا تبدو كما لو أنها تحت تأثير حقنة من النوفوكين [مخدر موضعي]. كانت قد اقتنعت أنه صورة طبق الأصل عن ديرك بوغارد [ممثل وروائي بريطاني]، لكن الشبه الوحيد الذي كنت أراه هو أن لكليهما ذراعين وساقين وكتلتين من الشعر اللامع.

كان نيد يجلس على برميل شراب شعير خارج الباب الخلفي للخان، وكانت الفتاة التي أدركت أنها ماري ستوكر تجلس على برميل آخر. لم يكونا ينظران إلى بعضهما. بينما كان نيد يرسم متاهة متقنة على الأرض بكعب حذائه، كانت ماري تشبك يديها بإحكام في حجرها وتحدق إلى الفراغ.

مكتبة الربيعي أحمد

بالرغم من أنه كان يتكلم بنبرة خافتة ملحّة، كان بمقدوري سماع كل كلمة بوضوح. كان الجدار الجصّي في ثلاثة عشر علجوماً يعمل كعاكس ممتاز للصوت.

"قلت لك يا نيد كروبر إنه لم يكن بمقدوري فعل شيء، وكيف يمكنني ذلك؟ جاء من خلفي بينما كنت أغيّر ملاءاته".

"لماذا لم تصرخي؟ أعرف أن بمقدورك إيقاظ... عندما ترغبين في ذلك".

"لا تعرف الكثير عن والدي، أليس كذلك؟ إذا عرف ما فعله ذلك الرجل، سيحوّل جلدي إلى أحذية مطاطية".

بصقت على التراب.

"ماري!". جاء الصوت من مكان ما داخل الخان، لكن بالرغم من ذلك دوّى في الساحة مثل الرعد. كان والد ماري، تولي ستوكر، صاحب الخان، والذي لعب صوته العالي جداً دوراً بارزاً في بعض حكايات عجائز القرية غير الأخلاقية.

"ماري!".

قفزت ماري على قدميها لدى سماعها صوته.

صرخت: "قادمة. أنا قادمة".

تردّدت منفعلة، كما لو أنها تتخذ قراراً. فجأة اندفعت مثل صلّ نحو نيد وطبعت قبلة كبيرة على فمه، ثم، أصدر مئزرها صوتاً – مثل حاوٍ يحرك رداءه – واختفت داخل الفجوة العاتمة للمدخل المفتوح.

جلس نيد للحظة بعد ذلك، ثم مسح فمه بظاهر يده قبل أن يدحرج البرميل لينضم إلى البرميل الآخر الفارغ على طول الجانب البعيد لساحة الخان.

مكتبة الربيعي أحمد

صرخت: "مرحباً يا نيد". واستدار محرجاً قليلاً. كنت أعرف أنه سيتساءل إن كنت قد سمعته مع ماري، أو رأيت القبلة. قرّرت أن يكتنف الغموض موقفي.

قلت بابتسامة عريضة: "يوم لطيف!".

استفسر نيد عن صحتي، وبعدها، بترتيب دقيق عن صحة والدي ودافني.

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

قلت له: "إنهما بخير".

سأل، وقد وصل إليها أخيراً: "والآنسة أوفيليا؟".

"الآنسة أوفيليا؟ حسناً، لأقول لك الحقيقة يا نيد، نحن جميعاً قلقون عليها".

تراجع نيد إلى الخلف كما لو أن دبوراً قد حطّ على أنفه.

"آه؟ ما المشكلة؟ آمل ألا يكون شيئاً خطيراً".

قلت: "إنها مريضة جداً. أظن أنه *المرض الأخضر* [فقر دم يصيب المراهقات]. يظن د. داربي ذلك أيضاً".

في معجم *اللغة العامّية* لعام 1811، يدعو فرانسيس غروس المرض الأخضر *حمّى الحب*، و*مرض العذراء*. كنت أعرف أن نيد لم يكن يستطيع الحصول على كتاب القبطان غروس مثلي. هنأت نفسي داخلياً.

"نيدا!".

كان تولي ستوكر ينادي مجدداً. مشى نيد خطوة نحو الباب.

قال: "أخبريها أنني كنت أسأل عنها".

أشرت له بعلامة نصر ونستون تشرشل بإصبعيّ. كان ذلك أقل ما يمكنني فعله.

مكتبة الرمحي أحمد

يمتد شارع الحذاء، مثل درب البقرة، من الشارع الرئيس إلى النهر. يبدو كوخ الآنسة بيكري، الذي يعود إلى عصر تيودور [أسرة حكمت إنكلترا بين عامي 1485 و1603] ويقع في منتصف الشارع، مثل شيء تراه على غطاء علبة صور مقطّعة. بسقفه المصنوع من القش وجدرانه المطلية بماء الكلس، نوافذه معينية الشكل وأُطر ألواح الزجاج المصنوعة من الرصاص، وبابه الهولندي [مقسوم أفقياً] المطلي باللون الأحمر، كان تحفة فنية، وكانت جدرانه الخشبية تطفو كسفينة عتيقة غريبة على بحر من أزهار قديمة مثل شقائق النعمان، الخطمي، القرنفل، أجراس كانتربري، وأخرى لا أعرف أسماءها.

كان روجر، هرّ الآنسة بيكري البني، يتمدد على عتبة الباب الأمامي، يكشف بطنه للحك. أمسكته من عنقه. قلت: "هر طيب يا روجر. أين الآنسة بيكري؟".

تدحرج روجر بعيداً عني ببطء بحثاً عن شيء أكثر إثارة للاهتمام ليحدّق إليه، وطرقت على الباب. لم يجب أحد.

درت حول الكوخ إلى الحديقة الخلفية. لم يكن هناك أحد في البيت.

عدت إلى الشارع الرئيس، وبعد أن توقفت لأنظر إلى القوارير الصيدلانية القديمة المتسخة في نافذة الكيميائي، كنت أعبر درب البقرة عندما نظرت صدفة إلى يساري ورأيت شخصاً يدخل المكتبة. مددت ذراعيّ، خفضت يديّ وغيرت اتجاهي تسعين درجة. لكن، عندما وصلت إلى الباب، كان الشخص الذي رأيته قد أصبح في الداخل. أدرت المقبض، وانفتح الباب هذه المرة على مصراعيه.

كانت المرأة تضع محفظتها في الدرج وتستقر خلف الطاولة، وأدركت أنني لم أرَها أبداً في حياتي. كان وجهها متغضناً مثل إحدى

مكتبة الرمحي أحمد

تلك التفاحات المنسية التي تعثر عليها في جيب معطف شتاء السنة الماضية.

قالت وهي تنظر من فوق نظارتها: "نعم؟". كانوا يعلّمونهم فعل ذلك في الأكاديمية الملكية لعلوم المكتبات. كان لون زجاج النظارة، كما لاحظت، رمادياً باهتاً كما لو أنها تنقعها في الليل بالخل.

قلت: "كنت أتوقع رؤية الآنسة بيكري".

"سافرت الآنسة بيكري للاهتمام بمسألة عائلية خاصة".

قلت: "آه".

"نعم، محزن جداً. تعرضت شقيقتها هيتي، التي تعيش في نيذر – ولسي، لحادث مأساوي عندما كانت تعمل على آلة خياطة. كان يبدو في الأيام القليلة الأولى أنها ستكون بخير، لكن الأمور تغيرت بعد ذلك ويبدو الآن أن هناك احتمالاً حقيقياً أن تخسر إصبعها. هذا مؤسف للغاية، وهي مع التوأم. الآنسة بيكري، بالطبع...".

قلت: "بالطبع".

"أنا الآنسة مونتجوي، وسأكون سعيدة بمساعدتك بدلاً منها، كما كانت تفعل".

الآنسة مونتجوي! الآنسة مونتجوي المتقاعدة! كنت قد سمعت حكايات عن *الآنسة مونتجوي وعهد الإرهاب*. كانت أمينة مكتبة بيشوب لاسي العامة منذ زمن يمكن وصفه بالسحيق. كانت لطيفة من الخارج، لكن من الداخل كانت *قصر الحقد*. أو هذا ما قيل لي. (السيدة موليت مجدداً، التي تقرأ روايات بوليسية). كان القرويون لا يزالون يبتهلون بالدعاء حتى لا تعود من تقاعدها.

"وكيف يمكنني أن أساعدك يا عزيزتي؟".

مكتبة الربيعي أحمد

إذا كان هناك شيء أبغضه حقاً، فهو أن يدعوني شخص *عزيزتي*.

عندما أؤلف تحفتي الأدبية الفريدة (*بحث عن كل السموم*)، وأصل إلى "السيانيد"، سأضع تحت بند "استعمالات" عبارة *فعّال بشكل خاص في معالجة أولئك الذين يدعونني عزيزتي*.

بالــــرغم من ذلك، إحدى **قواعدي في الحياة** هي الآتية: استعن على قضاء حوائجك بالكتمان.

ابتسمت قليلاً وقلت: "أودّ الاطلاع على ملفات الصحف".

قرقــــرت: "ملفات الصحف! يا الله، تعرفين الكثير، أليس كذلك يا عزيزتي؟".

قلت، أحاول أن أبدو متواضعة: "نعم، أعرف الكثير".

قالت وهي تلوّح بيدها: "الصحف بترتيب زمني على الرفوف في غرفة دروموند: إنها في الجزء الخلفي من الطرف الغربــــي، إلى اليسار، فوق السلالم".

قلت وأنا أتجه نحو السلالم: "شكراً لك".

"إلا، بالطـــبع، إن كنت تريدين شيئاً أقدم من السنة الماضية. في تلك الحال، ستكون في أحد الأبنية المؤقتة. ما السنة التي تبحثين عنها، على وجه الخصوص؟".

قلت: "لا أعرف حقاً". لكن، انتظروا لحظة. أنا أعرف *حقًا*! ما الذي قاله الغريب في مكتب والدي؟

"توييننغ – كوبّا العجوز ميت منذ – ماذا؟".

كـــان بمقــــدوري سماع صوت الغريب المداهن في رأسي: "كوبّا العجوز ميت منذ... ثلاثين سنة".

قلـــت بـــبرود سمكـــة سلمون: "عام 1920. أودّ رؤية أرشيف الصحف لعام 1920".

مكتبة الرمحي أحمد

"من المحتمل أن ذلك لا يزال في مركز الصيانة. هذا إذا لم تجد الجرذان طريقها إليه". قالت ذلك مع نظرة خبيثة نوعاً ما من فوق النظارة، كما لو أنني، عند ذكر الجرذان، سأرفع يديّ في الهواء وأهرب وأنا أصرخ.

قلت: "سأجدها. هل يوجد مفتاح؟".

فتّشت الآنسة مونتجوي في درج الطاولة، وأخرجت مجموعة مفاتيح حديدية بدت كما لو أنها تخص سجّاني إدموند دانتي في *كونت مونتي كريستو [رواية ألكسندر توماس]*. خشخشت في يدي وخرجت من الباب.

كان مركز الصيانة هو المبنى الإضافي الأبعد عن بناء المكتبة الرئيس. كان متداعياً ومنحدراً على ضفة النهر، كان البناء كتلة من ألواح خشبية بالية وصفائح حديدية صدئة، تغطيها كلها طحالب ونباتات متسلقة. في أوج نشاط صالة عرض السيارات، كان المرأب الذي يتم فيه تغيير زيت وإطارات المركبات، تزييت محاورها، وإجراء إصلاحات أخرى أيضاً.

منذ ذلك الوقت، كان الإهمال والتعرية قد حولا المكان إلى شيء يشبه كوخ ناسك في الغابة.

أدرت المفتاح في القفل فانفتح الباب على مصراعيه بصوت صرير مزعج. مشيت خطوة بخطوة في الداخل المظلم، حريصة على تفادي جوانب حفرة الميكانيك العميقة والتي بالرغم من أنها كانت مغطاة بألواح خشبية ثقيلة، إلا أنها كانت لا تزال تهيمن على معظم مساحة الغرفة.

كانت رائحة حادة نفّاذة تنبعث من المكان وتشبه إلى حدٍّ بعيد النشادر، كما لو أن حيوانات صغيرة كانت تعيش تحت أرضية الغرفة.

مكتبة الربيعي أحمد

كـــان بـــاب مُـــصرّع [قابل للطي] والذي يشغل نصف الجدار الأقـــرب إلى درب البقرة، مغلقاً آنذاك بقضبان حديدية، والذي كان ســـابقاً يـــتم فتحه للسماح للسيارات بالدخول والتوقف إلى جانبـــي الحفـــرة. كان قد تم طلاء زجاج نوافذها الأربع، لسبب غير معروف، بلـــون أحمـــر شنيع يتسلل منه ضوء الشمس ليمنح الغرفة لوناً دموياً ومزعجاً.

بجانـــب الجدران الثلاثة الباقية، ترتفع رفوف خشبية منتظمة مثل هياكل أسرّة سفن، وعلى كل منها كومة كبيرة من الصحف المصفرّة: *ذا هنلي كرونيكل، ذا ويست كاونتيز أدفرتايزر، ذا مورنينغ بوست – هـــورن*، وجميعها مرتّبة وفقاً للسنة ومعرّفة بلصاقات بالية مكتوبة بخط اليد.

لم أجـــد صـــعوبة في العثور على صحف عام 1920. أنـــزلت الكـــومة العليا، وكدت أختنق من الغبار الذي انتفض على وجهي مثل انفجار في طاحونة، بينما سقطت قطع صغيرة للغاية من الصحف على الأرض مثل ثلج ورقي.

حوض استحمام وليفة، كما فكّرت، سواء أأحببت ذلك أم لا.

كانت هناك طاولة صغيرة من خشب الصنوبر قرب النافذة الوسخة، ما يكفي من الضوء والمساحة لفتح الصحف، واحدة تلو الأخرى.

أثارت *ذا مورنينغ بوست – هورن* انتباهي. فهي شديدة الإيجاز، كانت صفحتها الأولى، مثل *تايمز* اللندنية، مليئة بالإعلانات، مقتطفات عن الأخبار، والإعلانات الشخصية المبوّبة:

مفقود: طرد ورقي بني اللون مربوط بخيوط قنّب. ذو قيمة عاطفية لمالكه الحزين. جائزة سخيّة لمن يجده.

راسل "سميث"، عناية الإيل الأبيض، ولفرستون.

مكتبة الربيعي أحمد

أو هذا:

أيها العزيز: كان يراقب ما يجري. الوقت نفسه من الخميس القادم. اجلب حجر الصابون. برونو.

ثم فجأة تذكرت! كان والدي قد التحق بغريمنستر... ألم تكن غريمنستر قرب هنلي؟ أعدت *ذا مورنينغ بوست - هورن* إلى تابوتها، وسحبت الأكوام الأربع الأولى من *ذا هنلي كرونيكل*.

كانت تلك الصحيفة تصدر أسبوعياً، يوم الجمعة. كانت الجمعة الأولى من ذلك العام هي رأس السنة الجديدة، لهذا يعود تاريخ أول نسخة في تلك السنة إلى الجمعة التالية: الثامن من كانون الثاني عام 1920.

صفحة إثر أخرى من أخبار العطلة؛ زوار الميلاد من القارة [الأوروبية]، لقاء مؤجل لسيدات جمعية المذبح، حيوان جيد الحجم للبيع، احتفالات يوم الملاكمة [عطلة رسمية في بريطانيا] في الجمعية الزراعية، إطار مفقود من عربة مصنع شراب الشعير.

كانت جلسات الهيئات القضائية في آذار تصدر أحكاماً صارمة بحق اللصوص، مخالفي قوانين الصيد، والمعتدين.

تابعت شيئاً فشيئاً، تلطخت يداي بالحبر الذي كان قد جف قبل عشرين سنة من ولادتي. جلب الصيف مزيداً من الزوار من القارة، أيام تسوق، طلب على العمال، مخيمات الفتى سكوت [كشّافة]، مهرجانين، وعدّة عمليات صيانة مقترحة للطرقات.

بعد ساعة كنت قد بدأت أشعر باليأس. لا بد أن الأشخاص الذين قرأوا تلك الأشياء كانوا يتمتعون بقوة بصر خارقة، لأن الحروف كانت صغيرة للغاية. كنت أعرف أنني إذا قرأت المزيد من ذلك سأصاب بصداع مزمن. ثم عثرت على ما أريد:

مكتبة الربيعي أحمد

معلّم محبوب يلقى حتفه

في حادث مأساوي صباح يوم الأحد، سقط غرينفل توويننغ المحترم، حامل الماجستير في الآداب (أوكسون)، 72 عاماً، مدرّس اللغة اللاتينية ومدير السكن في مدرسة غريمنستر، قرب هنلي، من برج ساعة دار أنسون في غريمنستر ولقي حتفه. كان أولئك الذين اطلّعوا على الحقائق قد وصفوا الحادث على أنه "لا يمكن تفسيره ببساطة".

"صعد إلى حاجز شرفة البرج، جمع ثيابه حوله، وودّعنا بتحية رومانية وكفه إلى الأسفل. قال تيموثي غريني من الصف السادس في غريمنستر: صرخ *فالي*! إلى الأسفل نحو الفتيان في الباحة... وقفز إلى الأرض!".

"*فالي!*". خفق قلبي بقوة. كانت الكلمة نفسها التي كان الرجل المحتضر قد لفظها في وجهي! "الوداع". لا يمكن أن تكون مجرد مصادفة، أليس كذلك؟ كان ذلك غريباً جداً. لا بد أن هناك صلة ما لكن ما هي؟

تباً! كان ذهني يذهب بعيداً مثل مجنون وحواسي لا تتحرك أبداً. لم يكن مركز الصيانة المكان المناسب للتأمل؛ وكنت سأفكر في الأمر في ما بعد.

تابعت القراءة:

قال توبي لونسديل، الفتى متورد الخدّين الذي كان على وشك أن يذرف الدموع خلال ابتعاده مع زملائه عن المكان قبل أن يتنحّوا جانباً وينهاروا جميعاً: "بالطريقة التي رفرفت بها عباءته، كان يبدو مثل... يهبط إلى الأرض". كانت الشرطة قد استجوبت مؤخراً السيد توويننغ بشأن قضية طابع بريدي مفقود. كان نوعاً فريداً وثميناً جداً من "البنس الأسود".

قال د. إسحاق كيسنغ، الذي كان مدير غريمنستر منذ عام 1915: "ليست هناك صلة بين الأمرين. لا وجود لعلاقة مهما كان نوعها. كان السيد توويننغ رجلاً موقراً و... إذا كان بمقدوري قول ذلك، محبوباً من قبل كل من يعرفونه".

كانت *ذا هنلي كرونيكل* قد علمت أن تحقيق الشرطة في كلتا الحادثتين سيستمر.

مكتبة الربيعي أحمد

كـــان تـــاريخ الـــصحيفة هو الرابع والعشرين من أيلول عام 1920.

أعـــدت الـــصحيفة إلى الـــرف، خرجت من المكان، وأوصدت الباب. كانت الآنسة مونتجوي لا تزال تجلس متكاسلة خلف طاولتها عندما أعدت المفتاح.

سألت: "هل وجدت ما كنت تبحثين عنه يا عزيزتي؟".

قلت وأنا أنفض الغبار عن يديّ بطريقة مبالغ بها: "نعم".

سألت باستحياء: "هل تطلعينني على المزيد؟ قد أستطيع توجيهك إلى مواد ذات صلة".

الترجمة: كانت تتحرق فضولاً.

قلت: "لا، شكراً لك يا آنسة مونتجوي".

لـــسبب ما شعرت فجأة أن قلبـــي قد انتُزع من مكانه واستُبدل بآخر مزيف مصنوع من الرصاص.

سألتني الآنسة مونتجوي: "هل أنتِ بخير يا عزيزتي؟ تبدين شاحبة قليلاً".

شاحبة؟ كنت أشعر أنني على وشك أن أتقيأ.

ربما كان توتراً عصبياً، أو ربما كان محاولة لاواعية لتفادي الغثيان، لكـــن لاشمئـــزازي الشديد وجدت نفسي أقول: "هل سمعت من قبل بالسيد توييننغ، من مدرسة غريمنستر؟".

شهقت. أضحى وجهها أحمراً، ثم رمادياً، كما لو أن نيراناً شبّت فـــيه أمـــام عينيّ، ثم انهار وتحول إلى كومة من الرماد. سحبت منديلاً مزركـــشاً من ردنها، عقدته، ودفعته إلى داخل فمها، ولبضع لحظات، كانـــت تجلس هناك، تهتز في كرسيها، تشد على المنديل بقوة بأسنانها مثل ملاح من القرن الثامن عشر يتم بتر ساقه من أسفل الركبة.

مكتبة الربيعي أحمد

أخـــيراً، نظرت إليّ بعينين تفيضان دمعاً وقالت بصوت متهدج: "كان السيد توييننغ شقيق والدتي".

مكتبة الرمحي أحمد

ستة

كـــنا نتناول الشاي. كانت السيدة مونتجوي قد أخرجت غلاية معدنـــية عتيقة من مكان ما، وبعد بحث في حقيبة يدها، أخرجت علبة صغيرة من بيك فريانـــز [نوع من البسكويت].

كـــنت أجلـــس علـــى ســـلم المكتبة وتناولت قطعة أخرى من البسكويت.

قالــــت: "كان ذلك مأساوياً. كان خالي مسؤولاً عن دار أنسون للسكن منذ وقت طويل، أو هذا ما كان يبدو. كان يفخر كثيراً بتلك الـــدار وبطلابه. لم يأل جهداً لحثّهم دائماً على بذل قصارى جهدهم، ليكونوا مستعدين للحياة.

كـــان يحب أن يمزح بالقول إنه يتكلم اللاتينية بشكل أفضل من يوليوس قيصر نفسه، وأن كتابه عن قواعد اللاتينية، *توينغ لنغوا لاتينا*، الـــذي نُـــشر عندما كان لا يزال في الرابعة والعشرين فقط من عمره، بالمناســـبة؛ كان معتمداً في مدارس حول العالم. لا أزال أحتفظ بنسخة إلى جانـــب سريري، وبالرغم من أنني لا أستطيع قراءة الكثير منه، إلا أنـــني أحب أحياناً أن أمسك به، لأن ذلك يجعلني أشعر بالراحة: كـي، كوي، كود، وكل تلك الأشياء. هناك شيء مريح في تلك الكلمات.

كـــان الخال غرينفل منظماً جداً. كان يشجع فتيانه لإنشاء جمعية مناظـــرات، نادي تزلج، نادي دراجات هوائية، وحلقات لعب ورق.

مكتبة الرمحي أحمد

كان هاوياً ومتحمساً، بالرغم من أنه لم يكن بارعاً جداً، كان بمقدور المـــرء أن يـــرى دائمـــاً آس الديناري يبرز من ردنيه، وجزء من رباط مطاطـــي يتدلى منه. كان جامع طوابع متحمساً لهوايته، ويعلّم الفتيان تـــاريخ وجغـــرافية الـــدول التي تقوم بإصدارها، إضافة إلى احتفاظه بمجموعات أنيقة مرتبة منها. وكانت تلك سبب سقوطه".

توقفت عن المضغ وجلست بترقب. كانت الآنسة مونتجوي قد انـــزلقت إلى نوع من أحلام اليقظة، وبدا أنه من غير المحتمل أن تمضي قدماً من دون تشجيع.

شـــيئاً فشيئاً، كنت قد خضعت لسحرها. كانت قد تكلمت إليّ كامـــرأة - إلى - امـــرأة، واستـــسلمت لذلك تماماً. شعرت بالأسى عليها... حقاً.

سألت: "سبب سقوطه؟".

"ارتكب غلطة فظيعة بوضع ثقته في عدد من الفتيان الذين كانوا قـــد ادّعوا أنهم يعملون لمصلحته. تظاهروا باهتمامهم الكبير بمجموعته الصغيرة من الطوابع، وأظهروا اهتماماً أكبر بمجموعة د. كيسنغ، مدير المدرســـة. في تلك الأيام، كان د. كيسنغ، أكبر مرجعية في العالم عن "البـــنس الأسود" - أول طابع بريدي في العالم - بكل أشكاله. كانت مجمـــوعة كيسنغ موضع حسد - وأقول ذلك بروية - كل العالم. أقنع هؤلاء الأشخاص الوضيعون الخال غرينفل بتنظيم معرض خاص لطوابع المدير.

في أثناء تفحصه لجوهرة تاج هذه المجموعة، وهي عبارة عن بنس أســـود مـــن نوع معين - كنت قد نسيت التفاصيل - تعرض الطابع للتلف؟".

سألت: "تعرض للتلف؟".

مكتبة الربيعي أحمد

"احتـــرق. أشعل أحد الفتيان النار به. كان يريد أن تكون تلك دعابة".

رفعـــت الآنسة مونتجوي فنجان الشاي وتحركت مثل سحابة دخـــان إلى النافذة، حيث وقفت تنظر إلى الخارج لما بدا أنه وقت طـــويل جـــداً. كنت بدأت أفكر في أنها قد نسيتني، لكنها تكلمت مجدداً:

"بالطبع، تم إلقاء اللوم على خالي في وقوع تلك الكارثة...".

استدارت ونظرت إلى عينيّ. "وباقي القصة كنت قد عرفتها هذا الصباح في مركز الصيانة".

قلت: "انتحر".

صـــرخت: "لم ينتحر!". وقع الفنجان وصحنه من يدها وتحطما على الأرض. "لقد قُتل!".

سألت بعد أن تمالكت نفسي، وتمكّنت حتى من استخدام القواعد الـــصحيحة: "من فعل ذلك؟". كانت السيدة مونتجوي قد بدأت تثير أعصابـــي مجدداً.

قالت بسرعة: "تلك الوحوش! تلك الوحوش الغادرة!".

"وحوش؟".

"هـــؤلاء الفتيان! قتلوه كما لو أنهم قد أمسكوا خنجراً بأيديهم وطعنوه في قلبه".

"مـــن كانوا، هؤلاء الفتيان... أعني تلك الوحوش؟ هل تتذكرين أسماءهم؟".

"لمـــاذا تـــريدين أن تعرفي؟ بأي حق جئت إلى هنا لتثيري تلك الأشباح؟".

قلت: "أنا مهتمة بالتاريخ".

مكتبة الرمحي أحمد

مـــرّرت يـــداً فوق عينيها كما لو أنها تأمر نفسها بالخروج من غشية، وتكلمت بصوت بطيء كأنها امرأة تم تخديرها.

قالـــت: "كان ذلك منذ وقت طويل، وقت طويل جداً. لا أهتم حقاً بالتذكر... ذكر الخال غرينفل أسماءهم، قبل أن –".

اقترحت: "يُقتل؟".

"نعـــم، ذلك صحيح، قبل أن يُقتل. غريب، أليس كذلك؟ طيلة تلـــك الـــسنوات بقي أحد تلك الأسماء عالقاً بذهني لأنه كان يذكرني بحمـــار... حمار مقيد بسلسلة، كما تعرفين، مع عازف أورغن وقبعة حمراء صغيرة وكوب معدني".

أطلقت ضحكة متكلفة صغيرة، تنم عن توتر كبير.

قلت: "جاكو".

جلست الآنسة مونتجوي بتثاقل كما لو أنها تلقت ضربة من فأس حربية. حدّقت إليّ بعينين جاحظتين كما لو أنني آتية من بُعد آخر.

همـــست: "من أنتِ أيتها الفتاة الصغيرة؟ لماذا جئتِ إلى هنا؟ ما اسمك؟".

قلـــت: "فلافـــيا" بينما كنت أتوقف للحظة عند الباب. "فلافيا ســـابينا دولـــورس دي لـــوس". كانت "سابينا" حقيقية تماماً، لكنني ابتكرت "دولورس" آنذاك.

حـــتى قمت بإنقاذها من النسيان والصدأ، كانت دراجتي الهوائية القديمـــة الموثوقة ذات الثلاث سرعات قد بقيت طيلة سنوات في مخزن الأدوات بـــين أصيص الزهور وعربات اليد المحطمة. مثل أشياء عديدة أخـــرى في بكـــشو، كانت تخص في ما مضى هاريت، التي كانت قد أسمتها *لهيروندي*: "السنونو". كنت أستعمل غلاديز الخاصة بها مجدداً.

مكتبة الرمحي أحمد

كانت عجلات غلاديز فارغة من الهواء، علبة التروس جافة وبأمس الحاجة إلى الزيت، لكن مع المنفاخ الخاص بها، الموجود على هيكلها، وحقيبة الأدوات الجلدية السوداء خلف مقعدها، كانت مكتفية ذاتياً. بمساعدة دوغر، سرعان ما أصلحتها. في حقيبة الأدوات، كنت قد عثرت على كتيب يدعى *قيادة الدراجة الهوائية لنساء من كل الأعمار*، تأليف برونيلا ستاك، رئيسة "الجمعية النسائية للصحة والجمال". كُتِب على غلافه بحبر أسود وخط جميل متناسق: *هاريت دي لوس*، بكشو.

كانت هناك أوقات شعرت فيها أن هاريت لم ترحل، فقد كانت في كل مكان.

أسرعت في طريق العودة إلى المنزل، تجاوزت شواهد القبور التي تغطيها الطحالب في مقبرة دار عبادة سان تانكريد، عبر الممرات المعشوشبة الضيقة، على طول الشارع الرئيس، وصولاً إلى الأرض المكشوفة. أطلقت العنان لغلاديز، التي اندفعت على المنحدرات وتجاوزت بسرعة كل وشيع [سياج من شجيرات صغيرة]، وتخيلت طيلة ذلك الوقت أنني كنت أقود إحدى طائرات سبتفاير التي كانت، قبل خمس سنوات فقط، قد حلّقت فوق تلك الوشائع نفسها مثل طيور السنونو في رحلتها لتحط الرحال في ليثكوت.

كنت قد تعلمت من الكتيب أنني إذا قدت الدراجة وأعدت الدوّاسة إلى الخلف مثل الآنسة غولش في فيلم *أوز*، اخترت تضاريس مختلفة، وتنفست بعمق، سأتورد صحة مثل منارة إيدستون، ولن أعاني أبداً من البثور؛ معلومة مفيدة لم أُضع وقتاً في تمريرها إلى أوفيليا.

تساءلت إن كان هناك كتيب مرافق بعنوان *قيادة دراجة هوائية لرجال من كل الأعمار*؟ وإذا كان موجوداً، هل كان من تأليف رئيس جمعية الرجال للصحة والوسامة؟

مكتبة الرمحي أحمد

تظاهرت أنني كنت الفتى الذي لطالما أراده والدي. ابن يمكنه اصطحابه إلى اسكتلندا لصيد أسماك سليمان وقنص الطيهوج في المستنقعات، ابن يستطيع إرساله إلى كندا لتعلّم الهوكي على الجليد. لا يعني ذلك أن والدي كان يقوم بأي من تلك الأشياء، لكن لو كان لديه ابن، كنت أودّ التفكير في أنه قد يفعلها.

كان يجب أن يكون اسمي الأوسط لورانس، مثل اسمه، وعندما نكون معاً وحدنا كان سيدعوني لاري. لا بد أنه أُصيب بخيبة أمل كبيرة عندما ولدنا جميعاً بنات.

هل كنت قاسية جداً مع تلك المخيفة، الآنسة مونتجوي؟ حاقدة جداً؟ ألم تكن، بالمحصلة، عانساً عجوزاً وحيدة وغير مؤذية؟ هل سيكون لاري دي لوس أكثر تفهماً؟

صرخت في الريح: "لا!". وأنشدت بينما كنا نحلق معاً:

أومبا – تشكا! أومبا – تشكا

أومبا – تشكا – بووم!

لكنني شعرت أنني لم أعد أحد كشّافة اللورد بادن – باول البغيضين وإنما أمير الحلي الصغير علي قزام.

كانت تلك هي أنا، فلافيا. وكنت أحب نفسي، حتى إذا لم يكن أحد آخر يحبني.

بينما كنت وغلاديز ندخل عبر بوابات ملفورد، بسرعة كبيرة، نحو الطريق إلى بكشو الذي تحيط به أشجار الكستناء، صرخت: "حيّوا فلافيا! فلافيا إلى الأبد!".

كانت تلك البوابات الرائعة، بتمثالي الغرفين [تمثال الغرفين هو كائن خرافي نصفه نسر ونصفه أسد] الثائرين، وحديدها الأسود المزخرف المخرّم، تزين سابقاً عقار باتشلي المجاور، موطن أسلاف

مكتبة الربيعي أحمد

آل "ملفـــورد القـــذرين". أتى بالبوابات إلى بكشو في ستينيات القرن الثامن عشر براندون دي لوس، الذي - بعد أن فرّ أحد آل ملفورد مع زوجته - فكّكها ونقلها إلى المنـــزل.

كـــان يـــبدو أن مبادلة زوجة ببوابتين [الأروع في هذه الأرجاء، كمـــا كـــان بـــراندون قد كتب في مذكراته] قد سوّت المسألة، لأن آل ملفورد وآل دي لوس بقيا أفضل الأصدقاء والجيران حتى باع آخر ملفـــورد، توبياس، العقار في زمن الحرب الأهلية الأمريكية وسافر إلى الخارج لمساعدة أقربائه الكونفدراليين.

قـــال المفـــتش هـــيوت وهـــو يخرج من الباب الأمامي: "كلمة يا فلافيا".

هل كان ينتظرني؟

قلت بتهذيب: "بالطبع".

"أين كنت الآن؟".

"هـــل أنا رهن الاعتقال أيها المفتش". كانت تلك دعابة، كنت آمل أن يفهمها.

"إنه مجرد فضول".

سحب غليوناً من جيب سترته، ملأه، وأشعل عود ثقاب. راقبت فيما كان يشتعل تدريجيا نـــزولاً نحو أطراف أنامله.

قلت: "ذهبت إلى المكتبة".

أشعل تبغ غليونه، ثم أشار به إلى غلاديز.

"لا أرى أي كتب".

"كانت مغلقة".

قال: "آه".

مكتبة الرمحي أحمد

كان الرجل يتمتع بهدوء يدفع للجنون. حتى في غمرة تحقيق بجريمة قتل كان رابط الجأش كما لو أنه يمشي في المتنــــزه.

قال: "لقد تكلمت مع دوغر". ولاحظت أنه بقي يراقبني ليرى رد فعلي.

قلـــت: "آه، نعم". لكن ذهني كان يفكّر في شيء أقرب إلى *ياه!* تحذيرية مثل تلك التي يسمعها المرء على متن غواصة تستعد للغوص.

قلت في قرارة نفسي احذري! احترسي! ما الذي أخبرهم دوغر بـــه؟ عـــن الـــرجل الغـــريب في المكـــتب؟ عن الشجار مع والدي؟ التهديدات؟

كانت تلك هي المشكلة مع شخص مثل دوغر. كان سينهار على الأرجــــح مـــن دون سبب. هل ثرثر للمفتش عن الغريب في المكتب؟ اللعنة على الرجل! اللعنة عليه!

"قـــال إنك أيقظته قرابة الساعة الرابعة صباحاً وأخبرته أن هناك جثة في الحديقة. هل ذلك صحيح؟".

حبـــست تنهـــيدة ارتـــياح، وكدت أختنق بسبب ذلك. شكراً يـــا دوغـــر! ليباركك ويحفظك الله [جل جلاله] دائماً! دوغر العجوز الطيب الوفي. كنت أعرف أنه يمكنني الاعتماد عليك.

قلت: "نعم، ذلك صحيح".

"ماذا حدث بعدها؟".

"نـــزلنا السلالم وخرجنا من باب المطبخ إلى الحديقة. أريته الجثة. جثا بجانبها وتحسس وجود نبض".

"وكيف فعل ذلك؟".

"وضع يده على العنق تحت الأذن".

قال المفتش: "مم. وهل كان هناك؟ أعني نبضاً؟".

مكتبة الربيعي أحمد

"لا".

"كيف عرفت ذلك؟ هل أخبرك؟".

قلت: "لا".

قال مجدداً: "مم. هل جثوت بجانبها أيضاً؟".

"أفتـــرض أنـــه كان بمقدوري القيام بذلك. لا أظن ذلك... لا أتذكر".

ســـجل المفتش ملاحظة. بالرغم من أنني لم أرَها، إلا أنني كنت أعرف ما يوجد فيها: سؤال: هل قام [د] (1) بإبلاغ [ف] أنه لا يوجد نبض؟ (2) رأت [ف] يجثو ب ج (بجانب الجثة)؟

قال: "ذلك مفهوم تماماً. لا بد أنها كانت صدمة كبيرة لك".

أعاد ذلك إلى ذهني صورة الغريب يستلقي ممدداً هناك تحت أول ضـــوء للفجـــر. شعيرات كانت بالكاد تبدو على ذقنه، خصلات من شعره الأحمر تهتز قليلاً في نسيم الصباح العليل، شحوب وجهه، الساق الممـــدودة، الأصابع المرتعشة، آخر شهيق. وتلك الكلمة التي لفظها في وجهي... *"فالي"*.

إثارة كل ذلك!

قلت: "نعم، كان أمراً مفجعاً".

كان واضحاً أنني اجتزت الاختبار. كان المفتش هيوت قد ذهب إلى المطـــبخ حيث كان الرقيبان ولمار وغريفز منشغلين بإدارة العمليات خلـــف ستار من الإشاعات، ويتناولان شطائر خس من إعداد السيدة موليت.

مـــع نـــــزول أوفيليا ودافني إلى الطابق السفلي لتناول الغداء، لاحظـــت بخيبة أمل صفاء بشرة أوفيليا غير المعتاد. هل انقلب السحر

مكتبة الربيعي أحمد

علـــى الساحر؟ هل قمت، من خلال صدفة غريبة في الكيمياء، بإنتاج كريم بشرة عجيب؟

دخلـــت الـــسيدة موليت الغرفة بصخب، تتذمر في أثناء قيامها بوضع حسائنا وشطائرنا على الطاولة.

قالـــت: "هذا ليس مناسباً". أردفت وهي ترتعش: "لقد تأخرت عـــن مـــوعدي، لمـــاذا كل ذلك الإزعاج، وآلف يتوقع أن أكون في المنـــزل. لقد أثاروا أعصابـــي، وجعلوني أنبش لإخراج ذلك الشُنقب المـــيت مـــن صفيحة القمامة... حتى يستطيعوا وضعه أمامهم والتقاط صـــورة لـــه. هذا ليس مناسباً. لقد أريتهم الصفيحة وأخبرتهم أنهم إذا كانـــوا بحاجة ماسّة إلى جيفة فعليهم إخراجها بأنفسهم، لأنني يجب أن أقـــوم بتحـــضير الغداء. تناولن شطائركن يا عزيزاتي. لا شيء يضاهي اللحم البارد في حزيران، إنه ممتع مثل القيام بنـــزهة".

سألت دافني بشفة متغضنة: "شُنقب ميت؟".

"الشُنقب الذي عثرت عليه الآنسة فلافيا والعقيد على عتبة الباب الخلفـــي أمس. لا أزال أشعر بقشعريرة من الطريقة التي كان بها ذلك الـــشيء ملقـــى هناك بعينيه الجامدتين، ومنقاره المرفوع إلى الأعلى في الهواء مع قطعة ورق ملتصقة به".

قالـــت أوفيليا وهي تضرب بيدها على الطاولة: "نيد! كنت محقة يا دافني. إنها علامة حب!".

كانت دافني تقرأ *الغصن الذهبـــي* في الفصح، وأخبرت أوفيليا أن عـــادات غزل بدائية من البحار الجنوبية لا تزال قائمة في زمننا المتنور. كانت ببساطة مسألة صبر، كما قالت.

نقلـــت بـــصري من إحداهما إلى الأخرى، من دون أي انفعال. كانت هناك أوقات كثيرة لا يمكنني فيها فهم شقيقتيّ على الإطلاق.

مكتبة الرمحي أحمد

سألت: "طائر ميت، متيبّس مثل لوح خشب، ومنقاره يرتفع عالياً في الهواء؟ ما نوع العلامة التي يوحي بها ذلك؟".

توارت دافني خلف كتابها وتورّدت أوفيليا خجلاً. ابتعدت عن الطاولة وتركتهما تطلقان ضحكات مكبوتة في أثناء تناولهما حسائيهما.

قلت: "سيدة موليت، ألم تخبري المفتش هيوت أننا لا نرى طيور شُنقب أبداً في إنكلترا قبل أيلول؟".

"شُنقب، شُنقب، شُنقب! كل ما أسمعه هذه الأيام هو شُنقب. تنحّي جانباً، إذا سمحتِ؛ أنتِ تقفين في مكان يحتاج إلى تنظيف".

"ما السبب؟ لماذا لا نرى شُنقب قبل أيلول؟".

شدّت السيدة موليت قامتها، ألقت مكنستها في الدلو، وجفّفت يديها الرطبتين بمئزرها.

قالت بابتهاج: "لأنها تكون في مكان آخر".

"أين؟".

"آه، تعرفين... إنها مثل كل الطيور المهاجرة. تكون في مكان ما في الشمال. كل ما أعرفه هو أنها قد تكون تشرب الشاي مع سانتا".

"مكان ما في الشمال. كم هو بعيد؟ اسكتلندا".

قالت باستخفاف: "اسكتلندا! آه يا عزيزتي، لا. حتى شقيقة زوجي آلف الثانية، مرغريت، تذهب إلى اسكتلندا في عطلاتها، وهي ليست شُنقباً". أضافت: "بالرغم من أن زوجها كذلك!".

كان هناك هدير في ذهني، وصدرت عن شيء ما *طقطقة*.

سألت: "ماذا عن النرويج؟ هل يمضي الشُنقب الصيف في النرويج؟".

مكتبة الرمحي أحمد

"أظن أن بمقدورها ذلك يا عزيزتي. يجب أن تتأكدي من ذلك".

نعم! ألم يخبر المفتش هيوت د. داربي أن لديهم سبباً للاعتقاد أن الرجل في الحديقة قد جاء من النرويج؟ كيف كان بمقدورهم أن يعرفوا ذلك؟ هل سيخبرني المفتش إذا سألته؟

على الأرجح لا. في تلك الحال يجب أن أحل اللغز بنفسي.

قالت السيدة موليت: "انصرفي الآن. لا يمكنني الذهاب إلى المنزل حتى أُنهي الأرضية، وقد أصبحت الساعة الواحدة ظهراً. لا بد أن معدة آلف المسكين في حال يرثى لها الآن".

خرجت من الباب الخلفي. كان رجال الشرطة والمحقق الجنائي قد ذهبوا، وأخذوا الجثة معهم، والحديقة تبدو آنذاك خاوية بشكل غريب. لم يكن دوغر في أي مكان، وجلست على القسم المنخفض من الجدار لأفكّر قليلاً.

هل ترك نيد الشُنقب الميت على العتبة كعلامة على حبه لأوفيليا؟ كانت بالتأكيد تبدو مقتنعة بذلك. إذا *كان* ذلك من صنيع نيد، من أين جاء بذلك الشيء؟

بعد ثانيتين ونصف الثانية، أمسكت غلاديز، رميت قدميّ فوق دواستيها، وللمرة الثانية في ذلك اليوم كنت أقود بسرعة إلى القرية.

كانت السرعة ضرورية. لم يكن أحد في بيشوب لاسي يعرف بموت الغريب. لم يكن رجال الشرطة قد أخبروا أحداً، ولا أنا.

لن تبدأ الأقاويل حتى تنتهي السيدة موليت من عملية التنظيف وتمشي إلى القرية. لكن حالما تصل إلى منزلها، ستنتشر أنباء الجريمة في بكشو مثل "الطاعون الأسود" [تفشّى في أوروبا في القرن 14]. كان لدي حتى ذلك الوقت لأكتشف ما أودّ معرفته.

مكتبة الرمحي أحمد

سبعة

خففت السرعة حتى توقفت وأسندت غلاديز على كومة من ألواح الخشب المحطّمة، وكان نيد لا يزال يعمل في ساحة الخان. كان قد انتهى من براميل شراب الشعير ويعمل آنذاك بجد على تفريغ أقراص جبن بحجم حجر الرحى من الجزء الخلفي من شاحنة متوقفة.

قال عندما رآني منتهزاً الفرصة ليتوقف عن العمل: "مرحباً يا فلافيا. هل تريدين بعض الجبن؟".

قبل أن أجيب كان قد سحب سكيناً بشعة من جيبه، واقتطع شريحة من ستلتون [نوع من الجبن] بسهولة متناهية. اقتطع شريحة لنفسه وتناولها بنهم بطريقة كانت دافني ستدعوها استمتاعاً صاخباً. ستصبح دافني روائية، وتستخدم عبارات كتاب قديم كانت قد أثارت اهتمامها في قراءاتها اليومية. كنت أتذكر استمتاعاً صاخباً من آخر مرة تطفلت فيها على صفحاته.

سأل نيد وهو يرمقني بنظرة جانبية خجولة: "هل كنت في المنزل؟". كنت أفهم ما يرمي إليه، وأومأت.

"وكيف الآنسة فلافيا؟ هل رآها الطبيب مؤخراً؟".

قلت: "نعم. أظن أنه رآها هذا الصباح".

انطلت خدعتي على نيد.

"لا تزال مريضة إذاً، أليس كذلك؟".

مكتبة الربيعي أحمد

قلـــت: "أكثر شحوباً من ذي قبل. لونها أصفر كبريتي أكثر منه نحاسي".

كـــنت قد تعلّمت أن كذبة مغلّفة بالتفاصيل، مثل حصان يأكل تفاحـــة، تمضي قدماً بسهولة أكبر. لكن هذه المرة، عندما قلت ذلك، عرفت أنني قد تجاوزت الحد.

قال نيد: "مهلاً فلافيا! أنتِ تمزحين معي".

تـــركته يرى أفضل ابتساماتي الريفية الساذجة التي ارتسمت على وجهي مثل فجر يبزغ ببطء.

قلـــت: "لقـــد أمسكت بـــي متلبسة. أنا مذنبة بالتهمة الموجهة إلي".

ردّ لي صورة معكوسة غريبة عن ابتسامتي. لجزء من الثانية ظننت أنـــه يسخر مني، وشعرت أن مزاجي بدأ يتعكر. لكنني أدركت عندها أنه كان سعيداً حقاً بفهم ما كنت أرمي إليه. كانت تلك فرصتي.

قلـــت: "نيد، إذا طرحت عليك أسئلة شخصية جداً، هل تجيب عنها؟".

انتظـــرت حتى يستوعب ما قلته تماماً. كان التواصل مع نيد مثل تبادل برقيات مع قارئ بطيء في منغوليا.

قال: "بالطبع سأجيب عنها". وعرفت من الوميض الذي ظهر في عينيه ما كان سيأتي لاحقاً. "بالطبع، قد لا أقول الحقيقة".

بالـــرغم من أن كلينا ضحك عالياً، إلا أنني باشرت العمل فوراً. بدأت بالمدفعية الثقيلة.

"أنت مغرم بأوفيليا، أليس كذلك؟".

لعق نيك أسنانه، ومرّر إصبعاً على الحافة الداخلية لياقته. "كل ما سأقوله هو إنها فتاة لطيفة حقاً". مكتبة الرمحي أحمد **tele @ktabpdf**

مكتبة الرمحي أحمد

"لكن ألا تتمنى أن تستقر معها يوماً ما في كوخ مسقوف بالقش، وتربّيان مجموعة من الأولاد؟".

عند ذلك، أصبحت عنق نيد مثل عمود أحمر، مثل ميزان حرارة كحولي سميك. خلال ثوانٍ أصبح مثل أحد تلك الطيور التي تنفخ حنجرها لأغراض التزاوج. قرّرت أن أساعده ليخرج من ذلك المأزق.

"افترض فقط أنها أرادت أن تراك لكن والدها لم يسمح لها بذلك. افترض أن إحدى شقيقتيها الأصغر سناً يمكن أن تقدم لها يد العون".

كانت جوزته الضاربة إلى الحمرة قد بدأت تغور آنذاك، وظننت أنه كان على وشك أن يبكي.

"هل تعنين ذلك يا فلافيا؟".

قلت: "بصدق وإخلاص".

مدّ نيد أصابعه المتيبسة وصافحني بلطف مفاجئ. كانت تلك أشبه بمصافحة مع ثمرة أناناس.

قال بغض النظر عما يعنيه ذلك: "أصابع الصداقة".

أصابع الصداقة؟ هل كانت تلك المصافحة السرية لأخوية ريفية ساذجة يلتقي أفرادها في فناء دار العبادة، أو داخل أجمّة تحت ضوء القمر؟ هل كنت قد انتسبت إليها آنذاك، ويُتوقع مني أن أشارك في منتصف الليل في طقوس دموية لا يمكن الإفصاح عنها بين شجيرات؟ كان ذلك يبدو احتمالاً مثيراً للاهتمام.

كان نيد يبتسم لي مثل الجمجمة على علم القراصنة. أمسكت بزمام الأمور.

قلت له: "اسمع، الدرس رقم واحد: لا تترك طيوراً ميتة على عتبة محبوبتك. إنه شيء لن تفعله سوى هرة مدللة".

مكتبة الربيعي أحمد

بدت نظرة نيد فارغة.

قال: "لقد تركت وروداً مرة أو اثنتين، وآمل أن تكون قد لاحظت ذلك". كانت تلك أول مرة أعرف فيها ذلك، ولا بد أن أوفيليا قد أخذت الباقة إلى مخدعها لتستغرق في تأملاتها قبل أن يراها أي شخص آخر من الأسرة.

"لكن، أن أترك طيوراً ميتة؟ أبداً. تعرفيني يا فلافيا. لن أفعل شيئاً مماثلاً".

عندما توقفت لأفكر في الأمر للحظة، عرفت أنه كان محقاً، وكان ذلك من جانبي فقط بينما لم يكن هو يعرف شيئاً. تبين أن سؤالي التالي موفق إلى حدّ كبير.

"هل تعرف ماري ستوكر أنك تحب أوفيليا؟". كانت تلك عبارة حفظتها في دار سينما من أحد الأفلام الأمريكية - *التقِ بي في سانت لويس أو امرأة صغيرة* - وكانت تلك أول فرصة تتاح لي لأستخدمها. مثل دافني، كنت أتذكر كلمات، لكن من دون دفتر لأكتبها على عجل.

"ما علاقة ماري بهذا؟ إنها ابنة تولي، وهنا ينتهي الأمر".

قلت: "دعك من ذلك يا نيد. لقد رأيت تلك القبلة هذا الصباح عندما كنت... أمرّ بالجوار".

"كانت بحاجة إلى بعض المواساة. هذا ما كان ولا شيء أكثر من ذلك".

"بسبب ذلك الشخص الذي تسلل خلفها؟".

قفز نيد على قدميه. قال: "تباً لكِ. لا تريد أن يخرج ذلك إلى العلن".

"عندما كانت تغير الملاءات؟".

مكتبة الربيعي أحمد

جأر نيد: "أنتِ شريرة يا فلافيا دي لوس. ابتعدي عني! اذهبي إلى المنزل!".

قلت بصوتٍ هادئ: "أخبرها يا نيد". واستدرت لأرى ماري عند الباب.

كانت تقف وهي تضع إحدى يديها على إطار الباب، وتقبض بالأخرى على سترتها عند العنق مثل تس من دوربرفيل [رواية توماس هاردي]. عندما اقتربت، رأيت أن يديها خشنتان حمراوان وأنها تنظر إلي شزراً.

كرّرت: "أخبرها. لن يشكل ذلك أي فرق بالنسبة إليك الآن، أليس كذلك؟".

لاحظت فوراً أنني لم أعجبها. إنها إحدى حقائق الحياة أن الفتاة تستطيع بطرفة عين أن تعرف إن كانت فتاة أخرى تحبها أم لا. تقول فيلي إن الاتصال الهاتفي بين الرجال والنساء مقطوع، ولا يمكننا أن نعرف أبداً من يُنهي العلاقة. مع فتى لا تعرفين أبداً إن كان مغرماً أم لا، لكن مع فتاة يمكنك أن تحددي ذلك في الثواني الثلاث الأولى. بين الفتيات هناك تدفق صامت ومتواصل لإشارات غير مرئية، مثل ترددات لاسلكية بين الشاطئ والسفن في البحر، وكان ذلك التدفق السري من نقاط وقاطعات [خط أفقي قصير] يشير إلى أن ماري تمقتني.

صرخت ماري: "هيا، قل لها!".

ابتلع نيد ريقه بصعوبة وفتح فمه، لكنه لم ينبس ببنت شفة.

قالت: "أنتِ فلافيا دي لوس، أليس كذلك؟ أحد هؤلاء الأشخاص من بكشو". قالت ذلك كأنها ترميني بفطيرة على وجهي.

أومأت بصمت، كما لو أنني كنت جاحدة بطبعي ومن أصحاب الأراضي الذين ينبغي تدليلهم. فكّرت في أنه من الأفضل أن أجاريها.

مكتبة الربيعي أحمد

قالـــت مـــاري وهـــي تشير إلي: "تعالي معي. أسرعي، والتزمي الهدوء".

تبعـــتها إلى بـــيت مؤنة حجري عاتم، ثم إلى حجرة سلالم لولبية خشبية تقود مباشرة إلى الطابق الذي يعلوها. في الأعلى، خرجنا إلى ما كـــان ســـابقاً مكاناً لحفظ البياضات. كانت هناك خزانة مربعة طويلة مليـــئة آنذاك برفوف عليها مواد تنظيف كيميائية، صابون، وشموع. في الـــزاوية، كانـــت هناك مماسح ومكانس تستند إلى الجدار كيفما اتفق وسط رائحة مطهّر فينول قوية.

قالت وهي تضغط على ذراعي بقوة: "صه!". كان وقع خطوات ثقيلة يقترب منا، وهي تصعد السلالم نفسها التي كنا قد صعدنا عليها للتو. تراجعنا إلى زاوية، وتوخينا الحرص حتى لا نتعثر بالمماسح.

"سيكون يوماً مشؤوماً يا سيدي، عندما يحصل حصان كوتسولد على الجائزة اللعينة! لو كنت مكانك لراهنت على سيستار، وتجاهلت أي معلومات تأتيني من شخص في لندن لا يعرف شيئاً على الإطلاق".

كـــان ذلك تولي، يتبادل معلومات سرية عن سباقات الخيل مع شخص بصوتٍ عالٍ بما يكفي ليكون مسموعاً في إبسوم داونـــز. تمتم صـــوت آخـــر شيئاً انتهى بقول "ياه - ياه!" فيما كان وقع خطواتهما يبتعد في متاهة الممرات.

همست ماري وهي تشدّني من ذراعي: "لا، من هنا". درنا حول الـــزاوية ووصـــلنا إلى ممـــر ضيق. سحبت مجموعة مفاتيح من جيبها، وفتحت بهدوء آخر باب من جهة اليسار. وولجنا إلى الداخل.

كـــنا في غـــرفة لم تتغير على الأرجح منذ زارت الملكة إليزابيث بيـــشوب لاســـي عـــام 1592 خلال إحدى رحلاتها الصيفية. كانت تـــصوراتي الأولى عن المكان سقفاً خشبياً، ألواحاً جصّية، نافذة صغيرة

مكتبة الرمحي أحمد

بألواح زجاجية مفتوحة جزئياً لتسمح بدخول الهواء، وأرضية من ألواح خشبية عريضة.

عند أحد الجدران كانت هناك طاولة خشبية متداعية وقد وُضع *دليل السكك الحديدية* (تشرين الأول 1946) تحت إحدى قوائمها كي لا تتمايل. فوق الطاولة كان هناك إبريق ستافوردشاير لا مثيل له باللونين الوردي والأصفر الباهت، مشط، فرشاة، وحقيبة جلدية سوداء صغيرة. في زاوية قرب النافذة المفتوحة كانت هناك قطعة متاع واحدة، صندوق ثياب رخيص من قماش مقسّى، عليه لصاقات ملونة. بجانبه كان هناك كرسي ينقصه مغزل. في الطرف الآخر من الغرفة كانت هناك خزانة ملابس خشبية من نوعية رديئة، والسرير.

قالت ماري: "هذه هي". بينما كانت تقوم بإغلاق الباب علينا من الداخل، استدرت لأنظر إليها عن كثب للمرة الأولى. في الضوء الرمادي الخافت من زجاج النافذة القاتم، كانت تبدو أكبر سناً، أكثر صلابة، وحدّة من الفتاة التي كنت قد رأيتها في ضوء الشمس الساطع في ساحة الخان.

قالت بسخرية: "أظن أنك لم تتواجدي في غرفة بهذه المساحة الصغيرة من قبل، أليس كذلك؟ أنتم أهل بكشو تحبون زيارة بيدلام [مستشفى المجانين في لندن]، أليس كذلك؟ ترون المعتوهين، ترون كيف نعيش في أقفاصنا. ترمون لنا بسكويتاً".

قلت: "لا أعرف عمّا تتكلمين".

أدارت ماري وجهها نحوي حتى أصبحت تحت تركيز تحديقها الكامل. "أرسلتك شقيقتك تلك - أوفيليا - برسالة إلى نيد، ولا تقولي إنها لم تفعل ذلك. إنها تتوهم أنني بغي من نوع ما، ولست كذلك".

مكتبة الرمحي أحمد

وفي تلــك اللحظــة قــررت أن ماري تعجبني، حتى إذا لم أكن أعجــبها. كــان أي شــخص يعــرف كلمة بغي يستحق أن أعامله كصديق.

قلــت: "اسمعي، ليست هناك رسالة. ما قلته لنيد يجب أن يبقى ســراً. يجــب أن تساعديني يا ماري. أعرف أنك ستفعلين ذلك. لقد وقعت جريمة في بكشو...".

ياه! كنت سأقول ذلك!

"... ولا أحد يعرف ذلك بعد، سوى أنا وأنتِ، باستثناء القاتل بالطبع".

نظرت إلي مدة لم تتجاوز ثلاث ثوانٍ، ثم سألت: "من ذلك الميت إذاً؟".

"لا أعــرف. لهــذا جئت إلى هنا. لكن يبدو منطقياً لي أنه إذا تم العــثور على شخص ميت بين الخيار، ولم تعرف حتى الشرطة هويته، فــإن المكان الذي كان يقيم فيه على الأرجح في الحي - *إذا* كان يقيم في الحــي - هو هنا في ثلاثة عشر علجوماً. هل يمكنك إطلاعي على السجل؟".

قالت ماري: "لا داعٍ إلى إطلاعك عليه. ليس هناك سوى نــزيل واحد الآن، وهو السيد ساندرز".

كلما تكلمت أكثر إلى ماري، كلما أعجبتني أكثر.

أضافت ملاحظة مفيدة: "وهذه هي غرفته".

سألت: "من أين هو؟".

تلوّن وجهها. "لا أعرف، حقاً".

"هل نــزل هنا من قبل؟".

"ليس على حد علمي".

مكتبة الربيعي أحمد

"إذاً، يجب أن ألقي نظرة على السجل. من فضلك يا ماري! رجاء! هذا مهم! ستأتي الشرطة إلى هنا قريباً، وعندها سيكون الأوان قد فات".

قالت وهي تفتح الباب: "سأحاول...". وخرجت من الغرفة.

حالما غادرت، فتحت باب خزانة الملابس. ما عدا زوجاً من حمّالات المعاطف الخشبية فقد كانت فارغة، وحوّلت اهتمامي إلى صندوق الثياب، الذي كان مغطى بلصاقات مثل حيوانات قشرية تلتصق ببدن سفينة. كانت لتلك القشريات الملوّنة، على كل حال، أسماء، كابريس، روما، ستوكهولم، أمستردام، كوبنهاغن، ستافانغر، وغيرها.

حاولت فتح الصندوق مع مشبك غطائه، ولدهشتي، انفتح. لم يكن مقفلاً! انفصل شطرا الغطاء، المتصلان بمفصلات في المنتصف، عن بعضهما بسهولة، ووجدت نفسي وجهاً لوجه مع ملابس السيد ساندرز، التي كانت عبارة عن بذلة صوفية زرقاء، قميصين، زوج بني من أحذية أوكسفورد (مع صوف أزرق! حتى أنا كنت أعرف أن ذلك غير ملائم)، وقبعة لينة ثمينة ذكّرتني بصور كنت قد رأيتها تخص "ج. ك. تشسترتون" في *راديو تايمز*.

سحبت أدراج الصندوق، وتوخيت الحرص حتى لا أفسد ترتيب محتوياتها والتي كانت عبارة عن فرشاتي شعر (تقليد لتلك المصنوعة من صدفة سلحفاة)، موس حلاقة (فاليت أوتو - ستروب)، أنبوب كريم حلاقة (مورنينغ برايد لا يحتاج إلى فرشاة)، فرشاة أسنان، معجون أسنان (ثيمول [مركب مشتق من زيت الصعتر]، مخصص للقضاء على جراثيم تسوّس الأسنان). مقلّمة أظافر، مشط (زيلونايت)، وزرين مربّعين (مجوهرات ويتبي الصنعية، على كل منهما حرفان فضيان: إيتش بي).

مكتبة الرمحي أحمد

إيــــتش بـــي؟ ألم تكن هذه غرفة السيد ساندرز؟ ما الذي يعنيه حرفا إيتش بـــي؟

فُتح الباب على مصراعيه وهمس صوت: "ماذا تفعلين؟".

كدت أخرج من جلدي خوفاً، لكنها كانت ماري.

"لم أســـتطع الحـــصول على السجل. كان والدي - فلافيا! لا يمكـــنك التفتـــيش في أمتعة نـــزيل على ذلك النحو! سنقع كلتانا في ورطة. توقفي عن ذلك".

قلت بينما كنت أُنهي تفتيش جيوب البذلة التي كانت خاوية على كل حال: "حسناً. متى رأيت السيد ساندرز آخر مرة؟".

"في الأمس، هنا، ظهراً".

"هنا؟ في هذه الغرفة؟".

بلعت ريقها بصعوبة، وأومأت، وهي تشيح بصرها بعيداً. "كنت أغيّر ملاءاته عندما جاء من خلفي وأمسك بـــي. وضع يداً فوق فمي حتى لا أصرخ. الجيد أن والدي ناداني من الساحة في الوقت المناسب. أربكه ذلك قليلاً. لا تظني أنني لم أركله بقوة مرة أو اثنتين. هو ومخالبه القذرة! كنت سأقتلع عينيه لو سنحت لي الفرصة".

نظـــرت إليّ كما لو أنها قالت الكثير، كما لو أن علاقة اجتماعية وثيقة قد توطدت فجأة بيننا.

قلت: "كنت سأقتلع عينيه وأمص المحجرين".

اتسعت عيناها رعباً.

قلت: "جون مارستون. *المحظية الهولندية [مسرحية]*، 1604".

كان هناك صمت لنحو مئتي سنة، ثم بدأت ماري تقهقه.

قالت: "أوه، أنتِ مميزة!".

كانت الفجوة بيننا قد جُسرت.

مكتبة الربيعي أحمد

أضفت: "الفصل الثاني".

بعد لحظات كنا نقلّد الممثلين، كل منا تضع يدها على فمها، نثب في أرجاء الغرفة، نصرخ بتناغم مثل فقمتين مدرّبتين.

قلت: "قرأتها فيلي لنا مرة تحت الأغطية مع مشعل". ولسبب ما دفعنا ذلك لنكون أكثر مرحاً، وقمنا بالأمر مجدداً حتى كدنا نختنق من الضحك.

رمت ماري ذراعيها حولي، وعانقتني بقوة. قالت: "أنتِ فتاة رائعة يا فلافيا. أنتِ كذلك حقاً. تعالي إلى هنا، ألقِ نظرة على هذا".

ذهبت إلى الطاولة، أمسكت الحقيبة الجلدية السوداء، فكّت الشريط، ورفعت الغطاء. داخلها، كان هناك صفان من ست قوارير زجاجية صغيرة، مما يجعل مجموعها اثنتي عشرة. كانت إحدى عشرة منها مليئة بسائل ضارب إلى الصفرة؛ والثانية عشرة ممتلئة حتى ربعها فقط. بين صفّي القوارير كان هناك فراغ، كما لو أن شيئاً أنبوبياً كان مفقوداً.

همست، فيما كان صوت تولي يدوّي من بعيد: "ما هذه الأشياء؟ هل تظنين أنها سموم؟ هل يكون السيد ساندرز د. كريبين آخر؟".

نزعت سدادة القارورة الممتلئة جزئياً ورفعتها إلى أنفي. كانت رائحتها تشبه الخل على شريط طبي لاصق نتن؛ رائحة بروتين متعفّن، مثل شعر منقوع بالكحول يشتعل في الغرفة المجاورة.

قلت: "أنسولين. إنه مصاب بالسكري".

رمقتني ماري بنظرة فارغة، وأدركت فجأة ما شعر به أرخميدس عندما قال *وجدتها*! في حوض حمامه. أمسكت بذراع ماري.

سألت: "هل شعر السيد ساندرز أحمر؟".

"أحمر مثل راوند. كيف عرفت ذلك؟".

مكتبة الربيعي أحمد

حدّقت إلي كما لو أنني كنت السيدة زولندا في مهرجان نسي في الهواء الطلق، أعتمر قبعة صغيرة، أضع شالاً وأحمل كرة من الكريستال.

قلت: "تخمين ممتاز".

مكتبة الربيعي أحمد

ثمانية

قالت ماري وهي تبحث تحت الطاولة وتسحب سلة مهملات معدنية: "عجباً! كدت أنسى هذه. سيحول والدي جلدي إلى أرجوحة شبكية إذا اكتشف أنني لم أفرّغ هذا الشيء. إنه يتكلم دائماً عن الجراثيم، والدي، بالرغم من أنك لن تفكّري في ذلك عندما تنظرين إليه. من حسن حظي أنني تذكرت ذلك قبل - آه، يا الله! انظري فحسب إلى هذه الفوضى".

امتعض وجهها ومدّت ذراعها على طولها وهي تحمل السلة. ألقيت نظرة خاطفة - بتردد - على ما بداخلها. لا تعرف أبداً ما ينتظرك عندما تدس أنفك في نفايات أشخاص آخرين.

كان قاع سلة المهملات مغطّى بكتل وفتات معجّنات. لم يكن هناك كيس، وإنما قطع مرمية هناك، كما لو أن الشخص الذي كان يتناولها قد نال كفايته منها. كانت تبدو بقايا فطيرة. عندما مددت يدي وأخرجت قطعة منها، أصدرت ماري صوت اشمئزاز، وأشاحت وجهها بعيداً.

قلت: "انظري إلى هذا. إنها قطعة من القشرة، أترينها؟ إنها بنية ذهبية هنا، من الفرن، مع بعض تجعدات الفطيرة، كأنها تزيينات على أحد الأطراف. تلك القطع الأخرى من القشرة السفلية، إنها أفتح لوناً وأقل سماكة. ليست مقرمشة تماماً، أليس كذلك؟".

مكتبة الربيعي أحمد

أضـــفت: "بالرغم من ذلك، أنا أتضور جوعاً. عندما لا تأكلين طيلة اليوم، يبدو أي شيء شهياً".

رفعـــت الفطـــيرة وفتحت فمي، وتظاهرت أنني على وشك أن ألتهمها.

"فلافيا!".

تـــوقفت عندما كانت حمولة الفتات في منتصف الطريق إلى فمي المفتوح. "هه؟".

قالت ماري: "آه، أنتِ! دعك من ذلك. سأرميها بعيداً".

أخبرني شيء ما أن تلك كانت فكرة *سيئة*. أخبرني شيء آخر أن فـــتات الفطـــيرة كان دليلاً يجب عدم المساس به حتى يتفحّصه المفتش هيوت والرقيبان. فكّرت في ذلك في الواقع للحظة.

سألت: "هل لديك ورقة؟".

هـــزّت ماري رأسها. فتحت خزانة الملابس، وقفت على أصابع قدمـــيّ، وتحسّـــست الرف العلوي بيدي. كما توقعت، كانت هناك صحيفة تم وضعها هناك لتكون بمثابة غطاء مؤقت للرف. ليباركك الله يا تولي ستوكر!

توخـــيت الحـــرص حتى لا تتفتت، أخرجت أكبر بقايا الفطيرة ببطء، وضعتها على *ديلي ميل*، وطويتها إلى رزمة صغيرة أنيقة، دفعتها في جيبـــــي. كانـــت ماري تقف وتراقبني بعصبية، من دون أن تنبس ببنت شفة.

قلت بغموض: "سأفحصها في المختبر". لأقول الحقيقة، لم تكن لـــدي أي فكرة آنذاك بشأن ما سأفعله بتلك المادة المقززة. كنت سأفكر في شيء لاحقاً، لكنني كنت آنذاك أريد أن أثبت لماري من هو المسؤول.

مكتبة الرمحي أحمد

عندما كنت أضع سلة المهملات على الأرض، فزعت من حركة خفـــيفة مفاجئة في قعرها، ولا أمانع الإقرار أن معدتي انقبضت خوفاً. مـــاذا يوجد هناك؟ ديدان؟ جرذ؟ مستحيل، ما كنت لأغفل عن شيء بذلك الحجم.

نظـــرت بحذر داخل السلة وبالتأكيد *كان* هناك شيء يتحرك في قعرها. ريشة! وكانت تتحرك بهدوء شديد، يكاد يكون غير محسوس، إلى الأمـــام والخلف مع تيارات هواء الغرفة؛ تهتز مثل ورقة يابسة على شجرة، بالطريقة نفسها التي كان شعر الغريب الميت الأحمر يهتز بها في نسيم الصباح.

هـــل يعقل أنه لم يمت سوى هذا الصباح؟ كان يبدو أن دهراً قد انقـــضى مـــنذ تلك الحادثة غير السارة في الحديقة. حادثة غير سارة؟ يا لك من كاذبة يا فلافيا!

بدت ماري مذعورة عندما مددت يدي داخل السلة، وأخرجت الريشة وقطعة الفطيرة التي كانت معلقة بطرفها.

قلـــت وأنـــا أرفعها نحوها: "هل ترين هذا؟". انكمشت إلى الخلف بالطريقة التي يفترض أن يتراجع دراكولا بها عندما تهدّده... "لو أن الريشة كانت قد سقطت على الفطيرة في سلة المهملات، لما علقـــت بهـــا". قلت: "أربعة وعشرون شحروراً، مخبوزة في فطيرة. أترين؟".

سألت ماري وعيناها مثل صحني فنجان: "هل تظنين ذلك؟".

قلـــت: "بالـــضبط يـــا شارلوك. كانت حشوة هذه الفطيرة من الطيور، وأظن أنه بمقدوري تخمين الأنواع".

قـــرّبتها منها مجدداً. قلت: "يا له من طبق معجنات يمكن تقديمه للملك". وهذه المرة ابتسمت لي.

مكتبة الرمحي أحمد

كنت سأفعل الشيء نفسه مع المفتش هيوت، كما فكّرت، بينما كنت أدس ذلك الشيء في جيبـــي. نعم! سأحل هذه القضية وأقدّمها له ملفوفة بشرائط ملونة زاهية.

كان قد قال لي في الحديقة، ذلك الوقح: "لا حاجة إلى مجيئك إلى هنا مجدداً". يا لها من صفاقة!

حسناً، سأريه خدعة أو اثنتين!

أخبرني شيء ما أن النرويج كانت المفتاح. لم يكن نيد قد ذهب إلى النـــرويج، بالإضـــافة إلى ذلك، كان قد أقسم إنه لم يترك الشُنقب علـــى عتبة بابنا وكنت أصدّقه، لهذا كان خارج دائرة الشبهات، على الأقل في ذلك الوقت.

كـــان الغريب قد جاء من النرويج، وقد سمعت ذلك من مصدر موثـــوق، إذا جـــاز التعبير! إذاً تعني لهذا السبب ربما يكون الغريب قد أحضر الشُنقب معه.

في فطيرة.

نعـــم! ذلك يبدو منطقياً! ما أفضل طريقة لتمرير طائر ميت من أمام مفتشي جمارك جلالتها الفضوليين؟

خطـــوة واحدة بعد وستنكشف الأمور: إذا لم يكن ممكناً سؤال المفـــتش كـــيف عرف بشأن النرويج، ولا الغريب (بكل وضوح لأنه ميت)، من يتبقّى إذاً؟

وفجـــأة رأيت ذلك كله، رأيته واضحاً أمامي بالطريقة التي يرى فيها المرء شيئاً من قمة جبل. الطريقة التي كانت هاريت -

الطريقة التي يرى بها نسر فريسته.

هـــنأت نفـــسي بسعادة. إذا كان الغريب قد جاء من النرويج، ووضع طائراً ميتاً على عتبة بابنا قبل الفطور، ثم ظهر في مكتب والدي

مكتبة الربيعي أحمد

بعد منتصف الليل، لا بد أنه كان يقيم في مكان ليس ببعيد. مكان يمكن الوصول إليه مشياً على القدمين من بكشو. مكان مثل هذه الغرفة في ثلاثة عشر علجوماً.

كنت أعرف حق المعرفة آنذاك أن الجثة على قطعة الأرض المزروعة بالخيار كانت للسيد ساندرز. لم يكن هناك شك في ذلك.

"ماري!".

كان تولي مجدداً، يجأر مثل عجل، وتلك المرة على ما يبدو كان خارج الباب تماماً.

صرخت وهي تمسك بسلة المهملات: "قادمة يا أبي!".

همست: "اخرجي من هنا. انتظري خمس دقائق ثم انزلي على السلالم الخلفية؛ الطريق نفسه الذي صعدنا عليه إلى هنا".

ذهبت، وبعد لحظة سمعتها تشرح لتولي في الرواق أنها كانت تريد فقط إفراغ سلة المهملات، لأن شخصاً ترك نفاية فيها.

"لا نريد أن يموت أحدهم من جراثيم التقطها في ثلاثة عشر علجوماً، أليس كذلك يا أبي؟".

كانت تتعلم بسرعة.

بينما كنت أنتظر، ألقيت نظرة أخرى على صندوق الثياب. مرّرت أصابعي فوق اللصاقات الملونة، وحاولت أن أتخيل الأماكن التي جابها في ترحاله، وما كان السيد ساندرز يفعله في كل مدينة: باريس، روما، ستوكهولم، أمستردام، كوبنهاغن، ستافانغر. كانت باريس حمراء، بيضاء وزرقاء، وكذلك ستافانغر.

هل كانت ستافانغر في باريس؟ تساءلت. لم تكن تبدو فرنسية - إلا، بالطبع، إذا كانت تُلفظ "ستاه - فونج - ياي" كما في لورانس

مكتبة الرمحي أحمد

أولـيفير. لمست اللصاقة فتغضنت تحت إصبعي، وتجمّعت مثل ماء أمام مقدمة سفينة.

كـررت التجربة على اللصاقات الأخرى. كانت كل منها مثبّتة بإحكام مثل اللصاقة على قارورة سيانيد.

عودة إلى ستافانغر. شعرت أنها أكثر انتفاخاً من الأخرى، كما لو أن شيئاً تحتها.

كانت الدماء تهدر في عروقي مثل ماء في قناة طاحونة.

مجدداً فتحت صندوق الثياب، وأخرجت موس الحلاقة من الجيب الداخلـي. عندما كنت أقوم بإخراج الموس، فكّرت في كم أن النساء محظوظات - باستثناء أشخاص محددين مثل الآنسة بيكري في المكتبة - لأنهـن لسن بحاجة إلى حلاقة ذقونهن. كان قاسياً بما يكفي أن تكوني امرأة ناهيك عن اضطرارك إلى أخذ كل تلك الأدوات حيثما ذهبت.

أمـسكت الـشفرة بحذر بين إبهامي وسبابتي (بعد حادثة الآنية الـزجاجية كنت قد سمعت الكثير من التأنيب بشأن الأدوات الحادة)، وأحدثت شقاً بموازاة أسفل اللصاقة، متوخية حرصاً شديداً كي يكون القـص علـى طول الحافة الدقيقة للخط الأزرق والأحمر الذي يغطي تقريباً عرض الورقة.

عندما رفعت الشق قليلاً بحافة الشفرة، انـزلق شيء إلى الأسفل، وسقط إلى الأرض محدثاً حفيفاً. كان مغلف زجاجين، يشبه تلك التي كـنت قد رأيتها في حقيبة أدوات الرقيب غريفز. عبر ورقه الشفاف، رأيـت أن هناك شيئاً بداخله، شيئاً مربعاً وعاتماً. فتحت المغلف ونقرته بإصبعي. خرج شيء إلى راحة كفي، خرج شيئان في الواقع.

طابعـان بريديان، طابعان بريديان بلون برتقالي زاه، كل منهما بغلافـه الصغير الشفاف. ما عدا لونهما، كانا صورة طبق الأصل عن

مكتبة الرمحي أحمد

البنس الأسود الذي كان ملتصقاً بمنقار الشُنقب. وجه الملكة فيكتوريا مجدداً! يا لها من خيبة أمل!

لم أكـــن أشك في أن والدي سينتشي فرحاً من الحال الرائعة لهـــذين الـــشيئين، سحر النقش، روعة الثقوب، وبهاء الغراء. لكن بالنـــسبة إليّ، لم يكونا أكثر من شيء تلصقه على رسالة إلى العمة فيليسيتي المخيفة في هامبشاير، أشكرها فيها على هدية الميلاد؛ حولية نيدي عن السناجب.

بالـــرغم مـــن ذلك، لماذا أزعج نفسي بإعادتها؟ إذا كان السيد ســـاندرز والجثة في حديقتنا هما الشخص نفسه، وقد كنت واثقة من ذلك، لن يكون بحاجة إلى طوابع بريدية.

لا، كما فكّرت، سأحتفظ بهذين الشيئين. قد يكونا مفيدين يوماً ما عندما أكون بحاجة إلى شيء لعقد صفقة مقايضة مع والدي، الذي لم يكن بمقدوره التفكير بالطوابع والعقاب في الوقت نفسه.

دفعت المغلّف في جيبـــي، لعقت سبابتي، وبلّلت الحافة الداخلية للشق في اللصاقة على صندوق الثياب. ثم، بإبهامي، ألصقته بإحكام. لن يستطيع أحد، حتى المفتش فابيان من سكوتلنديارد، أن يخمّن أنه قد تم شقّه وفتحه.

كان وقتي قد انتهى. ألقيت نظرة أخيرة في أرجاء الغرفة، خرجت إلى الـــرواق العاتم، كما كانت ماري قد طلبت مني، وتحركت بحرص نحو السلالم الخلفية.

"أنـــت عديمة الجدوى مثل رداء على ثور يا ماري! كيف يمكنني متابعة كل الأمور بينما تنشغلين بسلة مهملات".

كـــان تـــولي يصعد من الجهة الخلفية، ومع انعطافة أخرى على الدرج كنا سنلتقي وجهاً لوجه!

مكتبة الرمحي أحمد

هربت على أصابعي قدمي بالاتجاه الآخر، عبر متاهة الممرات، عبر خطـــوتين صـــعوداً هنا، وثلاث هبوطاً هناك. بعد لحظة، كنت ألهث ووجـــدت نفـــسي في أعلى سلالم على شكل حرف (أل) تنـــزل إلى المدخل الرئيس. وفقاً لما كنت أراه، لم يكن هناك أحد في الأسفل.

نــــزلت علـــى أصـــابع قدمي إلى الأسفل، بخطوة بطيئة إثر أخرى.

كان هناك رواق طويل، تزخر جدرانه بطبعات رياضية عليها بقع ماء داكنة، مخصص كردهة، والتي كانت قرون من التضحية بالخنفساء قـــد جعلت رائحة أرواحها المفعمة بالدخان تتغلغل في ورق جدرانها. كـــان ضوء الشمس الذي يدخل عبر الباب الأمامي المفتوح يخفف من العتمة والكآبة.

إلى يـــساري كانت هناك طاولة صغيرة عليها هاتف، دليل أرقام هواتـــف، إنـــاء زجاجـــي صغير يضم أزهار ثالوث [وهي نوع من البنفسج] حمراء وبنفسجية، ودفتر حسابات، والسجل!

كـــان واضـــحاً أن ثلاثة عشر علجوماً لم يكن خلية نحل نشطة. كانت صفحاته المفتوحة تحمل أسماء مسافرين وقّعوا عليها خلال أكثر من أسبوعٍ مضى. لم أكن بحاجة حتى إلى أن أمس الدفتر.

وجدت ما أبحث عنه:

الثاني من حزيران، 10:25 صباحاً، ساندرز لندن.

لم يكـــن نـــزلاء آخرون قد سجلوا أسماءهم قبل ذلك بيوم، ولا في أي يوم تالٍ.

لكـــن لندن! قال المفتش هيوت إن الرجل الميت كان قد جاء من النـــرويج وكنت أعرف، مثل الملك جورج، أن المفتش هيوت لم يكن رجلاً يحب المزاح.

مكتبة الربيعي أحمد

حسناً، لم يكن قد قال ذلك بالتحديد. قال إن المتوفى قد جاء مؤخراً من النرويج، وهو شيء مختلف تماماً.

قبل أن أمعن التفكير في ذلك، خرج صوت صاخب من فوق. كان تولي مجدداً: تولي الذي يوجد في كل مكان. كان بمقدوري أن أعرف من نبرته أن ماري لا تزال تتعرض لمعاملة سيئة.

"لا تنظري إليّ بتلك الطريقة يا فتاتي، وإلا سأجعلك تندمين على ذلك".

سمعت بعد ذلك وقع خطواته الثقيلة تنزل على السلالم الرئيسة. في غضون ثوانٍ أخرى قليلة سيراني. عندما كنت على وشك الخروج مسرعة من الباب الأمامي، توقفت سيارة أجرة سوداء متهالكة أمامه مباشرة، كانت الأمتعة مكدّسة عالياً على سطحها، والقوائم الخشبية لمسند مصوّر تبرز من إحدى نوافذها.

تشتت انتباه تولي للحظة.

قال بهمس مسرحي: "وصل السيد بمبرتون. لقد جاء مبكراً. ماذا نفعل الآن أيتها الفتاة، لقد أخبرتك أن هذا سيحدث، أليس كذلك؟ تحركي وغيّري تلك الملاءات القذرة بينما أعثر على نيد".

جريت بأقصى سرعتي! عدت أدراجي وتجاوزت الطبعات الرياضية، وصولاً إلى الرواق الخلفي، ثم إلى ساحة الخان.

"نيد! تعالَ، وأنزل أمتعة السيد بمبرتون".

كان تولي ورائي تماماً، يلحق بي إلى خلف الخان. بالرغم من أنني للحظة انبهرت بضوء الشمس الساطع، إلا أنني لاحظت أن نيد لم يكن هناك. لا بد أنه كان قد أنهى تفريغ الشاحنة وذهب للقيام بواجبات أخرى.

مكتبة الربيعي أحمد

من دون حتى أن أفكّر في الأمر، قفزت إلى الجزء الخلفي للشاحنة، استلقيت أرضاً، وأخفيت نفسي خلف كومة من الجبن.

عندما نظرت من بين الأقراص المكدّسة، رأيت تولي يخرج بخطوات واسعة إلى ساحة الخان، ينظر في الأرجاء، ويمسح وجهه الأحمر بمئزره. كان يرتدي ثياب نادل. لا بد أن المشرب كان مفتوحاً، كما فكّرت.

جأر: "نيدا!".

كنت أعرف أنه، من موقعه تحت أشعة الشمس الساطعة، لا يستطيع رؤيتي داخل الشاحنة المعتمة. كان كل ما عليّ فعله هو البقاء منخفضة والحفاظ على الهدوء.

كنت أفكّر في ذلك عندما انضم صوتان آخران إلى صراخ تولي.

قال أحدهما: "مرحى يا تولي. شكراً على الشراب".

قال الآخر: "مضى وقت طويل يا صاحبي. أراك السبت المقبل".

"قل لجورج إن بمقدوره تعليق قميصه على سيستار. فقط لا تخبره أي قميص!".

كانت تلك أحد الأشياء الغبية التي يقولها الرجال لتكون لهم ببساطة الكلمة الأخيرة. لم يكن هناك أي شيء مضحك فيها. بالرغم من ذلك، ضحكوا جميعاً، وربما كانوا يضربون بأيديهم على أرجلهم، من تلك الدعابة، وبعد لحظة شعرت أن الشاحنة انخفضت على نوابضها عندما صعد الرجلان إلى مقصورتها. ثم نبض المحرك بالحياة وبدأنا نتحرك؛ إلى الخلف.

كان تولي يطوي ويمد أصابعه، يشير إلى سائق الحافلة في أثناء رجوعها إلى الخلف، ويدل بيديه على المسافة بين بابها الخلفي وجدار

مكتبة الرمحي أحمد

ساحة الخان. لم يكن بمقدوري القفز خارج الشاحنة آنذاك من دون أن أثـــب مباشـــرة بين ذراعيه. كنت مضطرة إلى الانتظار حتى نبتعد عن قنطرة المدخل ونتجه نحو الطريق المكشوف.

كان آخر ما رأيته في الساحة تولي يمشي عائداً نحو الباب وغلاديز مـــستندة حـــيث كـــنت قد تركتها على كومة من ألواح الخشب المحطّمة.

عندما كانت الشاحنة تغيّر اتجاهها بحدّة ثم تتسارع، كنت أتلقى ضـــربة على رأسي من قرص وينسليديل ثم أنـــزلق معه، بعدها، على الأرضـــية الخـــشبية الخشنة. بحلول الوقت الذي استجمعت فيه قواي، كانت الشاحنة تنهب الطريق العام خلفنا بينما تبدو حواجز الشجيرات الخضراء مشوشة، وكانت بيشوب لاسي تتراجع من بعيد.

لقد فعلتها الآن يا فلافيا، كما فكّرت، وربما لا ترين عائلتك أبداً من جديد.

بالرغم من أن تلك الفكرة كانت تبدو جذابة في البداية، إلا أنني أدركـــت بسرعة أنني سوف *أفتقد* والدي على الأقل قليلاً. سرعان ما سأتعلم العيش من دون أوفيليا ودافني.

كـــان المفتش هيوت، بالطبع، سيستنتج بسرعة أنني قد ارتكبت الجريمة، هربت من المكان، وأنني أشق طريقي على متن سفينة بطيئة إلى غينـــيا الـــبريطانية. كان سيرسل تحذيراً لكل الموانئ للبحث عن قاتلة عمرها إحدى عشرة سنة لها ضفيرتان وترتدي سترة.

حالما يستخلصون نتائج من الوقائع التي بين أيديهم، سيبدأ رجال الـــشرطة بملاحقة هاربة تبدو رائحتها مثل جبن متعفن. كان يجب أن أعثـــر على مكان أستحم فيه، ثم، على جدول ماء، ربما، حيث يمكنني غسل ملابسي وتجفيفها على شجيرات شائكة. يمكنهم، بالطبع، سؤال

مكتبة الربيعي أحمد

تــولي، استجواب نيد وماري بقسوة، واكتشاف طريقة هروبــي من ثلاثة عشر علجوماً.

ثلاثة عشر علجوماً.

لمــاذا، تــساءلت، يفتقر الرجال الذين يختارون أسماء خاناتنا وحاناتنا إلى الخيال؟ كان ثلاثة عشر علجوماً، كما أخبرتني السيدة موليت ذات مرة، قد مُنح اسمه في القرن الثامن عشر من قبل مالك أراضٍ عدّ ببساطة اثني عشر خاناً مرخصاً في القرى القريبة وأضاف آخر.

لمــاذا لم يكن شيئاً ذا فائدة عملية، كثلاث عشرة ذرة كربون، علــى سبيل المثال؟ شيئاً يمكن استخدامه لتقوية الذاكرة. هناك ثلاث عشرة ذرة كربون في تريدسل، الذي يتحد مع الهيدروجين ليشكل غاز المستنقعات. يا له من اسم مفيد ورائع لحانة!

ثلاثــة عشر علجوماً، بالفعل. اترك الأمر لرجل ليطلق اسم طائر على مكان!

كنت لا أزال أفكر في شأن تريدسل عندما رأيت فجأة، عبر باب الشاحنة الخلفي المفتوح، حجراً مطلياً بماء الكلس. كان مظهره مألوفاً، وأدركــت مباشرة تقريباً أنه كان علامة طريق دودنغسلي. بعد نصف مــيل آخــر سيضطر السائق إلى التوقف - حتى إذا كان ذلك للحظة واحــدة فقط - قبل أن يستدير إما يميناً إلى سانت إلفريدا أو يساراً إلى نيذر - ولسي.

انــــزلقت إلى حافــة صندوق الشاحنة المفتوح عندما زعقت المكــابح وبدأت سرعة المركبة تخف. بعد لحظة، مثل مغوار يقفز إلى حفرة أحدثتها قاذفة وايتلي، انــزلقت من الباب الخلفي ونــزلت على يدي وركبتي إلى التراب.

مكتبة الربيعي أحمد

مـــن دون أن ينظر إلى الخلف، استدار السائق إلى اليسار، وبينما كانت الشاحنة الثقيلة وحمولتها من الجبن تتحركان ببطء مبتعدتين عني وهما تثيران سحابة من الغبار، انطلقت نحو المنـــزل.

كانت تلك رحلة طويلة جداً مشياً على القدمين عبر الحقول إلى بكشو.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

مكتبة الرمحي أحمد

تسعة

توقعت أنه بعد وقت طويل من وفاة شقيقتي أوفيليا، عندما سأفكّر فيها، فإن أول ما سيخطر ببالي هي لمستها الرقيقة على البيانو. عندما تجلس خلف لوحة مفاتيح برودوود [وهو أقدم صانع للبيانو في العالم] القديم المهيب في غرفة الرسم، تصبح فيلي شخصاً مختلفاً.

كانت سنوات من التدريب - بغض النظر عمّا كان - قد منحتها اليد اليسرى لجو لويس واليد اليمنى لبو بروميل (أو هذا ما تقوله دافني).

لأنها تعزف بإتقان، كنت أشعر دائماً أن تلك المقطوعات نُظمت خصيصاً لها. مثلاً، عندما تعزف إحدى تلك المقطوعات المبكرة لبيتهوفن التي تبدو مسروقة من موزار، أتوقف فوراً عن العمل، بغض النظر عمّا أفعله، وأمشي بهدوء عبر غرفة الرسم.

سأقول بصوت عالٍ يمكن سماعه بالرغم من الموسيقى: "مهارة من الطراز الأول. مرحىً! مرحى! مرحى!".

عينا أوفيليا زرقاوان فاتحتان إنهما من نوع العينين الذي أحب أن أتخيل أنهما كانتا لهوميروس الضرير. بالرغم من أنها تحفظ معظم ألحانها عن ظهر قلب، إلا أنها تغير موقعها أحياناً على مقعد البيانو، تميل قليلاً إلى الأمام من خصرها مثل إنسان آلي، وتلقي نظرة سريعة على الصحيفة الموسيقية.

مكتبة الربيعي أحمد

مـــرة، عندما قلت إنها تبدو مثل جرذ ضخم مرتبك، وثبت عن مقعـــد البيانو، وضربتني بقوة بصحيفة ملفوفة مكتوب عليها لحن مفرد لشوبرت. لا تتمتع أوفيليا بحس دعابة.

عـــندما صعدت على آخر درجات المرقى [درج خشبـــي فوق سياج]، وأصبح بكشو في مرمى البصر عبر الحقل، توقفت مذهولة. من تلـــك الزاوية وفي ذلك الوقت من النهار أحببته حباً جماً. بينما كنت أقتـــرب من الغرب، كانت الحجارة العتيقة المصقولة تلمع مثل زعفران تحت أشعة شمس بعد الظهر، والمنـــزل يقبع ساكناً في أرض ريفية مثل دجاجة مطمئنة تجثم على بيضها، والعلم البريطاني يرفرف قانعاً فوقه.

لم يكـــن المنـــزل يبدو مبالياً باقترابـــي منه، كما لو أنني متطفلة تتسلل ببطء نحوه.

حـــتى علـــى بُعد ربع ميل، كان بمقدوري سماع نغمات توكاتا لبيتـــرو دومينـــيكو باراديـــزي [وهو عازف إيطالي] - من مقطوعته الموسيقية الخاصة - تخرج للقائي:

كانت توكاتا معزوفتي المفضّلة. وبالنسبة إليّ، كانت أعظم إنجاز موســـيقي في تـــاريخ العالم كله، لكنني كنت أعرف أنه إذا اكتشفت أوفيليا ذلك، لن تعزف تلك المقطوعة أبداً من جديد.

كلمـــا أسمـــع هـــذه الموسيقى، تجعلني أفكّر في التحليق من فوق الجانب الشرقي شديد الانحدار لتلة غودجر؛ الجري بسرعة كبيرة حتى تكـــاد قـــدماي لا تلحقان ببعضهما بينما أنقض من جانب إلى آخر، التحرك مع الرياح، مثل نورس منتشٍ.

عـــندما اقتربت من المنـــزل، توقفت في الحقل وأصغيت السمع لانـــسياب النغمات الرائع، التي لم تكن سريعة جداً، تماماً كما أحبها. فكّرت في الوقت الذي سمعت فيه إيلين جويس تعزف توكاتا عبر أثير

مكتبة الربيعي أحمد

هيـــئة الإذاعـــة البريطانية. كان والدي قد شغّل المذياع، لكنه لم يكن يـــصغي الـــسمع حقاً، نظراً إلى انشغاله بمجموعته من الطوابع. كانت الـــنغمات قد وجدت طريقها عبر ممرات وقاعات بكشو، طفت فوق الـــسلالم اللولبية، ووصلت إلى غرفة نومي. بحلول الوقت الذي عرفت فـــيه المقطوعة التي يتم عزفها، نـــزلت مسرعة على السلالم، واندفعت إلى مكتب والدي، كانت الموسيقى قد توقفت.

كنا قد وقفنا هناك ننظر إلى بعضنا بعضاً، والدي وأنا، لا نعرف مـــاذا نقـــول، حتى خرجت أخيراً من الغرفة، من دون أن أنبس ببنت شفة، وعدت ببطء على السلالم إلى الأعلى.

تلك هي مشكلة توكاتا الوحيدة: إنها قصيرة جداً.

درت حول السياج، ووصلت إلى المصطبة. كان والدي يجلس إلى طاولته بجانب نافذة مكتبه، منكبّاً على ما يعمل عليه.

يدّعي أعضاء جمعية سرية في إعلاناتهم، أنك تستطيع جعل غريب تمامـــاً عـــنك، يستدير في دار عرض مزدحمة بتثبيت بصرك على الجزء الخلفي من عنقه، فحدّقت إليه بكل ما أملك من قوة.

أشـــاح بصره إلى الأعلى، لكنه لم يرَني. كان ذهنه في مكان آخر.

لم أحرّك ساكناً.

وبعد ذلك، كما لو أن رأسه كان مصنوعاً من رصاص، نظر إلى الأســـفل وتابـــع عملـــه، وفي غرفة الرسم انتقلت فيلي لتعزف شيئاً لشوبان.

كلما كانت تفكّر في شأن نيد، كانت فيلي تعزف لشوبان. أظن أن ذلـــك هـــو سبب تسميتها موسيقى رومانسية. مرة عندما كانت

مكتبة الرمحي أحمد

تعــزف إحدى مقطوعات شوبان، ونظرة حالمة ترتسم على وجهها، قلـــت بصوت عال لدافني إنني ببساطة أحب موسيقى الجوقة في الهواء الطلق، واشتعلت فيلي غضباً، غضباً شديداً لم يخفِه خروجها من الغرفة والعـــودة بعد بضع دقائق مع بوق مصنوع من البكليت [مادة لدائنية] كنت قد عثرت عليه في خزانة، كوب معدني، ولافتة مكتوبة بخط اليد ربطـــتها حول عنقي بخيط: "أُصيبت بصمم في حادثة بيانو مأساوية. الرجاء الشفقة عليها".

ربمـــا تكون فيلي قد نسيت تلك الحادثة الآن، لكن أنا لم أنسَها. بيـــنما كـــنت أتظاهر بالمرور خلفها لأنظر من النافذة، رأيت وجهها للحظة عابرة. ياه! لا شيء أسجله في دفتر ملاحظاتي مجدداً.

قالـــت وهي تغلق بعنف غطاء لوحة المفاتيح: "أنتِ على الأرجح في ورطة. أين كنت طيلة النهار؟".

قلت لها: "هذا ليس من شأنك. لست موظفة عندك".

"كـــان الجمـــيع يبحث عنك. أنا ودافني قلنا لهم إنك هربت من المنـــزل، لكن يبدو أن الحظ اللعين لم يكن إلى جانبنا".

"إنه تعبير سيئ أن تقولي لعين يا فيلي، ولا يُفترض بك أن تفعلي ذلـــك. ولا تنفخـــي وجنتيك على هذا النحو، هذا يجعلك تبدين مثل إجاصة عفنة. أين والدي؟".

كما لو كنت لا أعرف.

قالـــت دافـــني: "لم يخرج من مكتبه طيلة النهار. هل تظنين أنه منـــزعج مما حدث هذا الصباح؟".

"الجـــثة في الحديقـــة؟ لا، لا يمكـــنني قول ذلك، لا علاقة له بما حدث، أليس كذلك؟".

قالت فيلي: "هذا ما ظننته". ورفعت غطاء البيانو.

مكتبة الربيعي أحمد

ردّت شعرها إلى الخلف، وشرعت تعزف أول تنويعات غولدبرغ لباخ.

كانت الموسيقى بطيئة، لكن ممتعة بالرغم من ذلك؛ وحتى في أفضل أيامه لم يكن بمقدور باخ، حسبما أظن، حمل شمعة لبيترو دومينيكو بارديزي.

ثم تذكرت غلاديز! كنت قد تركتها عند ثلاثة عشر علجوماً، حيث يمكن أن يراها أي شخص. إذا لم يكن رجال الشرطة هناك أصلاً، فإنهم سيصلون قريباً.

تساءلت إن كان ماري أو نيد قد أخبراهم بزيارتي. لكن لو أن أحدهما فعل ذلك، كما استنتجت، أما كان حرياً بالمفتش هيوت المجيء إلى بكشو في هذه اللحظة بالذات ليوبّخني بشدة؟

بعد خمس دقائق، للمرة الثالثة في ذاك اليوم، كنت في طريقي إلى بيشوب لاسي، هذه المرة سيراً على القدمين.

بالسير قريباً من أسيجة الشجيرات، والتواري خلف الأشجار كلما سمعت صوت مركبة تقترب، استطعت متابعة طريقي، عبر مسلك متعرج، إلى الطرف البعيد من الشارع الرئيس والذي كان، في ذلك الوقت المتأخر من اليوم، خالياً كالمعتاد.

أوصلني طريق مختصر عبر حديقة الآنسة بودلي الغنّاء (زنبق ماء، لقالق حجرية، أسماك ذهبية، وجسر مشاة أحمر زاه) إلى جدار الآجر الذي يحيط بساحة خان ثلاثة عشر علجوماً، حيث جثمت وأصغيت السمع. كانت غلاديز، إذا لم يكن أحد قد حرّكها، على الجانب الآخر مباشرة.

ما عدا هديرَ جرار بعيداً، لم يكن هناك أي صوت. عندما كنت على وشك استراق نظرة من فوق الجدار، سمعت أصواتاً. أو، لأكون

مكتبة الربيعي أحمد

أكثـــر دقـــة، صوتاً واحداً، وكان لتولي. كان بمقدوري سماعه حتى لو كنت في منـــزلي في بكشو وأضع سدادتين لأذني.

"لم أرَ الـــرجل أبداً من قبل في حياتي أيها المفتش. يمكنني القول بجـــرأة إنها زيارته الأولى إلى بيشوب لاسي. كنت سأتذكر لو أنه جاء إلى هنا من قبل. كان ساندرز الاسم الأوسط لزوجتي الراحلة، ليباركها الله، وكنت سأنتبه إلى الأمر لو أن شخصاً يحمل ذلك الاسم وقّع على الـــسجل. يمكنك المراهنة بخمسة جنيهات على ذلك. لا، لم يخرج إلى هـــذه الساحة أبداً، لقد دخل من الباب الأمامي وصعد إلى غرفته. إذا كانت هناك أي أدلّة، ستجدها هناك، هناك، أو في المشرب. ذهب إلى المـــشرب لاحقاً لبعض الوقت. طلب مزيجاً من الشراب، تجرّعه دفعة واحدة، ولم يقدم إكرامية".

إذاً، كانت الشرطة تعرف! كنت أشعر بالإثارة تفور داخلي مثل شـــراب الشعير بنكهة الزنجبيل، ليس لأنهم استطاعوا تحديد الضحية، ولكـــن لأنـــني كنت قد تفوقت عليهم، وإحدى يديّ مربوطة خلف ظهري.

سمحت لنظرة اعتزاز بالنفس أن تمر بسرعة على وجهي.

عـــندما تلاشـــت الأصوات، استخدمت نباتاً متسلقاً كغربال، ونظرت من فوق الآجر. كانت ساحة الخان خاوية.

قفـــزت من فوق الجدار، أمسكت غلاديز، وقدتها خلسة نحو الشارع الرئيس الخاوي. اندفعت في درب البقرة، سلكت الطرقات التي كنت قد اجتزتها في وقت مبكر من ذلك اليوم بالدوران خلف المكتبة، المرور قرب ثلاثة عشر علجوماً، وعلى طول الدرب الوعر بجانب النهر، وصولاً إلى شارع الحذاء، وتجاوزت ساحة دار العبادة إلى الحقول.

مكتبة الربيعي أحمد

انطلقنا نهتز عبر الحقول، غلاديز وأنا. كانت رفقتها ممتعة.

"آه، سطع ضوء القمر على السيدة بورتر
وعلى ابنتها
كانتا تغسلان أقدامهما بمياه غازية".

كانت أغنية علّمتني إياها دافني، لكن فقط بعد أن قطعت لها وعداً أنني لن أغنيها أبداً في بكشو. كانت تبدو أغنية تناسب الطبيعة الخلابة، وكانت تلك فرصة مثالية.

استقبلني دوغر عند الباب.

قال: "يجب أن أتكلم معك يا آنسة فلافيا". استطعت رؤية التوتر في عينيه.

قلت: "حسناً. أين؟".

قال مع إشارة من إبهامه: "الدفيئة".

تبعته حول الطرف الشرقي للمنزل وعبر الباب الأخضر الذي كان قائماً في جدار حديقة المطبخ. حالما يصبح المرء في الدفيئة، يظن أنه في أفريقيا؛ ولم يكن أحد غير دوغر يضع قدمه داخل ذلك المكان.

في الداخل، كانت ألواح تهوئة مفتوحة في السقف تسمح بدخول أشعة شمس بعد الظهر، وتعكسها إلى الأسفل حيث كنا نقف بين أوعية فخارية وخراطيم مطاطية.

سألت بلطف، وحاولت أن أجعل الأمر يبدو قليلاً – من دون مبالغة – مثل الأرنب باغز [شخصية رسوم متحركة]: "ما الأمر يا دوغر؟".

قال: "الشرطة. يجب أن أعرف ما قلته لهم عن...".

قلت: "كنت أفكّر في الشيء نفسه. أنت أولاً".

مكتبة الربيعي أحمد

"حـــسناً، ذلك المفتش... هيوت. سألني بعض الأسئلة عمّا جرى هذا الصباح".

قلت: "أنا أيضاً. ماذا قلت له؟".

"آســـف يـــا آنسة فلافيا. كان يجب أن أخبره أنكِ جئت إليّ، وأيقظتني عندما وجدت الجثة، وأنني ذهبت إلى الحديقة معك".

"كان يعرف ذلك أصلاً".

ارتفع حاجبا دوغر مثل زوجٍ من طيور النورس.

"كان يعرف؟".

"بالطبع كان يعرف. أنا أخبرته".

أطلق دوغر صفيراً طويلاً بطيئاً.

"إذاً لم تخبريه عن... ذلك الشجار... في المكتب؟".

"بالتأكيد لا يا دوغر! ماذا تظنني؟".

"يجب ألا تنطقي بكلمة عمّا حدث يا آنسة فلافيا. أبداً!".

كـــان الوضع كله قد تحول إلى فوضى كاملة. كان دوغر يطلب مـــني التآمر معه لإخفاء معلومات عن الشرطة. من كان يحمي؟ نفسه؟ والدي؟ أم ربما أنا؟

كانـــت تلـــك أسئلة لا يمكنني طرحها عليه مباشرة. فكّرت في اعتماد طريقة مختلفة.

قلت: "بالطبع سألتزم الصمت. لكن لماذا؟".

أمـــسك دوغر مالجاً وبدأ يدفع تربة سوداء إلى قدر فخارية. لم ينظر إلي، لكن فكّه كان متسمراً بزاوية تشير بوضوح إلى أنه كان قد عقد العزم بخصوص شيء ما.

قـــال أخـــيراً: "هناك أشياء يجب أن تكون معروفة. وهناك أشياء أخرى يجب أن تبقى مجهولة".

مكتبة الرمحي أحمد

تجرأت على قول: "مثل ماذا؟".
انفرجت أسارير وجهه وكاد يبتسم.
قال: "اذهبـــي من هنا".

في مختـــبري، سحبت الرزمة الملفوفة بالورق من جيبـــي وفتحت طيّاتها بحرص.
تأوهت بخيبة أمل: كانت قيادة الدراجة وتسلق الجدران قد حوّلا الدليل إلى مجرد قطع صغيرة من فطيرة.
قلت بنبرة فرح في كلماتي: "آه، فتات. ماذا سأفعل الآن؟".
وضـــعت الريشة بحرص في مغلّف، ودسسته في درج بين رسائل تخص تار دي لوس، كانت قد كُتبت ورُدّ عليها عندما كانت هاريت في مـــثل عمـــري. لم يكن أحد سيفكّر في البحث هناك، وإضافة إلى ذلك، كما قالت دافني مرة، فإن أفضل مكان لإخفاء ملامح كئيبة هو مسرح الأوبرا.
حـــتى بـــشكلها المـــشوّه، ذكّرتني فتات الفطيرة أنني لم أكن قد تـــناولت شيئاً طيلة اليوم. كانت السيدة موليت تعدّ العشاء في بكشو، وفقـــاً لتقاليد قديمة، في وقت مبكر دائماً، ويتم تسخينه لاحقاً لنتناوله عند التاسعة مساءً.
كنت أتضور جوعاً بما يكفي لآكل... حسناً، لأتناول قطعة من فطيرة كسترد السيدة موليت الباردة. أمر غريب، أليس كذلك؟ كانت قد سألتني باكراً، بعد أن فقد والدي وعيه مباشرة، إن كنت استمتعت بالفطيرة... ولم أكن قد تناولت أي شيء على الإطلاق.
عـــندما مررت بالمطبخ عند الرابعة صباحاً، قبل أن أتعثر بتلك الجثة على الأرض المزروعة بالخيار؛ كانت الفطيرة لا تزال على عتبة

مكتبة الربيعي أحمد

النافذة حيث وضعتها السيدة موليت لتبرد. وكانت هناك قطعة مفقودة.

قطعة مفقودة بالفعل!

من أخذها؟ أتذكر أنني تساءلت عن ذلك سابقاً. لم يكن والدي أو دافني أو فيلي؛ فقد كانوا يفضّلون تناول ديدان بالقشدة على خبز محمص بدلاً من كسترد السيدة موليت اللعين.

لم يكن دوغر ليتناولها، لأنه لم يكن من الرجال الذين يحبّون الحلوى. وإذا كانت السيدة موليت قد أعطته القطعة، لم تكن لتظن أنني قد تناولتها، أليس كذلك؟

نزلت إلى الطابق السفلي وذهبت إلى المطبخ. كانت الفطيرة قد اختفت.

كان إطار زجاج النافذة لا يزال في مكانه المرتفع، كما كانت السيدة موليت قد تركته. هل أخذت باقي الفطيرة معها إلى المنزل لزوجها آلف؟

كان بمقدوري الاتصال بها هاتفياً وسؤالها، كما فكّرت، لكنني تذكرت عندها القيود التي فرضها والدي على استخدام الهاتف.

كان والدي من جيل يزدري *الأداة* كما يدعوها. لم يكن يرتاح أبداً لذلك الشيء، أو يتكلم عبره سوى في أحلك الظروف.

أخبرتني أوفيليا مرة أنه حتى عندما وصلت أنباء وفاة هاريت، كان يجب إرسالها برقياً لأن والدي رفض تصديق أي شيء لا يراه مطبوعاً. كان الهاتف في بكشو موجوداً لاستخدامه فقط في حال نشوب حريق، أو وقوع عارض طبي طارئ. كان أي استخدام آخر "للأداة" يتطلب موافقة والدي الشخصية، وهي قاعدة كان قد تم غرسها فينا منذ خرجنا من المهد.

مكتبة الرمحي أحمد

لا، كان يجب أن أنتظر حتى اليوم التالي لأسأل السيدة موليت عن الفطيرة.

أخرجت رغيف خبز من خزانة الأطعمة واقتطعت شريحة سميكة. دهنتها بالزبدة، ثم رششت عليها طبقة من سكر بني. طويت قطعة الخبز مرتين في منتصفها، وضغطت عليها في كل مرة براحة يدي. وضعتها في الفرن الدافئ وتركتها هناك مدة كانت كافية لأغني ثلاثة أبيات من "لو كنت أعرف أنك قادم، لكنت خبزت كعكاً".

لم تكن تلك كعكة تشلسي [بالزبيب] حقيقية، لكنها كانت ستفي بالغرض.

مكتبة الربيعي أحمد

عشرة

بالــــرغم من أننا - آل دي لوس - كاثوليك منذ كانت سباقات مـــركبات العجلتين رائجة جداً، إلا أن ذلك لم يمنعنا من الذهاب إلى ســـان تانكريد، دار العبادة الوحيدة في بيشوب لاسي وإحدى حصون الكنيسة الإنجيلية إذا كان هناك شيء مماثل.

كانت هناك عدّة أسباب لتصرفنا ذاك. أولاً موقعها القريب، وثانياً حقـــيقة أن والدي ورجلاً كانا قد انتسبا (بالرغم من أن ذلك حدث في وقـــتين مختلفين) إلى المدرسة نفسها في غريمنستر. إضافة إلى ذلك، كان والـــدي قـــد شرح لنا مرة أن الاحتفال الديني شيء دائم، مثل وشم. كانـــت سان تانكريد، كما قال، كنيسة كاثوليكية قبل الإصلاح الديني في أوروبا في القرن السادس عشر، وقد بقيت، في عينيه، على تلك الحال.

بالـــتالي، كـــل صباح أحد من دون استثناء كنا نمشي الهوينا عبر الحقـــول مـــثل البط، والدي في المقدمة يضرب بشكل متقطّع الطبقة النباتـــية بعـــصا مشي ملقة [من الخيزران]، ثم فيلي، دافني، وأنا بذلك الترتيب، ودوغر بأفضل ملابسه في الخلف.

لم يكن أحد في دار العبادة يعيرنا أدنى اهتمام. قبل بضع سنوات، كان هناك بعض التذمر من الإنجيليين. لكن، تمت تسوية كل شيء من دون إراقـــة دماء أو حدوث إصابات بتقديم مساهمة في الوقت المناسب إلى صندوق الإصلاح الخيري.

مكتبة الرمحي أحمد

قال والدي لرجل الدين *أخبرهم أنه بالرغم من الاختلاف في معتقداتنا إلا أننا لا ندعو عليهم.*

مرة، عندما فقدت فيلي صوابها واندفعت لتناول القربان، رفض والدي التكلم معها حتى الأحد التالي. منذ ذلك اليوم، كلما كانت تحرّك قدميها كثيراً في دار العبادة، كان والدي يتمتم: "اثبتي أيتها الفتاة". لم يكن بحاجة إلى النظر إلى عينيها، لأن مظهره الجانبي، الذي يشبه إلى حدٍّ كبير حامل بيارق في فيلق روماني متقشّف، كان كافياً لإبقائنا في أماكننا. على الأقل أمام الملأ.

الآن، عندما أنظر إلى فيلي تجثو وعيناها مغلقتان، وأناملها تمس بعضها وتشير إلى السماء، وشفتاها تطلقان كلمات ورع رقيقة، يجب أن أقرص نفسي لأتذكر أنني أجلس إلى جانب شقية.

سرعان ما أصبح رعايا دار عبادة سان تانكريد معتادين على انحنائنا وتمايلنا، واندماجنا في عمل الخير.

كان والدي قد قدم هبة سخية إلى صندوق إصلاح السقوف، وهو مبلغ خصمه من حصة دافني.

قالت دافني: "نظراً إلى أنني لا أملك حصة على كل حال، ليس هناك خاسر. إنه عقاب جيد، في الواقع".

أصغيت السمع، من دون أن أحرّك ساكناً، بينما كان الحاضرون يشتركون في "الاعتراف العام":

"لقد هجرنا تلك الأشياء التي يجب أن نقوم بها، وفعلنا تلك الأشياء التي يجب أن نبتعد عنها".

خطرت كلمات دوغر في ذهني:

"هناك أشياء يجب أن تكون معروفة. وهناك أشياء أخرى يجب أن تبقى مجهولة".

مكتبة الربيعي أحمد

استدرت ونظرت إليه. كانت عيناه مغلقتين وشفتاه تتحركان. وكذلك، كما لاحظت، كانت شفتا والدي.

كان الزجاج، أيضاً، رائعاً. كانت أشعة شمس الصباح تدخل عبر ثلاث نوافذ قدّم زجاجها الملون في العصور الوسطى صانعو زجاج شبه متجولين عاشوا وأفرطوا في الشراب على أطراف غابة أوفنهاوس، والتي لا تزال بقاياها تحدّ بكشو من الغرب.

كنت أعرف أنه تم الرسم على الزجاج بمزج أملاح مع رمل ومسحوق ملح قصب مستنقعات يدعى الأشنان [الحُرض]، وصهرها بفرن ساخن بما يكفي لجعل حتى شدرخ، ميشخ، وأبدنيغو [ثلاثة شبّان يهود تم تقديمهم إلى الملك نبوخذ نصر الثاني] يغيرون أفكارهم، ثم تبريدها حتى الحصول على اللون المرغوب.

عندما عاد ذهني إلى الحاضر، أدركت أن رجل الدين كان يطلب الرحمة للرجل الذي كنت قد عثرت عليه في الحديقة.

قال: "كان غريباً بيننا. ليس من الضروري أن يكون اسمه معروفاً لنا...".

ستكون تلك معلومة مهمة للمفتش هيوت، كما فكّرت.

"... حتى نسأل الله [العلي القدير] أن يرحم روحه، ويجعله يرقد بسلام".

إذاً فقد انتشر النبأ! لم تُضع السيدة موليت، كما ظننت، الوقت سدى في الانطلاق مسرعة عبر الدرب أمس لتنقل النبأ لرجل الدين. لم أكن لأصدّق أنه سمع ذلك من الشرطة.

كان هناك صوت أجوف مفاجئ نجم عن حركة مقعد خشبي، ونظرت باتجاهه في الوقت المناسب تماماً، لأرى الآنسة مونتجوي تغادر

مكتبة الربيعي أحمد

مكانها بين صفوف المقاعد، وتمشي مسرعة على طول الممر الجانبي إلى باب جناح دار العبادة.

همست لأوفيليا: "أشعر بالغثيان". وتركتني أتجاوزها من دون أن يطرف لها رمش. كانت أوفيليا تكره كثيراً أن يتقيأ أحد على أحذيتها، وهي معلومة مهمة كنت أستفيد منها من وقت إلى آخر.

في الخارج، كانت الريح تعصف، تهز بقوة أغصان الطقسوس [نوع من السرو] في ساحة دار العبادة، وتثير أمواجاً بين الأعشاب التي لم يتم جزّها بعد. لمحت الآنسة مونتجوي تختفي بين شواهد القبور التي تغطيها الطحالب، تتجه نحو البوابة المسقوفة العتيقة المتداعية للمدافن.

ما الذي كان قد أزعجها إلى ذلك الحد؟ للحظة فكّرت في أن أجري خلفها، لكنني عدلت عن ذلك. كان النهر يحيط بدار عبادة سان تانكريد بطريقة تجعل دار العبادة عملياً على جزيرة، وعبر القرون، كان الماء متعرّج المسلك قد وصل إلى الدرب القديم خلف البوابة المسقوفة. كان الطريق الوحيد المحتمل الذي يمكن أن تسلكه الآنسة مونتجوي لتصل إلى منزلها من دون أن تعود أدراجها يقتضي منها خلع حذائها، والخوض في الماء، فوق الحجارة المغمورة بالماء، والتي كانت سابقاً تشكل جسراً فوق النهر.

كان واضحاً أنها تريد أن تبقى وحدها.

انضممت إلى والدي مجدداً عندما كان يصافح كانون ريتشاردسون. ماذا بشأن الجريمة، لأننا نحن آل لوس كنا نحظى باحترام شديد، وكان القرويون بملابسهم الرسمية يصطفون ليتكلموا معنا أو، أحياناً، ببساطة ليمسّونا كما لو أننا طلاسم تجلب الحظ السعيد. كان الجميع يرغب في قول شيء، لكن لم يكن هناك أحد يودّ قول شيء مهم.

مكتبة الربيعي أحمد

كانوا يقولون لوالدي، أو لفيلي، أو لي: "حادث فظيع ذاك الذي وقع في بكشو".

كـنا نرد: "مروّع". ونصافحهم، ثم ننتظر الشخص التالي ليتقدم متـثاقلاً نحـونا. بعـد أن استقبلنا كل الجموع التي أمت دار العبادة، أصبحنا أحراراً في أن نعود أدراجنا إلى المنـزل.

بيـنما كـنا نعبر الحديقة، فُتح باب سيارة زرقاء مألوفة واقترب المفـتش هـيوت عبر الحصى للقائنا. كنت أظن أن تحقيقات الشرطة تـتوقف علـى الأرجح أيام الآحاد، ولهذا اندهشت قليلاً لرؤيته. حيّا والدي بإيماءة سريعة ومسّ طرف قبعته احتراماً لفيلي، لدافني، ولي.

"عقيد دي لوس، بضع كلمات... على انفراد إذا سمحت".

راقـبت والدي عن كثب، خشية أن يُغمى عليه مجدداً، لكن ما عدا اشتداد قبضته قليلاً على مقبض عصا المشي، لم يكن يبدو مندهشاً على الإطلاق. ربما كان، كما فكّرت، قد أعدّ نفسه لهذه اللحظة.

كـان دوغـر، في أثناء ذلك، قد انسل بهدوء نحو المنـزل، ربما ليستبدل بذلته قديمة الطراز بالرداء السروالي الخاص بالبستنة.

نظر والدي إلينا كما لو أننا مجموعة من إوزٍ متطفّل.

قال للمفتش: "تعالَ إلى مكتبـي". ثم استدار ومضى مبتعداً.

وقفـت دافـني وفيلي تحدّقان إلى الفراغ كما تفعلان عندما لا تعـرفان مـا تقولانه. للحظة فكّرت في كسر الصمت، لكن، عندما فكّـرت مجدداً، قرّرت ألا أفعل ذلك ومشيت مبتعدة بطريقة لامبالية، أدندن بطريقة "هاري لايم" من *الرجل الثالث [فيلم]*.

لأنـه كـان يوم الأحد، ظننت أنه من المناسب أن أذهب إلى الحديقـة، وألقي نظرة على المكان الذي كانت الجثة فيه. سيكون

مكتبة الربيعي أحمد

الأمـــر، بطـــريقة ما، مثل تلك اللوحات الفيكتورية التي تظهر فيها أرامـــل يضعن الخمار، ويجثمن ليضعن باقة من أزهار الثالوث المثيرة للشجن - عادة في كأس زجاجية - على قبور أزواجهن أو أمهاتهن. لكن بطريقة ما جعلتني تلك الفكرة أشعر بالحزن، وقررت التغاضي عن الشكليات.

مـــن دون الـــرجل المـــيت، لم تكن البقعة المزروعة بالخيار مثيرة للاهـــتمام، وليـــست أكثـــر من قطعة أرض خضراء مع سيقان نبات مكـــسورة هـــنا وهناك، وشيء يبدو مثيراً للشبهات مثل علامة عقب قـــدم. بين الأعشاب، رأيت الثقوب، التي كانت قوائم مسند الرقيب ولمار الثقيلة وحادة الأطراف، قد تركتها على الأرض.

كنت أعرف من الاستماع إلى فيليب أوديل، التحري الخاص في بـــرنامج إذاعي، أنه كلما وقعت حالة وفاة مفاجئة وغير متوقعة، يجب أن تُفحص الجثة، ولم يسعني سوى أن أتساءل إذا كان د. داربـــي قد وضـــع الجـــثة - كمـــا كنت قد سمعته يقول للمفتش هيوت - على الطاولة. لكن مجدداً، كان ذلك شيئاً أخشى أن أسأل عنه، على الأقل في ذلك الوقت.

نظـــرت إلى الأعلى إلى نافذة غرفة نومي. كانت تنعكس عليها، قـــريبة جداً بحيث كان بمقدوري تقريباً مسّها، صور غيوم بيضاء كبيرة تطفو في بحر من سماء زرقاء.

قـــريبة جداً! بالطبع! كانت البقعة المزروعة بالخيار تحت نافذتي مباشرة!

إذاً، لماذا لم أسمع شيئاً؟ يعرف الجميع أن قتل إنسان يتطلب بذل مقدار معين من الطاقة الحركية. نسيت الصيغة الدقيقة، بالرغم من أنني أعـــرف أنهـــا موجودة. ينجم عن القوة المطبّقة خلال مدة قصيرة من

مكتبة الرمحي أحمد

الزمن (رصاصة مثلاً)، مقدار كبير من الضوضاء، بينما قد لا ينجم عن القوة التي يتم تطبيقها ببطء أكبر صوت على الإطلاق.

مـــا الذي استنتجه من ذلك؟ استنتجت أنه إذا كان الغريب قد تعـــرض لهجـــوم عنيف، فلا بد أن ذلك حصل في مكان آخر، خارج مدى سمعي. إذا كان قد تعرض لهجوم حيث وجدته، فلا بد أن القاتل استخدم أداة صامتة، صامتة وبطيئة لأنني عندما وجدته كان الرجل لا يزال، وإن بالكاد، على قيد الحياة.

كان الرجل قد قال وهو يحتضر: *"فالي"* . لكن لماذا سيقول وداعاً لي؟ كانـــت تلك هي الكلمة التي صرخ بها السيد توييننغ قبل أن يقفز ليلقى حتفه، لكن ما الصلة بينهما؟ هل كان الرجل في البقعة المزروعة بالخـــيار يحاول ربط وفاته بوفاة السيد توييننغ؟ هل كان موجوداً عندما قفز الرجل العجوز؟ هل كانت له يد في ذلك؟

كـــنت بحاجـــة إلى التفكير في الأمر، أن أفكر من دون وجود ما يعكـــر صفوي. كان المرأب خارج نطاق حساباتي لأنني كنت أعرف آنذاك أنني، في أوقات الشدّة، قد ألتقي بوالدي يجلس مع شبح هاريت. لم يترك لي ذلك سوى المبنى القديم المتهالك.

علـــى الطـــرف الجنوبـــي من بكشو، على جزيرة اصطناعية في بحـــيرة اصطناعية، كان هناك بناء عتيق، على شكل دار عبادة رومانية صـــغيرة من الرخام الملطخ بالأشنّة. كانت تقبع آنذاك غارقة بالإهمال يكـــسوها القـــرّاص، لكـــن مرّ عليها وقت كانت فيه إحدى مفاخر إنكلتـــرا؛ قبة صغيرة على أربعة أعمدة جميلة رفيعة ربما كانت تشكل منـــصّة فـــرقة موسيقية على برنسوس [جبل في اليونان]. كان عدد لا يحصى من آل دي لوس في القرن الثامن عشر قد اصطحبوا ضيوفهم إلى ذلـــك المـــبنى على متن مراكب كرنفالية مزينة بالورود، حيث كانوا

يتناولون لحوماً ومعجنات باردة ويشاهدون البجع يحط على الماء الساكن، ويراقبون عبر مناظير الشخص الذي كان يتم استخدامه ليعمل ناسكاً وهو يتثاءب ويفغر فمه دهشة عند مدخل كهفه المغطّى باللبلاب.

كانت كبابيليتي براون قد صممت الجزيرة، البحيرة، والمبنى القديم (بالرغم من أن ذلك كان موضع تساؤل أكثر من مرة على صفحات *نوتس آند كيريز [ملاحظات وتساؤلات]*، التي كان والدي يقرأها بنهم، لكن فقط تحسباً لظهور قضايا تتعلق بجمع الطوابع البريدية)، وكانت لا تزال في مكتبة بكشو حقيبة جلدية حمراء كبيرة تحتوي على مجموعة موثّقة من رسوم المنظر الطبيعي الأصلية. كانت تلك تثير دعابة صغيرة من جانب والدي الذي قال: "ليعش أولئك الحكماء الآخرون في أكواخهم الخاصة".

كان هناك تقليد عائلي يقول إنه في إحدى النزهات إلى كوخ بكشو ابتكر جون مونتاغو [وهذا لقب إنكليزي أدنى من مركيز وأرفع من فيكونت] سندويش إيرل الرابع، الشطيرة التي مُنحت اسمه عندما كان أول من وضع شريحة باردة من لحم الطيهوج بين قطعتي خبز بينما كان يلعب الكريبج [إحدى ألعاب الورق] مع كورنيلوس دي لوس.

كان والدي قد قال: "اللعنة على التاريخ".

آنذاك، بعد أن خضت في ماء لا يتجاوز عمقه قدماً واحدة إلى الجزيرة، جلست على درجات دار العبادة الصغيرة، وقدماي متعبتان، وذقني على ركبتي.

أولاً وقبل كل شيء، كانت هناك فطيرة كسترد السيدة موليت.

أين اختفت؟

مكتبة الرمحي أحمد

تركت ذهني يسرح عائداً إلى الساعات الأولى من صباح الأحد. تخـيلت نفـسي أنـزل على السلالم، أعبر الرواق إلى المطبخ، ونعم، كانت الفطيرة بالتأكيد على عتبة النافذة. ولم يكن ينقصها سوى قطعة واحدة فقط.

لاحقـاً، كانـت السيدة موليت قد سألتني إن كنت استمتعت بالفطيرة. لماذا أنا؟ تساءلت. لماذا لم تسأل فيلي أو دافني؟

ثم خطـرت لي الفكرة مثل قصف الرعد! كان الرجل الميت قد أكلها. نعم. كان كل شيء يبدو منطقياً!

كان هناك مريض سكري قطع رحلة طويلة من النرويج، وجلب معـه شُنقباً مخفياً في فطيرة. كنت قد عثرت على بقايا تلك الفطيرة - إضـافة إلى الريشة - في ثلاثة عشر علجوماً، وكان قد تم إلقاء الطائر الميت على عتبة بابنا. لم يتناول أي طعام - بالرغم من أنه، وفقاً لتولي ستوكر، كان قد تناول شراباً في المشرب - كان الغريب قد شق طريقه إلى بكـشو ليلة الجمعة، تشاجر مع والدي، وفي طريق خروجه مرّ عبر المطبخ واقتطع لنفسه شريحة من فطيرة كسترد السيدة موليت. ولم يكن قد تجاوز البقعة المزروعة بالخيار حتى جعلته ينهار أرضاً!

مـا نـوع السم الذي يمكن أن يعمل بتلك السرعة؟ استعرضت الاحتمالات الأكثر ترجيحاً. يظهر تأثير السيانيد خلال دقائق؛ بعد أن يـصبح لون الوجه أزرق، تختنق الضحية مباشرة تقريباً. تركت خلفي رائحـة لـوز مرّ. لكن لا، في حال استخدام السيانيد، كان الغريب [الـضحية] سـيلقى حـتفه قبل أن أعثر عليه. (بالرغم من أنني يجب أن أعترف أنني أميل إلى السيانيد. عندما يتعلق الأمر بالسرعة، يكون في أعلـى اللائحـة. لو أن السموم كانت جياداً، كنت سأراهن بمالي على السيانيد).

مكتبة الربيعي أحمد

لكن، هل كانت رائحة اللوز المر هي ما شممته في آخر أنفاسه؟ لم أكن واثقة من ذلك.

ثم كان هناك الكورار [مادة تستخرج من بعض النباتات الاستوائية، يستعملها هنود أميركا الجنوبية لتسميم السهام]. كان لها، أيضاً، تأثير مباشر تقريباً، ومجدداً، يموت الضحية خلال دقائق نتيجة الاختناق. لكن الكورار لا يقتل إذا تم تناوله مع الطعام، وليكون مميتاً يجب أن يتم حقنه. إضافة إلى ذلك، من في الريف الإنكليزي - سواي بالطبع - يمكن أن يكون لديه كورار؟

ماذا عن التبغ؟ تذكرت أنه يمكن نقع حفنة من أوراق التبغ في مرطبان مليء بالماء، ووضعه تحت أشعة الشمس لبضعة أيام، ثم تبخيرها والحصول على راتينج [مادة صمغية] أسود كثيف مثل الدبس، الذي يسبب الموت خلال ثوان. لكن *نيكوتنيا* [أحد أنواع نبات التبغ] كانت تنمو في أميركا، ولم يكن محتملاً العثور على أوراقها النضرة في إنكلترا، أو في ما يخص تلك القضية في النرويج.

سؤال: هل يمكن أن ينتج عن بقايا تبغ السجائر، السيجار، أو الغليون سم قاتل؟

نظراً إلى عدم وجود من يدخّن في بكشو، كان عليّ أن أجمع عينات بنفسي.

سؤال: متى (وأين) يتم تفريغ منافض لفائف التبغ في ثلاثة عشر علجوماً؟

كان السؤال الحقيقي: من وضع السم في الفطيرة؟ و الأكثر أهمية، إذا كان الرجل الميت قد تناول قطعة الفطيرة بالصدفة، من كان الشخص المقصود بذلك أصلاً؟

ارتعشت عندما مرّ ظل فوق الجزيرة، ونظرت إلى الأعلى بينما كانت غيمة سوداء تغطي الشمس. كانت ستمطر، وقريباً.

مكتبة الرمحي أحمد

لكـــن قبل أن أتمكّن من الوقوف على قدميّ انهمر المطر مدراراً، وثارت إحدى عواصف أوائل حزيران المفاجئة، والصغيرة لكن القوية، التي تطيح بالأزهار، وتنشر الفوضى في كل مكان. حاولت العثور على بقعـــة جافة محمية في وسط القبة تحديداً حيث سأكون بمنأى عن المطر المنهمر. لم يكن ذلك ليحدث فرقاً كبيراً، ناهيك عن الريح الباردة التي كانـــت تعـــصف فجأة من كل مكان. ضممت ذراعي حول جسمي طلباً للدفء. كان يجب أن أنتظر انتهاء العاصفة، كما فكّرت.

"مرحباً! هل أنت بخير؟".

كـــان رجـــل يقف على الطرف البعيد من البحيرة، ينظر إلي على الجزيرة. عبر شلالات المطر المنهمر، لم أستطع رؤية أكثر من خيالات من لـــون عاتم، مما كان يمنحه مظهر شخص في لوحة انطباعية. لكن، قبل أن أتمكـــن من الرد، كان قد رفع طرفيّ سرواله وخلع حذاءه، وخاض في الماء بسرعة حافي القدمين نحوي. بينما كان يسند نفسه إلى عصا المشي الطويلة التي كانت بحوزته، كان الشيء على كتفيه في الواقع كيس خيش.

كـــان يـــرتدي بذلة عمل فضفاضة ويعتمر قبعة بحافة عريضة مرنة. يـــشبه قليلاً ليزلي هاورد، نجم الأفلام، كما فكّرت. كان في الخمسين من العمر، كما خمّنت، بعمر والدي تقريباً لكن كان رشيقاً بالرغم من ذلك.

مـــع دفتر رسم مانع لنفاذ الماء في إحدى يديه، كان صورة طبق الأصل عن الفنان - الرسّام المتجول، أولد أنكلاند، أو هذا ما ظننته.

كـــرّر: "هل أنتِ بخير؟". وأدركت أنني لم أكن قد أجبته عندما سأل أول مرة.

قلـــت، أهـــذر قليلاً للتغطية على فظاظتي المحتملة: "على خير ما يرام، شكراً لك. لقد حاصرتني الأمطار، كما ترى".

قال: "أرى ذلك بالفعل. أنتِ مبللة تماماً".

مكتبة الربيعي أحمد

صـــحّحت له: "ليس إلى حدّ الإشباع". عندما كان الأمر يتعلق بالكيمياء، كنت دقيقة للغاية.

فتح كيس الخيش، وأخرج رداءً من دون ردنين مانعاً لنفاذ المطر، مـــن النوع الذي يرتديه المتنـــزهون في هبريدس [أرخبيل قبالة الساحل الغربـــي لاسكتلندا]. لفّه حول كتفيّ وشعرت بالدفء مباشرة.

قلت: "لم تكن هناك حاجة... لكن شكراً لك".

وقفـــنا هناك معاً تحت الماء المنهمر، لا نتكلم، كل منا ينظر عبر البحيرة، ويصغي إلى صوت المطر.

قـــال بعد لحظة: "نظراً إلى أننا التقينا على جزيرة معاً، أفترض أنه لن يضر أياً منا أن نتبادل اسمينا".

حاولـــت تحديـــد لهجـــته: أوكسفورد مع لمسة من مكان آخر. اسكندنافي، ربما؟

قلت: "أنا فلافيا. فلافيا دي لوس".

"اسمي بمبرتون، فرانك بمبرتون. سعيد بلقائك يا فلافيا".

بمـــبرتون؟ ألم يكن هو الرجل الذي وصل إلى ثلاثة عشر علجوماً عندما كنت أتدبر أمر هروبـــي من تولي ستوكر؟ أردت أن تبقى تلك الزيارة سراً، لهذا لم أنبس ببنت شفة.

تـــصافحنا بـــيدين مبللتين بالماء، ثم ابتعدنا عن بعضنا كما يفعل الغرباء غالباً بعد أن يكونوا قد تعارفوا.

اســـتمر المطـــر بالهطول. قال بعد لحظة: "في الواقع، أعرف من تكونين".

"حقاً؟".

"مم. بالنسبة إلى أي شخص يهتم فعلاً بالمنازل الريفية الإنكليزية، دي لوس اسم معروف تماماً. عائلتك، بالمحصلة، على لائحة المشاهير".

مكتبة الربيعي أحمد

"هل *أنت* مهتم حقاً بالمنازل الريفية الإنكليزية يا سيد بمبرتون؟".

ضحك. "اهتمام مهني، كما أخشى. في الحقيقة، أنا أؤلف كتاباً عـن الموضوع. فكّرت في أن أعنونه *منازل بمبرتون الفخمة: جولة عبر الزمن*. له وقع مؤثر، ألا تظنين ذلك؟".

قلت: "أظن أن ذلك يعتمد على من تحاول التأثير فيه، لكنه مؤثر، نعم... وقعه، أعني".

"منـزلي في لندن، بالطبع، لكنني أتجول في هذا الجزء من الريف منذ وقت طويل، أخربش في دفاتر ملاحظاتي. كنت آمل بإلقاء نظرة على العقار، ومقابلة مع والدك. في الحقيقة، أنا هنا لهذا السبب".

قلت: "لا أظن أن ذلك ممكن يا سيد بمبرتون. كما تعرف، وقعت حال وفاة مفاجئة في بكشو، ووالدي... يساعد الشرطة في تحقيقاها".

من دون تفكير، كنت قد استعرت الجملة من مسلسل إذاعي أتذكره، ولم أدرك أهميتها حتى قلتها.

قال: "يا الله! وفاة مفاجئة؟ ليس المتوفى أحداً من العائلة على ما آمل".

قلت: "لا. إنه غريب تماماً. لكن لأنه كان في حديقة بكشو، كما تعرف، فإن والدي ملزم...".

في تلك اللحظة توقف المطر فجأة كما كان قد بدأ. ظهرت الشمس لترسم أقواس قزح على الأعشاب، وفي مكان ما على الجزيرة، صاح وقواق، تماماً كما يفعل في نهاية العاصفة في السيمفونية الرعوية [السادسة] لبيتهوفن. أقسم إنه فعل ذلك.

قال: "أتفهم تماماً. لن أتطفل عليه. إذا رغب العقيد دي لوس في الاتصال بي في وقت لاحق، سأكون في ثلاثة عشر علجوماً، في

مكتبة الرمحي أحمد

بيــشوب لاســي. أنا واثق من أن السيد ستوكر سيكون سعيداً بنقل رسالة".

نــزعت الرداء عن كتفيّ وسلّمته له.

قلت: "شكراً لك. من الأفضل أن أعود الآن".

خــضنا المــاء عائدين عبر البحيرة معاً مثل زوجٍ من المستجمين اللذين يمضيان عطلتهما على شاطئ البحر.

قــال: "كــان مــن دواعي سروري لقاؤك يا فلافيا. في الوقت المناسب، أنا واثق أننا سنصبح صديقين بسرعة".

راقبــته بينما كان يمشي على المرج الأخضر نحو طريق الكستناء حتى غاب عن ناظري.

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

أحد عشر

وجدت دافني في المكتبة، تجلس على أعلى سلم مدولب.

سألت: "أين والدي؟".

قلبت صفحة، وتابعت القراءة كما لو أنني لم أولد أصلاً.

"دافني؟".

شعرت أن مرجلي الداخلي بدأ بالغليان. تلك القِدر التي تفور بخلطة سرية يمكنها بسرعة كبيرة أن تحوّل فلافيا/*الخفية* إلى فلافيا *الرعب*.

أمسكت بإحدى درجات السلم وهززته بعنف، ثم دفعته ليبدأ التحرك. حالما بدأ يتحرك، أصبح الأمر سهلاً جداً، وكانت دافني تتشبث في الأعلى مثل بطلينوس [وهو حيوان من الرخويات] مشدوه بينما كنت أدفع السلالم على أرضية الغرفة الطويلة.

"توقفي يا فلافيا! توقفي!".

بينما كان مدخل الغرفة يقترب بسرعة تنذر بالخطر، توقفت، ثم درت من خلف السلالم وانطلقت مسرعة مجدداً في الاتجاه المعاكس، وخلال كل ذلك الوقت كانت دافني تتمايل في الأعلى مثل مراقب على سفينة لصيد الحيتان تتعرض لعاصفة في شمالي الأطلسي.

صرخت: "أين والدي؟".

"لا يزال في مكتبه مع المفتش. أوقفي هذا! توقفي!".

مكتبة الربيعي أحمد

عــندما ظهــر شحوب حول اللغد [لحم متدلٍ تحت الذقن]، توقفت.

نـــزلت دافـــي ترتعش على السلم، وخطت بحذر شديد على الأرضـــية. ظننت للحظة أنها ستندفع نحوي، لكن، بدا أنها ستستغرق وقتاً أطول من المعتاد لاستعادة توازن قدميها على الأرض.

قالت: "أحياناً تخيفيني".

كـــنت على وشك أن أقول إن هناك أوقاتاً أخيف فيها نفسي، لكـــنني تذكـــرت عندها أنه إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب. أمسكت لساني.

كـــان بـــياض عينيها لا يزال بارزاً، مثل حصان فزع يجر عربة، وقررت الاستفادة من اللحظة.

"أين تعيش الآنسة مونتجوي؟".

بدت نظرة دافني بلهاء.

أضفت: "آنسة المكتبة مونتجوي".

قالت دافني: "ليست لدي أدنى فكرة. لم أزر المكتبة في القرية منذ كنت طفلة".

كانت لا تزال مشدوهة، ونظرت إلي من فوق نظارتها.

"كنت أفكر في طلب مساعدتها لأصبح أمينة مكتبة".

كانت تلك كذبة متقنة، وتحولت نظرة دافني إلى احترام.

قالـــت: "لا أعـــرف أيـــن تعيش. اسألي الآنسة كول، في متجر الحلويات. إنها تعرف كل شاردة وواردة في بيشوب لاسي".

قلت بينما كانت تجلس على مقعد قريب: "شكراً يا دافني. أنتِ شخص طيب".

مكتبة الربيعي أحمد

إحدى الفوائد الرئيسة للعيش قرب قرية هي أنه بمقدورك، إذا تطلّب الأمر ذلك، الوصول إليها بسرعة. أسرعت على متن غلاديز، وكنت أفكّر في أنها قد تكون فكرة جيدة أن أحتفظ بسجل لها، كما يفعل قادة الطائرات. بحلول ذلك الوقت، لا بد أنني وغلاديز قد أمضينا مئات الساعات معاً، معظمها في الذهاب والمجيء من بيشوب لاسي. بين الحين والآخر، مع سلة نزهات كبيرة ذات غطاء مربوطة إلى القسم الخلفي الأسود منها، كان بمقدورنا المضي بعيداً في الحقول.

مرة، كنا قد قطعنا مسافة طويلة استغرقت منا الصباح كله لإلقاء نظرة على الخان، حيث قيل إن ريتشارد ميد [طبيب إنكليزي] قد أقام فيه ليلة واحدة عام 1747. كان ريتشارد (أو ديك كما أشير إليه أحياناً) مؤلف *الحساب الكمّي للسموم في عدة مقالات*. نُشر عام 1702، كان أول كتاب عن هذا الموضوع باللغة الإنكليزية، وكانت النسخة الأولى منه فخر مكتبتي الكيميائية. ضمن مجموعة الصور التي أحتفظ بها في غرفة نومي، كانت هناك صورة له ملصقة على المرآة إلى جانب صور هنري كافنديش [فيزيائي بريطاني]، روبرت بنسن [كيميائي ألماني]، وكارل ويلهلم شيلي [كيميائي سويدي]، بينما كانت دافني وفيلي تحتفظان بصور لتشارلز ديكنز وماريو لانزا [ممثلان أميركيان] على التوالي.

يقع متجر الحلويات على الشارع الرئيس في بيشوب لاسي بين متجر الحانوتي من جهة ومتجر الأسماك من جهة أخرى. أسندت غلاديز إلى النافذة المصنوعة من زجاج سميك وأمسكت بمقبض الباب.

أطلقت شتائم بصوت خافت. كان المكان موصداً بإحكام مثل أولد ستنك.

مكتبة الربيعي أحمد

لماذا كان الكون يتآمر ضدي على ذلك النحو؟ أولاً الخزانة، ثم المكتبة، والآن متجر الحلويات. بدأت حياتي تصبح ممراً طويلاً من الأبواب الموصدة.

ضممت يدي على النافذة ونظرت إلى الداخل المعتم.

لا بد أن الآنسة كول كانت قد أنهت عملها أو ربما، مثل كل شخص آخر في بيشوب لاسي، لديها وضع عائلي طارئ. أمسكت بالمقبض بكلتا يدي وهززت الباب بعنف، بالرغم من أنني كنت أعرف أنه لا فائدة ترجى من ذلك.

تذكرت أن الآنسة كول تعيش في منزل مؤلف من غرفتين خلف المتجر. ربما كانت قد نسيت فتح قفل الباب. يفعل أشخاص عجائز دائماً أشياء مشابهة، يصابون بالخرف و -

لكن ماذا إن ماتت أثناء نومها؟ كما فكّرت. أو أسوأ...

نظرت إلى الاتجاهين لكن الشارع الرئيس كان خالياً. لكن انتظري! كنت قد نسيت بشأن زقاق السهم، وهو نفق مظلم رطب من حجارة وآجر يقود إلى الساحات خلف المتاجر. بالطبع! انطلقت نحوه فوراً.

كانت رائحة زقاق السهم توحي بالماضي، وقد قيل إنه كان يضم سابقاً مصنعاً سيئ السمعة لتحضير الشراب. ارتعش جسمي رغماً عني بعد أن تردد صدى وقع قدميّ عن جدرانه التي تغطيها الطحالب وسقفه الذي يقطر ماء. حاولت عدم مس الآجر الملطخ بالأشنّة والذي تعبق منه رائحة قوية على كلا جانبيه، أو استنشاق هوائه الكريه، حتى خرجت إلى ضوء الشمس على الطرف الآخر من الممر.

كان يحيط بساحة الآنسة كول الخلفية الصغيرة جدار منخفض من الآجر المحطم. كانت بوابتها الخشبية مغلقة برتاج من الداخل.

مكتبة الربيعي أحمد

تسلقت الجدار، مشيت مباشرة نحو الباب، وطرقته بقوة براحة يدي.

وضعت أذني على اللوح الخشبي، لكن لم يكن يبدو أن هناك شيئاً يتحرك في الداخل.

شرعت في المشي، خضت في الأعشاب التي تنمو كيفما اتفق، ووضعت أنفي على أسفل لوح النافذة الزجاجي المتسخ. كان ظهر خزانة يحجب رؤيتي.

في إحدى زوايا الساحة كان هناك مأوى متداعٍ لكلب؛ كان ذلك كل ما تبقى من كولي [كلب رعي كثيف الشعر] الآنسة كول، جوردي، بعد أن دهسته سيارة مسرعة في الشارع الرئيس.

جذبت الهيكل الخشبي المتداعي بقوة حتى تحرر من البقعة التي كان مثبتاً بها على الأرض، وسحبته عبر الساحة حتى أصبح تحت النافذة مباشرة. ثم صعدت فوقه.

فوق مأوى الكلب، لم يكن الأمر يتطلب سوى خطوة واحدة أخرى إلى الأعلى كي أستطيع وضع أصابع قدمي على حافة النافذة، حيث وقفت من دون ثبات على اللوح الخشبي، وذراعاي وقدماي ممدودتان مثل "رجل فيتروفيان" [لوحة] لليوناردو دا فنشي، إحدى يديّ تمسك بإحكام بمصراع النافذة والأخرى تحاول مسح جزء من الزجاج المتسخ لأتمكن من رؤية ما يوجد بالداخل.

كان المكان مظلماً داخل غرفة النوم الصغيرة، لكن كان هناك ضوء يكفي لرؤية الجسد المستلقي على السرير؛ رؤية الوجه الأبيض الذي كان يحدّق إليّ، والذي فغر فمه دهشة وهو يقول: "أوه!".

قالت الآنسة كول وهي تقف على قدميها، وزجاج النافذة يكتم كلماتها: "فلافيا! ماذا *بحق الله* -؟".

مكتبة الرمحي أحمد

انتزعت أسنانها الاصطناعية من كأس وأدخلتها في فمها، ثم اختفت للحظة، وبينما كنت أقفز إلى الأرض سمعت صوت الرتاج يتحرك إلى الخلف. فُتح الباب نحو الداخل ليكشف عنها واقفة هناك - مثل غرير عالق في شرك - ترتدي ثوباً خفيفاً، تغلق وتفتح يديها بينما تنتاب حنجرتها نوبات تقلص عصبية.

كرّرت: "ماذا بحق الله...؟ ما الأمر؟".

قلت: "الباب الأمامي موصد. لم أستطع الدخول".

قالت: "بالطبع إنه موصد. إنه موصد دائماً أيام الآحاد. كنت أغفو قليلاً".

فركت عينيها السوداوين الصغيرتين، اللتين كانتا لا تزالان نصف مغمضتين نتيجة تعرضهما للضوء.

ببطء بدأ يتضح لي أنها كانت على حق. كان يوم الأحد. بالرغم من أنني شعرت أن دهراً قد مرَّ، إلا أنني كنت في صبيحة ذلك اليوم نفسه أجلس في دار عبادة سان تانكريد مع عائلتي.

لا بد أنني كنت أبدو مرتبكة.

قالت الآنسة كول: "ما الأمر يا عزيزتي؟ تلك الحادثة المروّعة في بكشو؟".

إذاً، كانت تعرف بشأنها.

"آمل أنك كنت واعية بما يكفي للابتعاد عن المسرح الحقيقي للـ...".

قلت بابتسامة ندم: "نعم، بالطبع يا آنسة كول. لكن طُلب إليّ عدم التحدث بالأمر. أنا واثقة أنك ستتفهمين ذلك".

كانت تلك كذبة، لكن من الطراز الأول.

قالت وهي تنظر إلى الأعلى على نوافذ تغطيها ستائر من الداخل لصف متصل من المنازل التي تطل على فنائها: "يا لك من

فتاة طيبة. هذا ليس مكاناً مناسباً لنتكلم فيه. من الأفضل أن تدخلي منـــزلي".

قـــادتني عبر رواق ضيق، على أحد جانبيه غرفة نومها الصغيرة، وعلى الجانب الآخر غرفة معيشة منمنمة. وفجأة كنا في المتجر، خلف النـــضد الـــذي يشكل مكتب بريد القرية. إلى جانب كونها الحلواني الوحـــيد في بيـــشوب لاســـي، كانت الآنسة كول مدير مكتب بريد القرية، وبالتالي تعرف كل ما يستحق المعرفة، ما عدا الكيمياء، بالطبع.

راقبـــتني بحرص بينما كنت أنظر في الأرجاء باهتمام إلى طبقات الـــرفوف، التي تصطف على كل منها مرطبانات زجاجية مليئة بأعواد حلوى الفراسيون، عين الثور، ومئات – و – آلاف.

"آسفة. لا يمكنني أن أعمل أيام الآحاد. سيجعلني ذلك أمثل أمام القضاة. إنه القانون كما تعرفين".

هززت رأسي بحزن.

قلت: "آسفة. نسيت أن اليوم عطلة. لم أكن أقصد إخافتك".

قالـــت: "حـــسناً، لم يقـــع أي ضرر". وبدا أنها استعادت فجأة قدراتها المعتادة على الثرثرة، وتحركت بنشاط في أرجاء المتجر، تمس من دون هدف معين هذا الشيء وذاك.

"أخبري والدك أن مجموعة جديدة من الطوابع ستصل قريباً، لكن لا شـــيء يـــبهج حقاً، على الأقل بالنسبة إليّ، على كل حال. بعض الصور القديمة لرأس الملك جورج، ليباركه الله، لكن بألوان جديدة".

قلت: "شكراً لكِ يا آنسة كول. سأنقل له ذلك بالتأكيد".

تابعـــت القـــول: "أنا واثقة أن العاملين في مكتب البريد العام في لـــندن يمكنهم تقديم شيء أفضل من ذلك، لكنني كنت قد سمعت أنهم يدّخرون جهودهم للعام القادم للاحتفال *بمهرجان بريطانيا*".

مكتبة الربيعي أحمد

قلـــت مـــن دون تفكير: "أتساءل إن كان بمقدورك إخباري أين تعيش الآنسة مونتجوي؟".

"تيلدا مونتجوي؟". ضاقت عيناها. "ما الذي تريدينه منها؟".

"ساعدتني كثيراً في المكتبة، وظننت أنه سيكون لطيفاً أن آخذ لها بعض الحلويات".

رسمت على وجهي ابتسامة عذبة تتماشى مع ذلك الشعور.

كانت تلك كذبة وقحة. لم أكن قد فكّرت في الأمر لحظة واحدة حـــتى ذلك الوقت، عندما رأيت أن بمقدوري إصابة عصفورين بحجر واحد.

قالـــت الآنسة كول: "آه، نعم. غادرت مرغريت بيكري لتعتني بـــشقيقتها في نـــيذر - ولسي: سنجر [آلة الخياطة]، الإبرة، الإصبع، الـــتوأم، الـــزوج صعب المراس، القارورة، الأدوية... مناسبة عون غير متوقعة لتيلدا مونتجوي...".

قالـــت فجـــأة: "أقراص حلوى. سواء أكان اليوم يوم الأحد أو غيره، ستكون أقراص الحلوى الخيار المناسب".

قلت: "سآخذ بقيمة ستة بنسات".

أضـــفت: "... ومـــا قيمـــته شلن من أعواد الفراسيون". كان الفراسيون يمثل شغفاً خاصاً بالنسبة إليّ.

مشت الآنسة كول على أطراف أصابع قدميها إلى واجهة المتجر وأغلقت الستائر.

قالت بصوت تآمري: "فقط بيني وبينك وبين عمود البوابة".

وضَعَت أقراص الحلوى في كيس ورقي بنفسجي فاتح اللون يبدو ببـــساطة كأنـــه يصرخ ليتم ملؤُه بمغرفة أو اثنتين من الزرنيخ أو جوز *القيء* [شجر يُستخرج الأستركنين من بذوره المجففة].

مكتبة الربيعي أحمد

قالـــت وهي تلف أعواد الفراسيون بالورق: "الحساب كله شلن وســتة بنسات". ناولتها شلنين وفيما كانت لا تزال تبحث في جيوبها، قلت: "لا بأس بذلك يا آنسة كول، لا أريد فكّة".

ابتسمت، وأضافت أعواد فراسيون إضافية إلى الرزمة: "يا لك من فتاة رائعة. لو كان لديّ أولاد، لكنت آمل أن يكونوا بنصف اهتمامك وكرمك".

أظهـــرت لها شبه ابتسامة واحتفظت ببقيتها لنفسي بينما كانت ترشدني إلى منـــزل الآنسة مونتجوي.

قالـــت: "فـــيلا الصفـــصاف. لا يمكـــن أن تخطئـــيها. إنهـــا برتقالية".

كانـــت فيلا الصفصاف، كما قالت الآنسة كول، برتقالية، من اللـــون الـــذي تراه عند ظهور فطر رأس الموت [سام]. كان المنـــزل متوارياً في الظلال تحت مظلة خضراء كبيرة لشجرة صفصاف ضخمة تهتز أغصانها مع النسيم، وتزيل التراب من تحتها مثل مكانس ساحرات قصص الأطفال. كانت حركتها قد جعلتني أفكر في قطعة موسيقية من القـــرن السابع عشر تعزفها وتغنيها فيلي أحياناً – جميلة جداً، يجب أن أعترف – عندما تفكر في نيد:

شجرة الصفصاف ستتلوى، وشجرة الصفصاف سترقص،
آه أتمنى لو كنت بين ذراعي الشاب العزيز الذي يمتلك قلبـــي.

كان عنوان الأغنية *بذور الحب*، بالرغم من أن الحب لم يكن أول شيء يخطر ببالي كلما رأيت شجرة صفصاف، بل على العكس، كانت تذكـــرني دائماً بأوفيليا (شكسبير، وليس شقيقتي) التي أغرقت نفسها قرب شجرة مماثلة.

مكتبة الربيعي أحمد

ما عدا بقعة أعشاب بحجم منديل على أحد الطرفين، كانت شجرة صفصاف الآنسة مونتجوي تملأ الفناء المحاط بسياج. حتى على عتبة الباب، شعرت برطوبة المكان، كانت أغصان الشجرة الواهنة تشكل قوساً يتغلغل منه ضوء خفيف، مما منحني شعوراً غريباً أنني تحت الماء. كانت طحالب خضراء زاهية تشكل دعسة أمام عتبة الباب، وبقع الماء تنشر أصابعها السوداء على وجه المبنى البرتقالي.

كانت على الباب مقرعة نحاسية متأكسدة رُسِم عليها وجه شقي لينكولن [رمز مدينة لينكولن] مكشّر. رفعتها وقرعت بها الباب عدّة مرات. بينما كنت أنتظر، نظرت من دون اهتمام إلى الأعلى تحسباً لوجود شخص ينظر إلي من خلف الستائر.

لكن القماش الذي يعلوه الغبار لم يتحرك. كان الأمر يبدو كما لو أنه لا توجد نسمة هواء داخل ذلك المكان.

إلى اليسار، كان ممشى مرصوف بآجر قديم محطم يلتف حول المنزل، وبعد الانتظار عند الباب لدقيقة أو اثنتين، تبعت مساره.

كان الباب الخلفي مخفياً تماماً تقريباً بمحاليق [أجزاء لولبية رفيعة من نبات متسلق] طويلة لأوراق الصفصاف، يصدر عنها حفيف متوقع، مثل ستارة مسرح خضراء مزخرفة على وشك أن يتم رفعها.

ضممت يديّ على زجاج إحدى النوافذ الصغيرة. إذ وقفت على أطراف أصابعي.

"ماذا تفعلين هنا؟".

استدرت حول نفسي.

كانت الآنسة مونتجوي تقف خارج نطاق أغصان الصفصاف، تنظر إلي. عبر الأوراق، لم أتمكن من رؤية شيء سوى شرائط أفقية من وجهها، لكن ما شاهدته جعلني أشعر بالتوتر.

مكتبة الربيعي أحمد

قلت: "هذه أنا يا آنسة مونتجوي... فلافيا. أردت شكرك على مساعدتي في المكتبة".

خشخشت أغصان الصفصاف عندما مشت الآنسة مونتجوي إلى داخـــل العـــباءة الخضراء. كانت تحمل زوجاً من مقصّات الحدائق في إحـــدى يديها و لم تقل شيئاً. لم تفارق عيناها، اللتان كانتا مثل زبيبتين متوهجتين في وجهها المتغضن، عينيّ أبداً.

انكمشت إلى الخلف بينما كانت تقترب مني على الممشى، تسد طريق هروبـــي.

قالت: "أعرف تماماً من تكونين. أنتِ فلافيا سابينا دولورس دي لوس - أصغر بنات جاكو".

شهقت: "هل تعرفين أنه والدي؟!".

"بالطبع أعرف أيتها الفتاة. أي شخص في عمري يعرف الكثير".

بطـــريقة ما، قبل أن أتمكن من إيقافها، خرجت الحقيقة من فمي مثل فلينة من قارورة.

قلت: "كانت دولورس كذبة. أنا أبتكر أشياء أحياناً".

مشت خطوة نحوي.

سألت، وكان صوتها خافتاً وأجش: "لماذا أنتِ هنا؟".

دفعت بسرعة يدي في جيبـــي وأخرجت كيس الحلوى.

قلـــت: "أحضرت لك بعض أقراص الحلوى لأعتذر عن فظاظتي. آمل أن تقبليها مني".

خرج منها صوت أزيز حاد النغمة، وقد اعتبرته أنا ضحكة.

"نصيحة الآنسة كول، من دون شك؟".

مـــثل معتوه القرية في عرض إيمائي، صدرت عني ست إشارات سريعة متلاحقة.

مكتبة الرمحي أحمد

قلت، وكنت أعني ذلك: "لقد شعرت بالأسى عندما علمت الطريقة التي لقي بها عمك - السيد توييننغ - حتفه. أنا آسفة حقاً. لا يبدو ذلك منطقياً".

قالت: "منطقياً؟! لم يكن بالتأكيد منطقياً. والأكثر من ذلك أنه لم يكن عادلاً. لم يكن حتى فظيعاً. هل تعرفين ما كان؟".

بالطبع كنت أعرف. كنت قد سمعت ذلك من قبل، لكنني لم أكن هناك لأخوض جدالاً معها.

همستُ: "لا".

قالت: "كانت جريمة. كانت جريمة قتل بكل بساطة".

سألت: "ومن كان الجاني؟". أحياناً يفاجئني لساني.

ظهرت نظرة مبهمة أخرى على وجه الآنسة مونتجوي مثل سحابة تمر أمام القمر، كما لو أنها أمضت حياتها تستعد للدور، ثم بعد أن تم تسليط الأضواء عليها، نسيت حوارها.

قالت أخيراً: "إنهم أولئك الفتية. أولئك الفتية الكريهون المقيتون. لن أنساهم أبداً، بالرغم من وجناهم المتوردة وبراءهم الطفولية".

قلت بهدوء: "كان أحد هؤلاء الفتية والدي".

كانت عيناها في مكان آخر في ذلك الوقت، وعادتا ببطء شديد إلى الحاضر لتركّزا عليّ.

قالت: "نعم. لورانس دي لوس، جاكو. كان والدك يدعى جاكو. اسمه المستعار في المدرسة، وحتى المحقق الجنائي كان يدعوه به؛ جاكو. كان يقوله برقّة كبيرة، بطريقة تكاد تكون غزلاً، في أثناء الاستجواب، كما لو أن الجميع كان يحب ذلك الاسم!".

"هل قدّم والدي شهادته خلال الاستجواب؟".

مكتبة الربيعي أحمد

"بالطبع شهد، وكذلك فعل الفتية الآخرون. كان ذلك من نوع الأشياء التي يتم القيام بها في تلك الأيام. أنكر كل شيء، بالطبع، وأي مسؤولية. كان طابع بريدي ثمين قد سُرق من مجموعة مدير المدرسة، وكان الجميع يقولون: *آه، لا يا سيدي. لست الفاعل يا سيدي!* كما لو أن الطابع ظهرت له فجأة أصابع صغيرة قذرة واختلس نفسه!".

كنت على وشك أن أقول لها إن والدي ليس لصاً، ولا كاذباً. عندما أدركت فجأة أن لا شيء أقوله سيغير تلك العقلية القديمة. قررت اتخاذ موقف هجومي.

سألت: "لماذا خرجت من دار العبادة هذا الصباح؟".

تراجعت الآنسة مونتجوي إلى الخلف كما لو أنني ألقيت بكأس من الماء على وجهها: "لا تواربين في كلامك، أليس كذلك؟".

قلت: "لا. كانت لذلك علاقة بطلب رجل الدين الرحمة للغريب، أليس كذلك؟ الرجل الذي وجدت جثته في حديقة بكشو".

هسّت من خلال أسنانها مثل إبريق شاي وقالت: "*أنت* وجدت الجثة؟ أنت؟".

قلت: "نعم".

"إذاً، أخبريني شيئاً، هل كان شعره أحمر؟". أغلقت عينيها، وأبقتهما على تلك الحال بانتظار جوابي.

قلت: "نعم. كان شعره أحمر".

"بعد كل ما مررنا به، سأتضرع إلى الله أن يجعلني من الشاكرين حقاً". تنفّست، قبل أن تفتح عينيها مجدداً. لم يكن ذلك يبدو بالنسبة إليّ رداً غريباً فحسب، وإنما ليس نصرانياً أيضاً.

قلت: "لا أفهم". ولم أكن أفهم فعلاً.

مكتبة الرمحي أحمد

قالـــت: "تعرّفت إليه مباشرة. حتى بعد كل تلك السنين، عرفت مـــن هو بمجرد أن رأيت تلك الكتلة من الشعر الأحمر تخرج من ثلاثة عشر علجوماً. لو أن ذلك لم يكن كافياً، كانت خيلاؤه، ذلك الغرور المتعجـــرف، تلك العينان الزرقاوان الباردتان - أي من تلك الأشياء - ستخبرني أن هوراس بونبني قد عاد إلى بيشوب لاسي".

انتابني شعور أننا ننـــزلق إلى مياه أعمق مما كنت أتصور.

"ربما يمكنك الآن أن تفهمي لماذا لا يمكنني الاشتراك في أي أعمال تُقام لراحة روح ذلك الفتى - ذلك الرجل - الفاسدة".

مـــدت يـــدها، وأخذت كيس أقراص الحلوى من يدي، دفعت بواحدة منها إلى فمها، ووضعت الباقي في جيبها.

تابعـــت: "علـــى العكس، أتضرع كي يكون، في هذه اللحظة بالذات، يتلظّى في الجحيم".

بعد أن انتهت من قول ذلك، مشت إلى فيلا الصفصاف الرطبة، وأطبقت الباب خلفها بعنف.

مـــن، بحـــق الله، هـــوراس بونبني؟ وما الذي كان قد أعاده إلى بيشوب لاسي؟

لم يكـــن بمقـــدوري التفكير سوى بشخص واحد يمكنه إخباري بذلك.

عـــندما اقتـــربت علـــى طـــريق الكستناء من بكشو، رأيت أن الفوكـــسهول الزرقاء لم تعد موجودة أمام الباب. كان المفتش هيوت ورجاله قد غادروا.

كـــنت أقود غلاديز إلى خلف المنـــزل عندما سمعت نقراً معدنياً آتياً من الدفيئة. تحركت نحو الباب ونظرت إلى الداخل، كان دوغر.

مكتبة الربيعي أحمد

كان يجلس على دلو مقلوب، يضرب عليه بمالج.

رن... رن... رن... رن. بالطريقة التي يقرع بها جرس دار عبادة سان تانكريد للإعلان عن جنازة شخص عجوز في بيشوب لاسي، استمر الأمر على ذلك المنوال، كما لو أنه يتماشى مع إيقاع ضربات الحياة. رن... رن... رن... رن...

كان ظهره إلى الباب، وكان واضحاً أنه لم يرَني.

تسللت بعيداً نحو باب المطبخ حيث تسببّت بجلبة كبيرة عندما أوقعت غلاديز التي أحدثت صوتاً عالياً على عتبة الباب الحجرية. (همست: "آسفة يا غلاديز").

قلت بصوتٍ عالٍ بما يكفي ليكون مسموعاً في الدفيئة: "تباًّ!". تظاهرت أنني رأيته عندها هناك خلف الزجاج.

قلت بابتهاج: "آه، مرحباً يا دوغر. أنت الشخص الذي كنت أبحث عنه".

لم يستدر مباشرة، وتظاهرت أنني أكشط بعض الطين من أسفل حذائي حتى تمالك نفسه.

قال ببطء: "آنسة فلافيا. كان الجميع يبحثون عنك".

قلت: "حسناً، ها أنا ذا". كان من الأفضل أن أتولى زمام المبادرة في الحديث حتى يتمالك دوغر نفسه تماماً.

"كنت أتحدث إلى شخص في القرية أخبرني عن شخص آخر، ظننت أنه قد يكون بمقدورك تزويدي بمعلومات عنه".

استطاع دوغر إظهار ابتسامة باهتة على وجهه.

"أعرف أنني لا أعبّر عن ذلك بأفضل طريقة ممكنة، لكن -".

قال: "أعرف ما تعنينه".

قلت من دون تفكير: "هوراس بونبي. من هوراس بونبي؟".

مكتبة الربيعي أحمد

لدى سماعه كلماتي، بدأ دوغر يرتعش مثل ضفدع تجارب كان قد تم وصل نخاعه الشوكي بمدخرة كهربائية. لعق شفتيه، ومسح بسرعة فمه بمنديل أخرجه من جيبه. رأيت أن عينيه بدأتا تخبوان، وتطرفان كثيراً كما تفعل النجوم قبل شروق الشمس. في الوقت نفسه، كان يبذل جهداً كبيراً ليتماسك، بالرغم من أنه لم ينجح في ذلك.

قلت: "لا عليك يا دوغر. لا يهم. انسَ الأمر".

حاول النهوض على قدميه، لكنه لم يستطع رفع نفسه عن الدلو المقلوب.

قال: "آنسة فلافيا، هناك أسئلة يجب طرحها، وهناك أسئلة يجب عدم طرحها".

كان الأمر على تلك الحال مجدداً؛ مثل قانون، كانت تلك الكلمات التي خرجت من بين شفتي دوغر بشكل طبيعي حاسمة.

لكن بدا أن تلك الكلمات القليلة قد أرهقته تماماً، وبتنهيدة عالية غطّى وجهه بيديه. لم أكن أرغب في شيء في تلك اللحظة أكثر من وضع ذراعيّ حوله ومعانقته، لكنني كنت أعرف أنه لم يكن مستعداً لشيء من ذلك القبيل. بدلاً من ذلك، انتهى بي الأمر أضع يدي على كتفه، وأدركت عندما فعلت ذلك أن الحركة كانت مبعث راحة لي أكثر مما كانت له.

قلت: "سأذهب وأجلب والدي. سنساعدك على الوصول إلى غرفتك".

أدار دوغر وجهه ببطء نحوي، وكان قناعاً أبيض باهتاً من البؤس. خرجت الكلمات منه مثل حجر يهبط فوق حجر.

"لقد أخذوه معهم يا آنسة فلافيا. لقد اعتقلته الشرطة".

مكتبة الربيعي أحمد

اثنا عشر

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

كانـــت فيلـــي ودافني تجلسان على أريكة مزينة برسوم وورود في غـــرفة الاستقبال، تحتضنان بعضهما بعضاً وتنتحبان مثل سيرانتين [عند الإغـــريق حورية، لها جسد طائر ورأس امرأة، تغوي البحارة بغنائها، وتهلكهـــم]. كنت قد مشيت عدة خطوات داخل الغرفة لأنضم إليهما قبل أن تراني أوفيليا.

همست: "أين كنتِ أيتها المتوحشة الصغيرة؟". ووثبت من مكانها واقتربت مني مثل هرّة برية، عيناها منتفختان وحمراوان مثل مصباحين دائـــرين. "كـــان الجميع يبحث عنك. ظننا أنك قد غرقت. آه! كم تمنيت أن تكوني غرقتِ فعلاً!".

أهلاً بكِ في المنـــزل يا فلافي، كما فكّرت.

قالـــت دافني من دون أي انفعال: "تم اعتقال والدي. لقد أخذوه بعيداً".

سألت: "أين؟".

قالت أوفيليا بسرعة واستهجان: "كيف يُفترض بنا أن نعرف؟ إلى حـــيث يأخـــذون الأشخاص الذين يعتقلونهم، كما أظن. أين كنت؟".

"بيشوب لاسي أم هنلي؟".

"ما الذي تعنينه؟ تكلمي بمنطق أيتها الحمقاء الصغيرة".

مكتبة الرمحي أحمد

كـــرّرت: "بيشوب لاسي أم هنلي. لا توجد سوى غرفة واحدة فقـــط في مخفر الشرطة في بيشوب لاسي، لهذا لا أتوقع أنهم أخذوه إلى هـــناك. قـــيادة شرطة المقاطعة في هنلي، لهذا أخذوه على الأرجح إلى هنلي".

قالت أوفيليا: "سيتهمونه بالقتل، ثم سيتم إعدامه!". انفجرت بالبكاء مجدداً وأشاحت وجهها بعيداً. للحظة كدت أشعر بالأسى عليها.

خـــرجت مـــن غـــرفة الاستقبال إلى البهو، ورأيت دوغر على منتـــصف السلالم الغربية، يمشي متثاقلاً، خطوة إثر أخرى، مثل رجل مدان يصعد درجات المشنقة.

كانت تلك هي فرصتي!

انتظـــرت حتى غاب عن الأنظار في أعلى السلالم، ثم تسللت إلى مكـــتب والـــدي وأوصدت الباب خلفي بهدوء. كانت تلك هي المرة الأولى في حياتي التي أكون فيها لوحدي في الغرفة.

كان أحد الجدران مخصصاً بأكمله لألبومات طوابع والدي، وهي مجلـــدات جلدية ضخمة تشير ألوانها إلى عهد كل عاهل؛ الأسود يشير إلى عهـــد الملكة فيكتوريا، الأحمر إلى عهد إدوار السابع، الأخضر إلى عهد جورج الخامس، والأزرق إلى عهد ملكنا الحالي جورج السادس. تذكرت أن مجلداً قرمزياً ضئيلاً موجود بين الكتابين الأخضر والأزرق ويـــضم عدداً صغيراً من الطوابع؛ من الأنواع التسعة المعروفة للطوابع الأربعـــة الـــتي تم إصدارها، وتحمل صورة رأس إدوارد الثامن، قبل أن يرحل فجأة مع تلك المرأة الأميركية.

كـــنت أعرف أن والدي يشعر بسعادة بالغة من الأنواع التي لا تُحـــصى مـــن قـــصاصات الورق الملونة تلك، لكنني لم أكن أعرف

مكتبة الرمحي أحمد

التفاصيل. فقط عندما شعر بالإثارة بسبب خبر جديد عن تلك الأمور التافهة في العدد الأخير من *ذا لندن فيلاتلست [جامع الطوابع اللندني]* بشكل جعله يصيح متحمساً على الفطور، عرفنا شيئاً عن عالمه البهيج المعزول. بخلاف تلك المناسبات النادرة، لم تكن لدينا جميعنا، شقيقيّ وأنا، أي خبرة بالطوابع البريدية، بينما كان والدي يضيع وقته سدى، ويجمع قصاصات من الورق الملون بحماس أكبر مما يتمتع به بعض الرجال الذين يجمعون رؤوس أيائل ونمور.

على الجدار المواجه للكتب كانت هناك بوفيه [خزانة خاصة بأدوات المائدة]، ترجع إلى عهد جيمس الأول والتي كان سطحها وأدراجها مليئين بما كان يبدو تجهيزات لا تنتهي لجمع الطوابع، من قصاصات ورق مصمغ للصق الطوابع، أدوات تثقيب، صواني مزخرفة للنقع، قوارير مليئة بسوائل لكشف علامات نسيج الورق، مذيبات صمغ، أغلفة، لواصق صفحات، ملاقط طوابع، ومصباح رأسي يعمل بالأشعة فوق البنفسجية.

في نهاية الغرفة، أمام الباب الذي يفتح على المصطبة، كانت طاولة والدي. منضدة كبيرة بحجم ملعب، والتي ربما جاءت من *منزل البخيل ومارلي الريفي* [رواية لديكنز]. عرفت مباشرة أن أدراجها ستكون موصدة، وكنت محقة.

أين، تساءلت، سيخبأ والدي طابعاً في غرفة مليئة بالطوابع؟ لم يكن هناك شك في ذهني أنه كان قد أخفاه، كما كنت سأفعل. كنت أشترك مع والدي بشغف السرية، وأدركت أنه لم يكن أحمق ليضعه في مكان ظاهر للعيان.

بدلاً من النظر إلى أشياء، أو داخل أشياء، استلقيت على الأرضية مثل ميكانيكي يفحص محمل سيارة، وانزلقت في أرجاء الغرفة على

مكتبة الرمحي أحمد

ظهـــري لأفحص الجانب السفلي للأشياء. نظرت إلى أسفل المنضدة، الطاولـــة، ســـلة المهملات، وكرسي وندسور الخاص بوالدي. نظرت تحـــت الـــسجادة التركية وخلف الستائر. نظرت إلى الجزء الخلفي من الساعة وقلبت اللوحات على الجدار.

كـــان هـــناك عدد كبير من الكتب التي يجب البحث فيها، لهذا حاولت التفكير في الكتاب الأقل احتمالاً. بالطبع! *الملك* جيمس!

لكـــن لم ينجم عن تقليب سريع لصفحات *الملك* جيمس سوى كرّاسة كنسية قديمة وبطاقة عزاء لميت من آل دي لوس من أيام المعرض الكبير.

ثم تذكـــرت فجـــأة أن والدي كان قد انتزع البنس الأسود من مـــنقار الشُنقب الأسود، ووضعه في جيب صدريته. ربما كان قد تركه هناك، بهدف التخلص منه لاحقاً.

نعـــم، هذا ما كان! لم يكن الطابع هنا على الإطلاق. يا لي من مغفلـــة لأنني فكّرت في أنه سيكون هنا. سيكون المكتب كله، بالطبع، على رأس لائحة أماكن الإخفاء الواضحة للغاية. سرت قشعريرة يقين في جسدي وكنت أعرف، مما كانت فيلي ودافني تدعوانه خطأً حدساً أنثوياً، أن الطابع موجود في مكان آخر.

في محاولة لعدم إصدار صوت، أدرت المفتاح بهدوء وخرجت إلى البهو. كانت الشقيقتان التعيستان لا تزالان تنتحبان في غرفة الجلوس، صوتهما يعلو وينخفض بين نوبات من الغضب والأسى. كان بمقدوري استراق السمع عند الباب، لكنني فضّلت عدم القيام بذلك. كانت لدي أمور أهم أنجزها.

صـــعدت، بصمت مثل خيال، على السلالم الغربية واتجهت نحو الجناح الجنوبـــي.

مكتبة الربيعي أحمد

كما توقعت، كانت غرفة والدي غارقة في الظلام عندما دخلتها. كنت أقوم أحياناً بإلقاء نظرة خاطفة على نوافذه من الحديقة وأرى الستائر الثقيلة مغلقة بإحكام.

من الداخل، كانت الدجنة حالكة مثل متحف بعد ساعات الدوام. كانت الرائحة القوية لعطر ولغسول حلاقة والدي توحيان بوجود تابوت حجري مفتوح وجرار جنائزية كانت مليئة مرة بتوابل قديمة. لم تكن المغسلة مقوّسة القوائم من عهد الملكة آن تبدو لائقة بجانب السرير القوطي العاتم في الزاوية، كما لو أن حاجباً عجوزاً كريهاً كان ينظر بكآبة إلى عشيقته التي تكشف عن جوربين حريريين فوق ساقيها الطويلتين الفاتنتين.

حتى إنّ ساعتيّ الغرفة كانتا تشيران إلى وقتين سابقين. على رف الموقد، كانت هناك ساعة من قصدير مذهّب، يهتز رقّاصها النحاسي، مثل السيف المقوّس في *الحفرة والبندول* [رواية إدغار ألان بو]، محدثاً صوت تيك - تاك ويلمع بشكل باهت عند كل نهاية أرجحة في ضوء الغرفة الخافت. على الطاولة بجانب السرير، كانت هناك ساعة جورجية صغيرة وأنيقة تشير بصمت إلى وقت آخر: كان مؤشراها على 3:15، وتوقيت المنبه على 3:12.

مشيت على طول الغرفة إلى الطرف البعيد، وتوقفت.

كانت غرفة ملابس هاريت - التي لا يمكن دخولها سوى من غرفة نوم والدي - منطقة محظورة. كان والدي قد ربانا على احترام المكان الذي حوّلها إليه منذ اليوم الذي عرف فيه بوفاتها. كان قد حقق ذلك بجعلنا نعتقد، حتى إذا لم يكن قد قال ذلك لنا بصراحة، أن أي انتهاك لقانونه سينجم عنه دفعنا للسير في رتل خلف بعضنا إلى نهاية الحديقة، حيث سنصطف أمام الجدار المصنوع من الآجر، وإعدامنا بسرعة.

مكتبة الرمحي أحمد

كـــان الباب إلى غرفة هاريت مغطّى بجوخ أخضر، يشبه طاولة بلياردو تنتصب على طرفها. دفعته ففُتح على مصراعيه بهدوء.

كانت الغرفة غارقة بالضوء. عبر ألواح زجاجية لنوافذ طويلة على ثلاثـــة من جدرانها. كانت أشعة الشمس تندفع إلى الداخل، تنتشر في كـــل الاتجاهات نتيجة انعكاسها عن عدد لا يحصى من شرائط دانتيل إيطالـــية، في حجـــرة يصلح أن تكون منصة لعرض مسرحية عن دوق ودوقـــة وندســـور. كـــان أعلى الخزانة مليئاً بالفراشي والأمشاط من فابـــرجيه، كما لو أن هاريت قد دخلت للتو غرفة ملحقة للاستحمام. كانت تطوّق قوارير عطر الليلك أساور ملونة من البكليت والكهرمان، بينما كان هناك موقد صغير رائع وغلاية فضية جاهزين لتحضير شاي الصباح. كانت وردة واحدة صفراء تذبل في كأس زجاجية رفيعة.

علـــى صينية بيضاوية، كانت هناك قارورة صغيرة من الكريستال لا تحـــتوي على أكثر من نقطة أو اثنتين من العطر. رفعتها، نـــزعت السدادة، وهززتها ببطء تحت أنفي.

كانـــت رائحة إحدى الورود الزرقاء الصغيرة، من مروج الجبال، والجليد.

انـــتابني شـــعور غريب، أو سرى في جسدي كما لو أنني مظلة تذكرت شعورَ أن يتم فتحها في المطر. نظرت إلى اللصاقة، ورأيت أنها تحمل كلمة واحدة: *ميراتركس*.

كانـــت هناك علبة لفائف تبغ فضية نُقِشَ عليها إيتش. دي أل. بجانـــب مـــرآة يدويـــة توجد على ظهرها صورة فلورا [سيدة الزهور وموســـم الربيع لدى الرومان]، من لوحة بوتيشلي [رسّام] *بريمافيرا*. لم أكن قد لاحظت ذلك من قبل في رسوم مأخوذة عن اللوحة الأصلية، لكن فلورا كانت تبدو حاملاً وسعيدة. هل يعقل أن تكون تلك المرآة

مكتبة الربيعي أحمد

هديــــة من والدي لهاريت عندما كانت حاملاً بواحدة منا؟ وإذا كان الأمـــر كـــذلك، أي واحدة: فيلي؟ دافني؟ أنا؟ فكّرت في أنه من غير المــرجح أن تكون أنا، ففتاة ثالثة لن تكون هبة من فلورا، على الأقل بالنسبة إلى والدي.

لا، كانـــت علـــى الأرجح أوفيليا البكر، تلك التي تبدو أنها قد جاءت إلى الدنيا وهي تحمل مرآة في يدها... ربما كانت هي المقصودة.

كان كرسي من الخيزران عند إحدى النوافذ يشكل مكاناً مثالياً للقراءة، وعلى مقربة منه، كانت مكتبة هاريت الخاصة الصغيرة. كانت قـــد جلبت معها كتباً بعد دراستها في كندا وتمضيتها فصول صيف مع عمـــة في بوســـطن. كانت *آن الجملونات الخضراء* وحين *تلة المشكاة* [روايـــتان للأديـــبة الكندية لوسي مونتغمري] بقرب *بينورد ومرتون الأفـــلام*، بيـــنما يوجد على الطرف البعيد من الرف نسخة بالية من *الأسرار الخفية في حياة ماريا*. لم أكن قد قرأت أياً منها، لكن مما كنت أعرفه عن هاريت، ربما كانت كلها كتب عن الأرواح الحرة والمرتدين.

بالقـــرب منها، على طاولة دائرية صغيرة، كان هناك ألبوم صور. فـــتحت الغلاف ورأيت أن صفحاته من الورق الأسود، وكان هناك تعليق مكتوب بخط اليد تحت كل صورة ضوئية بالأبيض والأسود بحبر باهـــت: هاريـــت (سنتان) في منـــزل موريس، هاريت (15 سنة) في أكاديمـــية الآنسة بوديكوت للإناث (1930 - تورنتو، كندا)، هاريت المرحة بملابسها الغجرية (1938)، هاريت في التيبت (1939).

كانـــت الـــصور تُظهـــر هاريت تتغير من طفلة بدينة ذات شعر ذهبـــي، إلى فـــتاة طويلة، نحيلة، ضاحكة (من دون نهدين ظاهرين للعيان) ترتدي ملابس الهوكي، إلى نجمة أفلام شقراء فاتنة، تقف، مثل إميلـــيا إيرهارت [أول امرأة تقطع الأطلسي على متن طائرة لوحدها]،

مكتبة الرمحي أحمد

تضع يداً بتراخٍ على حافة قمرة طائرة روح مرحة. لم تكن هناك صور لوالدي، أو لأي منا.

في كل صورة، كانت قسمات وجه هاريت تخص امرأة حصلت على ملامحها من جمع تلك الملامح الخاصة بفيلي، دافني، وبـــي وهزّها في مـــرطبان قـــبل إعادة تجميعها في تلك المُغامِرة المبتسمة، الواثقة من نفسها، وبالرغم من ذلك الخجولة المحببة إلى النفس.

بيـــنما كنت أحدق إلى وجهها، أحاول رؤية روح هاريت عبر ورق الصورة، سمعت نقرة خفيفة على الباب.

توقف النقر، ثم نقرة أخرى. وبدأ الباب يُفتح.

كان دوغر. دفع رأسه ببطء في الغرفة.

قال: "عقيد دي لوس. هل أنت هنا؟".

تجمّدت، و لم أكن أجرؤ حتى على التنفس. لم يحرك دوغر ساكناً، لكـــنه حدّق إلى الأمام مباشرة بطريقة متوقعة من خادم مدرب جيداً ويعرف مكانه، معتمداً على أذنيه لتخبراه إن كان يتطفّل.

لكن ما الذي كان يرمي إليه؟ ألم يخبرني سابقاً أن الشرطة قد أخذت والـــدي بعيداً؟ لماذا بحق الله، إذاً، يتوقع أن يعثر عليه هنا في غرفة ملابس هاريت؟ هل كان دوغر مشوشاً إلى ذلك الحد؟ أم أنه كان يتبعني كظلي؟

أبعـــدت شفتيّ عن بعضهما قليلاً وتنفست ببطء من فمي حتى لا يفضح صفير أنفي وجودي، وتضرّعت في الوقت نفسه بصمت كي لا أعطس.

وقف دوغر هناك لوقت طويل، مثل *لوحة حية*. كنت قد رأيت صـــوراً في المكتبة عن تلك المسرحيات القديمة التي يتم فيها وضع ماء الكلـــس ومـــسحوق على الممثلين قبل اتخاذ وضعيات معينة، غالباً ما تكون ذات طبيعة مدغدغة، وكل منها يمثّل مشهداً من الميثولوجيا.

مكتبة الرمحي أحمد

بعد بعض الوقت، عندما بدأت أدرك كيف يشعر أرنب عندما يتم *تجميده*، سحب دوغر رأسه ببطء، وأغلق الباب من دون صوت.

هل رآني؟ وإذا فعل، هل كان يتظاهر أنه لم يرَني؟

انتظرت، أصغي السمع، لكن لم يكن هناك صوت من الغرفة المجاورة. كنت أعرف أن دوغر لن يتريث طويلاً، وعندما قدّرت أن وقتاً طويلاً بما يكفي قد مضى، فتحت الباب ونظرت إلى الخارج.

كانت غرفة والدي كما تركتها، كانت الساعتان تدقان، لكن آنذاك وبسبب خوفي، بدا أن صوتهما أعلى مما كان من قبل. أدركت أن تلك كانت فرصة لن تسنح مجدداً أبداً، بدأت بحثي باستخدام الأسلوب نفسه الذي اتّبعته عندما كنت في مكتب والدي، لكن، لأن غرفة نومه كانت أبعد ما تكون عن الترف مثل خيمة ليونيداس [ملك إسبرطة]، لم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً.

كان الكتاب الوحيد في الغرفة كرّاساً من ستانلي غيبونز لمزاد طوابع بريدية سيُقام خلال ثلاثة شهور. قلبته وتصفحته بلهفة، لكنني لم أعثر على شيء.

لم تكن هناك، بشكل مفاجئ، سوى بعض الملابس في خزانة والدي. كانت هناك سترتان صوفيتان قديمتان مع رقع جلدية على المرفقين (جيوبها خالية)، كنزتان صوفيتان، وبعض القمصان. دفعت يدي داخل أحذيته، وبذلتين عسكريتين من نوع ويلنغتون، لكنني لم أجد شيئاً.

أدركت بغصّة أن ملابس والدي الأخرى الوحيدة كانت بذلته الرسمية، التي كان لا يزال يرتديها عندما اصطحبه المفتش هيوت بعيداً. (لن أسمح لنفسي باستعمال كلمة *اعتقله*).

ربما كان قد أخفى البنس الأسود المثقوب في مكان آخر - في صندوق لوحة قيادة رولز - رويس هاريت، مثلاً. وفقاً لما كنت أعرفه،

مكتبة الرمحي أحمد

ربما كان قد تخلص منه آنذاك. عندما توقفت للتفكير في الأمر، بدا ذلك منطقياً تماماً. كان الطابع نفسه متضرراً، ولهذا لا قيمة له. كان شيء فيه، على كل حال، قد أزعج والدي، وبدا منطقياً أنه حالما توجه إلى غرفته يوم الجمعة، سيكون قد أشعل النار فيه مباشرة.

كان ذلك، بالطبع، سيترك آثاراً، رماد ورق في المنفضة، وعود ثقاب محترقاً في سلة المهملات. كان تفقد ذلك أمراً في غاية السهولة لأن كلا الشيئين كانا هناك أمامي، وكان كلاهما فارغين.

ربما كان قد تخلص من الدليل في المرحاض.

كنت أعرف آنذاك أنني أتعلق بقشة.

تخلّي عن ذلك، كما فكّرت، واتركي الأمر للشرطة. عودي إلى مختبرك المريح وتابعي عملك المعتاد.

فكّرت - لكن للحظة فقط، ودونما كبير اهتمام - في أنه يمكن تقطير نقاط قاتلة من مواد في "معرض زهور الربيع"، وأنه يمكن استخراج سم رائع من النرجس وسوائل مميتة من النرجس البري. حتى طقسوس مدافن دور العبادة الشائع، المحبوب جداً من الشعراء والعشّاق، يحتوي ضمن بذوره وأوراقه على ما يكفي من السم للقضاء على نصف سكان إنكلترا.

لكن كان على أسباب السرور تلك أن تنتظر. كان ولائي لوالدي، وقد وقع على كاهلي أن أساعده، خاصة آنذاك عندما لم يكن يستطيع مساعدة نفسه. كنت أعرف أنني يجب أن أذهب إليه، أينما كان، وأضع سيفاً عند قدميه بالطريقة التي كان حامل الدروع في القرون الوسطى يقدّم بها عهد الولاء لفارسه. حتى إذا لم أتمكّن من مد يد العون له، سيكون بمقدوري بالرغم من ذلك الجلوس إلى جانبه، وأدركت بوخزة ألم مفاجئة أنني اشتقت إليه كثيراً.

مكتبة الربيعي أحمد

خطرت لي فكرة مفاجئة: كم ميلاً كانت المسافة إلى هنلي؟ هل يمكنني الوصول إلى هناك قبل حلول الظلام؟ وحتى إذا فعلت ذلك، هل سأتمكن من رؤيته؟

بـــدأ قلبـــي يخفق بقوة كما لو أن شخصاً كان قد أجبرني على شرب كوب من شاي قفاز الثعلب [نبات عشبـــي].

حـــان وقت الخروج. كنت قد أمضيت وقتاً طويلاً بما يكفي هناك. ألقـــيت نظـــرة على الساعة بجانب السرير، كانت تشير إلى 3:40 آنذاك. كانت الساعة على رف الموقد تتكتك بشكل مهيب، ومؤشراها على 3:37.

لا بـــد أن والدي كان مصدوماً جداً كي لا يلاحظ ذلك، كما افترضـــت، لأنـــه بشكل عام عندما كان الأمر يتعلق بالتوقيت، كان والـــدي صارماً. تذكرت طريقته في إصدار أوامر إلى دوغر (وليس إلى واحدة منا) بأسلوب عسكري:

كـــان سيقول: "خذ الزنبق إلى القس عند الساعة الواحدة ظهراً يـــا دوغر. سيكون بانتظارك. عُد عند الواحدة وخمس وأربعين دقيقة وسنقرر ما سنفعله بعدس الماء".

حدّقت إلى الساعتين، وتمنيت أن يراودني خاطر ما. كان والدي قد قال لنا مرة، في واحدة من الحالات النادرة التي يكون فيها صريحاً، إن ما جعله يقع في حب هاريت هو قدرتها على التأمل. كان قد قال: "شيء مميز في امرأة، حقاً، عندما يمعن المرء التفكير فيه".

وفجأة أدركت الأمر. كانت إحدى ساعاته قد توقفت، توقفت بالتحديد لثلاث دقائق. كانت تلك الساعة التي على رف الموقد.

تحـــركت بـــبطء نحوها، مثل شخص يود الإمساك بطائر. كان صـــندوقها الأســـود الكئيب يمنحها منظر عربة موتى فيكتورية يجرّها حصان، تلك المقابض والزجاج واللون الأسود.

مكتبة الربيعي أحمد

رأيـــت يدي تمتد نحوها، صغيرة وبيضاء في الغرفة العاتمة. شعرت بأصابعي تمس وجهها البارد، شعرت بإبهامي يفتح إطارها الفضي. كان الـــرقّاص النحاسي في متناول يدي آنذاك، يتأرجح يمنة ويسرى، جيئة وذهابـــاً مصدراً صوت تيك - تاك شنيعاً. كنت خائفة تقريباً من مس ذلك الشيء. سحبت نفساً عميقاً وأمسكت بالرقّاص المتحرك. جعلته عطالـــته يهتـــز بعنف في يدي للحظة، مثل سمكة ذهبية تم الإمساك بها فجأة، مثل قلب منبّه قبل أن يصمت.

تحسست ما يوجد خلف النحاس الثقيل. كان يوجد شيء معلق هناك؛ شيء ملصق خلفه؛ رزمة صغيرة. سحبتها بأصابعي، شعرت أنها تحـــرّرت ووقعـــت في يدي. عندما كنت أسحب أصابعي من أعضاء الـــساعة الداخلية خمّنت ما كنت على وشك أن أراه... وكنت محقة. هناك في راحة يدي ضمن مغلف زجاجين صغير، بشكل ظاهر للعيان، كان طابع البنس الأسود البريدي. بنس أسود مع ثقب في وسطه، تماماً كما كان على منقار الشُنقب الميت. ماذا بشأن ذلك الطابع الذي كان قد أخاف والدي إلى ذلك الحدّ؟

أخـــرجت الطابـــع من المغلف لإلقاء نظرة أفضل عليه. في المقام الأول، كانـــت هناك الملكة فيكتوريا مع ثقب في رأسها. لم يكن ذلك وطنـــياً، ربما، لكنه لم يكن كافياً لجعل رجل ناضج يرتعش خوفاً. لا، كان هناك شيء آخر.

مـــا الـــذي كان يميز هذا الطابع عن الطوابع الأخرى من النوع نفسه؟ بالمحصلة، ألم تتم طباعة عشرات ملايين النسخ من تلك الأشياء، وكلها متشابهة؟ أم أنها ليست كذلك؟

فكّـــرت في الـــوقت الـــذي كـــان والدي - من أجل توسيع مداركنا - قد أعلن فيه فجأة أن أمسيات الأربعاء ستكون مخصصة منذ

مكتبة الرمحي أحمد

ذلك الحين فصاعداً لسماع سلسلة من المحاضرات الإلزامية (التي سيقدّمها بنفـــسه) عن جهات مختلفة في الحكومة البريطانية. كانت "سلسلة ألف"، كما دعاها وتوقعناها، تتناول موضوع "تاريخ مكتب البريد".

كـــنا دافـــني، فيلي، وأنا قد أحضرنا دفاتر ملاحظات إلى غرفة الاستقبال وتظاهرنا أننا نسجل معلومات بينما كنا نمرّر قصاصات ورق جيـــئة وذهابـــاً بينـــنا كُـــتِبَ عليها عبارات مثل "إلغاء المحاضرات"، و"لنتغلب على الملل!".

كـــان يتم تحضير الطوابع البريدية، كما شرح والدي، على ألواح تضم مئتين وأربعين منها، عشرين صفاً أفقياً واثني عشر عموداً، وكان مـــن الـــسهل بالنـــسبة إليّ أن أتذكر ذلك لأن 20 هو العدد الذري للكالـــسيوم و12 هو العدد الذري للمغنـــزيوم. كل ما كان علي فعله هو تذكر مغنيز الكالسيوم. كان كل طابع على اللوح يحمل دلالة من حرفين ابتداءً من "أيه أيه" على الطابع الأعلى في أقصى اليسار والتقدم أبجـــدياً من اليسار إلى اليمين حتى نصل إلى "تي أل" في أقصى الطرف الأيمن من الصف العشرين، أو السفلي.

كـــان مكـــتب البريد يعتمد هذا الترتيب، كما أخبرنا والدي، لمنع التزويـــر، بالرغم من أنه لم يكن واضحاً تماماً كيف كان ذلك يجدي نفعاً. كـــان هـــناك خوف كبير – كما قال – أن أوكار المزوّرين ستكدح ليلَ نهـــارَ، من لاند إيند [أقصى نقطة في الشمال البريطاني] إلى جون أوغراتس [أقـــصى نقطة في الجنوب البريطاني]، لإنتاج نسخ تجعل الطوابع التي تحمل صورة جلالة الملكة فيكتوريا لا تساوي بنساً في نهاية المطاف.

نظـــرت بإمعان إلى الطابع في يدي. في الأسفل، تحت رأس الملكة فيكـــتوريا، كانت قيمته مدوّنة: **بنس واحد**. إلى يسار هاتين الكلمتين كان هناك حرف بـــي، وإلى اليمين حرف إيتش.

مكتبة الربيعي أحمد

كان يبدو على الشكل الآتي: **بـــي   بنس واحد.   إيتش**

"بـــــي إيتش". كان الطابع قد جاء من الصف الثاني على لوح الطـــباعة، العمـــود الثاني إلى اليمين. اثنان - ثمانية. ما أهمية ذلك؟ إلى جانب حقيقة أن 28 كان العدد الذري للنيكل، لم أتمكن من التفكير في أي شيء آخر.

ثم أدركـــت ذلـــك! لم يكن الأمر يتعلق برقم على الإطلاق... كانت كلمة!

بونبي! ليس بونبي فقط، وإنما بونبي إيتش! هوراس بونبي!

معلقـــاً بمـــنقار الـــشُنقب (نعم! كان الاسم المستعار لوالدي في المدرســـة "جاكـــو!")، كان الطابع بطاقة زيارة وتهديد بالموت. تهديد كان والدي قد تعرض له وفهمه من النظرة الأولى.

كـــان منقار الطائر قد اخترق رأس الملكة، لكنه ترك اسم مرسله واضحاً لكل من له عينان يرى بهما.

هوراس بونبي. هوراس بونبي *الراحل*.

أعدت الطابع إلى مخبئه.

على قمة التل، كانت أنقاض أعمدة خشبية - كل ما تبقى من مشنقة من القرن الثامن عشر - تشير إلى اتجاهين متعارضين. كنت أعـــرف أن بمقـــدوري الوصـــول إلى هنلـــي إما بسلوك الطريق إلى دودنغـــسلي، أو بسلوك طريق أطول إلى حدٍّ ما، أقل استعمالاً، كـــان ســـيأخذني عـــبر قرية سانت إلفريدا. كان الأول سيوصلني إلى هـــناك بـــسرعة أكـــبر، بينما سأكون على الثاني، الذي نادراً مـــا يسلكه أحد، أقل عرضة لاكتشاف أمري في حال بلّغ أحدهم عن اختفائي.

مكتبة الرمحي أحمد

قلت بسخرية كبيرة: "ها - ها - ها!". من الذي سيهتم بما يكفي ليقوم بذلك؟

بالرغم من ذلك، سلكت الطريق إلى اليمين ووجهت غلاديز نحو بلدة سانت إلفريدا. كان المسلك نزولاً على طول الطريق، وانطلقت بسرعة كبيرة. عندما كنت أدير الدواستين إلى الوراء، كان محور ستورمي - آرشر ذو السرعات الثلاث في الجزء الخلفي من غلاديز يصدر صوتاً مثل ذاك الذي يخرج من جحر لأفاعي أجراس سامة غاضبة. تظاهرت أنها هناك خلفي، تجدّ في إثري. كان ذلك رائعاً! لم يكن قد انتابني مثل ذلك الشعور منذ اليوم الذي استخرجت فيه أول مرة، بتعاقب التقطير والتبخير، كورار تركيبي من زنبق المستنقعات الذي حصلت عليه من بركة القس.

وضعت قدميّ على دواستي الدراجة وتركت غلاديز تنطلق كما يحلو لها. بينما كنا نهبط على التل الترابي، أنشدت أغنية بصوتٍ عالٍ:

"يدعونها الحبيبة

في الهواء العليل!...".

مكتبة الرمحي أحمد

ثلاثة عشر

عند أسفل تلة أوكسهت خطر والدي على ذهني فجأة وشعرت بالحزن مجدداً. هل كانوا يظنون فعلاً أنه قد قتل هوراس بونبي؟ وإذا كان الأمر كذلك، كيف؟ إذا كان والدي قد قتله تحت نافذة غرفة نومي، فلا بد أن ذلك تم بصمت مطلق. لم يكن بمقدوري أن أتخيل والدي يقتل شخصاً من دون أن يرفع صوته.

لكن قبل أن أمعن التفكير في الأمر، أصبح الطريق مستوياً قبل أن ينعطف إلى كوتسمور ودودنغسلي ماغنا. في ظل شجرة سنديان قديمة كان هناك مقعد خشبي لموقف حافلات، تجلس عليه شخصية مألوفة. قزم عجوز، يبدو مثل جورج برنارد شو بعد أن انكمش في الغسيل. كان يجلس هناك بهدوء شديد، وقدماه تتدليان على ارتفاع أربع بوصات فوق الأرض، وكان يبدو كما لو أنه قد ولد على المقعد الخشبي وعاش كل حياته هناك.

كان ماكسيمليان بروك، أحد جيراننا في بكشو، وابتهلت كي لا يكون قد رآني. كان يقال همساً في بيشوب لاسي إن ماكس، المتقاعد من عالم الموسيقى، كان يجني قوته آنذاك سراً من كتابة – باسم مستعار أنثوي (مثل لالا دوبري) – قصص فضائح لمجلات أميركية بعناوين مثل *اعترافات سرية*، و*رومانسية ملتهبة*.

مكتبة الربيعي أحمد

بسبب الطريقة التي يدس بها أنفه في علاقات كل من يلتقي به، ثم تحويل ما يقال له سراً إلى أخبار تدر ذهباً، كان ماكس يدعى، على الأقل من خلف ظهره، *بالوعة القرية*. لكن، بوصفه معلّم البيانو السابق لفيلي، لم يكن شخصاً يمكنني تجاهله ببساطة.

اتجهت نحو قناة الري الضحلة، تظاهرت أنني لم أرَه بينما كنت أحرك سلسلة غلاديز بسرعة. مع قليل من الحظ، كان سيتابع النظر إلى الاتجاه الآخر، وكنت سأتمكّن من الاختباء خلف الوشيع حتى يغادر المكان.

"فلافيا! مرحبًا *يا عزيزتي*".

اللعنة! لقد رآني. كان تجاهل *مرحبًا* من ماكسيمليان - حتى تلك التي يقولها من مقعد محطة حافلات - يعني تجاهل الوصية الحادية عشرة. تظاهرت أنني قد رأيته للتو، ورسمت على وجهي ابتسامة مصطنعة بينما كنت أدفع غلاديز نحوه عبر الأعشاب.

كان ماكسيمليان قد عاش سنوات عديدة في جزر القنال [أرخبيل في القناة الإنكليزية]، حيث كان عازف بيانو مع فرقة ألدرني السيمفونية، وهو عمل - كما قال - يتطلب مقداراً كبيراً من الصبر وقراءة عدد لا بأس به من الروايات البوليسية.

في ألدرني، كان يكفي فقط (أو هذا ما كان قد قاله لي في معرض الزهور السنوي في دار عبادة سان تانكريد)، من أجل فرض سلطة القانون المطلقة، الوقوف في وسط ساحة البلدة والصراخ "انتبه يا أميري. شخص ما يهدّدني!". كان ذلك يدعى صرخة *استنجاد*، وتعني في جوهرها "احذر يا أميري. أحدهم يلاحقني!". أو بكلمات أخرى، يقترف جريمة بحقي.

سأل ماكس وهو يميل رأسه مثل غراب ينتظر فتات الخبز حتى قبل أن يتم تقديمه له: "وكيف حالك يا بجعتي الصغيرة؟".

مكتبة الرمحي أحمد

قلت بحذر: "على أحسن ما يرام". وتذكرت أن دافني كانت قد قالت لي مرة إن ماكس مثل أحد تلك العقارب التي تشلُّك بلدغة، ولا يتوقف حتى يمتص آخر قطرة من سائل حياتك، ومن حياة عائلتك.

"ووالدك، العقيد الطيب؟".

قلت: "إنه مشغول بعدّة أمور". شعرت بقلبي يخفق بقوة في صدري.

سأل: "ماذا عن الآنسة أوفيليا؟ هل لا تزال تطلي وجهها مثل إيزابيل [زوجة آهاب ملك إسرائيل، والتي كانت تريد نشر عبادة بعل، والقضاء على الأنبياء] وتُعجب بنفسها في أثناء تناولها الشاي؟".

كان ذلك أمراً شخصياً، حتى بالنسبة إليّ. لم يكن ذلك من شأنه، لكنني كنت أعرف أن ماكسيمليان قد يستشيط غضباً من دون سبب وجيه. كانت فيلي تدعوه أحياناً من خلف ظهره برمبلستلتسكين [شخصية في حكايات خرافية ألمانية جمعها الأخوان غريم عام 1812]، بينما تقول دافني إنه ألكسندر بوب، أو أدنى مرتبة.

بالرغم من ذلك، كنت قد وجدت ماكسيمليان، بالرغم من عاداته البغيضة، وربما بسبب تشابه مكانتنا، شخصاً مثيراً للاهتمام ومحادثاً مثقفاً – طالما أنك لم تعتبر خطأً حجمه الصغير ضعفاً.

قلت: "على أحسن ما يرام، شكراً لك. كانت بشرتها رائعة حقاً هذا الصباح".

لم أضف "بشكل يبعث على الجنون".

سألت قبل أن يتمكّن من طرح سؤال آخر: "ماكس، هل تظن أنه يمكنني تعلم عزف تلك التوكاتا الصغيرة لباراديزي؟".

قال من دون أي تردد: "لا. يداك ليستا لعازف عظيم، وإنما لشخص يعمل بالسم".

مكتبة الربيعي أحمد

ابتسمت. كانت تلك دعابتنا الصغيرة. وكان واضحاً أنه لم يكن قد عرف بعد بالجريمة في بكشو.

سأل: "والأخرى؟ دافني... الشقيقة البطيئة؟".

كانـــت "بطيئة" إشارة إلى مهارة دافني، أو افتقارها إلى ذلك، في العـــزف على البيانو. إنه سعي مؤلم لا ينتهي لوضع أصابع ممتنعة على مفاتـــيح تبدو كأنها تفزع من لمستها. كانت معركة دافني مع الآلة مثل دجاجة تواجه ثعلباً، معركة خاسرة تنتهي دائماً بالدموع. وبالرغم من ذلك، وبسبب إصرار والدي، استمرت الحرب.

في أحد الأيام عندما وجدتها تنشج على المقعد الخشبـــي ورأسها على غطاء البيانو المغلق، كنت قد همست: "كفّي عن ذلك يا دافني". فاندفعت نحوي مثل ديك مقاتل.

كـــنت قـــد حاولـــت حتى تشجيعها. كلما كنت أسمعها على برودوود، كنت أندفع نحو غرفة الاستقبال، أستند إلى البيانو، وأحدق إلى الفراغ كما لو أن عزفها قد فتنني. عادة كانت تتجاهلني، لكن مرة عـــندما قلت: "يا لها من معزوفة رائعة! ما اسمها؟". كادت تغلق الغطاء على أصابعي.

كانت قد صرخت: "السلم الموسيقي". وغادرت الغرفة على عجل.

لم يكن بكشو مكاناً يسهل العيش فيه.

قلت: "إنها بخير. تقرأ ديكنـــز بنهم. لا يمكن جعلها تنطق ببنت شفة".

قال ماكسيمليان: "آه. ديكنـــز العجوز العزيز".

لم يكـــن يبدو قادراً على التفكير في أي شيء آخر عن الموضوع، والتزمت لحظة الصمت الآنية تلك.

قلت: "ماكس. أنت رجل تتمتع بخبرة في الحياة –".

مكتبة الرمحي أحمد

عندما قلت ذلك عدّل جلسته، وازدهى غروراً قدر ما يستطيع.

قال: "لست مجرد رجل يتمتع بخبرة في الحياة - أنا محنّك".

قلت، متسائلة عمّا تعنيه تلك الكلمة: "بالضبط".

"هل زرت من قبل ستافانغر؟". كان سيكفيني البحث عنها في المصوّر الجغرافي.

"ماذا؟ ستافانغر في النرويج؟".

كدت أصرخ عالياً: "ضربة موفقة!". كان هوراس بونبي في النرويج! سحبت شهيقاً عميقاً لأتمالك نفسي، وتمنيت ألا تكون تلك خطأً علامة على نفاد الصبر.

قلت بلطف: "بالطبع في النرويج. هل هناك ستافانغر أخرى؟".

للحظة ظننت أنه يعرف ما أعنيه. ضاقت عيناه وشعرت بقشعريرة عندما عصفت السحب الرعدية لغضب ماكسيمليان تحت الشمس. لكنه قهقه قليلاً، مثل خرير ماء النبع على الأعشاب.

قال: "ستافانغر أول محطة على الطريق إلى هيل [قرية نرويجية]، وهي محطة سكك حديدية. سافرت إلى تروندهايم، ثم إلى هيل وهي، سواء أصدّقتِ ذلك أم لا، قرية صغيرة جداً في النرويج، والتي غالباً ما يرسل منها السيّاح بطاقات بريدية مصوّرة إلى أصدقائهم مع رسالة *أتمنى لو كنتم هنا*! وحيث عزفت كونشيرتو بيانو كريغ. كان كريغ، بالمناسبة، نرويجياً بقدر ما كان اسكتلندياً. غادر جدّه من أبردين بعد كولودن [معركة دار رحاها في اسكتلندا] - لا بد أنه أمعن التفكير في الأمر عندما أدرك أنه لم يكن قد فعل شيئاً سوى الانتقال من لسان بحري إلى زقاق بحري.

يجب أن أقول إنني حققت في تروندهايم نجاحاً كبيراً على صعيدي النقّاد والجمهور. لكن هؤلاء الناس لا يفهمون أبداً موسيقاهم. عزفت

مكتبة الرمحي أحمد

ســـكارلاتي [موســـيقي إيطـــالي] أيضاً، لأنقل قبساً من أشعة الشمس الإيطالـــية إلى تلـــك الأجـــواء الشمالية الثلجية. بالرغم من ذلك، في الاستراحة سمعت بالصدفة تاجراً من دبلن يهمس لصديق: "كلها كريغ بالنسبة إليّ يا تور".

ابتـــسمت بتكلف، بالرغم من أنني كنت قد سمعت هذه الحادثة نحو خمس وأربعين مرة من قبل.

"كان ذلك في الأيام الخوالي، بالطبع، قبل الحرب. ستافانغر! نعم، بالطبع سافرت إلى هناك. لكن لماذا تسألين؟".

"كيف ذهبت إلى هناك؟ بالسفينة؟".

كان هوراس بونبي على قيد الحياة في ستافانغر وقد لقي حتفه في إنكلترا وأردت أن أعرف أين كان بينهما.

"بالطـــبع علـــى متن سفينة. لا تفكرين في الهروب من المنـــزل، أليس كذلك يا فلافيا؟".

"كـــنا نخـــوض حديثاً - في الواقع شجاراً - بشأنها الليلة الماضية على العشاء".

كانـــت تلك إحدى الطرائق لابتكار كذبة متقنة، تحريف حادثة وقعت فعلاً.

"كانـــت أوفيليا تظن أنه يمكن السفر إليها من لندن، بينما أصرّ والدي على هال [بلدة شمال يوركشاير]؛ وصوّتت دافني لسكاربورغ، لكن فقط لأن آن برونتي [روائية وشاعرة] مدفونة هناك".

قال ماكسيمليان: "نيوكاسل - إبون - تاين [يشار إليها اختصاراً نيوكاسل]. في الواقع إنها نيوكاسل".

كانت هناك جلبة بعيدة مع اقتراب حافلة كوتسمور، تسير على طـــول الطـــريق بين حواجز الشجيرات مثل دجاجة تمشي على حبل

مكتبة الرمحي أحمد

مشدود. توقفت الحافلة أمام المقعد الخشبي، تصدر أصواتاً عالية كما لو أنها قد تعبت من حياتها المضنية بين التلال. فُتح الباب مصدراً صوت صرير.

قال ماكسيميليان: "إيرني، أيها العجوز. كيف حال صناعة النقل؟".

قال إيرني وهو ينظر إلى الأمام مباشرة عبر الزجاج: "إنه ممل". حتى إذا كان قد فهم الدعابة، إلا أنه اختار أن يتجاهلها.

"لن أركب معك اليوم يا إيرني. أجلس على المقعد الخشبي لأريح كليتيّ فقط".

"المقاعد الخشبية مخصصة للمسافرين الذين ينتظرون الحافلة فقط. هذا مذكور في كتاب التعليمات يا ماكس. تعرف ذلك وأنا أيضاً أعرفه".

"أعرفه بالفعل يا إيرني. شكراً لتذكيري بذلك".

انزلق ماكس عن المقعد وهبط إلى الأرض.

قال: "وداعاً إذاً". نقر على قبعته وانطلق يمشي على الطريق مثل تشارلي تشابلن.

أُغلق باب الحافلة بصرير حاد بينما كان إيرني يعمل على علبة التروس، واهتزت الحافلة، وتحركت ببطء إلى الأمام. *وهكذا مضى كل منا في سبيله، إيرني وحافلته إلى كوتسمور، ماكس إلى كوتيج، أنا وغلاديز إلى هنلي.*

كان مخفر الشرطة في هنلي يقع في مبنى كان في السابق خاناً للمسافرين. كان المقر محصوراً بين متنزه صغير ودار عرض، تبرز واجهتها الخشبية الناتئة فوق الشارع، ومصباح أزرق يتدلى من سقفه. كان

مكتبة الربيعي أحمد

هـــناك بناء ملحق، مطلي باللون البني، يلتصق بالمبنى الأساسي مثل روث بقرة على جانب عربة قطار. كان ذلك، كما ظننت، مكان الزنازين.

تـــركت غلاديز في موقف الدراجات الهوائية الذي كان أكثر من نـــصفه ممتلئاً بدراجات رالي السوداء الرسمية، صعدت على الدرجات المتهالكة، ودخلت من الباب الرئيس.

كـــان رقـــيب لا يرتدي بذلة رسمية يجلس إلى نضد، يعمل على أوراق ويحـــك شـــعرات متفرقة على رأسه بطرف قلم رصاص حاد. ابتسمت ومشيت حتى تجاوزته.

تذمر قائلاً: "مهلاً، على رسلك". وسأل: "إلى أين تظنين نفسك ذاهبة يا آنسة؟".

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

يبدو أن طرح الأسئلة ميزة رجال الشرطة. ابتسمت كما لو أنني لم أفهـــم وتحركت نحو باب مفتوح، استطعت أن أرى من خلاله ممراً عاتمـــاً. بـــسرعة أكبر مما أتخيلها، كان الشرطي قد وقف على قدميه وأمـــسك بـــي من ذراعي. كنت رهن الاعتقال، و لم يكن هناك شيء آخر أفعله سوى أن انفجر باكية.

كنت أكره فعل ذلك، لكنها كانت الوسيلة الوحيدة التي يمكنني الاستفادة منها.

بعـــد عـــشر دقائق، كنا نرتشف الكاكاو في صالة شاي المخفر، بـــي. سي. غلوسب وأنا. كان قد أخبرني أن لديه ابنة في مثل عمري تماماً في المنـــزل (وهو شيء لم أقتنع به)، تدعى إليزابيث.

قـــال: "إنها خير عون لوالدتها المسكينة، ليزي؛ السيدة غلوسب زوجتي، التي وقعت من على سلم في بستان التفاح مما أدّى إلى إصابتها بكسر في القدم، وسيكون قد مضى على ذلك أسبوعان الأحد القادم".

مكتبة الرمحي أحمد

كان أول ما خطر ببالي أنه قد قرأ الكثير من إصدارات *ذا بينو* أو *ذا داندي* [مجلتا أطفال مصورتان]، وأنه يبالغ في ذلك بهدف تسليتي. لكن النظرة الجادة على وجهه والجبين المتقطب سرعان ما أقنعاني بخلاف ذلك. كان ذلك هو الشرطي غلوسب الحقيقي ويجب أن أتعامل معه وفقاً لقواعده.

بناءً على ذلك، بدأت أنشج مجدداً وقلت له إنه ليست لديّ أم، وإنها قد توفيت في التيبت البعيدة في حادث تسلق جبال، وإنني أشتاق إليها كثيراً.

قال: "هوني على نفسك يا آنسة. البكاء ليس مسموحاً في هذه الأماكن. إنه يحط من كرامة المبنى الطبيعية، لهذا دعينا نتكلم. الأفضل أن تتوقفي عن البكاء الآن قبل أن ألقي بك في السجن".

رسمت ابتسامة باهتة على وجهي، والتي رد عليها باهتمام بابتسامة مماثلة.

كان عدّة محققين قد دخلوا الصالة لشرب الشاي وتناول الكعك خلال أدائي، ومنحني كل منهم ابتسامة تشجيع صامتة. على الأقل لم يطرحوا أي أسئلة.

سألت: "هل يمكنني رؤية والدي، من فضلك؟ اسمه العقيد دي لوس، وأظن أنكم تحتجزونه هنا".

شحب وجه الشرطي غلوسب فجأة، ولاحظت أنني قد أفصحت عن مقصدي بسرعة أكبر من اللازم، وأنني كنت آنذاك أمام موظف رسمي.

قال: "انتظري هنا". وخرج إلى ممر ضيق في نهايته ما يبدو أنه جدار من قضبان فولاذية سوداء.

حالما ذهب ألقيت نظرة سريعة على ما يحيط بي. كنت في غرفة صغيرة كئيبة مع قطع أثاث رثّة قد يكون تم شراؤها مباشرة من

مكتبة الرمحي أحمد

عـــربة بائـــع متجول، قوائمها مهشّمة كما لو أنها قد عانت قرناً من الركلات من أحذية فرض القانون الحكومية.

في محاولـــة يائسة لإصلاح الأمر، كان قد تم طلاء خزانة خشبية صغيرة بلون التفاح الأخضر، لكن قطعة الأثاث نفسها كانت متهالكة يعلـــوها الـــصدأ لدرجـــة أنها ربما كانت إعارة من ورمود سكربس [ســـجن]. كانت هناك كؤوس وصحون فناجين في حال يرثى لها جنباً إلى جنب على سطح التجفيف بجانب المغسلة، ولاحظت لأول مرة أن أعمـــدة النافذة كانت، في الواقع، قضباناً حديدية لم يتم تجميلها كما يجـــب. كـــان المكان كله يعبق برائحة غريبة وحادة كنت قد شممتها عـــندما دخلت. كانت الرائحة كما لو أن قارورة عطر رجال، بقيت منسية لسنوات فوق درج، قد فُتحت.

خطـــرت مقـــتطفات من إحدى أغنيات *قراصنة بنـــزنس* [أوبرا هزلية] على ذهني. كانت فرقة أوبرا دويلي كارت قد غنّت عبر المذياع *الـــشرطي لـــيس رجلاً سعيداً*، وكالمعتاد، كان غيلبرت [ويليام أس.] وسوليفان [سير آرثر] محقين [كتبا معاً 14 أوبرا].

فجـــأة وجدت نفسي أفكر في المغادرة. كانت تلك المهمة كلها عمـــلاً متهوراً، ليست أكثر من دافع لإنقاذ والدي، وشيء خرج من جزء ما قبل التاريخ في ذهني. قلت لنفسي انهضي فحسب وسيري إلى الباب. لن يلاحظ أحد أنك ذهبت.

أصـــغيت السمع للحظة، ورفعت رأسي مثل ماكسيميليان لزيادة حدّة سمعي المرهف أصلاً. في مكان ما بعيد كانت أصوات عميقة تطن مثل قفير نحل.

دفعـــت قدمـــيّ ببطء واحدة تلو الأخرى، مثل سنيورة حسّاسة تـــرقص التانغو، وتوقفت فجأة عند الباب. من حيث كنت أقف، لم

مكتبة الرمحي أحمد

أتمكـــن مـــن رؤية سوى جزء واحد فقط من نضد الرقيب في البهو، ولحسن الحظ، لم يكن هناك مرفق رسمي يستريح عليه.

غامـــرت بالخروج. كان الممر خاوياً، ورقصت التانغو من دون عقبات على كل الطريق إلى الباب وخرجت إلى ضوء النهار.

بالـــرغم مـــن أنني لم أكن سجينة، إلا أن شعوري بالنجاة كان كبيراً.

مـــشيت بهـــدوء إلى حيث ركنت دراجتي. عشر دقائق أخرى وســـأكون في طريق عودتي. وعندها، كما لو أن شخصاً رمى دلواً من ماء بارد على وجهي، تجمدت ذعراً: كانت غلاديز قد اختفت! كدت أصرخ عالياً.

كانـــت كل الدراجات الهوائية الرسمية بمصابيحها الصغيرة المميزة والعربات الحكومية موجودة هناك. لكن غلاديز كانت قد اختفت!

نظرت هنا وهناك، وبطريقة ما مخيفة بدت الشوارع فجأة مختلفة آنذاك، وكنت سأعود مشياً على القدمين. في أي اتجاه كان المنـــزل؟ أي اتجاه يقود إلى الطريق الرئيس؟

كما لو أن تلك المشكلات لم تكن كافية، كانت هناك عاصفة قادمة. كانت سحب سوداء تتجمع في السماء الغربية، بينما كانت تلـــك الـــتي تمر مباشرة فوق الرؤوس أرجوانية وزرقاء بطريقة غير سارة.

امـــتلأت خوفاً، ثم غضباً. كم كنت غبية لأترك غلاديز من دون أن أحكـــم إقفـــال رباطها في مكان غريب؟ كيف كنت سأعود إلى المنـــزل؟ ماذا كان سيحل بفلافيا المسكينة؟

كانت فيلي قد أخبرتني مرة ألا أبدو مرتبكة في بيئات غير مألوفة، لكن كيف، وجدت نفسي أتساءل، هل يمكن للمرء أن يفعل ذلك؟

مكتبة الربيعي أحمد

كان ذلك ما أفكّر فيه عندما أطبقت يد ثقيلة على كتفي وقال صوت: "أظن من الأفضل أن تأتي معي".

كان المفتش هيوت.

قال المفتش: "ذلك غير معتاد على الإطلاق، وغير مناسب أبداً".

كنا نجلس في مكتبه، غرفة طويلة ضيقة كانت في ما مضى مشرب خان المسافرين. كانت غرفة أنيقة جداً، لا تحتاج سوى إلى دُريقة نجمية [نبات من فصيلة الزنبق] وبيانو.

كانت هناك خزانة ملفات وطاولة بتصميم عادي تماماً. يوجد في المكتب كرسي، هاتف، ورف صغير للكتب، فوقه صورة مؤطرة لامرأة ترتدي معطفاً من وبر الجمل تستند إلى حاجز جسر حجري قديم. بطريقة ما كنت قد توقعت المزيد.

"سيبقى والدك محتجزاً هنا حتى نحصل على معلومات معينة. بعد ذلك سيتم نقله على الأرجح إلى موقع آخر، إلى مكان لست مخولاً الكشف عنه. أنا آسف يا فلافيا، لكن رؤيته غير ممكنة".

سألت: "هل هو رهن الاعتقال؟".

أجاب: "أخشى ذلك".

"لكن لماذا؟". كان ذلك سؤالاً غبياً، وقد عرفت ذلك حالما خرج من فمي. كان ينظر إلي كما لو أنني طفلة.

قال: "اسمعي يا فلافيا. أعرف أنكِ منزعجة. ذلك مفهوم. لم تسنح لك فرصة رؤية والدك قبل... حسناً، كنت بعيدة عن بكشو عندما أحضرناه إلى هنا. تكون هذه الأشياء دائماً صعبة جداً على أي ضابط شرطة، كما تعرفين. لكن، يجب أن تفهمي أن هناك أحياناً أشياء أود القيام بها كصديق، لكنني كممثل لجلالته، لا أستطيع".

مكتبة الرمحي أحمد

قلت: "أعرف. الملك جورج السادس رجل لا يحب العبث".

نظـــر المفتش هيوت إلي بحزن. نهض من خلف مكتبه وذهب إلى الـــنافذة حـــيث وقـــف ينظر إلى السحب التي كانت تتجمع آنذاك، وكانت يداه مشبوكتين خلف ظهره.

قال أخيراً: "لا. الملك جورج رجل لا يحب العبث".

ثم فجـــأة، خطـــرت ببالي فكرة. مثل البرق الذي يُضرب المَثَلُ بسرعته، أصبحت الصورة واضحة مثل أحد تلك الأفلام السينمائية التي تعتمد حبكة الخطف أساساً والتي تقفز فيها كل قطعة من الأحجية إلى مكانها الصحيح، وتكمل نفسها أمام عينيك.

سألت: "هل يمكن أن أكون صريحة معك أيها المفتش؟".

قال: "بالطبع. قولي ما تريدين من فضلك".

"كانت الجثة في بكشو لرجل وصل إلى بيشوب لاسي يوم الجمعة بعـــد رحلة من ستافانغر في النرويج. يجب أن تطلق سراح والدي فوراً أيها المفتش، لأنه، كما تعرف، لم يقترف شيئاً".

بالـــرغم مـــن أنه صُدم قليلاً، إلا أن المفتش تمالك نفسه بسرعة وابتسم لي بتكلف.

"لم يقترف شيئاً؟".

قلت: "لا. أنا فعلت ذلك. أنا قتلت هوراس بونبي".

مكتبة الربيعي أحمد

أربعة عشر

كانت الحبكة متقنة تماماً. لم يكن بمقدور أحد إثبات عكس ذلك.

كنت قد استيقظت في الليل، كما سأدّعي، على صوت غريب خارج المنزل. كنت قد نزلت السلالم وتوجهت إلى الحديقة، حيث التقيت شخصاً دخل إليها خلسة، قد يكون لصاً، ربما، ينوي سرقة طوابع والدي. بعد عراك لوقت قصير تمكّنت من التغلب عليه.

تمهلي قليلاً يا فلافيا، لا يبدو ذلك الجزء الأخير مقنعاً. كان طول هوراس بونبي أكثر من ست أقدام؛ وبمقدوره خنقي باستخدام إبهامه وسبابته. لا، كنا قد تعاركنا وتوفي. ربما كان قلبه ضعيفاً نتيجة مرض أصابه في طفولته من دون أن يعالجه. حمّى روماتيزم، لنقل. نعم، كان ذلك هو السبب. احتشاء عضلة قلبية متأخر، مثل بيث في *نساء صغيرات* [رواية الكاتبة الأمريكية لويزا ماي ألكوت]. تضرعت صامتة لسان تانكريد لتحقيق معجزة، من فضلك أيها العزيز سان تانكريد، ليؤكد تشريح بونبي كذبتي.

كرّرت: "أنا قتلت هوراس بونبي". كما لو أن قول ذلك مرتين سيجعله أكثر مصداقية.

سحب المفتش هيوت نفساً عميقاً وأخرج الهواء من أنفه. قال: "أخبريني عن ذلك".

مكتبة الرمحي أحمد

"سمعت صوتاً في الليل، خرجت إلى الحديقة، هاجمني شخص في الظلال -".

قال: "تمهلي، من أي جزء في الظلال؟".

"الظلال خلف الدفيئة. كنت أكافح للتحرر منه عندما سمعت قرقرة مفاجئة من حنجرته، كما لو أنه يعاني من احتشاء عضلة قلبية نتيجة نوبة من حمى روماتيزم أصيب بها صغيراً - أو يعاني من شيء من هذا القبيل".

قال المفتش هيوت: "فهمت. وماذا فعلت عندها؟".

"عدت إلى المنزل وأحضرت دوغر. الباقي، كما أظن، تعرفه جيداً".

لكن مهلاً، كنت أعرف أن دوغر لم يكن قد أخبره بشأن استراقنا السمع معاً على شجار والدي مع هوراس بونبي، وبالرغم من ذلك، لم يكن محتملاً أن يقوم دوغر بإبلاغ المفتش أنني قد أيقظته عند الرابعة فجراً من دون أن أذكر حقيقة أنني قد قتلت الرجل. أم هل أخبره؟

كنت بحاجة إلى وقت لأمعن التفكير في الأمر.

قال المفتش: "لا يعد العراك مع مهاجم جريمة".

قلت: "لا، لكنني لم أخبرك بكل شيء".

قلّبت بسرعة الضوء بطاقات فهرسي الذهني. فكرت في سموم مجهولة للعلم (بطيئة جداً)، تنويم مغناطيسي قاتل (الشيء نفسه)؛ الضربات السرية والمحظورة للجوجيستو [المصارعة اليابانية] (غير محتمل، غامضة ولا يمكن تفسيرها). فجأة، بدأ يتضح لي أن التضحية بالنفس تتطلب عبقرياً مبدعاً حقاً. لم يكن لسان طلق كافياً.

أضفت: "أنا خجلة من ذلك".

مكتبة الرمحي أحمد

عـــندما تكونين في حيرة، كما فكّرت، أظهري مشاعر جياشة. كنت فخورة بنفسي لأنني فكّرت في ذلك.

قـــال المفتش: "مم. لنترك ذلك الآن. هل أخبرت دوغر أنك قد قتلت هذا اللص؟".

"لا، لا أظن أنني أخبرته. كنت منـــزعجة جداً من كل ما جرى، كما تعرف".

"هل أخبرته لاحقاً؟".

"لا، لم أكن أظن أن أعصابه يمكن أن تتحمل ذلك".

قـــال المفـــتش هـــيوت: "حسناً، هذا مثير جداً للاهتمام، لكن التفاصيل تبدو مشوشة قليلاً".

كنت أعرف أنني أقف على حافة هاوية، خطوة أخرى بعد ولن يكون التراجع ممكناً.

قلت: "هناك المزيد، لكن –".

"لكن؟".

"لن أقول كلمة أخرى حتى تسمح لي بالتحدث إلى والدي".

بـــدا أن المفـــتش هـــيوت يحاول استيعاب شيء لا يمكن فهمه بـــسهولة. فـــتح فمه كما لو أن شيئاً قد علق فجأة في حلقه، ثم أغلقه مجـــدداً. ابتلع ريقه ثم فعل شيئاً أثار إعجابـــي، شيئاً سجلت ملاحظة ذهنية بإضافته إلى حقيبة خدعي؛ أخرج منديله من جيبه وحوّل دهشته إلى عطاس.

أضفت: "وحدنا".

نظّف المفتش أنفه بصوت مسموع وعاد إلى النافذة، حيث وقف يحـــدّق إلى شيء ما، ووضع يديه مجدداً خلف ظهره. كنت قد بدأت أتعلم أن ذلك يعني أنه يفكّر بعمق.

مكتبة الربيعي أحمد

قال فجأة: "حسناً. تعالي معي".

قفـــزت بحماســـة عن مقعدي وتبعته. عند الباب سد الطريق إلى الممر بذراعه واستدار، وترك يده الأخرى تهبط بلطف شديد مثل ريشة على كتفي.

قال: "أنا على وشك القيام بشيء قد أندم عليه. أنا أخاطر بمهنتي. لا تخذليني يا فلافيا... من فضلك لا تخذليني".

قـــال والـــدي: "فلافـــيا!". كان يمكنني القول إنه كان مندهشاً لـــرؤيتي هـــناك. ثم أفسد الأمر بالقول: "أبعد هذه الطفلة من هنا أيها المفتش. أتوسل إليك أن تفعل ذلك".

استدار مبتعداً عني وواجه الجدار.

بالـــرغم من أن باب الغرفة كان مطلياً بلون أصفر باهت، إلا أن مـــن الواضـــح أنه كان مكسواً بفولاذ. عندما فتحه المفتش، رأيت أن الحجرة نفسها لم تكن أكثر من مجرد مكتب صغير فيه سرير يمكن طيه ومغـــسلة نظيفة بشكل مدهش. لحسن الحظ أنهم لم يكونوا قد وضعوا والـــدي في إحدى تلك الزنازين ذات القضبان التي كنت قد رأيتها في وقت سابق.

أشار المفتش هيوت نحوي بإيماءة مقتضبة، كما لو أنه يقول "الأمر مـــنوط بـــك". ثم تراجع خطوة إلى الخلف، وأغلق الباب بهدوء قدر المستطاع. لم يكن هناك صوت مفتاح يدور في القفل، أو رتاج يدخل في مكانـــه، بالـــرغم من أن البرق الساطع والصوت المفاجئ للرعد في الخارج ربما يكونا قد أخفيا الصوت.

لا بد أن والدي ظنّ أنني قد خرجت مع المفتش، لأنه فزع عندما استدار على عقبيه، ورأى أنني كنت لا أزال أقف هناك.

مكتبة الربيعي أحمد

قال: "عودي إلى المنـــزل يا فلافيا".

بالرغم من أنه كان يقف بصلابة ومنتصباً تماماً، إلا أن صوته كان ضعيفاً ومتعباً. تبيّنت أنه كان يحاول تمثيل دور السيد الإنكليزي متبلد الإحساس، الذي لا يخاف مواجهة الخطر، وأدركت بمرارة أنني أحببته وكرهته لأجل ذلك في الوقت نفسه.

قـــال وهـــو يـــشير إلى النافذة: "إنها تمطر". كانت السحب قد تجمّعت كما كانت قد فعلت في وقت سابق فوق فولي، والمطر ينهمر غزيراً مرة أخرى، ويمكن سماع صوت قطراته التي ترتطم مثل رصاص علـــى الإفريز خارج النافذة. في شجرة على الطرف الآخر من الطريق، هزّ غراب نفسه مثل مظلة رطبة.

"لا يمكنني العودة إلى المنـــزل حتى يتوقف المطر. وأحدهم سرق غلاديز".

قال: "غلاديز؟". وكانت عيناه كعينيّ مخلوق بحري منقرض يخرج من أعماق مجهولة.

قلت له: "دراجتي".

أومأ شارد الذهن، وكنت أعرف أنه لم يسمعني.

سأل والدي: "من أحضرك إلى هنا؟ هو؟". هزّ بإبهامه نحو الباب ليشير إلى المفتش هيوت.

"جئت لوحدي".

"لوحدك؟ من بكشو؟".

قلت: "نعم".

كـــان ذلك يبدو أكثر مما يمكنه استيعابه، واستدار نحو النافذة. لم يـــسعني ســـوى أن ألاحظ أنه وقف مثل المفتش هيوت، وكانت يداه مشبوكتين خلف ظهره.

مكتبة الرمحي أحمد

قال أخيراً، كما لو أنه فهم الأمر للتو: "لوحدك، من بكشو".

"نعم".

"ودافني وأوفيليا؟".

أكّدت له: "كلتاهما بخير. تفتقدانك كثيراً، بالطبع، لكنهما تهتمان بأشياء إلى حين عودتك إلى المنـــزل".

إذا كذبت، والدتي ستموت.

كان ذلك ما تنشده الفتيات الصغيرات أحياناً عندما يقفزن على الحـــبل في ساحة دار العبادة. حسناً، كانت والدتي ميتة آنذاك، أليس كـــذلك، لهذا ما الضرر الذي يمكن أن ينجم عن ذلك؟ ومن يدري؟ بسبب ذلك، ربما أحظى بمكان في الفردوس.

قـــال والـــدي أخـــيراً، كما لو أن تنهيدة أفلتت منه: "أعود إلى المنـــــزل؟! قد لا يكون ذلك ممكناً لبعض الوقت. لا... قد لا يكون ذلك ممكناً أبداً".

كان على الجدار، بجانب نافذة مغلقة بقضبان حديدية، تقويم من بقّـــال هنلـــي، يحمل صورة الملك جورج والملكة إليزابيث، كل منهما لـــوحده في فقاعـــته الخاصة، يرتديان ملابس بطريقة جعلتني أظن أن المـــصوّر التقـــى بهما صدفة في طريقهما إلى حفلة تنكرية في قصر أمير بافاري.

ألقى والدي خلسة نظرة على التقويم وبدأ يتحرك جيئة وذهاباً في الغـــرفة الصغيرة، ويتفادى جاهداً نظراتي. كان يبدو أنه قد نسي أنني هـــناك، وبـــدأ آنذاك يصدر أصوات همهمة خافتة غير منتظمة تقطعها زفرات ساخطة كما لو أنه يدافع عن نفسه أمام محكمة غير مرئية.

قلت: "لقد اعترفت منذ قليل".

قال والدي: "نعم، نعم". وتابع تحركه وهمهمته.

مكتبة الرمحي أحمد

"قلت للمفتش هيوت *إنني* قتلت هوراس بونبي".

توقف والدي فجأة كما لو أنه داس على سيف. استدار وحدّق إليّ بتلك النظرة الزرقاء المفزعة التي كانت في أحيان كثيرة سلاحه المفضّل في التعامل مع بناته.

سأل بصوت قاسٍ: "ماذا تعرفين عن هوراس بونبي؟".

قلت: "الكثير في الواقع".

ثم، بغتة، خرج الغضب منه دفعة واحدة مثل شرر يتطاير. في لحظة كانت وجنتاه تنتفخان مثل ريح تعصف بخرائط من القرون الوسطى، وفي اللحظة التالية أصبحتا غائرتين مثل تاجر خيول. جلس على طرف السرير، يمد أصابع إحدى يديه ليثبّت نفسه.

قلت: "سمعت صدفة اختلافكما في الرأي في المكتب. آسفة لأنني استرقت السمع. لم أكن أقصد ذلك، لكنني سمعت أصواتاً في الليل ونزلت إلى الأسفل. أعرف أنه حاول ابتزازك... سمعت الشجار. لهذا السبب قلت للمفتش هيوت إنني قتلته".

هذه المرة فهم والدي الأمر.

سأل: "قتلته؟ ماذا تعنين بقتلته؟".

قلت: "لم أكن أريد أن يعرفوا أنك الفاعل".

قال والدي وهو ينهض عن السرير: "أنا؟ يا الله! ما الذي جعلك تظنين أنني قتلت الرجل؟".

قلت: "لا بأس بذلك. إنه على الأرجح يستحق ذلك. لن أخبر أحداً بذلك أبداً. أعدك".

بيدي اليمنى رسمت رمزاً على صدري وتمنيت الموت، وحدّق والدي إليّ كما لو أنني مخلوق رطب متوحش قد قفز للتو من لوحة هيرونيموس بوش [رسّام هولندي].

مكتبة الرمحي أحمد

قال: "فلافيا. من فضلك افهمي الآتي، بالرغم من أنني كنت أودّ ذلك كثيراً، إلا أنني لم أقتل هوراس بونبني".

"لم تفعل؟".

لم يكن بمقدوري تصديق ذلك بسهولة. كنت قد توصلت إلى استنتاج أن والدي هو من اقترف الجريمة، وأنه سيكون من الصعب جداً علي الاعتراف أنني كنت على خطأ.

بالرغم من ذلك، تذكرت أن فيلي كانت قد قالت لي مرة إن الاعتراف مفيد للروح. فعلَت ذلك عندما كانت تلوي ذراعي خلف ظهري، وتحاول إرغامي على إخبارها بما كنت قد فعلته بمفكرتها.

"لقد سمعت ما قلته بشأن موت مدير مدرستك السيد توييننغ. ذهبت إلى المكتبة وبحثت عن الأمر في أرشيف الصحف. تكلمت إلى الآنسة مونتجوي، إنها ابنة أخت السيد توييننغ. إنها تتذكر اسمي جاكو وهوراس بونبني من التحقيق. أعرف أنه أقام في ثلاثة عشر علجوماً، وأنه أحضر شُنقباً ميتاً من النرويج مخفياً في فطيرة".

هز والدي رأسه ببطء وحزن من جانب إلى آخر، ليس إعجاباً بمهاراتي البوليسية، وإنما مثل دب عجوز تلقى ضربة قاتلة لكنه يرفض أن يقع أرضاً.

قال: "هذا صحيح. لكن هل تظنين حقاً أن والدك يقترف جريمة بدم بارد؟".

عندما فكرت في الأمر للحظة - فكرت فيه فعلاً - أدركت كم كنت حمقاء. لماذا لم أدرك ذلك من قبل؟ كان اقتراف جريمة بدم بارد أحد الأشياء التي لا يستطيع والدي القيام بها.

قلت: "حسناً... لا".

مكتبة الربيعي أحمد

قال: "فلافيا، انظري إليّ". لكن عندما رفعت بصري إلى عينيه، رأيت، للحظة واحدة مخيفة، أن عينيه تحدّقان إليّ، وكان عليّ أن أشيح بوجهي بعيداً.

قال والدي بصوت ضعف تدريجياً مثل بث بعيد على الموجة القصيرة، وكنت أعرف أنه لم يكن يقول ذلك لي فقط: "لم يكن هوراس بونبي رجلاً محترماً على وجه الخصوص، لكنه لم يكن يستحق الموت. لا أحد يستحق الموت".

أضاف: "هناك الكثير من الموت في العالم الآن".

جلس، ينظر إلى يديه، كل إبهام ينقر الآخر، وأصابعه متشابكة مثل مسننات ساعة قديمة.

بعد مرور بعض الوقت قال: "ماذا عن دوغر؟".

اعترفت: "كان هناك أيضاً. خارج مكتبك...".

تأوه والدي.

همس: "هذا ما أخشاه. هذا ما أخشاه أكثر من أي شيء آخر".

وعندها، مع هطول المطر بغزارة على زجاج النافذة، بدأ والدي يتكلم.

مكتبة الربيعي أحمد

خمسة عشر

في البداية كانت كلمات والدي تخرج من فمه بطيئة ومترددة، تهتز ببطء مثل عربات شحن متهالكة على سكة قطار. لكن في ما بعد، بعد أن ازدادت سرعة، سرعان ما تحولت إلى استرسال ثابت.

قال: "لم يكن والدي رجلاً يمكن أن يحبه المرء بسهولة. أرسلني إلى مدرسة داخلية عندما كنت في الحادية عشرة من عمري. لم أرَه كثيراً منذ ذلك الوقت. هذا غريب، كما تعرفين. لم أعرف أبداً ما كان يثير اهتمامه حتى أشار شخص ما خلال جنازته، أحد حملة النعش، بالصدفة إلى أنه كان شغوفاً بالنيتسوك. كان علي أن أبحث عن الكلمة في المعجم".

قلت: "إنها نحت تماثيل صغيرة من العاج بالطريقة اليابانية. إنها مذكورة في إحدى قصص د. ثورندايك [محقق في سلسلة روايات] لأوستن فريمان [كاتب بريطاني]".

تجاهلني والدي وتابع كلامه. "بالرغم من أن غريمنستر لم تكن تبعد أكثر من عدّة أميال عن بكشو، إلا أنها في تلك الأيام كانت تبدو على سطح القمر. كنا محظوظين بالفعل بمديرنا د. كيسنغ، والذي كان رجلاً لطيفاً يعتقد أن لا ضرر يمكن أن يلحق بفتى يتلقى جرعات يومية من اللاتينية، الركبي، الهوكي، والتاريخ، وبشكل عام، كنا نلقى معاملة حسنة.

مكتبة الرمحي أحمد

مثل معظم الفتيان الآخرين، كنت منعزلاً في البداية، ألتزم كتبي وأبكي عند حاجز الشجيرات كلما تمكّنت من الابتعاد لوحدي. كنت بالتأكيد، كما كنت أظن آنذاك، أتعس طفل في العالم، وأن هناك شيئاً بشعاً متأصلاً بي دفع والدي لإبعادي من دون شفقة. كنت أظن أنني إذا تمكّنت من اكتشاف ماهيته، قد أحظى بفرصة لتصويب الأمور، والتعويض عليه بطريقة ما.

ليلاً، في غرفة النوم، كنت أندس تحت البطانيات مع مصباح كهربائي وأفحص وجهي في مرآة حلاقة مسروقة. لم أتمكن من رؤية أي شيء غير اعتيادي، لكنني كنت مجرد طفل عندها ولست مستعداً حقاً للحكم على تلك الأشياء.

لكن الزمن مضى قدماً، كما يفعل دائماً، ووجدت نفسي أنغمس في حياة المدرسة. كنت جيداً في مادة التاريخ لكن من دون فائدة ترجى عندما يتعلق الأمر بكتب إقليدس [عالم الرياضيات اليوناني]، التي وضعتني في مكان ما في المستوى المتوسط؛ لم أكن بارعاً للغاية ولا غبياً جداً بحيث أثير اهتمام من حولي.

كان مستوى دون الوسط، كما اكتشفت، غطاء تمويه رائع، لون حماية مدهش. كان الفتيان الذين لا يفشلون، لكنهم لا يتفوقون، يُتركون وشأنهم، كانوا متحررين من مطالب المدير الذي قد يتمنّى تحضيرهم للمجد، ومن أشقياء المدرسة الذين ربما يجعلهم كبش فدائهم. كانت تلك الحقيقة البسيطة أول اكتشاف كبير في حياتي.

كنت في الصف الرابع، على ما أظن، عندما بدأت أهتم أخيراً بالأشياء حولي، ومثل كل الفتيان في ذلك العمر، كان لدي شغف بالغموض، ولهذا عندما اقترح السيد توييننغ، مدير مدرستنا، تأسيس حلقة ألعاب الخفة، وجدت نفسي فجأة أتقد حماسة وإثارة.

مكتبة الرمحي أحمد

لم يكن السيد توييننغ خبيراً ماهراً، أو ممثلاً لامعاً جداً، كما يجب أن أقـــرّ، لكنه كان ينفّذ خدعه بحماسة شديدة، حماسة طيب القلب، لدرجة أنها كانت فظاظة منا أن نكبح استحساننا الطفولي بصوتٍ عالٍ.

علّمـــنا، في الأمسيات، تحويل الشراب إلى ماء باستخدام منديل فقـــط وورقـــة نـــشّاف ملونة، طريقة جعل شلن محدد يختفي من أذن سمبكنـــز. علّمنا أهمية الغمغمة، طريقة كلام الحاوي كما هي، ودرّبنا علـــى خلط أوراق اللعب بطرائق رائعة حيث يُترك آس الكبّة دائماً في أسفل الرزمة.

كـــان معروفاً للجميع أن السيد توييننغ يتمتع بشعبية كبيرة، وقد تكون كلمة محبوب أفضل، بالرغم من أن قلة منا في ذلك الوقت كانت قد رأت ما يكفي من تلك العاطفة لتعرفها.

حـــصل على أفضل تقدير له عندما طلب منه مدير المدرسة، د. كيسنغ، تحضير عرض ألعاب خفة بمناسبة ذكرى الوالدين، وأن يكون العرض برنامجاً مليئاً بالمرح يقدم فيه كل ما يعرفه.

بـــسبب براعتي بخدعة تدعى بعث تشانغ فو، أصرّ السيد توييننغ علـــى أن أقوم بتقديم الفقرة الأخيرة من العرض. كانت المجازفة تتطلب وجـــود شخـــصين، ولهذا السبب سمح لي باختيار أي مساعد أريده، وهكذا عرفت هوراس بونبي.

كان هوراس قد جاء إلينا من سان كوثبرت بعد مشكلة في تلك المدرســـة بشأن بعض الأموال المفقودة، كانت عبارة عن جنيهين فقط، كما أظن، بالرغم من أن المبلغ في ذلك الوقت كان يبدو ثروة. اعترف أنني شعرت بالأسى عليه. شعرت أنه تم استغلاله، خاصة عندما أفشى لي أن والده كان أقسى رجل، وأنه فعل أشياء لا يمكن البوح بها باسم الانضباط. آمل ألا يكون ذلك ثقيلاً على مسامعك يا فلافيا".

مكتبة الربيعي أحمد

قلت وأنا أسحب الكرسي إلى مكان قريب منه: "لا، بالطبع لا. تابع من فضلك".

"كان هوراس فتى طويلاً بشكل استثنائي حتى في ذلك الوقت، ذا شعر أحمر كثيف. كانت ذراعاه طويلتين في سترة المدرسة لدرجة أن رسغيه كانا يبرزان خارجها مثل غصنين مكشوفين خلف طرفي الردنين. بوني [هزيل]، كان الفتيان ينادونه، ويضايقونه من دون رحمة بسبب مظهره.

لجعل الأمور أسوأ، كانت أصابعه طويلة جداً ورفيعة وبيضاء، مثل مجسّات أخطبوط أمهق، وكان جلده أبيض شاحباً من النوع الذي يراه المرء أحياناً في الأشخاص ذوي الشعر الأحمر. كان يقال همساً إن لمسته سامة. تحمّل ذلك قليلاً، وكان يحاول متثاقلاً الإمساك بالفتيان الذين يسخرون منه، والذين كانوا دائماً خارج متناول يده.

في إحدى الأمسيات، بعد لعبة أرانب وكلاب، كان يستريح على مرقى [درجة أو مجموعة درجات ترتقى للقفز من فوق سياج أو جدار]، يلهث مثل ثعلب، عندما تسلل فتى صغير يدعى بوتس على أطراف أصابعه، ووجه إليه لكمة مفاجئة على وجهه. كان يجب أن تكون مجرد لمسة، مثل مس المطارد، لكنها سرعان ما تحولت إلى شيء آخر.

عندما رأوا أن الوحش المخيف، بونبي، أُصيب بالذهول وأنفه ينزف، بدأ الفتيان الآخرون يرمون بأنفسهم عليه، وسرعان ما أوقعوا بونبي أرضاً، وأوسعوه لكماً وركلاً، وضربوه بوحشية. عندها فقط اتفق أنني وصلت إلى هناك صدفة.

صرخت بأعلى ما أستطيع، *توقفوا!* ولدهشتي، توقف الشجار على الفور. بدأ الفتيان يبتعدون ويخلصون أنفسهم، واحداً إثر الآخر،

مكتبة الرمحي أحمد

من اشتباك الأذرع والأقدام. لا بد أن شيئاً في صوتي قد جعلهم يطيعون مباشرة. ربما حقيقة أنهم رأوني أقوم بخدع غامضة قد منحتني سلطة غير مرئية، لا أعرف، لكنني أعرف أنني عندما أمرتهم بالعودة إلى غريمنستر، اختفوا مثل قطيع من الذئاب في الظلام.

سألت بونبي وأنا أساعده على الوقوف على قدميه: "هل أنت بخير؟".

قال: "أشعر بوهن كبير، لكن فقط في مكان أو اثنين بعيدين عن بعضهما مثل شرائح لحم عجل كارنفورث". وضحك كلانا. كان كارنفورث، قصّاب هنلي، سيئ السمعة. كانت عائلته تزوّد غريمنستر بشرائح لحم العجل المشوية القاسية مثل جلد الأحذية يوم الأحد منذ حروب نابليون.

لاحظت أن بوني تعرض لضرب مبرّح لا يمكن أن يصفح عنه بسهولة، لكنه كان يخفي ذلك خلف وجه شجاع. منحته كتفي ليستند إليها، وساعدته على العودة وهو يعرج إلى غريمنستر.

منذ ذلك اليوم، أصبح بوني يرافقني مثل ظلي. تبنّى كل ما أتحمس له، وبقيامه بذلك بدا أنه أصبح شخصاً مختلفاً. كانت هناك أوقات، في الواقع، أتخيل فيها أنه تقريباً صورة طبق الأصل عني، وأنّ جزءاً من شخصيتي التي كنت أبحث عنها في مرآة في منتصف الليل تظهر أمامي من خلاله.

ما أعرفه أننا لم نكن أفضل حالاً قبل أن نصبح معاً، وأن ما لم يكن أحدنا يستطيع فعله، كان الآخر ينجزه بسهولة. بدا أن بوني قد ولد مع قدرة رائعة في الرياضيات، وسرعان ما أفضى إليّ بأسرار الهندسة والمثلثات. كان يجعل الأمر لعبة، وأمضينا عدّة ساعات سعيدة نحسب وفقاً لدراسة أي منا سيقع برج ساعة منزل آنسون باستخدام

مكتبة الربيعي أحمد

عتلة بخارية عملاقة من ابتكارنا. في وقت آخر، صممنا باستخدام علم المثلثات سلسلة مبتكرة من الأنفاق التي، عند إشارة معينة، ستنهار في الوقت نفسه، مما سيجعل غريمنستر وكل المقيمين فيها يقعون في جهنم دانتي [شاعر إيطالي]، حيث سيتعرضون لهجمات من الدبابير، النحل، والديدان التي خططنا لوضعها في المكان".

دبابير، نحل، وديدان؟ هل كان ذلك والدي الذي يتكلم؟ وجدت نفسي فجأة أصغي إليه باحترام جديد.

تابع قائلاً: "لم نفكر أبداً، في الواقع، في طريقة تحقيق ذلك، لكن نتيجة ذلك كله كانت أنني أصبحت أكثر تآلفاً مع إقليدس العجوز وكتب فرضياته، بينما كان العظمي، مع قليل من التدريب، يتحول إلى ساحر رائع.

كان الأمر يتعلق بالأصابع، طبعاً. تلك الملحقات البيضاء الطويلة التي يبدو أنها تتمتع بحياة خاصة بها، ولم يمضِ وقت طويل قبل أن يتقن بوني تماماً فنون خفّة اليد. كانت أشياء مختلفة تظهر وتختفي عند أطراف أصابعه بسهولة كبيرة، وحتى أنا الذي كنت أعرف حق المعرفة طريقة تنفيذ كل خدعة، لم يكن بمقدوري تصديق عينيّ.

ومع تطور مهاراته في ألعاب الخفة، ازداد شعوره بأهميته الشخصية. بعد أن عرف بعض الخدع، أصبح بوني شخصاً جديداً، واثقاً من نفسه، لطيفاً، وربما حتى متهوراً. تغير صوته أيضاً. ما كان يبدو بالأمس تلميذاً أجش الصوت، أصبح آنذاك، فجأة - على الأقل، عندما كان يقدم عروضه - يمتلك صندوقاً صوتياً من الماهوغاني [خشب صلد] اللامع. كان صوتاً جميلاً لم يفشل أبداً في إقناع مستمعيه.

كانت خدعة *بعث تشانغ فو* تعمل كالآتي، كنت أرتدي كيموناً [ثوب فضفاض واسع الردنين] حريرياً اشتريته من سوق خيرية نظّمتها

مكتبة الربيعي أحمد

دار العبادة، وهو رداء أحمر جميل تزيّنه تنانين صينية وعلامات غامضة. كنت أطلي وجهي بكلس أصفر وأُلفّ مطاطاً رقيقاً حول رأسي لأشد عينيّ إلى الجانبين. كانت قطعتا نقانق من كارنفورث، على شكل أظفار طويلة ومعقوفة تكملان التفاصيل المثيرة للاشمئزاز. كل ما كان ضرورياً لاستكمال مظهري هو فلينة محروقة، بضع خصلات من خيوط مهترئة كلحية، وشعر مستعار مسرحي مخيف.

كنت أطلب متطوعاً من الجمهور، شريكاً، بالطبع، كان قد تمرن معي مسبقاً. كنت أجعله يصعد على خشبة المسرح وأشرح، بصوت هزلي منمّق ورتيب، أنني على وشك أن أقتله، وأرسله إلى *أرض الأسلاف السعيدة*. لم يفشل هذا الإعلان الواقعي أبداً في جعل الجمهور يشهق، وقبل أن يتمكّن الحاضرون من تمالك أنفسهم، كنت أسحب مسدساً من طيّات ثوبي، أسدده على قلب شريكي، وأضغط على الزناد.

يمكن أن يصدر عن مسدس صوتي ضجيج مخيف عندما يتم إطلاقه داخل مكان مغلق، ويُحدث دوياً مفزعاً. كان شريكي يمسك صدره، يضغط بيده على ورقة ملفوفة تحتوي على صلصة بندورة، والتي تسيل بشكل مريع من بين أصابعه. ثم سينظر إلى الأسفل إلى صدره، ويفغر فمه غير مصدق.

سيصرخ، *ساعدني يا جاكو! لقد وقع خطأ! أنا مصاب*! ويسقط على ظهره متظاهراً بالموت.

سيكون الجمهور، آنذاك، متحفّزاً من صدمة ما رأى، بعضهم سيقفون على أقدامهم، وآخرون سينفجرون بالبكاء. كنت أرفع يداً لإسكاتهم.

كنت أهمس، *صمتاً*، وأحدّق إليهم بنظرة مخيفة. *الأرواح تأمر بالصمت*.

مكتبة الرمحي أحمد

قد تصدر عنهم بضع ضحكات عصبية مكبوتة، لكن عادة يكون هناك سكوت بسبب الصدمة. كنت آتي بملاءة ملفوفة من الكواليس، وأغطي بها مساعدي الذي يبدو ميتاً، ولا أترك سوى وجهه الذي يتجه إلى الأعلى بادياً للعيان.

كانــت تلك الملاءة شيئاً مميزاً فعلاً، كنت أقوم بتحضيرها بسرية مطلقــة. كانت تنقسم طولياً إلى ثلاثة أجزاء، بوتدين خشبيين رفيعين محــبوكين إلى جيبين ضيقين على امتداد طول الملاءة، ولم يكن ممكناً، بالطبع، رؤيتهما عندما يتم لفها.

جالــساً القرفــصاء ومستفيداً من ثوبــي كغطاء، كنت أنــزع حذاء شريكي من قدميه (كان ذلك سهلاً لأنه كان يحل رباطي فردتي الحــذاء قبل أن أختاره من الجمهور) وأعلقهما، المقدمة للأعلى، على طرف الوتدين.

كان الحذاء، كما هو معروف، مجهّزاً بشكل خاص بثقب في كل عقب يمكن إدخال بنس من خلاله، ودفعه لينفذ إلى نهاية الوتد. كانت النتيجة مقنعة جداً، جثة تفغر فمها دهشة وتستلقي ميتة على الأرض، يبرز رأسها من أحد طرفي ملاءة وحذاؤها المقلوب من الطرف الآخر.

إذا جــرى كل شيء وفقاً للخطة، كانت بقع حمراء كبيرة ستبدأ آنــذاك بالظهور على الملاءة فوق صدر *الجثة*، وإذا لم يتم ذلك، كان بمقدوري دائماً إضافة بعض منها من ورقة أخرى محبوكة إلى ردني.

يــأتي بعــد ذلك الجزء المهم. كنت أطلب جعل الأضواء خافتة (*الأرواح تطلب ظلمة حالكة!*) وفي العتمة كنت أُظهر بعض الوميض باســتخدام ورقــة مغنــزيوم. كان لذلك تأثير يتمثل بإبهار الجمهور للحظة، ما يكفي من الوقت ليقوّس شريكي ظهره، وبينما أقوم بتعديل وضع الملاءة، يضع قدميه بثبات على الأرضية بوضعية القرفصاء. كان

مكتبة الربيعي أحمد

حـــذاؤه، بالطبع، يبرز من أسفل الملاءة، مما يجعله يبدو كما لو أنه لا يزال مستلقياً من دون حراك أفقياً.

كــــنت أقـــول آنذاك خزعبلات شرقية، ألوّح بيديّ، وأستدعيه للعـــودة من أرض الموتى. عندما كنت أهذر بتميمات مصطنعة، كان شـــريكي يبدأ برفع نفسه ببطء شديد من وضعية القرفصاء حتى يقف منتـــصباً، يـــضع الوتدين على كتفيه، ويَبرز حذاؤه من الطرف الآخر للملاءة.

مــــا يــــراه الجمهـــور، بالطبع، كان جسداً مغطى بملاءة ينهض منتصباً على المسرح ويرتفع فوق الأرضية بخمس أقدام.

ثم كنت أتوسل للأسلاف السعيدين أن يعيدوه إلى *أرض الأرواح الحية*. كان ذلك يتم بتحريك يديّ بشكل غامض، وبعدها كنت أطلق وميـــضاً أخيراً باستخدام ورق المغنـــزيوم، ويقوم شريكي بإلقاء الملاءة عن كتفيه بينما يقفز في الهواء ويهبط على قدميه.

كـــان يتم رمي الملاءة، مع الحذاء المربوط بها والوتدين المحبوكين بها، في الظلام، وكنا ننحني للجمهور وسط عاصفة من التصفيق. ولأننا كنا نرتدي جوارب سوداء، لم يكن أحد يلاحظ أبداً أن *الرجل الميت* قد فقد حذاءه.

كان ذلك بعث *تشانغ فو*، وكانت تلك هي الطريقة التي خططت لـــتقديمها في *ذكـــرى الوالدين*. كنت أتسلل مع بوني إلى قسم غسيل الملابس مع معداتنا، حيث كنت أدرّبه على إتقان الخدعة.

لكــــن، سرعان ما أصبح واضحاً أن بوني لم يكن الشريك المثالي. بالـــرغم من حماسته، إلا أنه كان ببساطة أطول من اللازم. كان رأسه وقدماه يبرزان كثيراً من الملاءة المخصصة للعرض، ولم يكن لدينا وقت لصنع واحدة جديدة. وكانت هناك حقيقة لا مفر منها وهي أنه بالرغم

مكتبة الرمحي أحمد

مـــن براعة بوني في استخدام يديه، إلا أن جسده وأطرافه كانا لتلميذ أخرق وغير رشيق. كانت ساقاه، اللتان تشبهان قائمتي لقلق، ترتعشان عندما يُفترض أن يرتفع في الهواء، وفي أحد التمارين سقط على ظهره، وأوقــع كل معدات الخدعة - الملاءة، الحذاء، وكل شيء آخر - على الأرض.

لم يكـــن بمقـــدوري الـــتفكير في ما يمكن فعله. كان فؤاد بوني سينفطر حزناً إذا اخترت شريكاً غيره، وبالرغم من ذلك لم يكن هناك أمـــل كبير في أن يتقن دوره في الأيام القليلة الباقية قبل العرض. كنت على حافة اليأس.

كان بوني من خرج بالحل.

اقترح بعد انهيار إحدى الدعامات بشكل محرج اقتراحاً فقال: لماذا لا نتـــبادل الأدوار؟ دعني *أجرّب. سأرتدي ثوب لاعب الخفة العجوز وستكون الشريك الذي يطفو في الهواء.*

يجـــب أن أقرّ أن ذلك كان رائعاً. بوجهه المطلي باللون الأصفر، ويديه النحيلتين الطويلتين اللتين تبرزان من ردني الكيمون الأحمر (الذي أضحى أكثر ترويعاً بخروج أظفار بنية طولها ثلاث بوصات منه)، كان بوني شخصية مميزة كما لو أنه معتاد على الظهور على خشبة المسرح.

ولأنـــه كـــان ممثلاً إيمائياً بطبيعته، لم تكن لديه مشكلة في تقليد الـــصوت الـــساخر الحاد للاعب خفة عجوز. كانت رطانته المشرقية أفضل مما يمكنني تقديمه، وكانت تلك الأصابع الطويلة كثيرة العقد، التي تلوح في الهواء مثل حشرات تشبه عيدان ثقاب، منظراً لا يمكن نسيانه بسرعة.

كـــان العـــرض نفسه رائعاً. بوجود كل من في المدرسة، والآباء الزائـــرين كجمهور، جهّز بوني عرضاً لن ينساه أي منهم أبداً. عندما

مكتبة الرمحي أحمد

نـــاداني مـــن بين الجمهور لأكون مساعداً له، أُصبت حتى أنا برعشة خفـــيفة من ذلك الشخص المخيف الذي كان يومئ من خلف أضواء المسرح.

وعـــندما أطلق النار من المسدس وأصابني في الصدر، كانت هناك جلـــبة! كنت قد اتخذت تدابير بزيادة مخزوني من دماء صلصة البندورة وترقيقه بالماء، وكانت البقع التي نجمت عن ذلك حقيقية بشكل مروّع.

كـــان يجب كبح أحد الآباء - والد غيدينغز ماينور - بالقوة من قـــبل الـــسيد توييننغ، الذي كان قد توقع أن يندفع متفرج ساذج إلى خشبة المسرح.

همـــس الـــسيد توينـــنغ في أذن السيد غيدينغز قائلاً له: *تماسك يـــا سيدي العزيز. إنها ببساطة خدعة. لقد فعلها الفتيان عدّة مرات من قبل.*

عاد السيد غيدينغز متردداً إلى مقعده، وكان وجهه لا يزال يتقد احمـــراراً. بالـــرغم مـــن ذلك، كان رجلاً بما يكفي ليأتي بعد العرض ويصافح كلينا. مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

بعـــد وضع الدم المتخثر على الميت، كاد ارتفاعي في الهواء خلال عملـــية البعث أن يخيب الآمال، إذا كانت تلك هي العبارة الصحيحة، بالـــرغم من أنها أثارت موجة إثر أخرى من التصفيق الحاد من جمهور القلوب الطيبة الذين ارتاحوا لرؤية المتطوع سيئ الحظ يعود إلى الحياة. في الـــنهاية، عـــدنا لتحية الجمهور سبع مرات، بالرغم من أنني كنت أعرف جيداً أن ست مرات منها كانت لشريكي.

تـــشرّب بوني التزلف مثل إسفنجة مجففة. بعد ساعة على انتهاء العـــرض، كـــان لا يزال يصافح ويتلقى التهاني من موجة عارمة من الأمهـــات والآبـــاء المعجبين الذين لم يكونوا يرغبون سوى في لمسه،

مكتبة الرمحي أحمد

بالــرغم من أنني عندما رميت ذراعيّ على كتفيه، رمقني بنظرة غريبة، نظرة كانت توحي، للحظة عابرة، أنه لم يكن قد رآني من قبل.

في الأيام التي أعقبت ذلك، لاحظت أن تحولاً قد طرأ عليه. كان بوني قد أصبح لاعب الخفة الواثق من نفسه، ولم أكن آنذاك أكثر من مجرد مساعده المتواضع. بدأ يتكلم معي بطريقة جديدة، واعتمد أسلوباً متعالــياً في الــتعامل مــع الآخرين، كما لو أن خوفه السابق لم يكن موجوداً من قبل.

أفترض أن بمقدوري القول إنه قطع علاقته بــي، أو هذا ما كان يبدو. كنت أراه أحياناً مع فتى أكبر سناً، بوب ستانلي، والذي لم يكن شخــصاً أحبه. كان لستانلي أحد تلك الوجوه شديدة النحول، بارزة الفــك والــتي تــبدو جيدة في الصور لكنها ليست كذلك في الحياة الواقعــية. كمــا كان قد فعل معي، كان يبدو أن بوني اكتسب بعض الصفات من ستانلي، بالطريقة نفسها التي تمتص بها ورقة النشّاف حبر الكتابة عن رسالة. كنت أعرف آنذاك أن بوني بدأ يدخّن وكما أشك، يحتسي الشراب أيضاً.

يوماً ما، أدركت بقليل من الدهشة، أنني لم أعد أحبه. كان شيء ما قــد تغير داخل بوني أو، ربما، قد ظهر للعلن. كانت هناك أوقات أضبطه فيها يحدّق إليّ في الصف وعيناه تبدوان أولاً مثل عينيّ لاعب خفة عجوز، ثم بعــد ذلك، عندما ينتبه إليّ، تصبحان باردتين وساخرتين. بدأت أشعر كما لو أن شيئاً، بطريقة ما غير معروفة، قد سُرق مني.

لكن الأسوأ كان قادماً".

أطــبق الصمت على والدي، وانتظرت منه أن يتابع سرد قصته، لكــن بدلاً من ذلك جلس يحدّق إلى المطر المنهمر. بدا أن من الأفضل أن ألتزم الصمت وأتركه لأفكاره، بغض النظر عمّا تكون.

مكتبة الربيعي أحمد

لكـــني عرفت أنه، كما حدث مع هوراس بونبي، قد تغير شيء بيننا.

كنا هناك، أنا ووالدي، مسجونين في غرفة صغيرة بسيطة، ولأول مـــرة في حياتي لدينا شيء يمكن أن نتحدث به. كنا نتكلم إلى بعضنا مثل راشدين تقريباً، مثل إنسان إلى آخر تقريباً، مثل والد وابنة تقريباً. وبالـــرغم من أنني لم أستطع التفكير في أي شيء أقوله، إلا أنني شعرت برغبة في المضي قدماً في ذلك حتى تنطفئ آخر نجمة.

تمنّـــيت لو أمكنني معانقته، لكنني لم أستطع. لبعض الوقت آنذاك كـــنت أعـــرف أن هناك شيئاً في شخصية دي لوس يثبط أي إظهار للعواطـــف تجـــاه بعضنا بعضاً؛ وأي تعبير عن الحب. كان ذلك شيئاً يجري في دمائنا.

وهكـــذا جلـــسنا، أنا ووالدي، متزمتين، مثل امرأتين عجوزين تجلسان لتناول شاي في أبرشية. لم تكن تلك طريقة مثالية ليحيا بها المرء حياته، لكنني كنت مضطرة إلى فعل ذلك.

مكتبة الربيعي أحمد

ستة عشر

سلب وميض برق كل أثر للون من الغرفة، وجاء بعده قصف رعد يصم الآذان. فزع كلانا.

قال والدي: "العاصفة فوقنا مباشرة".

أومأت لأؤكد له أننا في ذلك معاً، ونظرت حولي على ما يحيط بي. كانت الزنزانة الصغيرة المضاءة جيداً - مصباحها الذي يتدلى من السقف، بابها الفولاذي، وسريرها والمطر المنهمر في الخارج - تشبه بشكل غريب غرفة تحكم الغواصة في *نغوص عند الفجر* [فيلم لأنطوني اسكويث عام 1943]. تخيلت أن رعد العاصفة هو صوت قنابل أعماق تنفجر مباشرة فوق رأسينا، وفجأة لم أعد خائفة جداً على والدي. كنا نحن الاثنان، على الأقل، حليفين. كنت سأتظاهر أننا طالما بقينا ساكنين من دون حراك والتزمنا الصمت، لا يمكن لشيء على الأرض أن يؤذينا.

تابع والدي كلامه كما لو أنه لم يتوقف أصلاً.

قال: "أصبحنا غريبين تماماً، أنا وبوني. بالرغم من أننا بقينا عضوين في حلقة *السيد توييننغ*، إلا أن كلاً منا تابع اهتماماته الخاصة. أصبحت أنا أكثر شغفاً بالخدع المسرحية، كشطر سيدة إلى شطرين، إخفاء قفص طائر كناري مغرد، ذلك النوع من الأشياء. بالطبع، كانت معظم تلك الأعمال خارج نطاق ميزانيتي كتلميذ، لكن مع

مكتبة الربيعي أحمد

مرور الوقت، كان يبدو بسيطاً بما يكفي أن أقرأ عنها وأتعلم طريقة تنفيذ كل منها.

انتقل بوني، على كل حال، إلى تنفيذ خدع تتطلب درجة أكبر من البراعة اليدوية. كانت عبارة عن أعمال بسيطة يمكن تنفيذها أمام ناظري المتفرج بأقل عدد من الأدوات. كان بمقدوره جعل ساعة منبّه مطلية بالنيكل تختفي من إحدى يديه وتظهر في الأخرى أمام عينيك. لم يعلّمني أبداً كيف كان يفعل ذلك.

في ذلك الوقت تقريباً خرج السيد توييننغ بفكرة إنشاء *جمعية الطوابع البريدية*، وكانت تلك إحدى أفكاره الحماسية الأخرى. كان يشعر أنه بتعلم جمع، تصنيف، وتكديس الطوابع البريدية من كل أنحاء العالم، سنتعلم الشيء الكثير عن تاريخنا، جغرافيتنا، والترتيب، ناهيك عن حقيقة أن المناقشات المنتظمة ستشيع جواً من الثقة بين أعضاء النادي الأكثر خجلاً. ونظراً إلى كونه جامع طوابع متفانياً بنفسه، لم يرَ سبباً لأن يكون أي من فتيانه أقل حماسة بهذا الشأن.

كانت مجموعته الخاصة أعجوبة العالم الثامنة، أو هكذا بدت لي. كان متخصصاً بالطوابع البريطانية، مع اهتمام خاص بتنويعات ألوان حبور الطباعة. كان يمتلك مقدرة غريبة على معرفة يوم - أحياناً ساعة - طباعة نماذج معينة. بمقارنة الشقوق المجهرية التي تتغير باستمرار والأنواع المختلفة وفقاً لدرجة البلى الذي تعرضت له صفائح الطباعة المحفورة، كان بمقدوره استنتاج مقدار مذهل من التفاصيل.

كانت أوراق ألبوماته تحفاً فنية. الألوان! والطريقة التي تظهر بها على الصفحة، والتي تشبه ضربة من فرشاة تيرنر [جوزيف ويليام، رسّام إنكليزي].

مكتبة الربيعي أحمد

كانت تبدأ، بالطبع، من إصدارات العام 1840 باللون الأسود. لكن سرعان ما تحول الأسود إلى بني، والبني إلى أحمر، الأحمر إلى برتقالي، البرتقالي إلى قرمزي فاتح، ثم إلى أزرق نيلي، وأحمر زاهٍ - لون زهر فاتح - كما لو أنه مخصص لزهرة الإمبراطورية نفسها. إنه شيء يفخر المرء به!".

لم أكن قد رأيت والدي ينبض بالحيوية على ذلك الشكل من قبل. أصبح فجأة تلميذاً من جديد، تغير لون وجهه، وأشرق مثل تفاحة نضرة.

لكن، تلك الكلمات عن الفخر، ألم أسمعها من قبل؟ ألم تكن تلك هي الكلمات التي قالتها همبتي دمبتي [شخصية روائية في أليس في بلاد العجائب] لأليس؟

جلست هادئة، أحاول اكتشاف الصلات التي كان ذهنه يفكر فيها بالتأكيد.

تابع قائلاً: "بالرغم من كل ذلك، لم يكن السيد توييننغ يمتلك أثمن مجموعة طوابع بريدية في غريمنستر. كان ذلك الشرف يعود إلى د. كيسنغ، الذي كانت مجموعته، بالرغم من عدم شموليتها، ممتازة، وربما لا تُقدّر بثمن.

لم يكن د. كيسنغ، كما قد يتوقع المرء من مدير إحدى مدارسنا العامة الرائعة، رجلاً ثرياً أو صاحب امتياز بالولادة. كان قد ولد يتيماً وتولى تربيته جدّه، الذي كان عامل سبك أجراس في الطرف الشرقي من لندن، والذي كان في تلك الأيام حياً معروفاً بظروف العيش الصعبة وليس بأعمال الخير، وبانتشار الجرائم فيه وليس بالفرص التعليمية.

عندما كان في الثامنة والأربعين من عمره، فقد جدّه ذراعه اليمنى في حادث مفجع في أثناء صهر معدن. نظراً إلى عدم قدرته على العمل

مكتبة الربيعي أحمد

في مهنـــته آنـــذاك، لم يكـــن في وسعه فعل شيء سوى الخروج إلى الشوارع والتسول؛ وهي أزمة بقي غارقاً فيها قرابة ثلاث سنوات.

قـــبل خمس سنوات، عام 1840، كانت وزارة الخزانة قد عينت الشركة اللندنية *السادة بيركنـــز، باكون وبيتش* كمنتج وحيد للطوابع البريدية البريطانية.

ازدهـــر العمل. في أول اثني عشر عاماً وحدها من خلال قيامها بذلك العمل طبعت الشركة ملياري طابع، وجدت معظمها طريقها في نهاية المطاف إلى سلال مهملات العالم. حتى تشارلز ديكنـــز أشار إلى الإنتاج الاستثنائي لصور *رؤوس الملكات*.

لحـــسن الحـــظ وجد جدّ د. كيسنغ في مصنع شارع الأسطول الـــتابع لـــتلك الشركة عملاً أخيراً، أصبح كنّاساً. علّم نفسه أن يدفع مكنـــسة بـــيد واحدة أفضل مما يفعله معظم الرجال بيدين، ولأنه كان يعـــتقد بقوة باحترام العمل، الدقة في المواعيد، والاعتماد على الذات، ســـرعان مـــا وجد نفسه موضع تقدير بين موظفي الشركة. بالفعل، أخـــبرني د. كيـــسنغ مرة أن الشريك الأساسي، جوشوا بوترز باكون نفسه، كان دائماً ينادي جدّه *بالبارع* احتراماً لحرفته السابقة.

عـــندما كـــان د. كيـــسنغ لا يزال طفلاً، كان جدّه يجلب إلى المنـــــزل في أغلب الأحيان طوابع تم رفضها واستبعادها بسبب أخطاء في الطباعة. كانت *قصاصات الورق الجميلة* تلك، كما كان يدعوها، ألعابـــه الوحـــيدة. كـــان يمـــضي ساعات في ترتيب وإعادة ترتيب القصاصات الملونة وفقاً لدرجة اللون، واختلافات دقيقة للغاية لا يمكن للعـــين البـــشرية العادية أن تكتشفها. كانت أعظم هداياه، كما قال، عدســـة مكبّرة، والتي حصل عليها جدّه من بائع متجول بعد أن رهن خاتم زواج والدته مقابل شلن.

مكتبة الربيعي أحمد

كـــل يوم، في طريقه إلى ومن المدرسة العامة، كان الفتى يمرّ على أكبر عدد ممكن من المتاجر والمكاتب، يعرض كنس أرصفتها، وتنظيفها من الأوساخ، مقابل مغلّفات تحمل طوابع من سلال مهملاتهم.

بمـــرور الوقت، أضحت تلك القصاصات الجميلة من الورق نواة المجموعة التي ستصبح موضع حسد الأسرة المالكة، وحتى عندما ارتقى ليـــصبح مدير مدرسة غريمنستر، كان لا يزال يحتفظ بالعدسة المكبّرة الصغيرة التي كان جدّه قد منحه إياها.

كان يقول لنا، *المباهج البسيطة هي الأفضل*.

استفاد د. كيسنغ من المثابرة التي كانت الحياة قد وهبتها له عندما كان فتى، وحصل على منحة دراسية إثر أخرى، حتى جاء اليوم الذي انفجـــر فـــيه *الـــبارع* العجـــوز بكاءً عندما رأى حفيده يتخرّج من أوكسفورد، الأول على دفعته مع مرتبة الشرف.

إلى الآن، هـــناك اعـــتقاد بين أصحاب الخبرة، أن أندر الطوابع البريدية هي تلك الغريبة والمشوّهة التي تخرج لا محال كمنتجات ثانوية في عملية الطباعة، لكن الأمر ليس بمثل تلك البساطة. بغض النظر عن المبالغ التي يمكن أن تجنيها تلك الطوابع المشوهة إذا تسربت إلى السوق، فإنها بالنسبة إلى جامعٍ حقيقي ليست ذات أهمية.

لا، الطوابـــع النادرة الحقيقية هي تلك التي انتشرت عبر نظام التوزيع الرسمي، قانونياً أو بخلاف ذلك، لكن بأعداد محدودة جداً. أحياناً يتم إصدار عدّة آلاف طابع قبل اكتشاف عيب فيها، أحياناً عـــدّة مئات، كما حدث عندما تسربت صحيفة واحدة من وزارة الخزانة.

لكن، في تاريخ مكتب البريد البريطاني كله، لم تكن هناك سوى حالـــة واحدة - ووحيدة - عندما خرجت صحيفة واحدة من الطوابع

مكتبة الربيعي أحمد

تختلف جذرياً عن ملايين الصحائف الأخرى. إليك الطريقة التي حدث بها ذلك.

في حزيران عام 1840، كان نادل مجنون يدعى إدوارد أكسفورد قد أطلق عيارين ناريين من مسافة قريبة على الملكة فيكتوريا والأمير ألبرت بينما كانا يقومان بجولة في عربة مكشوفة. لحسن الحظ، أخطأت كلتا الرصاصتين هدفيهما، ولم تتعرض الملكة، التي كانت حينها حاملاً بالشهر الرابع بابنها البكر، لأذى.

ظن بعضهم أن محاولة الاغتيال مكيدة من أنصار الحركة العمالية [طالبوا بإجراء إصلاحات سياسية واجتماعية]، فيما اعتقد آخرون أنها مؤامرة من أعضاء الحركة البرتقالية [منظمة سرية بروتستانتية سياسية في إيرلندا الشمالية] الذين كانوا يتمنون تنصيب دوق كمبرلاند على عرش إنكلترا. كانت الفرضية الثانية أكثر قرباً من الحقيقة مما تظنه الحكومة، أو ربما مما كانت مستعدة للإقرار به. بالرغم من أن أكسفورد سيدفع ثمن جريمته بتمضية السبع والعشرين سنة التالية من حياته مسجوناً في بيدلام [مستشفى الأمراض العقلية] - حيث سيبدو عقله أكثر سلامة من معظم نزلائه الآخرين وعدد من الأطباء - إلا أن محرّضيه سيبقون أحراراً، وبعيدين عن الشبهات في العاصمة. كانت لديهم أهداف أخرى ينفذونها.

في خريف العام 1840، تم توظيف صحافي متمرن يدعى جاكوب تنغل في شركة *بيركنز، باكون* وبيتش. لأنه كان، فوق كل شيء، إنساناً طموحاً، ارتقى الشاب جاكوب في مهنته بسرعة فائقة.

ما لم يكن أصحاب عمله يعرفونه، هو أن جاكوب تنغل كان البيدق في لعبة خطيرة ومميتة، لعبة لم يكن يعرف خفاياها سوى أسياده الغامضين".

مكتبة الرمحي أحمد

إذا كان هناك شيء فاجأني في حكايته، فلا بد أنها الطريقة التي سردها والدي بها. كدت أمد يدي وأمس السادة النبلاء بياقاتهم المدهونة بالنشاء وقبعاتهم المكوية بالبخار، السيدات بتنانيرهن المؤطرة وقلنسواتهن. ومثلما كانت الشخصيات في حكايته تنبض بالحياة، كذلك كان والدي.

"كانت مهمة جاكوب تنغل سرية للغاية. كان يجب عليه، بأي وسيلة ممكنة، أن يطبع صحيفة واحدة، ووحيدة، من طوابع البنس الأسود، باستخدام حبر برتقالي فاقع تم تقديمه إليه. كان قد استلم قارورة، إلى جانب مبلغ من المال، في مشرب مجاور لفناء دار عبادة سان بولس من رجل يعتمر قبعة كبيرة ويجلس في الظل ويتكلم همساً من دون أي انفعال.

بعد أن يطبع سراً تلك الصحيفة اللعينة، كان عليه أن يخفيها ضمن مجموعة من صحائف البنس الأسود، التي كان سيتم إرسالها إلى مكاتب بريد إنكلترا. بعد إنجاز ذلك، سيكون عمل جاكوب قد انتهى. سيكون كل شيء آخر بيد القدر.

عاجلاً أم آجلاً، في مكان ما في إنكلترا، ستظهر صحيفة الطوابع البرتقالية، وستكون رسالتها واضحة بما يكفي لأولئك الذين لديهم عيون يرون بها. سيعلنون، *نحن في وسطكم. نتحرك بينكم بحرية ومن دون أن يرانا أحد.*

لن يحظى مكتب البريد، الغافل عما يجري، بفرصة لاستعادة الطوابع المثيرة للفوضى. وحالما تخرج إلى العلن، سينتشر خبر وجودها مثل النار في الهشيم. لن تستطيع حتى حكومة جلالتها إبقاء الأمر سراً. ستكون النتيجة رعباً على أعلى المستويات".

تابع والدي كلامه: "بالرغم من أن رسالته جاءت متأخرة جداً، إلا أن عميلاً سرياً كان قد تسلل إلى صفوف المتآمرين وبعث يقول إن

مكتبة الرمحي أحمد

اكتشاف الطوابع البريدية سيكون بمثابة إشارة للمتآمرين في كل مكان لإطلاق موجة جديدة من الهجمات الشخصية على العائلة المالكة.

كانـــت تلـــك تبدو خطة محكمة. إذا فشلت، سيتحين المجرمون الفرصة المناسبة ويحاولون مجدداً في يوم آخر. لكن لم تكن هناك حاجة إلى المحاولة مجدداً، لأن الأمور سارت مثل الساعة.

في الـــيوم الذي التقى به تنغل بالغريب في ساحة دار عبادة سان بـــولس، شبّ حريق هائل، يُشتبه أنه مفتعل، في الزقاق خلف شركة *بيركنـــــز، باكـــون وبيـــتش* مباشـــرة. عندما اندفع موظفو الطباعة والإداريـــون إلى الخارج ليشاهدوا الحريق عن كثب، سحب جاكوب بهـــدوء قارورة الحبر البرتقالي من سترته، سكبها على صحيفة إضافية كـــان قـــد خبأها خلف صف من القوارير الكيميائية على رف، جهّز الـــورق الرطب الخاص بالطباعة، وطبع الصحيفة. كان الأمر سهلاً جداً.

قبل أن يعود العمال الآخرون إلى مواقعهم، كان جاكوب قد دفع آنذاك الصحيفة البرتقالية بين مثيلاتها السوداوات، نظّف القالب، أخفى رقـــع القمـــاش المتسخة، وكان يجهّز للجولة التالية من الطوابع العادية عندما دخل جوشوا بوترز باكون بنفسه وهنأ الشاب على رباطة جأشه بمـــواجهة الخطر. كان سيمضي قدماً في المهنة التي اختارها، كما قال الرجل العجوز له.

عـــندها تـــدخل القدر، كما يفعل دائماً. ما لم يستطع المتآمرون تـــوقعه هـــو أن يتعرض الرجل الذي كان يعتمر قبعة عريضة، في تلك الليلة بالذات، لحادث خلال هطول المطر في شارع الأسطول ويلقى فيه حتفه بعد أن صدمته عربة يجرها حصان وولت الأدبار، وخلال أنفاسه الأخـــيرة ظـــل يتمـــسك بالإيمان الذي ولد عليه ويعترف بالمكيدة –

مكتبة الرمحي أحمد

جاكوب تنغل، وكل شيء - لشرطي يرتدي معطفاً واقياً من المطر ظنّ أنه قس كاثوليكي يرتدي ثوبه المميز.

لكـــن بحلـــول ذلك الوقت، كان جاكوب قد قام بعمله القذر، وكانـــــت صحيفة الطوابع البرتقالية تنتقل آنذاك، عبر البريد الليلي، إلى بقعـــة غـــير معـــروفة في إنكلتـــرا. آمل أنك لا تجدين هذا مملاً جداً يا هاريت؟".

هاريت؟ هل ناداني والدي هاريت؟

لم يكـــن مـــستغرباً من الآباء الذين لديهم عدّة بنات، أن يقولوا أسماءهن بترتيب ولادتهن عندما يرغبون في استدعاء الأصغر، وكنت قد اعتدت منذ وقت طويل على مناداتي "أوفيليا دافني فلافيا، اللعنة". لكن هاريت؟ مطلقاً! هل كانت تلك زلّة لسان، أم أن والدي يظن حقاً أنه يسرد حكايته لهاريت؟

أردت أن يقول ما لديه، أردت أن أعانقه، وأردت أن أموت.

أدركت أن صوتي قد يفسد الأمر، وأدرت رأسي ببط من جانب إلى آخر كما لو أنه كان معرضاً لخطر السقوط عن جسدي.

في الخـــارج، كانت الريح تعصف بالنباتات المتسلقة حول النافذة بينما كان المطر الغزير ينهمر مدراراً.

تابـــع والدي كلامه أخيراً: "قامت الدنيا و لم تقعد، وتوقفت عن حبس أنفاسي.

تم إرسال برقيات إلى كل مدير مكتب بريد في المملكة. إلى أي بقعة في إنكلترا قد تجد الطوابع البرتقالية طريقها إليها، كان يجب عليهم التحفّظ عليها فوراً، وإبلاغ وزارة الخزانة، بأقصى سرعة ممكنة، بمكانها.

نظراً إلى إرسال شحنات أكبر من البنس الأسود إلى المدن، كان هـــناك اعـــتقاد أنها ستظهر على الأرجح في لندن أو مانشستر؛ وربما

مكتبة الربيعي أحمد

شيفيلد أو بريستول. كما تبين لاحقاً، في الواقع، لم تظهر في أي من تلك المدن.

كانت قرية سانت ماري - الأهوار تقع في أحد أبعد جيوب كورنول. إنها مكان لا يحدث فيه شيء أبداً، ولا يُتوقع أن يحدث كذلك.

كان مدير مكتب البريد هناك ميلفيل براون، وهو رجل عجوز كان قد تجاوز آنذاك سن التقاعد ببضعة أعوام، ويحاول، بقليل من الحظ، أن يخصص جزءاً من راتبه الصغير *لتجاوز المرحلة الصعبة إلى المقبرة*، كما كان يقول لكل من يصغي إليه.

الذي حدث - نظراً إلى أن قرية سانت ماري - الأهوار كانت نائية بأكثر من طريقة - أن مدير مكتب البريد براون لم يتلقَّ برقية التوجيهات الرسمية من الوزارة، ولهذا كانت مفاجأة كبيرة، بعد عدّة أيام، عندما فتح مغلف مجموعة صغيرة من البنس الأسود وقام بإحصائها ليرى إن كان عددها صحيحاً، أن يجد الطوابع المفقودة بين يديه.

بالطبع لاحظ الطوابع البرتقالية مباشرة. كان أحدهم قد ارتكب غلطة شنيعة! لم يكن هناك، كما جرت العادة، كتيب رسمي بعنوان *تعليمات لمديري مكاتب البريد* يعلن عن وجود لون جديد لطوابع البنس. لا، كان ذلك شيئاً بالغ الأهمية، بالرغم من أنه لم يستطع تحديد ماهيته بدقة.

للحظة - لكن للحظة فقط، انتبهي - ظنّ أن صحيفة الطوابع غريبة اللون قد تساوي أكثر من قيمتها المدونة عليها. بعد أقل من نصف عام على بدء إنتاجها، كان بعض الناس، من علية القوم في لندن كما كان يظن، والذين لم يكن لديهم شيء أفضل يفعلونه لتمضية

مكتبة الرمحي أحمد

وقـــتهم، قد بدأوا آنذاك بجمع طوابع بريدية تلتصق ذاتياً، ووضعها في ألـــبومات صغيرة. كان طابع تم إنتاجه من دون سجل، أو يحمل أرقاماً معكوســـة، قـــد يساوي جنيهاً أو اثنين، مقابل صحيفة كاملة منها، لماذا...

لكـــن ميلفيل براون كان أحد أولئك الأشخاص النادرين، كان رجلاً صادقاً. وهكذا، قام فوراً بإرسال برقية إلى وزارة الخزانة، وخلال ساعة انطلق مراسل وزاري من بارنغتون لاسترداد الطوابع وإعادتها إلى لندن.

كانت الحكومة تنوي تدمير النسخة البرتقالية في الحال، مع اتخاذ كل الإجراءات الرسمية لراحة نفس الفقيد. اقترح جوشوا بوترز باكون أن يتم وضع الطوابع بدلاً من ذلك في أرشيف دار الطباعة، أو ربما في المتحف البريطاني، حيث يمكن لأجيال مستقبلية دراستها.

كـــان للملكـــة فيكتوريا، على كل حال، التي كانت كما يقول الأميركـــيون أكثـــر من مجرد شخص يهتم بالمظاهر، أفكارها الخاصة. طلـــبت أن تحـــصل على طابع واحد كتذكار لليوم الذي نجت فيه من رصاصـــة القاتل، وأن يتخلص أرفع مسؤول في الشركة التي كانت قد طبعتها من الباقي.

ومـــن يستطيع أن يرفض طلباً للملكة؟ بحلول ذلك الوقت الذي كانـــت فيه القوات البريطانية على وشك أن تغزو بيروت، كانت لدى رئـــيس الـــوزراء، فيكونت ملبورن (الذي كان اسمه قد ارتبط عاطفياً باسم جلالتها)، أشياء أخرى في ذهنه. وانتهت القضية عند ذلك الحد.

وهكـــذا تم حـــرق الصحيفة الوحيدة في العالم من طوابع البنس الـــبرتقالي في وعاء زجاجي على طاولة المدير العام لشركة بيركنـــز، *باكون وبيتش*. لكن قبل أن يشعل الثقاب، كان جوشوا بوترز باكون

مكتبة الرمحي أحمد

قـــد اقتطع، بدقة جراحية، طابعين - كان ذلك قبل عدّة سنوات من إدخـــال التخريم - انتزع الطابع الذي يحمل حرفي *أيه أيه* على إحدى الـــزوايا للملكة فيكتوريا، وبسرية مطلقة قص آخر يحمل حرفي *تي أل* من الزاوية الأخرى واحتفظ بهما لنفسه.

كـــان هذان هما الطابعان اللذان سيصبحان يوماً معروفين لجامعي الطوابع باسم منتقمي *ألستر*، بالرغم من أنه طيلة سنوات قبل منحهما ذلك الاسم، كان وجودهما بحدّ ذاته أحد أسرار الدولة.

بعـــد سنوات، عندما كان يتم نقل طاولة باكون بعد موته، وقع مغلّـــف كـــان مخفياً بطريقة ما خلفها على الأرض. كما قد تكونين خمّنت، كان الكنّاس الذي وجده جدّ د. كيسنغ، *البارع*. بموت باكون العجـــوز، كمـــا فكّر، ما الضرر الذي سيحدث إن أخذ إلى المنـــزل الطابـــع الـــبريدي البرتقالي الوحيد الذي كان بداخله ليلهو به حفيده الذي كان يبلغ من العمر ثلاث سنوات؟".

شعرت بوجنيّ تتوردان، وتضرّعت بشدّة أن يكون والدي شارد الذهن كي لا يلاحظ ذلك. كيف، من دون أن أجعل الأمور أسوأ مما هـــي عليه، يمكنني أن أخبره أن كلاِ طابعي منتقمي *ألستر*، الذي يحمل حـــرفي *أيـــه أيه* والآخر الذي يحمل حرفي *تي أل* كانا في تلك اللحظة بالذات موجودين في قعر جيبـــي؟

مكتبة الرمحي أحمد

سبعة عشر

كان جزء مني يحثّني فعلاً على أن أسحب الطابعين اللعينين، وأدسّهما في يده، لكن المفتش هيوت كان قد جعلني أمعن التفكير في الأمر. لم يكن ممكناً أن أضع في يدي والدي أي شيء قد يكون مسروقاً، أي شيء قد يجرّمه أكثر.

لحسن الحظ أن والدي كان غافلاً عما يجري حوله. لم يفلح حتى وميض مفاجئ آخر من البرق، تبعه قصف حاد من رعد استمر وقتاً طويلاً، في إعادته إلى الحاضر.

تابع قائلاً: "أصبح منتقم *الستر* الذي يحمل الحرفين *تي أل*، بالطبع، حجر أساس مجموعة د. كيسنغ. كانت حقيقة معروفة أنه لا يوجد سوى طابعين من ذلك النوع. كان الآخر - الطابع الذي يحمل حرفي *أيه أيه* - قد انتقل بعد موت الملكة فيكتوريا إلى ابنها، إدوار السابع، وبعد موته إلى ابنه، جورج الخامس، وبقي في مجموعته حتى عهد قريب، وسُرق في وضح النهار من معرض طوابع. لم تتم استعادته".

"ها!". كما فكّرت. قلت بصوت عالٍ: "ماذا عن *تي أل*؟".

"وُضع *تي أل*، وفقاً لما رأيناه، بأمان في خزنة مكتب مدير مدرسة غريمنستر. كان د. كيسنغ يُخرجه من وقت إلى آخر، *ليحدّق إليه بإعجاب*، كما أخبرنا، ولأتذكر بداياتي المتواضعة في حال ظهرت عليّ أي علامات غرور.

مكتبة الربيعي أحمد

نادراً ما كان يتم عرض *منتقم ألستر* على آخرين، ما عدا ربما بعض المهتمين فقط بجمع الطوابع. قيل إن الملك نفسه قد عرض مرة شراء الطابع، وهو عرضٌ لقي رفضاً مهذباً لكن حازم. عندما فشل ذلك، التمس الملك، عبر أمين سره الخاص، الحصول على إذن خاص لمشاهدة تلك *الظاهرة البرتقالية* كما دعاها. وكان طلباً تمت الموافقة عليه بسرعة، وانتهى بزيارة سرية قام بها صاحب السمو الملكي الراحل إلى غريمنستر بعد حلول الظلام. يتساءل المرء، بالطبع، ما إذا كان قد أحضر *أيه أيه* معه، وهكذا اجتمع الطابعان الرائعان مرة أخرى، وإن كان لبضع ساعات فقط. سيبقى ذلك، ربما، إلى الأبد أحد أعظم أسرار هواية جمع الطوابع البريدية".

مسست جيبي برقة، واستشعرت أطراف أناملي خشخشة الورق الخفيفة.

"كان مدير السكن، السيد توييننغ، يتذكر بوضوح المناسبة، ويتذكر بألم شديد كيف بقيت المصابيح في مكتب مدير المدرسة مضاءة لوقت طويل في ليلة الشتاء تلك.

مما يعيدني، للأسف، إلى هوراس بونبي".

عرفت من تغير نبرة صوته أن والدي قد عاد مرة أخرى إلى ماضيه الشخصي الخاص. سرت قشعريرة على عمودي الفقري. كنت على وشك أن أضع يدي على الحقيقة.

"كان بوني قد أصبح، بحلول ذلك الوقت، ساحراً ممتازاً. كان آنذاك شاباً طموحاً وجريئاً، ويشق طريقه عادة بتغليب مصلحته الذاتية على مصالح الآخرين.

إلى جانب المال الذي كان يحصل عليه من والده، كان يجني مبالغ إضافية من تقديم عروض داخل وحول غريمنستر، أولاً في حفلات الأطفال

مكتبة الربيعي أحمد

ولاحقاً، مع ازدياد ثقته بنفسه، في حفلات موسيقية وولائم سياسية. بحلول ذلك الوقت كان قد اتخذ من بوب ستانلي شريكاً وحيداً له، وكان المرء يسمع حكايات عن بعض عروضهما المفرطة في الإسراف.

لكن، نادراً ما كنت أراه في تلك الأيام خارج الصف. بعد أن امتلك قدرات أعلى من أعضاء *حلقة ألعاب الخفة*، انسحب منها، وسمعه بعض الأشخاص يدلي بملاحظات جارحة بحق أولئك *المغفلين الهواة* الذين يحافظون على عضويتهم فيها.

مع تضاؤل الاهتمام بها، أعلن السيد توييننغ أخيراً أنه ينفض يديه من قاعات الوهم، كما كان يدعو *حلقة ألعاب الخفة*، للتركيز تماماً على جمعية الطوابع.

أتذكر الليلة – كان ذلك في بداية الخريف، في أول اجتماع في السنة – التي ظهر فيها بوني فجأة، يضحك ملء شدقيه، وقد حصل على منحة دراسية جيدة مزيفة. لم أكن قد رأيته منذ نهاية الفصل السابق، وكان يبدو آنذاك بطريقة ما غريباً ومتبجحاً.

قال السيد توييننغ: *آه، بونبني، يا لها من فرحة غير متوقعة. ما الذي أعادك إلى هذا المكان المتواضع؟*

صرخ بوني: *قدماي!* وضحك معظمنا.

ثم فجأة تخلّى عن تكلّفه. خلال لحظة عاد تلميذاً مجدداً، يحترم الآخرين يمتلئ تواضعاً.

قال: *أقول يا سيدي إنني كنت أفكر خلال العطلة كلها في أنه سيكون أمراً رائعاً إذا استطعت إقناع المدير بعرض طابعه الغريب علينا.*

تقطّب جبين السيد توييننغ عبوساً. *الطابع الغريب، كما تقول عنه يا بونبني، هو أحد جواهر تاج جمع الطوابع البريطانية، ولن أقترح أبداً أن يتم إخراجه ليراه وغد وقح مثلك.*

مكتبة الربيعي أحمد

لكن يا سيدي! فكّر في المستقبل! عندما نكبر نحن الفتيان... ونشكّل عائلاتنا الخاصة...

لدى سماعنا ذلك ابتسمنا لبعضنا ورسمنا أشكالاً على السجادة بأقدامنا.

مضى بوني قدماً: *سيكون الأمر مثل ذلك المشهد في هنري الخامس [مسرحية لشكسبير] يا سيدي. ستعتبر العائلات في إنكلترا نفسها ملعونة لأنها ليست في غريمنستر، ولا يمكنها إلقاء نظرة على منتقم ألستر الرائع! آه أرجوك يا سيدي! أرجوك!*

يجب أن أمنحك علامة ممتاز لجرأتك أيها الشاب بونبي، وبيضة إوزة لمحاكاة شكسبير تلك. وبالرغم من ذلك...

كان بمقدورنا ملاحظة أن السيد تويننغ يلين. كان أحد طرفي شاربه يرتفع ببطء.

أضفنا جميعاً: *آه من فضلك يا سيدي.*

قال السيد تويننغ: *حسناً...*

هكذا تم اتخاذ الترتيبات المناسبة. تكلم السيد تويننغ مع د. كيسنغ، الذي شعر بالإطراء لأن فتيانه مهتمون بمثل ذلك الشيء السري، ووافق على الأمر. كان توقيت المشاهدة مساء يوم الأحد التالي بعد الصلاة، وستتم في الشقة الخاصة بمدير المدرسة. كانت الدعوة خاصة بأعضاء جمعية *الطوابع* فقط، وكان السيد تويننغ سيُنهي الأمسية بالكاكاو والبسكويت.

كانت الغرفة مليئة بالدخان. كان بوب ستانلي، الذي جاء مع بوني، يدخن علانية و لم يكن يبدو أن أحداً يمانع ذلك. بالرغم من أن طلاب الصف السادس الثانوي كانوا يتمتعون بامتيازات، إلا أن تلك كانت أول مرة أرى فيها أحدهم يشعل لفافة تبغ أمام المدير. كنت

مكتبة الرمحي أحمد

آخر من وصل، وكان السيد تويننغ قد ملأ المنفضة بأعقاب لفائف تبغ غولد فليك التي كان يدخنها، خارج الصف، باستمرار.

لم يكن د. كيسنغ، مثل كل مدراء المدارس الرائعين حقاً، رجلاً يحب التباهي. تحدث عن عدّة أمور، الطقس، نتائج الكريكت، صندوق المنح الدراسية، الحالة المزرية للآجر في دار الطلاب، بقصد تشويقنا، كما تعرفين.

بعد أن أتعب مسامعنا مثل جُدجد [صرار ليل]، قال أخيراً: يا الله، *لقد نسيت تماماً. لقد جئتم لإلقاء نظرة على قصاصتي الشهيرة.*

بحلول ذلك الوقت كنا نتقد حماسة مثل غرفة مليئة بغلايات شاي. ذهب د. كيسنغ إلى خزنته الجدارية، وأدار أصابعه بحركة استعراضية متقنة على أرقام القفل.

ببضع طقطقات فُتح ذلك الشيء. مدّ يده إلى الداخل وأخرج علبة لفائف تبغ، علبة لفائف تبغ عادية من نوع غولد فليك! يمكنني أن أقول لك إن ذلك أثار قليلاً من الضحك. لم يسعني سوى أن أتساءل إن كان قد امتلك الجرأة ليعرض العلبة القديمة نفسها على الملك.

كان هناك بعض الهرج والمرج، ثم أطبق صمت على الغرفة عندما فُتح الغطاء. في الداخل، على ورقة نشّاف، كان هناك مغلّف صغير، صغير جداً، ويمكن أن أقول إنه تافه، ليضم كنزاً بمثل تلك الأهمية.

بتباهٍ أخرج د. كيسنغ زوجاً من ملاقط الطوابع من جيب صدريته، ورفع الطابع بحرص شديد كأنه خبير متفجرات يستخرج صاعقاً من قنبلة، ووضعه على الورقة.

احتشدنا حوله، وتدافعنا لنحصل على رؤية أفضل.

قال د. كيسنغ: *احترسوا يا فتيان. تذكروا أخلاقكم، وأن تتصرفوا كسادة مهذبين دائماً.*

مكتبة الرمحي أحمد

هكـــذا، كان أمامنا، ذلك الطابع التاريخي، الذي يبدو كما كان المـــرء يعرف دائماً أنه سيبدو، وأكثر... كان فاتناً. لم نكن نصدّق أننا في الغرفة نفسها مع *منتقم الستر*.

كان بوني خلفي مباشرة، ينحني فوق كتفي. كنت أشعر بأنفاسه الحـــارة على وجنتي، وظننت أنني أشم رائحة فطيرة وشراب أحمر. هل كان يشرب؟ تساءلت.

ثم حـــدث شـــيء لن أنساه حتى أموت، اندفع بوني إلى الأمام، أمسك بالطابع، وحمله عالياً في الهواء بين إبهامه وسبابته.

صرخ: *راقب هذا يا سيدي! إنها خدعة.*

كنا جميعاً مصدومين للغاية ولا نقوى على الحراك. قبل أن يطرف لأحـــد جفن، كان بوني قد سحب عود ثقاب من جيبه، أشعله بظفر إبهامه، ورفعه إلى زاوية *منتقم الستر*.

بـــدأ لون الطابع يصبح أسود، ثم تغضّن، وظهرت شعلة صغيرة علـــى سطحه، وبعد لحظة، لم يبقَ منه شيء سوى بقايا رماد أسود في راحة كف بوني.

كـــان مـــا حصل مرعباً، وأطبق صمت وذهول على الحاضرين. وقف د. كيسنغ هناك يفغر فمه دهشة، وبدا كما لو أن السيد توييننغ، الذي كان قد أحضرنا إلى هناك، قد أُصيب برصاصة في قلبه.

صـــرخ بـــوني وهو يبتسم ابتسامة صفراء: *إنها خدعة يا سيدي. ساعدوني الآن لأستعيده، جميعكم. إذا تعاونا جميعاً وتضرّعنا معاً* -.

أمسك بيده اليمنى يدي، وبيسراه يد بوب ستانلي.

قال: *شكّلوا حلقة. أمسكوا بأيدي بعضكم، وشكّلوا حلقة تضرع!*

أمـــره د. كيسنغ: *توقف! توقف عن هذه الغطرسة على الفور. أعد الطابع إلى علبته يا بونبني.*مكتبة الرمحي أحمد

مكتبة الرمحي أحمد

قال بوني: *لكن يا سيدي - أقسم إنني رأيت أسنانه تلمع في ضوء اللهب من المدفأة - إذا لم نجتمع معاً، لن تجدي ألعاب الخفة نفعاً. إنها الطريقة التي تعمل بها الشعوذة.*

قال د. كيسنغ، ببطء وحرص، ووجهه مثل أحد تلك الأشياء المروّعة التي يعثر عليها المرء في خندق بعد معركة: *أعد... الطابع... إلى... العلبة.*

قال بوني: حسناً إذاً، *سأضطر إلى فعل ذلك وحدي. لكن من الأفضل أن أحذّركم أن الأمر سيكون أكثر صعوبة بهذه الطريقة.*

لم أرَه أبداً واثقاً من نفسه، أو مغروراً، إلى ذلك الحدّ من قبل.

شمّر عن ساعده ورفع تلك الأصابع البيضاء الطويلة النحيلة عالياً في الهواء قدر ما يستطيع.

عودي، عودي أيتها الملكة البرتقالية،
عودي وأخبرينا أين كنت!

عند ذلك، طقطق أصابعه، وفجأة كان هناك طابع حيث لم يكن موجوداً قبل لحظة واحدة. طابع برتقالي.

انفرجت أسارير د. كيسنغ المتجهمة. كاد يبتسم. وضع السيد توييننغ يده على كتفي، وأدركت لأول مرة أنه كان يستند إليّ ليتماسك.

قرّب بوني الطابع من عينيه ليلقي نظرة متفحصة عليه حتى كاد يمسّ أرنبة أنفه. في الوقت نفسه أخرج عدسة مكبّرة كبيرة من جيب على وركه، وفحص الطابع الذي استرده من حيث لا ندري وهو يزمّ شفتيه.

ثم تحول صوته فجأة إلى صوت تشانغ فو النبيل الصيني العجوز، وأقسمت، بالرغم من أنه لم يكن يضع أي مواد تبرج، إنني رأيت بوضوح الجلد الأصفر، الأظفار الطويلة، وكيمون التنين الأحمر.

مكتبة الربيعي أحمد

قـــال وهـــو يعرضـــه علينا لنفحصه: *آه، أرسل الأسلاف طابعاً طويلاً.* كان طابع *عائدات داخلية* عادياً من أميركا. كان طابعاً تقليدياً من زمن الحرب الأهلية التي كان معظمنا نمتلك الكثير منها في ألبوماتنا.

تـــركه يـــسقط ببطء إلى الأرض، ثم هزّ كتفيه ووجه عينيه نحو السماء.

عودي، عودي أيتها الملكة البرتقالية

شرع في ذلك مجدداً، لكن د. كيسنغ كان قد أمسك بكتفيه وبدأ يهزّه مثل علبة طلاء.

سأل وهو يمد يده: *الطابع. فوراً.*

قلب بوني جيوب سرواله، واحداً إثر الآخر.

قال: *لا يمكنني العثور عليه. يبدو أن خطباً قد وقع.*

فتّش في ردنيه، مرّر إصبعاً طويلة على الحافة الداخلية لياقته، وتغير تعـــبير وجهه فجأة. خلال لحظة أصبح تلميذاً خائفاً يبدو أنه يحاول أن يلوذ بالفرار.

تمـــتم: *نجحـــت في أداء تلـــك الخدعة من قبل يا سيدي، مراراً وتكراراً.*

كان وجهه يصبح أحمر، وظننت أنه على وشك أن يبكي.

قال د. كيسنغ بحدّة: *ابحث عنه*، وأخذ عدد من الفتيان، بتوجيه من السيد توييننغ، بوني إلى المرحاض، وقلبوه رأساً على عقب، وفتّشوه من رأسه الأحمر إلى حذائه البني.

قـــال السيد توييننغ عندما عادوا أخيراً: *الأمر كما يقول الفتيان. يبدو أن الطابع قد اختفى.*

قال د. كيسنغ: *اختفى؟ اختفى؟ كيف يمكن لذلك الشيء اللعين أن يختفي؟ هل أنت واثق تماماً؟*

مكتبة الربيعي أحمد

قال السيد توييننغ: *واثق تماماً.*

جرى تفتيش الغرفة بأكملها، رُفعت السجادة، حُركت الطاولات، قُلبت قطع الزينة رأساً على عقب، لكن من دون جدوى. أخيراً اجتاز د. كيسنغ الغرفة إلى الزاوية حيث كان بوني يجلس ورأسه مطأطأ بين يديه.

قال: *أوضح ما جرى يا بونبني.*

أنـــا... لا يمكـــنني يا سيدي. لا بد أنني أحرقته. كان يجب أن يتحول، لكن لا بد أنني... لا أعرف... لا يمكنني...

فانفجر باكياً.

صرخ د. كيسنغ: *اذهب إلى السرير أيها الفتى! غادر هذه الشقة واخلد إلى النوم!*

كانت تلك أول مرة يسمعه أي منا فيها يرفع صوته فوق مستوى الحديث اللطيف، وقد هزّنا ذلك في الصميم.

ألقـــيت نظرة على بوب ستانلي، ولاحظت أنه كان يتحرك إلى الأمـــام والخلـــف علـــى أطراف أصابعه، يحدق إلى الأرضية من دون اكتراث كما لو أنه ينتظر قطاراً.

نهـــض بوني ومشى ببطء عبر الغرفة نحوي. كانت عيناه حمراوين عـــندما مـــدّ يده وأمسك بيدي. صافحني بتراخٍ، لكنها كانت إشارة وجدت نفسي غير قادر على الرد عليها.

قال، كما لو أنني، وليس بوب ستانلي، شريكه: *أنا آسف يا جاكو.*

لم أستطع النظر إلى عينيه. أشحت بوجهي بعيداً حتى تأكدت أنه لم يعد بقربـــي.

عـــندما خـــرج بوني من الغرفة، ينظر إلى الخلف من فوق كتفه، ووجهه شاحب، حاول السيد توييننغ الاعتذار إلى المدير. لكن ذلك بدا أنه يجعل الأمور أسوأ.

مكتبة الرمحي أحمد

قال: *ربما يجب أن أتصل بوالديه يا سيدي.*

بوالديه! لا يا سيد تويننغ. لا أظن أن الوالدين هما من يجب إحضارهما إلى هنا.

وقف السيد تويننغ في وسط الغرفة يفرك يديه. كان الله [جل جلاله] وحده يعرف الأفكار التي تدور في ذهن الرجل المسكين. لا يمكنني أبداً أن أتذكر أفكاري.

كان اليوم التالي الاثنين. كنت أعبر الباحة، أستمتع بالنسيم العليل مع سمبكنز، الذي كان يثرثر بشأن *منتقم الستر*. كان الخبر قد انتشر مثل النار في الهشيم، وفي كل مكان كان المرء يرى مجموعة من الفتيان يقفون ورؤوسهم قريبة من بعضها، يلوحون بأيديهم بإثارة وهم يتبادلون آخر الشائعات، والتي كانت بمعظمها زائفة.

عندما أصبحنا على بعد نحو خمسين ياردة من دار الطلاب، صرخ أحدهم: *انظروا! هناك في الأعلى! على البرج! إنه السيد تويننغ!*

نظرت إلى الأعلى لأشاهد الرجل المسكين على سطح برج الساعة. كان يتشبث بالحاجز مثل وطواط، وعباءته ترفرف في الريح. نفذ شعاع من ضوء الشمس من بين الغيوم المتجمّعة مثل كشّاف مسرحي، وأضاءه من الخلف. كان رأسه كله يبدو متوهجاً، والشعر الذي يبرز من تحت قبعته يجعله يشبه قرصاً من نحاس مطروق تحت الشمس كهالة تحيط برجل صالح في مخطوطة مضاءة.

صرخ سمبكنز: *احذر يا سيدي. قطع الآجر ليست مثبتة جيداً!*

نظر السيد تويننغ إلى الأسفل إلى قدميه، كما لو أنه يفيق من حلم، كما لو أنه ذُهل عندما وجد نفسه فجأة على ارتفاع ثمانين قدماً فوق الأرض. نظر إلى الأسفل إلى الآجر وللحظة بقي ساكناً من دون حراك.

مكتبة الربيعي أحمد

ثم اقتـــرب من الحافة، لا يتشبث سوى بأطراف أنامله. رفع يده الـــيمنى بتحية رومانية، وعباءته ترفرف حوله مثل ثوب روماني لقيصر عجوز على الحاجز.

صرخ: *فالي!* الوداع.

للحظة، ظننت أنه قد تراجع إلى الخلف عن الحاجز. ربما كان قد غيّر فكرته، أو أن الشمس خلفه بهرت نظري. لكنه كان قد أصبح في الهـــواء آنذاك، يسقط إلى الأسفل. سقط على الأرض بقوة مثل حجر يرتطم بصخرة. ليست هناك طريقة أكثر لطفاً لوصف الأمر".

ســـكت والـــدي لوقت طويل، كما لو أن الكلمات خذلته. أنا حبست أنفاسي.

قـــال أخيراً: "كان الصوت الذي صدر عن جسده عندما ارتطم بالحـــصى قد قضّ مضجعي منذ ذلك اليوم حتى الآن. كنت قد سمعت ورأيت أشياء في الحرب، لكن ليس مثل ذلك. لا شيء مثل ذلك على الإطلاق.

كـــان رجلاً محبوباً وقد قتلناه. أنا وهوراس بونبي قتلناه بالتأكيد كما لو أننا قد دفعناه عن البرج بأيدينا".

قلـــت وأنـــا أمد يدي وألمس يد والدي: "لا. لم يكن لك علاقة بالأمر!".

"آه، لكن أنا السبب يا فلافيا".

كرّرت: "لا!". بالرغم من أنني كنت مشدوهة قليلاً بجرأتي. هل كـــنت أتكلـــم حقاً مع والدي بمثل تلك الطريقة؟ "لم يكن لك علاقة بالأمر. أحرق هوراس بونبي *منتقم الستر*".

ابتـــسم والدي بحزن. "لا، لم يفعل يا عزيزتي. عندما عدت إلى غـــرفتي ليلة الأحد تلك، وخلعت سترتي، اكتشفت بقعة لزجة غريبة

مكتبة الرمحي أحمد

على ردن قميصي. عرفت فوراً ماهيتها: في أثناء شبك الأيدي لتشكيل حلقة تضرع وصرف الانتباه، كان بوني قد دفع طرف إصبعه داخل ردن سترتي وألصق *منتقم الستر* على زر القميص. لكن لماذا أنا؟ لماذا لم يكن بوب ستانلي؟ لسبب وجيه جداً: إذا كانوا قد فتّشونا جميعاً، سيتم العثور على الطابع في ردني وسيدّعي بوني البراءة. لا عجب أنهم لم يستطيعوا العثور عليه عندما فتّشوه في الداخل!

بالطبع، استعاد الطابع عندما صافحني قبل أن يغادر. كان بوني ماهراً في خفّة اليد، تذكري، ولأنني كنت مرة شريكه، كان يبدو منطقياً أن أكون كذلك مجدداً. من كان سيصدّق غير ذلك؟".

قلت: "لا!".

ابتسم والدي: "بلى. وهناك المزيد لأخبرك إياه".

"بالرغم من أنه لم يتم إثبات أي شيء ضده، إلا أن بوني لم يعد إلى غريمنستر بعد ذلك الفصل الدراسي. أخبرني أحدهم أنه قد غادر البلاد للهروب من مشكلات أخرى، ولا يسعني القول إنني اندهشت من ذلك. لم أتفاجأ أيضاً عندما سمعت، بعد سنوات، أن بوب ستانلي، بعد طرده من كلية الطب، قد غادر إلى أميركا حيث أنشأ متجراً للطوابع، إحدى تلك الشركات التي تضع إعلانات في مجلات هزلية وتبيع رزماً من الطوابع لمراهقين. كان العمل كله يبدو مجرد واجهة لتعاملاته المشبوهة الأخرى مع جامعي طوابع أثرياء.

بالنسبة إلى بوني، لم أرَه مجدداً طيلة أكثر من ثلاثين سنة. في الشهر الماضي، ذهبت إلى لندن لحضور معرض دولي عن الطوابع نظّمته جمعية هواة الطوابع الملكية. قد تتذكرين المناسبة. كان أحد الأشياء الذي استقطب الاهتمام عرض بعض الطوابع المنتقاة من مجموعة جلالة الملك الحالي، بما فيها *منتقم الستر* النادر *أيه أيه*، توأم طابع د. كيسنغ.

مكتبة الرمحي أحمد

ألقيت عليه نظرة متفحّصة، و لم تكن الذكريات التي أثارها سارة. كانـت هناك معروضات أخرى أتمنى رؤيتها، وبالتالي لم يشغل منتقم *الستر* الخاص بالملك أكثر من ثوانٍ معدودة من وقتي.

قـبل أن يتم إغلاق المعرض ذلك اليوم بقليل، كنت في الطرف البعـيد مـن قاعة العرض أتفحص صحيفة نقود ورقية ظننت أنني قد أسـتطيع صكّها بنفسي، عندما نظرت صدفة عبر الغرفة ولمحت شعراً أحمر كثيفاً، شعراً لا يمكن أن يكون سوى لشخص واحد.

بوني بالطبع. كان يعبّر عن رأيه لحشد صغير من جامعي الطوابع تجمّع أمام طابع الملك. عندما أمعنت النظر، أصبح النقاش أكثر حرارة، وبـدا أن شـيئاً كان بوني قد قاله أزعج أحد أمناء المعرض، الذي هزّ رأسه بحزم مع ارتفاع نبرة صوتيهما.

لا أظن أن بوني رآني، و لم أكن أريده أن يفعل.

كـنت محظوظاً لأن صديقاً قديماً من الجيش، جمبو هيغنسون، مرّ بـي صدفة في تلك اللحظة واصطحبني لتناول عشاء وشراب في ذلك الـوقت المتأخر. جمبو العجوز الطيب... لم تكن تلك أول مرة يظهر فيها في اللحظة المناسبة".

ظهر شيء في عينيّ والدي، ولاحظت أنه كان قد توارى في أحد جحـور الأرنـب الشخصية تلك التي يلجأ إليها غالباً. كنت أتساءل أحـياناً إن كنت سأتعلم التعايش مع حالات صمته المفاجئة. لكن بعد ذلك، مثل دمية آلية متوقفة عن العمل تدب فيها الحياة فجأة عند نقرها بإصبع، تابع سرد حكايته كما لو أنه لم يتوقف أصلاً.

"عـندما فـتحت الصحيفة على متن القطار في طريق عودتي إلى المنـزل تلك الليلة، وقرأت أن منتقم *الستر* الخاص بالملك استُبدل بآخر مـزيّف - كـان واضحاً أن ذلك حدث أمام أنظار جمهور يتألف من

مكتبة الربيعي أحمد

عـــدّة جامعي طوابع، وحراس أمن – لم أعرف من نفذ السرقة فقط، وإنما، على الأقل بشكل عام، كيف نفّذ ذلك أيضاً.

ثم، الجمعـــة الماضـــية، عندما ظهر الشنُقب ميتاً على عتبة بابنا، عـــرفت فـــوراً أن بـــوني كان هناك. كان *الشُنقب*، *جاك* كنيتي في غريمنـــستر، و*جا*كو اختصاراً. كان الحرفان على زاوية البنس الأسود يشيران إلى اسمه. الأمر معقد جداً".

قلـــت: "بـــي بنس واحد إيتش. بونبي، هوراس. في غريمنستر، كـــان هو يدعى بوني وأنت تدعى جاكو، اختصاراً. نعم، عرفت ذلك منذ بعض الوقت".

نظر والدي إليّ كما لو أنني صلّ وكان يبدو محتاراً بين أن يضمني إلى صدره أو يقذفني خارج النافذة. فرك شفته العليا بطرف إصبعه عدّة مرات، كما لو أنه يحكم إغلاق فمه، لكنه تابع كلامه بعد ذلك.

"حتى معرفة أنه قريب في مكان ما لم تجعلني مستعداً لصدمة رؤية ذلـــك الـــوجه الأبيض شديد النحول الذي ظهر فجأة من الظلام عند نافـــذة مكتبـــي. كان الوقت بعد منتصف الليل. كان يجب أن أرفض الحديث معه، بالطبع، لكنه هدّدني ببضعة أمور...

طلـــب أن أشتري كلا *منتقمي السترمنه*؛ الطابع الذي كان قد ســـرقه مؤخـــراً، والطابع الذي كان قد جعله يختفي قبل سنوات من مجموعة د. كيسنغ.

كان مقتنعاً أنني رجل ثري. قال لي: إنها فرصة استثمار العمر.

عندما أجبت أنني لا أملك مالاً، هدّدني بإبلاغ السلطات أنني كنت قد خططت لسرقة *منتقم الستر* الأول واختلست الثاني. وكان بـــوب ســـتانلي سيؤيد ادّعاءه. بالمحصلة، كنت أنا جامع الطوابع، وليس هو.

مكتبة الرمحي أحمد

ألم أكن موجوداً عندما سُرق كلا الطابعين؟ لمّح الشقي إلى أنه قد يكون - *قد* يكون، انتبهي! - وضع *منتقمي الستر* في مكان ما ضمن مجموعتي.

بعد أن تشاجرنا، كنت منزعجاً جداً لأخلد إلى النوم. عندما غادر بوني، مشيت جيئة وذهاباً في مكتبي طيلة ساعات، أتعذّب، أقلّب مراراً وتكراراً الأمر في ذهني. لطالما شعرت أنني مسؤول بشكل جزئي عن موت السيد توييننغ. إنه إقرار رهيب، لكنه صحيح. كان صمتي الذي قاد مباشرة إلى انتحار ذلك الرجل العجوز المحبوب. لو أنني كنت أمتلك فقط الجرأة، كتلميذ، للمجاهرة بشكوكي، ما كان بونبي وستانلي قد نجوا بفعلتهما، وما كان السيد توييننغ قد انتحر. الصمت يا فلافيا يصبح أحياناً البضاعة الأكثر تكلفة على الإطلاق.

بعد وقت طويل جداً والكثير من التفكير، قرّرت - بعكس كل ما أعتقد به - الاستسلام لابتزازه. كنت سأبيع مجموعتي، وكل ما أملك، لأشتري صمته، ويجب أن أقول لك يا فلافيا، إنني خجل من ذلك القرار أكثر من أي شيء آخر كنت قد فعلته في حياتي، أي شيء".

كنت أتمّنى لو كنت أعرف الكلمات الصحيحة لأقولها، لكن لمرة واحدة خذلني لساني، وكنت أجلس هناك مثل ممسحة، لا يمكنني حتى النظر إلى وجه والدي.

"في وقت ما من الصباح الباكر - لا بد أنها كانت الرابعة، ربما، لأن الضوء كان يبزغ في الخارج - أطفأت المصباح، وعقدت العزم على السير نحو القرية، وإيقاظ بونبي من غرفته في الخان، والموافقة على مطالبه.

مكتبة الربيعي أحمد

لكن شيئاً ما منعني. لا يمكنني تفسيره، لكنه حقيقي. خرجت إلى المصطبة، لكن، بدلاً من الالتفاف نحو مقدمة المنـــزل إلى السيارة كما كـــنت قـــد عقـــدت العزم، وجدت نفسي انجذب مثل مغنطيس إلى المرأب".

هكـــذاً إذاً! كمـــا فكّـــرت. لم يكن والدي من خرج عبر باب المطبخ. كان قد مشى من المصطبة خارج مكتبه، بموازاة جدار الحديقة إلى المـــرأب. لم يكـــن قـــد وضع قدماً في الحديقة. لم يكن قد تجاوز هوراس بونبي وهو يحتضر.

تابـــع والـــدي قائلاً: "كنت بحاجة إلى التفكير، لكن يبدو أنه لم يكن بمقدوري جعل ذهني يركّز بشكل صحيح".

قلت بسرعة: "ووصلت إلى رولز هاريت". أحياناً يمكنني أن أطلق النار على نفسي.

حـــدّق والدي إليّ بنظرة حزينة من النوع الذي ترمق به الدودة الطائر المبكر في اللحظة التي تسبق إطباق منقاره عليها.

قال بلطف: "نعم، كنت متعباً. آخر شيء أتذكر أنني فكّرت فيه هـــو أنـــه عندما يكتشف بوني وبوب ستانلي أنني مفلس، سينفضان أيـــديهما من تلك اللعبة، ويبحثان عن شخص آخر يستفيدان منه. لا يعني ذلك أنني أتمنى هذه الورطة لشخص آخر...

وبعـــدها لا بـــد أنني استغرقت في النوم. لا أعرف. هذا لا يهم حقاً. كنت لا أزال هناك عندما وجدتني الشرطة".

قلـــت مذهولة: "مفلس؟!". لم أستطع كبح جماح نفسي. "لكن يا أبـــي، لديك بكشو".

نظـــر والـــدي إليّ، وعيناه مغرورقتان بالدموع، العينان اللتان لم أرهما أبداً بمثل تلك الحالة من قبل.

مكتبة الرمحي أحمد

"بكشو ملك لهاريت، وعندما توفيت، لم تكن لديها وصية. لم تترك وصية. ضريبة التركة، حسناً، ضريبة التركة ستستنفد على الأرجح كل ما نملكه".

قلت: "لكن بكشو لك! إنها مُلك العائلة منذ قرون".

قال والدي بحزن: "لا. ليست ملكي، ليست لي على الإطلاق. كانت هاريت دي لوس - قبل أن أتزوجها - قريبتي من الدرجة الثالثة. كانت بكشو لها. لا أملك شيئاً أستثمره في ذلك المكان، لا أملك فلساً واحداً حتى. أنا، كما قلت، مفلس عملياً".

كان هناك نقر معدني على الباب، ودخل المفتش هيوت الغرفة.

قال: "أنا آسف أيها العقيد دي لوس. قائد الشرطة، كما تعرف من دون شك، مهتم أن يتم تطبيق القانون بحذافيره. لقد منحتكما أكبر وقت ممكن من دون أن أصاب بأذى".

أومأ والدي بحزن.

قال المفتش لي: "تعالي معي يا فلافيا. سأوصلك إلى المنزل".

قلت: "لا يمكنني الذهاب إلى المنزل. سرق أحدهم دراجتي. أودّ تقديم شكوى".

"دراجتك على المقعد الخلفي لسيارتي".

سألت: "هل وجدها بهذه السرعة؟". الحمد لله! كانت غلاديز بأمان لم يمسّها أذى.

قال: "لم تكن مفقودة أبداً. رأيتك تضعينها أمام المخفر، وجعلت الشرطي غلوسب يبعدها للحفاظ عليها سليمة".

"حتى لا أتمكن من الهرب؟".

رفع والدي حاجبه من تلك الوقاحة، لكنه لم ينبس ببنت شفة.

مكتبة الربيعي أحمد

قال المفتش هيوت: "جزئياً، نعم، لكن بشكل عام لأن المطر لا يزال ينهمر بغزارة في الخارج وستكون رحلة طويلة وشاقة على الدراجة إلى بكشو".

عانقت والدي بصمت، وبالرغم من أنه بقي صلباً مثل شجرة بلوط، إلا أنه لم يمانع.

قال: "حاولي أن تكوني فتاة طيبة يا فلافيا".

أحاول أن أكون فتاة طيبة؟ هل كان ذلك كل ما استطاع التفكير فيه؟ كان جلياً أن غواصتنا قد طفت إلى السطح، وأن من كان فيها ارتفعوا من أعماق سحيقة وبقيت كل الفتنة في الأسفل.

قلت وأنا أستدير مبتعدة: "سأبذل جهدي. سأبذل قصارى جهدي".

قال المفتش هيوت بينما كان يخفف سرعة السيارة ليتجاوز المنعطف عند اللوحة الطرقية التي تشير إلى بيشوب لاسي: "يجب أن لا تقسي كثيراً على والدك". نظرت إليه، كان وجهه متورداً من الأسفل بفعل الضوء الخافت للوحة قيادة الفوكسهول. كانت ماسحتا الزجاج الأمامي، مثل غرابين أسودين، تندفعان يمنة ويسرة على الزجاج في ضوء العاصفة الغريب.

سألت: "هل تظن حقاً أنه قتل هوراس بونبي؟".

بدا أن ردّه استغرق دهوراً حتى جاء، وعندما وصل، كان محمّلاً بحزن عميق.

قال: "من غيره *كان* هناك يا فلافيا؟".

قلت: "أنا... مثلاً".

شغّل المفتش هيوت جهاز إزالة الجليد لتبخير الرطوبة التي كانت كلماتنا تشكّلها على الزجاج الأمامي.

مكتبة الرمحي أحمد

"لا تتوقعين مني تصديق تلك القصة عن الشجار والقلب الضعيف، أليس كذلك؟ لأنني لا أصدّقها. لم يكن ذلك ما قتل هوراس بونبني".

قلت بإلهام مفاجئ: "إذاً، كانت الفطيرة. تسمم من الفطيرة!".

سأل، وهو يكاد يبتسم: "هل سممت الفطيرة؟".

اعترفت: "لا، لكنني أتمنّى لو أنني فعلت ذلك".

قال المفتش: "كانت فطيرة عادية تماماً. لقد حصلت على تقرير التحليل".

فطيرة عادية تماماً؟ كان ذلك أعلى تقدير يمكن لحلويات السيدة موليت أن تحصل عليه في يوم من الأيام.

تابع قائلاً: "كما كنت قد استنتجتِ، تناول بونبني فعلاً قطعة من الفطيرة قبل عدّة ساعات من موته. لكن كيف عرفت ذلك؟".

سألت: "من سوى غريب يمكنه تناول ذلك الشيء؟". بنبرة ساخرة لإخفاء الإدراك المفاجئ أنني قد اقترفت خطأً. لم يكن بونبني قد تسمم من فطيرة السيدة موليت بالمحصلة. كان أمراً طفولياً أن أدّعي أنه تسمم.

قلت له: "آسفة لأنني قلت ذلك. لقد خرج ذلك من فمي من دون تفكير. لا بد أنك تظن أنني حمقاء وغبية تماماً".

لم يرد المفتش هيوت لوقت طويل جداً، ثم قال أخيراً:

"إذا، لم تكن هناك بعض الحلاوة في الأسفل،
من يهتم بعدد طبقات الفطيرة؟".

أضاف: "كانت جدّتي تقول ذلك".

سألت: "ماذا يعني ذلك؟".

"إنه يعني، حسناً، لقد وصلنا إلى بكشو. ربما يكونون قلقين عليك".

مكتبة الربيعي أحمد

قالــــت أوفيليا من دون مبالاة: "أوه! هل كنت غائبة؟ لم نلاحظ الأمر، أليس كذلك يا داف؟".

كان بياض عينيّ أوفيليا يبرز بشكل واضح للعيان. كانت بالتأكيد خائفة لكنها تحاول عدم إظهار ذلك.

تمــتَمَت: "لا". وتوارت مجدداً خلف *منــزل كئيب* [الرواية التاسعة لتشارلز ديكنـــز]. كانت دافني، ضمن أشياء أخرى تتقنها، قارئة نهمة.

لو أنهما سألتا، كنت سأخبرهما بسعادة عن الزيارة التي قمت بها إلى والـــدي، لكنهما لم تفعلا ذلك. إذا كانت هناك أي مظاهر أسى لورطته، لن أكون جزءاً منها، وكان الأمر واضحاً تماماً. كنا أنا وفيلي ودافني مثل ثلاث يرقانات في ثلاث شرنقات منفصلة، وكنت أتساءل أحـــياناً عـــن السبب. (كان أحد العلماء قد أشار مرة إلى أن أشرس تنافس من أجل البقاء يأتي من قبيلة الفرد نفسها، وباعتباره الخامس من ستة أبناء - وثلاث شقيقات أكبر منه - كان في موقع يمكّنه من معرفة ما يتكلم عنه).

بالنـــسبة إليّ كان الأمر مثل كيمياء أساسية: كنت أعرف أن المادة يمكـــن أن تـــنحل في مذيبات تشبهها من الناحية الكيميائية. لم يكن هناك تفسير منطقي لذلك، وكانت تلك ببساطة الطريقة التي تعمل بها الطبيعة.

كـــان ذلك يوماً طويلاً، وشعرت بثقل في جفوني كما لو أنها قد استُخدمت لجمع المحار.

قلـــت: "أظن أنني سأخلد إلى النوم. تصبحين على خير يا فيلي. تصبحين على خير يا دافني".

قـــوبلت محـــاولتي للتودد إليهما اجتماعياً بصمت وتأفف. بينما كـــنت أصـــعد إلى الأعلى، ظهر دوغر فجأة فوقي على السلالم يحمل شمعداناً قد يكون ابتيع من مزاد في ماندرلي.

مكتبة الربيعي أحمد

همس: "العقيد دي لوس؟".

قلت: "إنه بخير يا دوغر".

أومأ دوغر منــــزعجاً، ومشى كل منا مجهداً إلى غرفته الخاصة به.

مكتبة الربيعي أحمد

ثمانية عشر

كانت مدرسة غريمنستر تغفو تحت الشمس، كما لو أنها تحلم بماضٍ مجيد. كان المكان كما تخيلته تماماً، كانت هناك أبنية حجرية قديمة رائعة، مسطحات خضراء أنيقة تصل إلى النهر الذي يجري ببطء، وحقول واسعة خاوية تبدو أنها تردد أصداء مباريات كريكت كان لاعبوها قد توفوا منذ وقت طويل.

أسندت غلاديز إلى شجرة في طرف الممر الذي دخلت منه إلى الأرض. خلف وشيع، كان جرّار يقف يتكتك ببطء، بينما لم يكن سائقه في مرمى البصر.

خرجت أصوات فتيان أعضاء في جوقة ترتيل من دار العبادة. بالرغم من أشعة شمس الصباح الساطعة، إلا أنهم كانوا ينشدون:

ببطء الآن ضوء النهار
يتلاشى أمام ناظريّ

وقفت أصغي السمع للحظة قبل أن يتوقفوا فجأة. ثم، بعد توقف قصير، انطلق صوت الأورغن مجدداً، عالياً، وعاد المغنون إلى البداية.

بينما كنت أمشي ببطء فوق الأعشاب التي كنت واثقة من أن والدي سيدعوها *الباحة*، كانت نوافذ المدرسة السوداء الطويلة تحدّق إليّ ببرود، وانتابني شعور غريب مفاجئ مثل ذاك الذي تشعر به حشرة

مكتبة الرمحي أحمد

عـــندما يـــتم وضعها تحت مجهر، شعور أن عدسات غير مرئية تحوم، وشيئاً غريباً ربما، حول الضوء.

ما عدا تلميذ واحد يندفع في الجوار، ومدرّسين بعباءتين سوداوين يمشيان ويتكلمان، ورأساهما قريبان من بعضهما، كانت المروج الواسعة والممرات المتعرجة لغريمنستر خاوية تحت سماء زرقاء صافية. كان المكان كله يبدو مصطنعاً نوعاً ما، مثل نشرة أكفا [شركة ألمانية تنتج أدوات للتـــصوير الملـــون] للألوان كبيرة جداً مثل شيء قد تراه في أحد تلك الكتب التي تحمل عنواناً مثل *سجل من بريطانيا* [نُشر عام 1942].

لا بد أن ذلك البناء من الحجر الكلسي على الطرف الشرقي من الـــباحة - الذي يضم برج ساعة - هو دار الطلاب، وفكّرت في غرفة والدي القديمة.

عندما اقتربت منه، خفضت رأسي لأحمي عينيّ من وهج الشمس. مـــن مكان ما في الأعلى بين فتحات السور والآجر، كان السيد توييننغ قـــد ألقى بنفسه إلى حتفه على الحصى في الأسفل، تلك الحصى القديمة التي لم تكن تبعد آنذاك أكثر من مئة قدم عن المكان الذي أقف فيه.

مشيت فوق الأعشاب لإلقاء نظرة.

لخيـــبة أملي، لم تكن هناك بقع دم. بالطبع لن تكون هناك، ليس بعد كل تلك السنوات. لا بد أنه تمت إزالة بقع الدم تلك حالما أصبح ذلـــك ممكناً بشكل لائق، على الأرجح قبل أن يتم وضع جسد السيد توييننغ المحطم في مثواه الأخير.

مـــا عـــدا تعرّضـــها لحت مستمر طيلة مئتي سنة من قبل أقدام أصـــحاب الامتـــيازات، لم يكنٍ لدى تلك الحصى حكايات أخرى. بمـــوازاة الجدران الحجرية لدار الطلاب، لم يكن عرض الممشى يتجاوز ست أقدام.

مكتبة الرمحي أحمد

رفعت رأسي إلى الأعلى، ونظرت مباشرة إلى البرج. من زاوية الرؤية تلك، كان يرتفع شاهقاً بجدار عمودي من الحجارة ينتهي بعيداً، فوقي، بنحت من الحجارة المزخرفة حيث تمنحك غيوم بيضاء كبيرة، تتحرك ببطء فوق حاجز السطح، شعوراً غريباً أن البناء كله يميل... يسقط... يقع نحوك. جعل المشهد معدتي تتقلص، وكان عليّ أن أشيح بوجهي بعيداً.

كانت درجات حجرية، في حال يرثى لها، تصل الممشى المرصوف بالحصى، عبر بوابة مقنطرة، إلى باب مزدوج. كانت غرفة البواب إلى يساري، وكان قاطنها مشغولاً بالحديث عبر الهاتف. لم يرفع بصره عندما تسللت إلى الداخل.

كان ممر بارد معتم يمتد طويلاً أمامي، إلى ما لا نهاية كما يبدو، ومشيت عليه، أرفع قدميّ بحرص كي لا أصدر صوتاً على الأرضية الحجرية.

على الطرف الآخر، كان هناك رواق طويل عليه وجوه مبتسمة - بعضها لتلاميذ وبعضها لمعلمين - تغرق في الظلام، وكل منها لشخص تخرّج من غريمنستر وضحّى بحياته من أجل بلده، ولكل صورة إطار أسود لامع. كان مكتوباً على ورقة بماء الذهب *ليحيا آخرون*. في نهاية الرواق، في مكان منفصل عن اللوحات الأخرى، كانت أسماؤهم محفورة بلون أحمر على قطع مستطيلة صغيرة من النحاس. كُتب تحت كل اسم *مفقود خلال الخدمة*.

"مفقود خلال الخدمة؟". لماذا لم تكن صورة والدي معلقة هناك؟ تساءلت.

كان والدي بشكل عام مفقوداً مثل أولئك الشبان الذين كانت عظامهم في مكان ما في فرنسا. شعرت بالذنب قليلاً من تلك الفكرة، لكن ذلك كان صحيحاً.

مكتبة الرمحي أحمد

أظن أنه في تلك اللحظة، هناك في الرواق المعتم في غريمنستر، بدأت أدرك طبيعة والدي المنطوي على نفسه بأكملها. بالأمس، كنت مستعدة تماماً لأرمي ذراعيّ حوله وأعانقه بحرارة، لكنني آنذاك كنت أفهم أن ما دار في السجن المريح قبل يوم لم يكن حواراً، وإنما مناجاة مزعجة. لم تكن أنا، بل هاريت من يتحدث إليها. ولم أكن، كما كانت الحال مع هوراس بونبي المحتضر، أكثر من شخص يفضي إليه آخرون بمكنونات أنفسهم.

آنذاك، كنت هناك في غريمنستر حيث كانت متاعب والدي قد بدأت، والمكان يبدو بارداً ونائياً وقاسياً.

في الدجنة خلف الصور، كانت سلالم تقود إلى الطابق الأول، وصعدت عليها إلى رواق والذي كان، مثل ذاك الذي تركته خلفي في الأسفل، يمتد على طول البناء. بالرغم من أن الأبواب على جانبيه كانت موصدة، إلا أن كلاً منها كان مزوداً بلوح زجاجي صغير، مما سمح لي بالنظر إلى ما يوجد داخل الغرفة. كانت صفوفاً، وكلها متشابهة.

في نهاية الممر، كانت هناك غرفة أكبر عند الزاوية تبدو مميزة. رأيت علامة على بابها تشير إلى مختبر الكيمياء.

حاولت فتح الباب من مقبضه، ففُتح على الفور. كان القفل مكسوراً!

لا أعرف ماذا كنت أتوقع، لكنني لم أكن أتوقع الآتي، طاولات خشبية مليئة بالبقع، قوارير عادية، أواني تقطير متسخة، أنابيب اختبار محطّمة، محراق بنسن، ورسماً جدارياً ملوناً للعناصر [الكيميائية] يضم خطأً طباعياً مثيراً للضحك بعد أن تم تبديل موقعي الزرنيخ والسلينيوم. لاحظت ذلك على الفور و - باستخدام قطعة طباشير زرقاء من الرف

مكتبة الربيعي أحمد

أســـفل اللوح - تصدّيت لتصحيح الخطأ برسم سهم برأسين. "خطأ!" كتبت تحته، ورسمت خطين تحت الكلمة.

لم يكـــن ممكـــناً مقارنة هذا المختبر بذاك الذي أملكه في بكشو، وعـــندما فكّرت في ذلك، امتلأ صدري فخراً. لم أكن أرغب في شيء مـــثل الانطـــلاق نحو المنـــزل فوراً، أن أكون هناك فقط، لألمس أوانيّ الزجاجية التي تلمع، لأبتكر السم المثالي من أجل المتعة فقط.

لكـــن كـــان على تلك المتعة أن تنتظر. كان هناك عمل يجب إنجازه.

عـــندما خرجت إلى الرواق، عدت أدراجي إلى مركز البناء. إذا كـــنت قد خمّنت بدقة، يجب أن أكون تحت البرج مباشرة، ولن يكون المدخل إليه بعيداً.

فتحت باباً صغيراً في جدار خشبـــي، كنت قد ظننت في البداية أنهـــا خزانة مكانس، لكنه كشف عن سلالم حجرية شديدة الانحدار. توقف قلبـــي خفقة واحدة.

ثم رأيـــت العلامة. بعد بضع درجات إلى الأعلى من حيث كنت أقف، كانت سلسلة طويلة تتدلى على الدرجات، مع بطاقة كُتِب عليها بخط اليد: *البرج مغلق - ممنوع منعاً باتاً*.

صعدت عليها مثل رصاصة.

شـــعرت أنـــني داخل صدفة حيوان بحري. كانت السلالم تلتف بـــشكل حلزوني، تتلوى في طريقها الضيق صعوداً بالطريقة نفسها. لم يكـــن هناك مجال لرؤية ما يقع في الأعلى أو، في ما يخص تلك المسألة، ما يوجد في الأسفل. لم يكن ممكناً رؤية سوى درجات قليلة فقط إلى الأعلى والأسفل.

مكتبة الربيعي أحمد

لبعض الوقت، عددتها همساً بينما كنت أصعد، لكن بعد قليل، وجدت أنني بحاجة إلى التنفس لأزوّد رئتيّ بالطاقة. كان صعوداً شاقاً وشعرت بألم في خاصرتي. توقفت لحظة لأرتاح.

كان هناك ضوء خافت يبدو أنه يأتي من نوافذ مستطيلة صغيرة، تقع كل واحدة منها عند انتهاء دورة كاملة للسلالم. على ذلك الجانب من البرج، كما خمّنت، تقع الباحة. كنت لا أزال أتنفس بصعوبة عندما استأنفت صعودي.

ثم انتهت السلالم فجأة وبشكل غير متوقع - ببساطة - عند باب خشبي صغير.

كان باباً مثل ذاك الذي قد يندفع عبره قزم في جانب شجرة بلوط داخل غابة، وجدت فتحة صغيرة نصف دائرية مع ثقب حديدي لمفتاح صغير. ولا حاجة إلى القول، إن ذلك الشيء الغبي كان موصداً.

أطلقت تنهيدة إحباط، وجلست على أعلى درجة، أتنفس بصعوبة.

قلت: "تباً". وتردد صدى الكلمة بشكل مخيف عن الجدران.

جاء صوت عميق قاسٍ: "مرحباً هناك في الأعلى!". سمعت بعدها وقع أقدام بعيداً في الأسفل.

قلت مجدداً، هذه المرة همساً: "تباً". لقد تم اكتشاف أمري.

سأل الصوت: "من في الأعلى؟". وضعت يدي على فمي لأكبح الحافز على الرد.

عندما مسّت أصابعي أسناني، خطرت ببالي فكرة. كان والدي قد قال مرة إنه سيحين وقت أكون فيه ممتنة لأقواس تقويم الأسنان التي تم إرغامي على وضعها، وقد كان محقاً.

مكتبة الربيعي أحمد

باســـتخدام إبهاميّ وسبابتيّ ككمّاشتين، سحبت الأقواس بكل ما أملـــك من قوة، ومع *طقطقة* مرضية خرجت تلك الأشياء من فمي إلى يدي.

مع اقتراب وقع الأقدام أكثر فأكثر، وصعودها الحثيث إلى حيث كنت محتجزة عند الباب الموصد، فتلت السلك ليأخذ شكل حرف *أل* مع عقدة في طرفه، ووضعت الأسلاك داخل ثقب المفتاح.

كـــان والدي سيجلدني بالسوط على ذلك، لكن لم تكن بيدي حيلة.

كان القفل قديماً وبسيطاً، وكنت أعرف أن بمقدوري فتحه، فقط إذا كان لدي وقت كاف.

سأل الصوت: "من هناك؟ أعرف أنك في الأعلى. يمكنني سماعك. البرج مغلق. انـــزل فوراً أيها الفتى".

قلت لنفسي: "فتى؟ إذاً، لم يكن قد رآني حقاً".

أدخلـــت الـــسلك، وأخرجته وأدرته نحو اليسار. كما لو أنه تم تزييته هذا الصباح، انـــزلق الرتاج بسلاسة إلى الخلف. فتحت الباب، عـــبرت من خلاله، وأغلقته بهدوء خلفي. لم يكن لدي وقت لأوصده من جانبـــي. بالإضافة إلى ذلك، أياً كان الذي يصعد السلالم سيكون لديه على الأرجح مفتاح.

كـــنت في مكان مظلم مثل قبو فحم. كانت النوافذ المستطيلة قد انتهت عند أعلى السلالم.

توقف وقع الأقدام عند الطرف الآخر من الباب. تحركت بصمت إلى أحد الجانبين، وأسندت نفسي إلى الجدار الحجري.

سأل الصوت: "من هناك؟ من أنت؟". ثم أدخل مفتاحاً في القفل، طقطق الرتاج، فُتح الباب، وأطل رجل برأسه عبر الفتحة.

مكتبة الرمحي أحمد

كانت أشعة ضوء مصباحه تنتشر هنا وهناك، تضيء متاهة معقدة من السلالم التي تلتف إلى الأعلى في الظلام. وجّه الضوء إلى السلالم، ودفع شعاعه للصعود إلى الأعلى، حلقة إثر أخرى، حتى اختفى في الظلمة البعيدة فوقه.

لم أحرّك ساكناً، لم أحرّك عينيّ حتى. برؤيتي المحيطية، كان لديّ انطباع عن الرجل الذي يظهر خياله على الباب المفتوح، بشعره الأبيض وشاربه المخيف. كان قريباً جداً مني بحيث يمكنني أن أمد يدي وأمسّه.

أطبق صمت لوقت بدا أن لا نهاية له.

قال لنفسه أخيراً: "جرذان لعينة مجدداً". أغلق الباب بعنف، وتركني في الظلام. كانت هناك خشخشة مجموعة مفاتيح، ثم عاد الرتاج إلى مكانه.

كنت محبوسة هناك.

أظن أنه كان من المفترض أن أطلق صرخة، لكنني لم أفعل. لم أكن قد فقدت صوابي بعد. في الواقع، كنت قد بدأت أستمتع بالأمر.

كنت أعرف أن بمقدوري فتح القفل مجدداً، والتسلل نزولاً على السلالم، لكنني كنت سأقع على الأرجح في قبضة البواب.

نظراً إلى أنه لم يكن بمقدوري البقاء في ذلك المكان إلى الأبد، كان الخيار الآخر الوحيد هو الصعود إلى الأعلى. مددت ذراعيّ مثل شخص يمشي في نومه، دفعت قدميّ ببطء واحدة إثر الأخرى حتى مسّت أصابعي أقرب درجات السلالم التي كنت قد رأيتها مضاءة بمصباحه، ومضيت صعوداً.

ليست هناك مهارة خاصة لتسلق سلالم في الظلام. بطرائق عديدة، من الأفضل رؤية الهاوية الموجودة دائماً إلى الأسفل منك. لكن

مكتبة الرمحي أحمد

بينما كنت أصعد، أصبحت عيناي أكثر اعتياداً على الظلام، أو الدجنة. كانت شقوق ضئيلة في الحجارة، وألواح الخشب، تسمح لضوء خافت بالدخول هنا وهناك، وسرعان ما اكتشفت أن بمقدوري تمييز الهيكل العام للسلالم، التي كانت سوداء حالكة في ضوء البرج الرمادي.

انتهت درجات السلالم فجأة، ووجدت نفسي على منصة خشبية صغيرة، مثل بحّار على حبال أشرعة السفينة. إلى يساري، كانت هناك سلالم أخرى ترتفع إلى الأعلى في الدجنة.

هزّزتها بقوة، وبالرغم من أنها أصدرت صريراً مخيفاً، إلا أنها بدت متينة بما يكفي. سحبت شهيقاً عميقاً، وضعت قدمي على الدرجة السفلية، وتابعت الصعود إلى الأعلى.

بعد دقيقة كنت قد وصلت إلى القمة، ومنصة أصغر أكثر تداعياً. كان لا تزال هناك سلالم أخرى، هذه المرة أكثر ضيقاً والتفافاً من الأخرى، واهتزت بشكل يدعو للقلق عندما وضعت قدماً عليها، وبدأت أصعد ببطء شديد. في منتصف الطريق إلى الأعلى بدأت أعدّ الدرجات:

مكتبة الرمحي أحمد

"عشر (تقريباً)... إحدى عشرة... اثنتي عشرة... ثلاث عشرة –".

ارتطم رأسي بشيء ما، وللحظة لم أستطع رؤية سوى نجوم تدور. تعلّقت بالدرجات لإنقاذ حياتي الغالية، وكان رأسي يؤلمني مثل بطيخة انفجرت، والسلالم تهتز في يديّ مثل وتر قوس يتحرك بقوة.

عندما مددت يدي إلى الأعلى، واستشعرت ما يوجد فوق رأسي المهشّم، أمسكت أصابعي بمقبض خشبي. دفعته إلى الأعلى بكل ما تبقى لي من قوة، وارتفع الباب الأفقي.

مكتبة الرمحي أحمد

خلال لحظة، خرجت إلى سطح البرج، عيناي تطرفان مثل بومة فاجأهـــا الشروق. من منصة مربعة في وسطه، كان الآجر ينحدر قليلاً باتجاهات البوصلة الأربعة.

كان المنظر رائعاً. عبر الباحة، خلف آجر دار العبادة، كانت قطع أرض بألوان خضراء مختلفة تمتد حتى الأفق البعيد.

كانـــت عيـــناي لا تزالان نصف مغمضتين، اقتربت من حاجز السطح، وكدت أفقد حياتي.

كان هناك ثقب واسع ظهر فجأة عند قدميّ، وكان عليّ أن ألوح بذراعيّ حتى لا أسقط فيه. بينما كنت أترنح على الحافة، ألقيت نظرة خاطفـــة على الحصى البعيدة في الأسفل والتي تلمع سوداء تحت أشعة الشمس.

ربمـــا كان عرض الثغرة نحو ثماني عشرة بوصة، مع حافة بارتفاع نـــصف بوصة حولها، على كل عشر أقدام، أو نحو ذلك، حجر ضيق يربط الحاجز البارز بالسطح. كان واضحاً أنه قد تم تصميم تلك الفتحة لتكون مصرفاً طارئاً للمياه في حال انهمرت أمطار غزيرة غير اعتيادية.

قفزت بحرص فوق الفتحة، ونظرت من فوق الحاجز الذي يرتفع حـــتى الخصر. بعيداً إلى الأسفل، كانت أعشاب الباحة تنتشر في ثلاثة اتجاهات.

تـــشبثت بإحكام بجدار دار الطلاب، لكن ممشى الحصى لم يكن مرئياً أسفل الحاجز البارز. كم كان ذلك غريباً، كما فكّرت. إذا كان الـــسيد توينـــنغ قـــد قفز من فوق هذا الحاجز، لا بد أنه سقط على الأعشاب.

إلا إذا كانت الباحة، بالطبع، في السنوات الثلاثين التي مرّت منذ وفاتـــه، قد خضعت لتغييرات هندسية أساسية. أوضحت نظرة أخرى

مكتبة الرمحي أحمد

إلى الأسفل، عبر الفتحة خلفي بجلاء، إلى أن شيئاً من ذلك لم يحدث، كانت الحصى في الأسفل، وأشجار الزيزفون التي تحيط بها، قديمة بالتأكيد. كان السيد توييننغ قد سقط من هذه الفتحة، من دون شك.

كانت هناك جلبة مفاجئة خلفي، فاستدرت بسرعة. في وسط السطح كانت هناك جثة معلقة، تتدلى من مشنقة. كان عليّ أن أكافح جاهدة كي لا أصرخ.

مثل جسد قاطع طريق مقيد كنت قد رأيته على صفحات *تقويم نيوغيت* [كتاب يسرد أعمال مجرمين في إنكلترا]، كان الشيء يهتز ويلتف في النسيم المفاجئ. ثم، من دون سابق إنذار، بدا أن بطنه ينكشف، وأحشاءه ترتفع في الهواء في حبل مجدول ومقزز قرمزي، أبيض، وأزرق.

بطقطقة! عالية، تحرّرت الأمعاء من بعضها، وفجأة، عالياً فوق رأسي، على قمة العمود، كان العلم البريطاني يخفق في الهواء.

عندما تمالكت نفسي، رأيت أن الراية مربوطة بحبل، ويمكن بالتالي رفعها وإنزالها من الأسفل، ربما من غرفة البواب، بسلسلة مبتكرة من الأسلاك والبكرات التي تنتهي إلى علبة من قماش مانع لنفاذ الماء. كانت تلك التي ظننت أنها جثة ومشنقة.

كشّرت بغباء من حماقتي، واقتربت بحرص من الآلة لإلقاء نظرة عن كثب. لكن، بخلاف الإبداع الميكانيكي للجهاز، لم يكن هناك ما يثير الاهتمام.

كنت قد استدرت آنذاك، وتحركت عائدة نحو الفتحة عندما تعثرت ووقعت على وجهي، وبرز رأسي من فوق حافة الهاوية.

ربما كانت كل عظمة في جسدي قد تعرضت للكسر، لكنني كنت خائفة من أن أتحرك. على بعد مليون ميل إلى الأسفل، أو هذا ما

مكتبة الرمحي أحمد

كـــان يبدو، خرج شخصان يبدوان كنملتين من دار الطلاب، وانطلقا يجريان عبر الباحة.

كـــان أول ما خطر ببالي أنني لا أزال على قيد الحياة. لكن بعد ذلـــك، مـــع اضمحلال الخوف، حلّ الغضب محله، غضب من حماقتي وعـــدم رشاقتي، غضب من لاعبة خفة خفية تفسد حياتي بسلسلة لا تنتهـــي مـــن أبـــواب موصدة، كسور في القدمين، وسحجات على المرفقين.

نهـــضت ببطء على قدميّ، ونفضت الغبار عن ملابسي. لم يكن فستاني فقط متسخاً، لكنني استطعت أيضاً خلع نعل حذائي الأيسر. لم تكن رؤية سبب الضرر صعبة، كنت قد دست على الحافة الحادة لقطعة آجر بارزة والتي لم تكن آنذاك، بعد أن خرجت من مكانها، ثابتة على السطح، وتبدو مثل الألواح التي كانت تكتب عليها الوصايا في سالف العصر.

كـــان من الأفضل أن أعيد قطعة الآجر إلى مكانها، كما فكّرت. بخلاف ذلك، سيجد قاطنو دار الطلاب ماء المطر ينهمر على رؤوسهم وسيكون ذلك خطأي وحدي.

كانت قطعة الآجر أثقل مما تبدو عليه، وكان عليّ أن أجثو على ركبتيّ عندما حاولت إعادتها إلى مكانها. ربما كان ذلك الشيء يدور، أو أن قطع الآجر المجاورة لها قد انحرفت عن مكانها.

كـــنت أستطيع ببساطة وضع يدي في الفتحة لأتحسس وجود أي عائـــق، لكنني تذكرت عندها العناكب والعقارب المعروف أنها تسكن في مثل تلك المغاور.

أغلقت عينيّ، ودفعت أصابعي داخل الفتحة. في الجزء الخلفي من التجويف عثرت على شيء ما، شيء طري.

مكتبة الرمحي أحمد

سحبت يدي بسرعة، وانحنيت كي أنظر إلى الداخل. لم يكن هناك شيء في الثغرة سوى الظلام.

بحرص، دفعت أصابعي إلى الداخل مجدداً، وباستخدام إبهامي وسبابتي أمسكت بالشيء الذي كان موجوداً في الجزء الخلفي من الفتحة.

في النهاية، خرجت من دون جهد يذكر، وانبسطت عندما انبثقت من الحفرة، مثل الراية التي كانت ترفرف فوق رأسي. كانت قطعة قماش أسود بالٍ؛ نسيج راسل [صوف]، كما أظن أنه يدعى. كانت عباءة معلم مدرسة مهترئة. وكانت قبعة جامعية سوداء مربعة من الأعلى ملفوفة بإحكام داخلها.

في تلك اللحظة أدركت، بكل تأكيد، أن تلك الأشياء قد لعبت دوراً في موت السيد توييننغ. لم أكن أعرف ماهية تلك الأشياء، لكنني كنت سأكتشف ذلك من دون شك.

كنت أعرف أنه يجب أن أترك تلك الأشياء هناك. كان يجب أن أصل إلى أقرب هاتف، وأتصل بالمفتش هيوت. بدلاً من ذلك، كانت أول فكرة خطرت في ذهني هي الآتية: كيف سيتسنى لي الخروج من غريمنستر من دون أن يراني أحد؟

كما هي الحال دائماً عندما تجدين نفسك في ورطة، جاء الجواب فوراً.

دفعت ذراعيّ داخل ردني العباءة البالية، عدّلت القبعة الجامعية المقوّسة من الأعلى ووضعتها على رأسي، ومثل وطواط أسود كبير، عدت أدراجي ببطء وحذر على السلالم التي تهتز إلى الباب الموصد.

كان المفتاح الذي صنعته من أسلاك تقويم أسناني قد نجح من قبل، وكنت أريده آنذاك أن ينجح مجدداً. بينما كنت أدير السلك في ثقب المفتاح، تضرعت بدعاء صامت.

مكتبة الرمحي أحمد

بعــد جهــد مــضنٍ، وانثناء السلك، وبعض اللعنات الصغيرة، استجيب لتضرعي أخيراً، ورجع الرتاج إلى الخلف بصوت مسموع.

قــبل أن يستطيع المرء قول كلمة *انطلق!* نــزلت على السلالم، أصغيت السمع عند الباب السفلي، نظرت عبر شق إلى الرواق الطويل. كان المكان غارقاً بالصمت.

فــتحت الــباب بــبطء، خرجت بهدوء إلى الممر، وأسرعت في طريقــي على طول بهو صور الفتيان المفقودين، تجاوزت غرفة البواب، وخرجت إلى أشعة الشمس.

كــان هــناك تلامــيذ في كل مكان - أو هذا ما كان يبدو - يــتكلمون، يتــسكعون، يمشون، يضحكون. يتهجون في الخارج مع قرب انتهاء الفصل الدراسي.

كانــت فطــرتي تحــثّني على الانحناء قدر المستطاع تحت القبعة والعــباءة والتسلل خلسة عبر الباحة. هل سيراني أحد؟ بالطبع سيراني، وبالنسبة إلى هؤلاء الفتيان الشبيهين بالذئاب سأكون مثل غزال في نهاية القطيع.

لا! كنت سأشد قامتي، ومثل فتى متأخر عن رفاقه، أمشي بهدوء، رأســي عالياً في الهواء، باتجاه الطريق. لم يكن بمقدوري سوى أن آمل ألا يلاحظ أحد أنني أرتدي فستاناً تحت العباءة.

هذا ما كان، حتى إن أحداً لم يرمقني بنظرة مجدداً.

كلما كنت أبتعد عن الباحة، كنت أشعر بأمان أكثر، لكن كنت أعرف أنني، وحيدة في مكان مكشوف، سأكون أكثر إثارة للشكوك.

بعد بضع أقدام فقط إلى الأمام، كانت هناك شجرة بلوط عجوز تــربض علــى مرج كما لو أنها ترتاح هناك منذ أيام روبن هود [بطل فولكلــور إنكليزي يأخذ من الأغنياء ويعطي الفقراء]. بينما كنت أمدّ

مكتبة الرمحي أحمد

يدي لأمسّها (العودة إلى المنزل أخيراً!)، ظهرت يد من خلف الجذع، وأمسكت بمعصمي.

صرخت تلقائياً: "آه! اتركني! أنت تؤذيني!". فأفلت الشخص يدي على الفور، بالرغم من أنني كنت لا أزال أدور على عقبيّ لأواجه المهاجم.

كان الرقيب المحقق غريفز، وبدا متفاجئاً مثلي تماماً.

قال وهو يبتسم ببطء: "حسناً، حسناً. حسناً، حسناً".

كنت على وشك التفوه بعبارة جارحة، لكنني أحجمت عن ذلك. كنت أعرف أن الرقيب معجب بي، وربما كنت بحاجة إلى كل مساعدة يمكنني الحصول عليها.

قال: "يود المفتش أن يحظى برفقتك". وأشار إلى مجموعة من الأشخاص يقفون ويتكلمون في اثناء وقوفهم، حيث كنت قد تركت غلاديز.

لم يقل الرقيب غريفز شيئاً آخر، لكن مع اقترابنا من المجموعة، دفعني بلطف أمامه نحو المفتش هيوت مثل كلب صيد يقدم لسيده جرذاً ميتاً. كان نعل حذائي الممزق يطقطق مثل حذاء تشارلي تشابلن في *الصعلوك الصغير* [فيلم]، لكن، بالرغم من أن المفتش نظر إلي، إلا أنه كان لطيفاً بما يكفي ليحتفظ بأفكاره لنفسه.

كانت قامة الرقيب ولمار ترتفع فوق الفوكسهول الزرقاء، وكان وجهه كبيراً ومتغضّناً مثل ماترهورن [جبل في منطقة الألب بين سويسرا وإيطاليا]. في ظله، كان هناك رجل متين البنية داكن البشرة يرتدي رداءً سروالياً، وكان هناك رجل آخر نحيل قصير له شارب أبيض والذي، عندما رآني، أشار في الهواء بإصبعه مهتاجاً.

قال: "ذلك هو! ذلك هو الشخص!".

مكتبة الربيعي أحمد

سأل المفتش هيوت وهو يرفع القبعة عن رأسي وينزع العباءة عن كتفيّ بلطف كأنه خادم: "هذا هو فعلاً؟".

جحظت عينا الرجل القصير الزرقاوان بشكل ظاهر من محجريهما.

قال: "ماذا، إنها مجرد فتاة!".

كان بمقدوري أن أصفع وجهه.

قال الرجل الذي لوّحت الشمس بشرته: "آه، تلك هي".

قال المفتش هيوت، وهو يشير إلى الرجل صاحب الشارب الأبيض: "لدى السيد رغلز سبب للاعتقاد أنك كنت في البرج".

قلت: "ماذا! إن كنت هناك فعلاً، كنت ألقي نظرة فحسب".

قال السيد رغلز بصوت عال: "الدخول إلى ذلك البرج ممنوع، ممنوع! وهذا ما تشير إليه اللافتة. ألا تجيدين القراءة؟".

هزّزت كتفيّ بلباقة.

"كنت سأصعد السلالم خلفك، لو عرفت أنك مجرد فتاة". وأضاف جانباً للمفتش هيوت: "لم تعودا كما كانتا من قبل، ركبتاي".

تابع قائلاً: "كنت أعرف أنك في الأعلى هناك. خرجت كما لو أنني أجهل ذلك، واتصلت بالشرطة. ولا تتظاهري أنك لم تفتحي القفل. ذلك القفل مسؤوليتي، وأنا واثق من أنه كان مقفلاً مثلما أنا واثق أنني أقف هنا في طريق فلود".

قال وهو يهز رأسه غير مصدق: "تخيل! فتاة! أف".

سأل المفتش: "فتحتِ القفل، أليس كذلك؟". بالرغم من أنه كان يتظاهر بخلاف ذلك، إلا أنني لاحظت أنه كان مشدوهاً. "أين تعلمت مثل تلك الخدعة؟".

لم يكن بمقدوري إخباره، بالطبع. كان يجب حماية دوغر مهما كان الثمن.

مكتبة الربيعي أحمد

قلت: "في زمان ومكان بعيدين".

رمقني المفتش بنظرة حادة قائلاً: "قد يكون هناك أشخاص يكتفون بتلك الإجابة يا فلافيا، لكنني لست واحداً منهم".

كان ذلك حديث "الملك جورج ليس رجلاً عابثاً" مجدداً، كما فكّرت، لكن المفتش هيوت كان قد قرّر عدم انتظار إجابتي، بغض النظر عن الوقت الذي قد يستغرقه خروجها من فمي.

قلت: "ليس هناك الكثير مما يمكنني القيام به في بكشو. أحياناً أفعل أشياء لإبعاد الملل عن نفسي".

رفع العباءة السوداء والقبعة. "ولهذا السبب ترتدين هذا الزي؟ لإبعاد الملل عنك؟".

قلت: "إنه ليس زياً. إذا كنت تريد أن تعرف، فقد وجدته تحت قطعة آجر غير ثابتة على سطح البرج. إنه على صلة بموت السيد توايننغ. أنا واثقة من ذلك".

إذا كانت عينا السيد رغلز قد جحظتا من قبل، فقد كادتا آنذاك تخرجان من محجريهما.

قال: "موت السيد توايننغ. ألم يقفز السيد توايننغ من أعلى البرج؟".

قلت: "السيد توايننغ لم يقفز". لم أستطع مقاومة إغراء تسوية الأمر حتى مع ذلك الرجل القصير المزعج. "لقد كان –".

قال المفتش هيوت: "شكراً يا فلافيا. ذلك سيفي بالغرض. ولن نأخذ المزيد من وقتك يا سيد رغلز. أعرف أنك رجل مشغول".

نفخ رغلز صدره مثل حمامة تغازل، وبإيماءة للمفتش وابتسامة وقحة لي، انطلق عبر المرج إلى مقر عمله.

قال المفتش للرجل الذي يرتدي رداءً سروالياً، والذي كان يقف بصمت جانباً: "شكراً لتقريرك يا سيد بلوفر".

مكتبة الرمحي أحمد

حيّا السيد بلوفر المفتش بإيماءة من رأسه، وعاد إلى جرّاره من دون أن ينبس ببنت شفة.

قال المفتش هيوت وهو يلوح بيده: "مدارسنا العامة الرائعة.مدن مصغّرة. رآك السيد بلوفر وظن أنك متطفلة في اللحظة التي دخلت فيها الطريق. لم يضع وقتاً في الوصول إلى غرفة البواب".

تباً للرجل! وتباً لرغلز العجوز أيضاً! سأتذكر عندما أعود إلى المنزل أن أرسل إليهما إبريقاً من عصير الليمون، فقط لإظهار عدم وجود ضغائن. كان الربيع في أواخر أيامه ولا توجد شقائق نعمان، ولهذا كان إعداد *أنيمونين* [مادة تركيبية سامة] أمراً مستحيلاً. كان يمكن العثور على عنب الذئب القاتل، من ناحية أخرى، بالرغم من أنه غير معروف، إذا كنت تعرف أين تبحث بالضبط.

سلمّ المفتش هيوت القبعة والعباءة إلى الرقيب غريفز، الذي كان قد أخرج آنذاك عدّة أوراق نسيجية [شبه شفافة] من حقيبته.

قال الرقيب: "مذهل. لقد وفّرت علينا عناء البحث بين قطع الآجر".

رمقه المفتش بنظرة يمكن أن توقف حصاناً منفلتاً من عقاله.

قال الرقيب، الذي احمرّ وجهه فجأة عندما كان يستدير نحو معدّاته: "آسف يا سيدي".

قال المفتش هيوت، كما لو أن شيئاً لم يحدث: "أخبريني، بالتفصيل، كيف عثرت على هذه الأشياء، من دون زيادة أو نقصان".

بينما كنت أتكلم، كان يكتب كل شيء بسرعة بيده النحيلة. نظراً إلى أنني كنت أجلس قبالة فيلي عندما تكتب في مفكرتها على الإفطار، أصبحت أجيد القراءة بالمقلوب، لكن ملاحظات المفتش هيوت لم تكن أكثر من نمال صغيرة تزحف على الصفحة.

مكتبة الرمحي أحمد

أخبرته بكل شيء، من طقطقة السلالم إلى زلة قدمي التي كادت تكلفني حياتي، من قطعة الآجر في غير مكانها وما عثرت عليه في تجويفها، إلى هروبي الذكي.

عندما أنهيت الحديث، رأيته يخربش بعض الحروف بجانب إفادتي، بالرغم من أنني لم أستطع معرفة ماهيتها. أغلق دفتر ملاحظاته بسرعة.

قال: "شكراً يا فلافيا. لقد كنت خير عون لنا".

حسناً، على الأقل كان يتمتع باللياقة ليعترف بذلك. وقفت هناك بترقب، أنتظر المزيد.

قال: "أخشى أن خزائن الملك جورج ليست ممتلئة لننقلك إلى المنزل مرتين خلال أربع وعشرين ساعة، لهذا سنراك في طريق عودتك".

سألت: "وهل يجب أن أعود مع شاي؟".

كان يقف هناك بثبات على العشب، وعَلَت عينيه نظرة قد تعني أي شيء. بعد دقيقة، كان إطارا غلاديز يدوران بسعادة على طول الإسفلت، وكنت أبتعد أكثر فأكثر عن المفتش هيوت، *وطبقته* كما كانت دافني ستقول.

قبل أن أقطع ربع ميل، لحقت بي الفوكسهول، ثم تجاوزتني. لوّحت مثل مجنونة عندما مرّت بي، لكن الوجوه التي حدّقت إليّ من نوافذها كانت متجهمة.

بعد مئة قدم إضافية، أُضيئت مصابيح المكابح، وتوقفت السيارة على حافة الطريق. عندما اقتربت منها، أنزل المفتش زجاج النافذة.

"سنقلك إلى المنزل. سيضع الرقيب غريفز دراجتك في صندوق السيارة".

سألت بغطرسة: "هل غيّر الملك جورج رأيه أيها المفتش؟".

مكتبة الرمحي أحمد

ظهرت نظرة على وجهه لم أرها من قبل. كدت أقسم إنها كانت انــــزعاجاً.

قال: "لا، الملك جورج لم يغير رأيه. *أنا* غيرت رأيي".

مكتبة الربيعي أحمد

تسعة عشر

بالرغم من أنني لا أود أن أعمل من الحبة قبة، إلا أنني لم أنعم بنوم هانــئ تلــك الليلة. حلمت بأبراج وأفاريز صخرية ينهمر عليها مطر عاصــف من المحيط يحمل رائحة البنفسج. كانت امرأة شاحبة ترتدي فــستاناً إليــزابيثياً تجلس بجانب سريري، وتهمس في أذني أن الأجراس ســتقرع. كان صياد عجوز يرتدي سترة مانعة لنفاذ الماء يجلس فوق كومة من الشباك التي يقوم بإصلاحها ويحمل في يده مخرزاً، وفي مكان بعيد فوق البحر كانت هناك طائرة صغيرة تحلّق نحو الشمس التي كانت على وشك الغروب.

عــندما اســتيقظت أخيراً، كانت الشمس على ارتفاع النافذة، وكــنت مصابة بزكام فظيع. قبل أن أنــزل إلى الأسفل لتناول طعام الإفطار، كنت قد استخدمت كل المناديل الورقية الموجودة في درجي، وتحولت لاستخدام منشفة حمّام ممتازة. لا حاجة إلى القول إنني لم أكن بمزاج طيب.

قالــت فيلــي عندما كنت أتلمس طريقي إلى الطرف البعيد من الطاولــة، أتنفّس بصوتٍ مسموع مثل غرامبس [دلفين]: "لا تقتربــي مني".

قلت وأنا أصنع بيدي رمز النصارى الديني: "موتي يا لاعبة الخفة".

"فلافيا!".

مكتبة الربيعي أحمد

بحـــثت عن حبوب إفطاري، وخلطتها بطرف قطعة خبز. بالرغم من قطع الخبز المحروقة فيه، إلا أن طعم الخليط المشبع بالماء كان لا يزال مثل الكرتون.

كانـــت هـــناك هـــزّة، قفزة في وعيي مثل فيلم سينمائي تتصل مشاهده على نحو سيئ. كنت قد استغرقت في النوم على الطاولة.

سمعت فيلي تسأل: "ما الخطب؟ هل أنتِ بخير؟".

قالـــت دافـــني: "إنهـــا تدخل حالة *سبات واهن، من إسرافها في الشراب أو انغماسها بالملذات في يوم سابق*".

كانـــت دافني تقرأ آنذاك من *بيلهام* [رواية] لبولر - ليتون [روائي إنكليـــزي]، عـــدّة صفحات كل ليلة قبل النوم، وحتى تنتهي منه، كنا على الأرجح سنسمع يومياً على الإفطار عبارات غامضة بأسلوب نثري جامد، لا مرونة فيه مثل قضيب نار غرفة الاستقبال.

هسترنال [كلمة لاتينية]، تذكرت أنها تعني *ما قبل الأمس*. كنت أفكّر في ما تبقّى من العبارة عندما قفزت فيلي فجأة من خلف الطاولة.

صرخت وهي تلف بسرعة رداء الحمام حولها مثل كفن ميت: "يا الله! من ذاك؟".

كـــان هناك ظل شخص يقف عند باب الحديقة، ينظر إلينا عبر يدين مضمومتين من خلف الزجاج.

قلت: "إنه ذلك الكاتب، رجل المنازل الريفية، بمبرتون".

أطلقت فيلي صوتاً قصيراً حاداً، واندفعت على الدرج إلى الأعلى حـــيث كـــنت أعـــرف أنها سترتدي كنـــزتها الزرقاء الضيقة، تضع مـــسحوقاً لإخفاء العيوب التي تظهر في الصباح، وتنـــزل على السلالم تتظاهر أنها شخص آخر، أوليفيا دي هافيلاند، مثلاً. كانت تفعل ذلك دائماً عندما يوجد رجل غريب في المنـــزل.

مكتبة الربيعي أحمد

رفعت دافني نظرها إلى الأعلى من دون اكتراث، ثم تابعت القراءة. كالعادة، كان الأمر منوطاً بي.

خرجت إلى المصطبة، وأغلقت الباب خلفي.

قال بمبرتون بابتسامة: "صباح الخير يا فلافيا. هل نمتِ جيداً؟".

هل نمت جيداً؟ ما هذا النوع من الأسئلة؟ كنت هناك على المصطبة، عيناي ذابلتان، شعري وكر جرذان، وأنفي يسيل مثل جدول يعيش فيه سلمون. بالإضافة إلى ذلك، ألم يكن السؤال عن النوم الهانئ خاصاً بأولئك الذين كانوا قد أمضوا ليلتهم تحت السقف نفسه؟ لم أكن واثقة من ذلك، ولهذا كنت سأدقق في *دليل بيتون الكامل لآداب التعامل الخاصة بالسيدات*. كانت فيلي قد منحتني نسخة في ذكرى ميلادي الماضي، لكنها كانت تدعم القائمة القصيرة لسريري.

قلت: "ليس بشكل جيد، لقد أصبت بزكام".

"آسف لسماع ذلك. كنت آمل أن أتمكن من لقاء والدك بشأن بكشو. لا أود أن أتطفل، لكن وقتي هنا ضيق. منذ الحرب، أصبحت تكلفة البقاء بعيداً عن المنزل، حتى في أكثر الفنادق تواضعاً مثل ثلاثة عشر علجوماً، كبيرة جداً. يجب على المرء ألا يشكو من الفقر، لكننا لا نزال نحن التلاميذ الفقراء نحيا أساساً على الخبز والجبن، كما تعرفين".

سألت: "هل تناولت الإفطار يا سيد بمبرتون؟ أنا واثقة أن السيدة موليت يمكن أن تقدم شيئاً لك".

قال: "ذلك لطف كبير منكِ يا فلافيا، لكن صاحب الخان ستوكر أقام وليمة حقيقية من قطعتي سجق وبيضة، وبتُّ أخشى على أزرار صدريتي".

لم أكن أعرف كيف أرد على ذلك، وكان الزكام يجعل مزاجي سيئاً للغاية ولهذا لم أسأل.

مكتبة الربيعي أحمد

قلت: "ربما يمكنني الإجابة عن أسئلتك. إن والدي مشغول -".

نعم، هذا ما كان! يا لك من ثعلب صغير ماكر يا فلافيا!

"إن والدي مشغول في البلدة".

"آه، لا أظن أنها أمور قد تهمك كثيراً، بضعة أسئلة معقّدة عن نظام تصريف المياه، *وقوانين الضميمة* [أقرها البرلمان الإنكليزي بين عامي 1760 و1830]، ذلك النوع من الأشياء. كنت آمل وضع ملحق عن التغييرات المعمارية التي أدخلها أنطوني ووليام دي لوس في القرن التاسع عشر. *منزل منقسم* [خطاب ألقاه إبراهام لينكولن في 16 حزيران عام 1858] وكل تلك الأشياء".

قلت من دون تفكير: "كنت قد سمعت عن ملحق تتم إزالته، لكن هذه أول مرة أسمع فيها عن واحد تتم إضافته".

حتى وأنفي يسيل كان لا يزال بمقدوري التأثير في أفضلهم. أفسد عطاس رطب قوي ذلك التأثير.

"ربما بمقدوري الدخول وإلقاء نظرة سريعة في الأرجاء، وتسجيل بضع ملاحظات. لن أزعج أحداً".

كنت أحاول التفكير في مرادفات *لا* عندما سمعت هدير محرك، وظهر دوغر، خلف مقود جرارنا القديم، بين الأشجار في نهاية الطريق، ينقل كمية من السماد العضوي إلى الحديقة. استدار السيد بمبرتون، الذي لاحظ على الفور أنني أحدّق من فوق كتفه، ليرى ما كنت أنظر إليه. عندما شاهد دوغر قادماً نحونا، لوّح بيده بلطف.

"ذلك دوغر العجوز، أليس كذلك؟ خادم العائلة المخلص؟".

كان دوغر قد ضغط على المكابح، ونظر حوله ليرى الشخص الذي لوّح له بمبرتون. عندما لم يرَ أحداً، رفع قبعته كما لو أنه يحيي أحداً، ثم حكّ رأسه. نزل من خلف المقود، ومشى متثاقلاً فوق المرج نحونا.

مكتبة الربيعي أحمد

قال بمبرتون وهو ينظر إلى ساعة معصمه: "أرى يا فلافيا أنه لم يعد لدي وقت. وعدت بلقاء ناشري في نيذر إيتون لإلقاء نظرة على ضريح. إنه يعرف الكثير عن المدافن، كوارنغتون العجوز ذاك، لهذا من الأفضل ألا أدعه ينتظر. إذا فعلت ذلك، لن تكون *مدافن وزخرفة بمبرتون* أكثر من حلم في ذهن مؤلفه".

وضع حقيبته على كتفه بحركة مفاجئة، ونزل على الدرجات، وتوقف عند زاوية المنزل ليغمض عينيه، ويسحب ملء رئتيه شهيقاً عميقاً منعشاً من هواء الصباح.

قال: "تحياتي للعقيد دي لوس". ثم غادر.

صعد دوغر الدرجات متثاقلاً كما لو أنه لم ينم. سأل وهو يرفع قبعته، ويمسح جبينه بردنه: "زوّار يا آنسة فلافيا؟".

قلت: "السيد بمبرتون. إنه يؤلف كتاباً عن المنازل الريفية أو المدافن أو شيء من هذا القبيل. كان يريد أن يقابل والدي بشأن بكشو".

قال دوغر: "لا أظن أنني قد سمعت باسمه. لكنني لا أقرأ كثيراً. مع ذلك يا آنسة فلافيا...".

كنت أعرف أنه سيُسمعني محاضرة أخلاقية، تكتمل بحكايات وأمثلة رهيبة، عن التكلم إلى غرباء، لكنه لم يفعل. بدلاً من ذلك، مسّ طرف قبعته بسبابته، ووقف كلانا هناك نحدّق إلى المرج مثل زوجٍ من الأبقار. رسالة تخرج، رسالة تأتي. دوغر العجوز العزيز. كانت تلك طريقته في التعليم.

كان دوغر، مثلاً، الذي علّمني فتح الأقفال عندما عثرت عليه في أحد الأيام يعبث بباب الدفيئة. كان قد أضاع المفتاح خلال إحدى *حالاته الخاصة*، وفي أثناء انشغاله بالعمل بطرف شوكة مطبخ معقوفة كان قد عثر على المفتاح في إناء للورود.

مكتبة الرمحي أحمد

كانت يداه تهتزان كثيراً. كلما كان دوغر على تلك الحال، ينتاب المــرء شعور أنه إذا رفع إصبعاً ومسّه، سيُصاب بصدمة كهربائية على الفــور. لكن بالرغم من ذلك، كنت قد عرضت المساعدة، وبعد بضع دقائق كان يعلّمني طريقة القيام بذلك.

ســيقول بعــد محاولتي الثالثة: "الأمر سهل جداً يا آنسة فلافيا. احفظــي في ذهــنك ثلاث كلمات؛ عزم، شد، وتماسك. تخيلي أنك تعيشين داخل القفل. استمعي إلى أطراف أصابعك".

ســألت سعيدة عندما طقطق القفل مفتوحاً: "أين تعلمت القيام بهذا؟". كان الأمر في غاية السهولة حالما تتعلم الطريقة.

كــان دوغــر قــد قــال وهــو يدخل الدفيئة، ويتظاهر أنه مــشغول للغاية حتى لا أطرح عليه أسئلة أخرى: "في مكان وزمان بعيدين".

بالــرغم من أن ضوء الشمس كان يدخل قوياً من نوافذ مختبري، إلا أن تفكــيري كــان مشوشاً. كان ذهني مشغولاً بالأمور التي كان والــدي قد أخبرني إيّاها، وما كنت قد اكتشفته بنفسي، موت السيد تويننغ وهوراس بونبي.

ما معنى القبعة والعباءة اللتين كنت قد وجدتهما مخبأتين بين قطع الآجر في دار الطلاب؟ لمن كانتا، ولماذا تم تركهما هناك؟

كانت إفادة والدي، والكلام على صفحات *ذا هنلي كرونيكل*، قــد أشارا إلى أن السيد تويننغ كان يرتدي عباءته عندما لقي حتفه. لم يكن يبدو محتملاً أن يكون كلاهما غير مصيبين.

ثم، أيضاً، كانت هناك سرقة منتقم *الستر* الخاص بجلالته وتوأمه، الذي كان يعود إلى د. كيسنغ.

مكتبة الرمحي أحمد

أين د. كيسنغ الآن؟ تساءلت. هل تعرف الآنسة مونتجوي؟ كان يبدو أنها تعرف كل شيء آخر. هل لا يزال على قيد الحياة؟ بطريقة ما، كان ذلك يبدو موضع شك. كانت قد مرّت ثلاثون سنة منذ ظنّ أنه يرى طابعه الثمين يحترق.

لكن ذهني كان مشوشاً، عقلي يتخبّط، ولم يكن بمقدوري التفكير بوضوح. كانت جيوبي الأنفية مسدودة، عيناي تدمعان، وشعرت أنني سأصاب بصداع مؤلم. كنت بحاجة إلى تصفية ذهني.

كان ذلك خطأي، لم يكن يجب أن أسمح أن تبرد قدماي أبداً. كانت موليت مولعة بقول *حافظي على دفء قدميكِ وبرودة رأسكِ، ولن تجدي نفسك تعطسين في السرير أبدًا*. إذا أصيب المرء بزكام، ليس هناك سوى شيء واحد يفعله، لهذا نزلت إلى المطبخ متثاقلة حيث وجدت السيدة موليت تصنع معجنات.

قالت من دون أن ترفع رأسها عن شوبك [مدلك] العجن: "أنتِ تعطسين يا عزيزتي. سأحضّر لك كوباً دافئاً من حساء الدجاج". كانت تلك المرأة تتمتع ببصيرة حادة بشكل يدفع للجنون.

مع كلمتي *حساء الدجاج*، أصبح صوتها همساً تقريباً، وأطلقت نحوي نظرة تآمرية من فوق كتفها.

قالت: "حساء دجاج ساخن. إنه سر أطلعتني عليه السيدة جاكوبسن عندما كنا نتناول الشاي في معهد المرأة. كان متوارثاً في عائلتها منذ النزوح الكبير. انتبهي، أنا لم أقل شيئاً".

كانت حكمة السيدة موليت القروية المفضّلة الأخرى على علاقة بالأوكالبتوس [شجر ضخم دائم الخضرة]. أرغمت دوغر على زراعتها في الدفيئة، وكانت تخفي باجتهاد أغصاناً صغيرة منها هنا وهناك حول بكشو لتكون تميمات ضد الزكام والأنفلونزا.

مكتبة الرمحي أحمد

كانت تصيح بابتهاج: "أوكالبتوس في غرفة الجلوس، ولن تصابي بأنفلونزا أو زكام". وكان ذلك صحيحاً. منذ أخذت توزّع الأوراق الخضراء الداكنة في أماكن غير متوقعة حول المنزل، لم يكن أي منا قد عانى من الزكام.

حتى ذلك الوقت. كان واضحاً أن شيئاً سار على غير ما يرام.

قلت: "لا، شكراً يا سيدة موليت. لقد نظّفت أسناني للتو".

كانت تلك كذبة، لكنها أفضل ما استطعت الخروج به في ذلك الوقت. إلى جانب وجود نفحة من الشهادة فيه، كان في ردّي ميزة إضافية تتجلى في تلميع صورتي في ما يتعلق بالنظافة الشخصية. في طريقي للخروج، أخذت خلسة من خزانة المطبخ قارورة من شراب أصفر عليه لصاقة كُتب عليها، *مركّز دجاج بارنغتون*، ومن رفّ جداري في غرفة الجلوس تناولت حفنة من أوراق الأوكالبتوس.

في المختبر في الطابق الأعلى، أنزلت قارورة من ثاني كربونات الصوديوم التي كان العم تار قد خطّ على لوحتها النحاسية ملح إيرتوس، إضافة إلى بيكرب، صود، بأسلوبه الدقيق المعتاد، لتمييزها عن ثاني كربونات البوتاسيوم، التي تدعى أحياناً ملح إيرتوس أيضاً. كان يتم استخدام بيكرب، بوت، منزلياً في مطافئ الحريق أكثر منها كمادة غذائية.

كنت أعرف المادة بتركيبها الذري $NaHCO_3$، التي يدعوها أهل الريف صودا الخبز. بطريقة ما تذكرت أنني سمعت أن الريفيين أنفسهم يعتقدون بقوة جرعة من الأملاح القلوية في معالجة أصعب حالات الزكام المعروفة.

كان ذلك يبدو منطقياً من وجهة نظر كيميائية، كما استنتجت؛ إذا كانت الأملاح علاجاً، وحساء الدجاج علاجاً، فكّري في قوة

مكتبة الربيعي أحمد

المداواة الرائعة لكأس من حساء الدجاج الفوّار! إنه يصفّي الذهن. كنت سأحصل على براءة اختراع عن ذلك الشيء، وسيكون أول ترياق في العالم ضد الزكام المعروف، *محلول دي لوس، صيغة فلافيا الخاصة!*

استطعت حتى أن أدندن بسعادة نوعاً ما عندما كنت أقوم بكيل ثماني أواقٍ من ماء الشرب في كوب صيدلاني، وأضعه فوق النار ليسخن الماء. في أثناء ذلك، في قارورة مغلقة سخّنت حتى الغليان قطعاً من أوراق الأوكالبتوس، وراقبت العملية بينما كانت نقاط من الزيت بلون القش تبدأ بالتشكّل عند طرف سلك التقطير.

عندما وصل الماء إلى مرحلة الغليان، أبعدته عن النار، وتركته يبرد لبضع دقائق، ثم وضعت فيه ملء ملعقتين صغيرتين من *مركّز دجاج بارنغتون*، وملء ملعقة كبيرة من $NaHCO_3$.

خلطت المزيج جيداً، وتركت رغوته تفور مثل بركان فيزوف فوق حافة كوب الصيدلاني. أغلقت فتحتيَ أنفي بإبهامي وسبابتي، وتجرّعت نصف التركيبة جرعة واحدة.

فوّار دجاج! يا الله، احفظنا جميعاً نحن الكادحين في حقول الكيمياء التجريبية!

نزعت سدادة القارورة، وألقيت بماء الأوكالبتوس، الأوراق وكل شيء، في بقايا الحساء الأصفر. ثم، خلعت سترتي، ووضعتها فوق رأسي كقلنسوة، وتنشّقت بخار الأوكالبتوس بالدجاج، وفي مكان ما داخل التجاويف اللزجة في رأسي شعرت أن جيوبي الأنفية رفعت أيديها في الهواء واستسلمت. كنت أشعر أنني أفضل حالاً آنذاك.

كان هناك طرق عنيف على الباب، وكدت أقفز من جلدي. نادراً ما كان أحد يأتي إلى هذا الجزء من المنزل، وكانت نقرة على

مكتبة الربيعي أحمد

الـــباب أمراً غير متوقع مثل نغمة أورغن مفاجئة مفزعة في فيلم رعب عـــندما يُفتح باب على دهليز من الجثث. أرجعت الرتاج إلى الخلف، وكان دوغر واقفاً هناك، يعصر قبعته مثل إيرلندية تغسل ثياباً. لاحظت أنه كان في إحدى *حالاته الخاصة*.

مـــددت يدي، ومسست يديه اللتين سكنتا على الفور. كنت قد لاحظت - بالرغم من أنني لا أستفيد غالباً من تلك الحقيقة - أن هناك أوقاتـــاً يمكـــن للمسة أن تقول فيها أشياء لا تستطيع الكلمات التعبير عنها.

سألت وأنا أضم أصابعي معاً، وأضع كلتا يديّ فوق رأسي: "ما كلمة السر؟".

طـــيلة نحـــو خمـــس ثوانٍ ونصف كان دوغر يبدو مذهولاً، ثم اســـترخت عـــضلات فكه المتوترة ببطء وكاد يبتسم. مثل إنسان آلي شبك أصابعه وقلّد حركتي.

قـــال متلعـــثماً: "إنـــه على رأس لساني". ثم: "أتذكر الآن، إنه زرنيخ".

أجبت: "احرص على ألا تبتلعه. إنه سم".

بعـــرض اســـتثنائي لقـــوة إرادة عظيمة، أرغم دوغر نفسه على الابتسام. كان ذلك الأمر جديراً بالمتابعة.

قلت: "ادخل يا صديقي". وفتحت الباب على مصراعيه.

دخل دوغر ونظر حوله متعجباً، كما لو أنه وجد نفسه فجأة في مختبر خيميائي في سومر [الجزء الجنوبـــي من مملكة بابل] القديمة. كان قد مرّ وقت طويل منذ أن دخل هذا الجزء من المنـــزل آخر مرة، وبدا أنه قد نسي الغرفة.

قال بتردد: "الكثير من الزجاج".

مكتبة الربيعي أحمد

سحبت كرسي تار القديم من نوع وندسور من خلف الطاولة، وأمسكت به حتى وضع دوغر نفسه بين ذراعيه الخشبيتين.

"اجلس. سأحضّر لك شيئاً".

ملأت قارورة نظيفة بماء، ووضعتها فوق شبكة أسلاك. فزع دوغر من *الفرقعة* الصغيرة لمحراق بنسن عندما أشعلته.

قلت: "لن يتأخر. سيكون جاهزاً خلال لحظة".

الرائع في أواني المختبر الزجاجية أن الماء يغلي فيها بسرعة الضوء. وضعت ملء ملعقة من الأوراق السوداء في قارورة. عندما أصبح لونها أحمر داكناً أعطيتها لدوغر، الذي حدّق إليها مشككاً.

قلت: "كل شيء على ما يرام. إنه تيتلي".

ارتشف الشاي بحذر شديد، ونفخ على سطح الشراب لتبريده. بينما كان يشرب، تذكرت أن هناك سبباً لشغفنا نحن الإنكليز بالشاي أكثر من قصر بيكنغهام أو حكومة جلالته.

قال دوغر: "شكراً لك. أشعر أنني على ما يرام الآن. لكن هناك شيئاً يجب أن أقوله لك يا آنسة فلافيا".

جلست على حافة الطاولة، وحاولت أن أبدو ودودة.

قلت: "هاتِ ما عندك".

شرع دوغر بالقول: "حسناً، تعرفين أن هناك مناسبات أتعرض فيها أحياناً – يعني، بين الحين والآخر، أمرّ بأوقات أكون فيها –".

قلت: "بالطبع أعرف يا دوغر. ألا نعرف جميعنا؟".

"لا أعرف. لا أتذكر. كما تعرفين، طبيعة الشيء هي أنه، عندما أكون – ". زاغت عيناه مثل عينيّ بقرة في زريبة ذبح. "أظن أنني قد فعلت شيئاً لأحدهم. وقد جاؤوا واعتقلوا العقيد من أجل ذلك".

"هل تشير إلى هوراس بونبي؟".

مكتبة الربيعي أحمد

تحطمت الآنية الزجاجية عندما أوقع دوغر قارورة الشاي على الأرض. أتيت بقطعة قماش ولسبب ما أحمق ربتُّ على يديه، اللتين كانتا جافتين تماماً.

سأل وهو يمسك بمعصمي بقبضة فولاذية: "ماذا تعرفين عن هوراس بونبي؟". لو أنه لم يكن دوغر لكنت امتلأت رعباً.

قلت وأنا أحرّر يدي من بين أصابعه بلطف: "أعرف كل شيء عنه. بحثت عن كل ما يتعلق به في المكتبة. تكلمت مع الآنسة مونتجوي، وأخبرني والدي القصة كاملة مساء الأحد".

"هل رأيت العقيد دي لوس مساء الأحد؟ في هنلي؟".

قلت: "نعم. ذهبت على دراجتي إلى هناك. أخبرتك أنه بخير. ألا تتذكر؟".

قال دوغر وهو يهزّ رأسه: "لا. أحياناً لا أتذكر".

هل هذا ممكن؟ هل يمكن أن يكون دوغر قد قابل هوراس بونبي في مكان ما داخل المنزل، أو في الحديقة، ثم تعارك معه وتسبب في موته؟ هل كان ذلك حادثاً؟ أم أن وراء الأكمّة ما وراءها؟

قلت: "أخبرني ما حدث. أخبرني كل ما يمكنك أن تتذكره".

قال دوغر: "كنت نائماً. سمعت أصواتاً، أصواتاً عالية. نهضت، وذهبت إلى مكتب العقيد. كان هناك شخص يقف في الردهة".

قلت: "كانت تلك أنا التي تقف في الردهة".

قال دوغر: "كانت تلك أنتِ تقفين في الردهة".

"نعم، طلبت مني أن أبتعد عن ذلك المكان".

"أنا فعلت ذلك". بدا دوغر مصدوماً.

"نعم، طلبت مني أن أعود إلى السرير".

مكتبة الرمحي أحمد

قال دوغر فجأة: "خرج رجل من المكتب. تواريت عن الأنظار بجانب الساعة، ومشى حتى تجاوزني. كان بمقدوري أن أمدّ يدي وأمسّه".

كان واضحاً أنه قد قفز إلى وقت بعد عودتي إلى السرير.

"لكنك لم تفعل؛ أعني تمسّه".

"ليس عندها، لا. تبعته إلى الحديقة. لم يرَني. بقيت بجانب الجدار خلف الدفيئة. كان يقف على قطعة الأرض المزروعة بالخيار... يأكل شيئاً... منفعلاً... يتكلم مع نفسه... بلغة مبهمة... لم يلاحظ أنه أصبح خارج الطريق. ثم كانت هناك ألعاب نارية".

سألت: "ألعاب نارية؟".

"كما تعرفين، كانت هناك ألعاب دوّارة، أسهم نارية، وكل تلك الأشياء. ظننت أن هناك مهرجاناً في القرية. إنه حزيران، كما تعرفين. إنهم ينظمون غالباً مهرجاناً في حزيران".

لم يكن هناك مهرجان، وكنت واثقة من ذلك. كنت أفضّل أن أخوض في ماء الأمازون كله بحذاء تنس مخرّم على أن أفوّت فرصة رشق جوز الهند في لعبة العمة سالي، وآكل حتى التخمة كعكاً وفريزاً بالقشدة. لا، كنت أعرف حق المعرفة مواعيد المهرجانات.

سألت: "ثم ماذا حدث؟". كنا سنتحدث عن التفاصيل لاحقاً.

قال دوغر: "لا بد أنني استغرقت في النوم. عندما استيقظت كنت أستلقي على الأعشاب. كنت مبللاً. نهضت وذهبت إلى السرير. لم أشعر أنني على ما يرام. لا بد أنني كنت أتعرض لإحدى تلك الحالات السيئة. لا أتذكر".

"وتظن أنك، خلال تلك الحالة السيئة، قد تكون قتلت هوراس بونبي؟".

مكتبة الربيعي أحمد

أومأ دوغر بكآبة. مسّ الجزء الخلفي من رأسه.

سأل: "من أيضاً *كان* هناك؟".

من أيضاً كان هناك؟ أين كنت قد سمعت ذلك من قبل؟ بالطبع! ألم يستخدم المفتش هيوت تلك الكلمات بالذات عن والدي؟

قلت: "أحنِ رأسك يا دوغر".

"آسف يا آنسة فلافيا. إذا كنت قد قتلت شخصاً فإنني لم أكن أقصد ذلك".

"احنِ رأسك إلى الأسفل".

استرخى دوغر في المقعد، وانحنى إلى الأمام. فزع عندما رفعت ياقته.

على رقبته، تحت وخلف أذنه، كانت هناك كدمة زرقاء كبيرة وبشعة، بحجم وشكل كعب حذاء. فزع عندما مسستها.

أطلقت صفيراً خافتاً.

قلت: "ألعاب نارية يا عيني. لم تكن هناك ألعاب نارية يا دوغر. لقد تعرضت لإصابة قاسية. وقد كنت تمشي مع هذه الكدمة على عنقك طيلة يومين؟ لا بد أنها تؤلمك كثيراً".

"إنها كذلك يا آنسة فلافيا، لكنني كنت قد تعرضت لأسوأ منها".

لا بد أنني قد نظرت إليه غير مصدقة.

أضاف: "ألقيت نظرة على عينيّ في المرآة. البؤبؤان بالحجم نفسه، إنه ارتجاج خفيف، لكنه ليس سيئاً جداً. سأتعافى منه قريباً".

كنت على وشك أن أسأله من أين له تلك المعرفة عندما أضاف بسرعة: "لكن ذلك مجرد شيء قرأت عنه في مكان ما".

فكّرت فجأة في سؤال أكثر أهمية.

مكتبة الرمحي أحمد

"دوغر، أنّى لك أن تقتل شخصاً إذا كنت فاقد الوعي؟".

وقف هناك، يبدو مثل فتى صغير ينتظر أن يتم ضربه بعصا من الخيزران. كان يفتح ويغلق فمه، لكن لا شيء يخرج منه.

قلت: "لقد تعرضت لهجوم! ضربك أحدهم بحذاء!".

قال بحزن: "لا، لا أظن ذلك يا آنسة. كما تعرفين، ما عدا هوراس بونبي، كنت لوحدي في الحديقة".

مكتبة الرمحي أحمد

مكتبة الرمحي أحمد

عشرون

كـــنت قد أمضيت ثلاثة أرباع الساعة في محاولة إقناع دوغر أن يـــسمح لي بوضع صُرّة ثلج على الجزء الخلفي من عنقه، لكن عبثاً من دون جـــدوى. كانت الراحة، كما أكّد لي، هي الشيء الوحيد الذي يفيده، ثم انطلق إلى غرفته.

مـــن نافـــذتي، كان بمقدوري رؤية فيلي تتمدد على بطانية على المرج الجنوبـــي تحاول عكس أشعة الشمس عن كلا جانبـــي وجهها بنـــسختين مـــن بكـــشتر بوست [صورة واحدة: مجلة تصوير صحفي نُـــشرت في بريطانيا بين عامي 1937-1957]. جلبت منظاراً عسكرياً قـــديماً كان لوالدي، وألقيت نظرة قريبة على بشرتها. عندما أصبحت لديّ صورة واضحة فتحت دفتر ملاحظاتي وكتبت:

الثلاثاء، السادس من حزيران 1950، 9:15 صباحاً، لا يزال المظهر طبيعياً. 96 ساعة على تطبيق العملية. التأثير بطيء للغاية؟ مناعة الشخص؟ المعرفة الشائعة أن إسكيمو جزيرة بافن لديهم مناعة ضد اللبلاب السام. هل يعني هذا أنني أظن أن ذلك ممكن؟

لكـــن مزاجي لم يكن مناسباً لذلك. كان صعباً أن أراقب فيلي بيـــنما والـــدي ودوغـــر يشغلان ذهني. كنت بحاجة إلى استجماع أفكاري.

قلبت صفحة جديدة وكتبت:

مكتبة الرمحي أحمد

والدي: أفضل دافع على الإطلاق. كان قد عرف الرجل الميت معظم حياته، تلقى تهديدات بفضحه، سُمع يتشاجر مع الضحية قبل وقت قصير من وقوع الجريمة. لا أحد يعرف مكان وجوده وقت وقوع الجريمة. كان المفتش هيوت قد اعتقله واتهمه بالقتل، ونعرف بالتالي حول من تحوم شبهات المفتش!

دوغر: حصان أسود نوعاً ما. لا نعرف الكثير عن ماضيه، لكننا نعرف أنه مخلص جداً لوالدي. سمع صدفة مشاجرة والدي مع بونيني (لكن أنا سمعت ذلك أيضاً)، وقد يكون قرر القضاء على تهديد الفضيحة. قد يكون دوغر مرّ بحالة خاصة خلال وبعد قيامه بذلك، والتي أثرت بالتالي في ذاكرته. هل يعقل أن يكون قد قتل بونيني خلال واحدة من تلك الحالات الخاصة؟ هل كان ذلك حادثاً؟ لكن إذا كان الأمر كذلك، من ضرب دوغر على رأسه؟

السيدة موليت: لا يوجد دافع، سوى الثأر من شخص ترك ثعلباً ميتاً على عتبة باب مطبخها. طاعنة في السن.

دافني دي لوس وأوفيليا غيرترود دي لوس: (سرك مفضوح يا غيرت!). لا تجعليني أضحك! هاتان الفتاتان الغارقتان في الكتب والعناية بالمظهر لن تقتلا صرصاراً على طبقي عشائهما. لا تعرفان الفقيد، ليس لديهما دافع، وكانتا تشخران فاتحتين فميهما عندما لقي بونيني منيته. القضية منتهية في ما يخص هاتين الغبيتين.

ماري ستوكر: الدافع: حاول بونيني استمالتها بشكل غير مناسب في ثلاثة عشر علجوماً. هل يمكن أن تكون قد لحقت به إلى بكشو، وأجهزت عليه في قطعة الأرض المزروعة بالخيار؟ يبدو أمراً مستبعداً.

تولي ستوكر: كان بونيني نزيلاً في ثلاثة عشر علجوماً. هل سمع تولي ما حدث مع ماري؟ وقرّر أن يأخذ بالثأر؟ أم أنه يعتبر النزيل أكثر أهمية من شرف ابنته؟

نيد كروبر: نيد مهتم بماري (إضافة إلى أخريات). عرف ما حدث بين ماري وبونيني. ربما يكون قرّر القضاء عليه. دافع جيد، لكن، لا دليل على أنه كان في بكشو تلك الليلة. هل يُعقل أن يكون قد قتل بونيني في مكان آخر ونقله إلى هنا في عربة يد؟ لكن كان بمقدور تولي، أو ماري القيام بذلك.

مكتبة الرمحي أحمد

الآنسة مونتجوي: دافع ممتاز: تظن أن بونيني (وو الدي) قتلا خالها، السيد تويننغ. المشكلة في العمر: لا يمكن تخيل مونتجوي تتعارك مع شخص بطول وقوة بونيني. إلا إذا استخدمت نوعاً من السموم.

سؤال: ما كان السبب الرئيس للوفاة؟ هل سيخبرني المفتش هيوت بذلك؟

المفتش هيوت: ضابط شرطة. لا بد من وضع اسمه على اللائحة فقط لتكون عادلة، مكتملة، وموضوعية. لم يكن في بكشو وقت وقوع الجريمة، وليس لديه دافع معروف. (لكن هل درس في غريمنستر؟).

الرقيبان المحققان ولمار وغريفز: الأمر نفسه.

فرانك بمبرتون: لم يصل إلى بيشوب لاسي إلا بعد وقوع الجريمة.

ماكسيمليان بروك: معتوه، طاعن في السن، لا يوجد دافع.

قــرأت اللائحة ثلاث مرات، على أمل ألا يفوتني شيء منها. ثم رأيته، توصلت إلى شيء جعل الأفكار تتوارد في ذهني. ألم يكن هوراس بونيني مصاباً بالسكري؟ كنت قد عثرت على قوارير الأنسولين الخاصة بـــه في حقيبـــته في ثلاثـــة عشر علجوماً، وكانت المحقنة مفقودة. هل أضاعها؟ هل سُرقت؟

كـــان قـــد سافر، على الأغلب على متن عبّارة، من ستافانغر في النــرويج إلى نيوكاســـل، ومن هناك بالقطار إلى يورك، حيث استقل قطـــاراً آخر إلى دودنغسلي. من دودنغسلي لا بد أنه استقل حافلة أو سيارة أجرة إلى بيشوب لاسي.

ووفقاً لما كنت أعرفه، طيلة ذلك الوقت، لم يتناول أي طعام! كانت قطعـــة الفطيرة في غرفته (كما هو واضح من الريشة فيها) والتي أخفى فيها الشُنقب الميت لتهريبه إلى إنكلترا. ألم يخبر تولي ستوكر المفتش أن نـــزيله تناول شراباً في المشرب؟ نعم، لكن لم يأتِ أحد على ذكر أي طعام!

ماذا إن كان، بعد مجيئه إلى بكشو وتهديده والدي، قد خرج من المنـــــزل عبر المطبخ – وهو ما فعله بالتأكيد – ورأى فطيرة الكسترد

مكتبة الرمحي أحمد

علـــى عتبة النافذة؟ ماذا إن حصل لنفسه على قطعة، ابتلعها، خرج من المطـــبخ، ودخل مرحلة صدمة؟ كان، لفطائر كسترد السيدة موليت، ذلك التأثير فينا جميعاً في بكشو، ولم يكن أي منا مصاباً بالسكري!

ماذا إن كانت فطيرة السيدة موليت هي السبب بالمحصلة؟ ليست أكثر من حادثة سخيفة؟ ماذا إن كان الجميع على لائحتيَ أبرياء؟ ماذا إن لم يلقَ هوراس بونبي حتفه بجريمة قتل؟

لكـــن إذا كان ذلك صحيحاً يا فلافيا، كما قال صوت خافت وحزين داخلي، لماذا اعتقل المفتش هيوت والدي ووجه اتهامات إليه؟

بالـــرغم مـــن أن أنفـــي كان لا يزال يسيل وأن عينيّ لا تزالان تـــدمعان، إلا أنـــي شـــعرت أن حساء الدجاج الذي حضّرته قد بدأ يُحدث تأثيراً. قرأت مجدداً لائحة المشتبه بهم، وفكّرت حتى ضج رأسي ألماً.

لم أكـــن أصل إلى أي نتيجة. قررت أخيراً الخروج من المنـــزل، الجلوس على الأعشاب، استنشاق بعض الهواء المنعش، وتحويل ذهني إلى شيء مختلف تماماً، كنت سأفكّر في أوكسيد النيتروجين، مثلاً، N2O، أو غاز الضحك، شيء كان بكشو والقاطنين فيه بأمسّ الحاجة إليه.

كـــان يـــبدو أن اجـــتماع غاز الضحك وجريمة قتل أمر غريب بالفعل، لكن هل كان الأمر كذلك؟

فكّـــرت في بطلتي، ماري - آن بول لافوازييّه، إحدى عمالقة الكيمـــياء، التي كانت صورها، إلى جانب خالدين آخرين، معلقة علـــى المـــرآة في غـــرفة نومي، شعرها مثل منطاد هواء - ساخن، وزوجهـــا ينظر إليها بإعجاب، غير مكترث على ما يبدو لتسريحة شـــعرها الـــسخيفة. كانت ماري امرأة تعرف أن الحزن والسذاجة يترافقان في أغلب الأحيان معاً. تذكرت أنه خلال الثورة الفرنسية،

مكتبة الرمحي أحمد

في مختبر زوجها أنطوان - بعد انتهائهما من سد كل فتحات جسد مـــساعدهما بالقار وشمع العسل، ولفّه بقماش حريري لامع، وجعله يتـــنفس عـــبر قـــشّة من أدوات قياس لافوازييّه - في تلك اللحظة بالذات، عندما كانت ماري - آن تقف بجانب مخططات الإجراءات المتّبعة، خلعت السلطات الباب، اقتحمت الغرفة، وسحبت زوجها إلى المقصلة.

كنت قد سردت مرة هذه القصة الكئيبة الرهيبة لفيلي.

قالـــت بـــتأفف وعجرفة: "تظهر الحاجة إلى بطلات عادة عند الأشخاص الذين يعيشون في أكواخ".

لكن ذلك لم ينته. كانت أفكاري ضائعة تماماً، مثل قشة في كومة تبن. كنت بحاجة إلى العثور على مادة محفّزة من نوع تلك التي وجدها كيرشـــوف. كـــان قد اكتشف أن النشاء الذي يتم غليه في الماء يبقى نشاء، لكن عند إضافة بضع قطرات فقط من حمض الكبريتيك، يتحول النـــشاء إلى سكر عنب. كنت قد أجريت مرة التجربة لأتأكد بنفسي من النتيجة، وكان ذلك حقيقياً.

عدت إلى المنـــزل، الذي كان يلفه آنذاك صمت غريب. توقفت عـــند باب غرفة الاستقبال وأصغيت السمع، لكن لم يكن هناك صوت يـــشير إلى أن فيلـــي تعزف على البيانو، أو أن دافني تقلّب صفحات كتبها. فتحت الباب.

كانت الغرفة خاوية. ثم تذكرت أن شقيقتيّ كانتا قد تحدّثتا على الإفطار عن المشي إلى بيشوب لاسي، لتبعثا لوالدي عبر البريد الرسائل التي كانت كل منهما قد كتبتها له. ما عدا السيدة موليت التي كانت مـــتوارية عن الأنظار في المطبخ، ودوغر الذي كان في الأعلى يرتاح، كنت، ربما لأول مرة في حياتي، وحيدة في قاعات بكشو.

مكتبة الرمحي أحمد

شغّلت المذياع لأحظى ببعض الصحبة، وامتلأت الغرفة بأصوات أوبريت [أوبرا قصيرة]. كانت *ميكادو* لغيلبرت وسوليفان، أحد الأعمال المفضّلة لدي. ألن يكون جميلاً، كما كنت قد فكّرت مرة، أن أشعر وفيلي، ودافني بالسعادة وراحة البال مثل يم - يم وشقيقتيها؟

"نحن ثلاث خادمات صغيرات من مدرسة،
يمكن أن نكون رشيقات مثل تلميذة،
نمتلئ حتى الثمالة مرحاً طفولياً،
ثلاث خادمات صغيرات من مدرسة!".

ابتسمت عندما غنت ثلاثتهن:

"كل شيء مصدر للمتعة،
لا أحد بأمان، لأننا لا نهتم بأحد،
الحياة دعابة قد بدأت للتو!
ثلاث خادمات صغيرات من مدرسة!".

منتشية بالموسيقى، رميت نفسي على كرسي قريب، وتركت قدميّ تتدليان من فوق الذراعين، وهي الوضعية التي كانت الطبيعة قد أعدّتها للاستماع إلى الموسيقى، ولأول مرة منذ أيام شعرت بعضلات عنقي تسترخي.

لا بد أنني غفوت قليلاً، أو ربما استغرقت في حلم يقظة - لا أعرف - لكن عندما صحوت، سمعت كو - كو [تسجيل موسيقي لتشارلي باركر عام 1945]، وجلاد الملك يغني:

"مصيره أن يقبع
في زنزانة سجن -".

جعلتني الكلمات أفكر على الفور في والدي، وفاضت الدموع من عينيّ. لم تكن تلك أوبريت، كما فكّرت، لم تكن الحياة دعابة قد بدأت للتو، ولم أكن أنا وفيلي ودافني ثلاث خادمات صغيرات من

مكتبة الربيعي أحمد

مدرسة. كنا ثلاث فتيات تم اتهام والدهن بجريمة قتل. قفزت عن الكرسي لأغلق المذياع، لكن عندما مددت يدي نحو المفتاح، خرج صوت الجلاد كئيباً من المذياع:

"هدفي مهيب
سأحققه في الوقت المحدد،
لجعل العقاب يناسب الجريمة،
العقاب يناسب الجريمة...".

لجعل العقاب يناسب الجريمة. بالطبع! فلافيا، فلافيا، فلافيا! كيف لم تلاحظي ذلك من قبل؟

مثل كرة فولاذية تسقط على آنية زجاجية، شيء في ذهني *طقطق*، وعرفت كما كنت أعرف اسمي كيف لقي هوراس بونبي حتفه.

كنت بحاجة إلى شيء واحد فقط (حسناً، إلى شيئين في الواقع، أو ثلاثة على الأكثر) لتغليف القضية كلها مثل علبة من حلويات الميلاد وتقديمها، يزينها شريط أحمر، للمفتش هيوت. حالما يسمع قصتي، سيُخرج والدي من السجن قبل أن تقول جاك روبنسون [في طرفة عين].

كانت السيد موليت لا تزال في المطبخ تمسك دجاجة بيديها.

قلت: "سيدة ميم، هل يمكنني التحدث إليك بصراحة؟".

نظرت إلي ومسحت يديها بمئزرها.

قالت: "بالطبع يا عزيزتي. ألا نفعل ذلك دائماً؟".

"إنه بشأن دوغر".

تجمّدت الابتسامة على وجهها، أدارت ظهرها لي، وأمسكت بخيط قنّب لتكتّف به الدجاجة قبل طهوها.

مكتبة الرمحي أحمد

قالت بحدّة: "لم يعودوا يصنعون أشياء كما اعتادوا من قبل. ولا حتى الخيط. لماذا؟! في الأسبوع الماضي فحسب قلت لآلف، *قلت: ذلك الخيط الذي جلبته إلى المنزل من المكتبة* -".

التمست: "أرجوكِ يا سيدة موليت. هناك شيء يجب أن أعرفه. إنها مسألة حياة أو موت! أرجوك!".

نظرت إلي من فوق نظارتها مثل وكيل دار العبادة، ولأول مرة على الإطلاق أمامها، شعرت أنني فتاة صغيرة.

"قلتِ مرة إن دوغر كان في السجن، وأنه اضطر إلى تناول جرذان، وتعرض للتعذيب".

قالت: "هذا صحيح يا عزيزتي. يقول زوجي آلف إنه كان من واجبي ألا أذيع ذلك. لكن يجب ألا نتكلم عن الأمر أبداً. أعصاب دوغر المسكين منهكة".

"كيف تعرفين ذلك؟ أعني بشأن السجن؟".

"كان زوجي آلف في الجيش أيضاً، كما تعرفين. خدم لبعض الوقت مع العقيد، ومع دوغر. إنه لا يتكلم عن الأمر. معظمهم لا يتكلمون عن خدمتهم. عاد زوجي آلف إلى المنزل سالماً لم يتعرض لأذى ما عدا بعض الأحلام المزعجة التي تراوده، لكن لم يكن كثير منهم محظوظين بذلك الشكل. إنه مثل أخوية، كما تعرفين، الجيش، كما لو أن رجلاً واحداً مدّ طبقة رقيقة من المربّى على سطح الكرة الأرضية كله. إنهم يعرفون دائماً أماكن وجود زملائهم القدامى وما يحدث لهم. هذا غريب، خارق للطبيعة".

سألت بصراحة: "هل قتل دوغر أحداً؟".

"أنا واثقة أنه فعل ذلك يا عزيزتي. جميعهم فعلوا ذلك. كان ذلك عملهم، أليس كذلك؟".

مكتبة الربيعي أحمد

"إضافة إلى العدو".

قالت: "أنقذ دوغر حياة والدك. بأكثر من طريقة. كان ممرضاً، أو شيئاً من هذا القبيل، وبارعاً. يقولون إنه أخرج رصاصة من صدر والدك، بجانب قلبه تماماً. عندما كان يخيط جرحه، فقد أحد ضباط سلاح الجو الملكي صوابه بعد أن دخل حالة صدمة نتيجة إصابته بقذيفة. حاول ذبح كل من في الخيمة باستخدام سكين. أوقفه دوغر".

شدّت السيدة موليت العقدة الأخيرة بإحكام، واستخدمت مقصاً لتقطع نهاية الخيط.

"أوقفه؟".

"نعم يا عزيزتي، أوقفه".

"تعنيين أنه قتله".

"بعد ذلك، لا يستطيع دوغر أن يتذكر ما حدث. دخل في واحدة من تلك الحالات الخاصة، كما تعرفين، و –".

"ويظن والدي أن ذلك حدث مجدداً، وأن دوغر قد أنقذ حياته مجدداً بقتل هوراس بونبني! لهذا السبب يتحمل المسؤولية!".

"لا أعرف يا عزيزتي، وأنا واثقة من ذلك. لكن إذا فعل، سيكون ذلك من شيم العقيد".

لا بد أن الأمر كان على تلك الحال، ولم يكن هناك تفسير آخر. ماذا كان والدي قد قال عندما أخبرته أن دوغر، أيضاً، استرق السمع على شجاره مع بونبني؟ *هذا ما أخشاه أكثر من أي شيء آخر.* بكلماته تحديداً.

كان ذلك غريباً، حقاً – يكاد يكون مضحكاً – مثل شيء في أحد أعمال غيلبرت وسوليفان. كنت قد حاولت تحمّل مسؤولية ما جرى لحماية والدي. كان والدي يتحمل المسؤولية لحماية دوغر. كان

مكتبة الربيعي أحمد

السؤال هو التالي: من كان دوغر يحمي؟ قلت: "شكراً يا سيدة ميم. سأحافظ على ما دار بيننا بسرية. بسرية تامة".

قالت وهي تبتسم بتكلف وتنظر إليّ شزراً: "من فتاة إلى أخرى، مثلاً".

كان "من فتاة إلى أخرى" أكثر من اللازم، ودياً للغاية، أقل من المستوى المنشود. خرج شيء أقل من نبيل من أعماقي، وتحولت في طرفة عين إلى فلافيا *المنتقمة ذات الضفيرة*، التي كانت مهمتها رمي مفتاح ربط على آلة الفطائر المخيفة تلك التي لا يمكن إيقافها.

قلت: "نعم. من فتاة إلى أخرى. وبينما نتكلم من فتاة إلى أخرى، ربما يكون الوقت مناسباً لأخبرك أن أياً منا في بكشو لا يهتم أبداً بفطيرة الكسترد. في الواقع، نحن نكرهها".

قالت: "آه، أعرف ذلك جيداً".

"تعرفين؟". كنت مشدوهة ولم أستطع التفكير سوى في تلك الكلمة.

"بالطبع أعرف. يعرف الطهاة كل شيء، كما يقال، ولا أختلف في ذلك عن غيري. كنت أعرف أن آل دي لوس والكسترد لا ينسجمان منذ كانت الآنسة هاريت لا تزال على قيد الحياة".

"لكن -".

"لماذا أقوم بتحضيرها؟ لأن آلف يحب تناول قطعة فطيرة كسترد بين الحين والآخر. كانت الآنسة هاريت تقول لي: آل دي *لوس جميعاً يكرهون الرواند ويتحسسون من الكشمش يا سيدة موليت، بينما يحب زوجك آلف الكسترد الحلو. أود منك خبز فطيرة كسترد بين الفينة والأخرى لتذكيرنا بغطرستنا، وعندما تشمئز أنوفنا منها، يجب أن تأخذيها إلى المنزل إلى زوجك آلف كاعتذار لطيف*. ولا أمانع القول

مكتبة الربيعي أحمد

إنني أخذت إلى المنـــزل عدداً كبيراً من هدايا الاعتذار تلك، طيلة أكثر من عشرين سنة مضت".

قلت: "إذاً، لن تحتاجي إلى واحدة أخرى".

ثم غـــادرت، وخلّفت ورائي غباراً كثيفاً حتى لم يعد بمقدور أحد رؤيتي.

مكتبة الرمحي أحمد

الحادي والعشرون

توقفت في الردهة، ساكنة من دون حراك، وأصغيت السمع. بسبب أرضياته من الباركيه [قطع خشبية مزخرفة] وجدرانه من الخشب الصلد، كان بكشو ينقل الصوت كما لو أنه قاعة ألبرت الملكية. حتى في سكون تام، يتمتع بكشو بصمتٍ فريد خاص به؛ صمت يمكنني تمييزه فوراً.

بهدوء قدر المستطاع، رفعت سمّاعة الهاتف، وضغطت على الحامل بضع مرات بإصبعي. "أودّ إجراء مكالمة هاتفية إلى دودنغسلي. آسفة، لا أعرف الرقم، لكنه لخان هناك، *الثعلب الأحمر* أو *خاتم وقمع*. لقد نسيت اسمه، لكنني أظن أنه يضم حرفي *أل. إيتش*".

قال الصوت الممل، لكن الكفء، على الطرف الآخر من الخط الذي يخشخش: "لحظة واحدة من فضلك".

لن يكون ذلك صعباً جداً، كما فكرت. نظراً إلى أنه يقع قبالة رصيف السكك الحديدية، كان *أل. إيتش*، أو أياً كان اسمه، أقرب خان للمحطة و لم تكن دودنغسلي، في نهاية المطاف، مدينة كبيرة.

"الأشياء الوحيدة التي لدي هي *أعناب*، والحوذي *المرح*".

قلت: "ذلك هو، *الحوذي المرح*".

كان *أل. إيتش* قد خرج من أعماق ذهني.

مكتبة الربيعي أحمد

قال الصوت: "الرقم في دودنغسلي هو ثلاثة وعشرون، إذا أردت طلبه في المستقبل".

تمتمت: "شكراً". وبدأ الرنين على الطرف الآخر من الخط.

"دودنغسلي ثلاثة وعشرون. *الحوذي المرح*. من يطلبنا؟ أنا كليفر". كان كليفر، كما افترضت، المالك.

"نعم، أودّ أن أتكلم مع السيد بمبرتون من فضلك. إنه أمر مهم".

كنت قد تعلّمت أن أفضل طريقة للتغلب على أي عائق – مهما كان – هي ادّعاء وجود حالة طارئة.

قال كليفر: "ليس هنا".

قلت وأنا أحاول أن أجعل الأمر يبدو بالغ الأهمية: "آه، يا الله. لم ألحق به للأسف. هل يمكن أن تقول لي متى غادر؟ ربما يمكنني أن أتوقع وقت وصوله".

فلاف، كما فكّرت، يجب أن تكوني عضواً في البرلمان.

"غادر صباح الأحد. قبل ثلاثة أيام".

تنفست من فمي بصوت كنت آمل أن يخدع البابا: "آه، شكراً لك. أنت لطيف جداً".

أنهيت المكالمة وأعدت السمّاعة إلى حاملها بلطف كما لو أنها صوص فقس للتو.

سأل صوت خافت: "ماذا تظنين أنكِ تفعلين؟".

استدرت إلى الخلف، وكانت تلك فيلي، ووشاح شتوي يلتف حول الجزء السفلي من وجهها.

كرّرت: "ماذا تفعلين؟ تعرفين تماماً أنه يجدر بك عدم استخدام تلك الأداة".

مكتبة الرمحي أحمد

تفاديــت قــول ذلك وقلت: "ماذا تفعلين أنتِ؟ هل ستذهبين للتزلج؟".

حاولت فيلي الإمساك بــي، وسقط الوشاح ليكشف عن شفتين حمــراوين متورمــتين كانــتا صورة طبق الأصل عن مؤخرة قرد في الكاميرون.

أصــابتني دهــشة منعتني من الضحك. كان اللبلاب السام الذي كنت قد حقنته في أحمر شفاهها، قد جعل فمها مثل فوهة بركان ثائر ربمــا يمــت بصلة لجبل بوبوكاتبتل. كانت تجربتي قد نجحت في نهاية المطاف. أصوات أبواق عالية!

لــسوء الحظ، لم يكن لدي وقت لأوثّق ذلك، وكان على دفتر ملاحظاتي أن ينتظر.

كــان ماكــسيمليان، بجلسته المعهودة، يجثم على حافة حوض الحــصان الحجري الذي يقع بجانب تقاطع السوق، وقدماه الصغيرتان تتدلــيان في الهواء مثل همبتي دمبتي. كان صغيراً جداً حتى إنني لم أكد أراه.

صــرخ: "مــرحباً يا عزيزتي فلافيا!". وأوقفت غلاديز بقوة عند أطراف حذائه الجلدي اللامع. علقت مجدداً! كان الأجدى أن أستفيد من ذلك إلى أقصى حدٍّ ممكن.

قلت: "مرحباً يا ماكس. لدي سؤال أطرحه عليك".

قــال: "يا للعجب! بمثل تلك البساطة! سؤال! من دون تمهيد؟ لا حــديث عــن الــشقيقات؟ لا أقاويل عن أعظم قاعات الموسيقى في العالم؟".

قلت محرجة قليلاً: "حسناً. لقد استمعت إلى *ميكادو* عبر المذياع".

مكتبة الربيعي أحمد

"وكـــيف كانت؟ من ناحية القوة والنشاط؟ لديهم دائماً نـــزعة تنذر بالخطر في ما يتعلق بغيلبرت وسوليفان، كما تعرفين".

قلت: "تنويرية".

"آهـــا! يجب أن تخبريني بأي مجال. نظم العزيز آرثر بعض أجمل المعزوفات الموسيقية المعروفة في هذه الجزيرة، *الوتر الضائع*، مثلاً. يفتنني غ وس تمامـــاً. هـــل كنتِ تعرفين أن شراكتهما الأزلية انتهت بخلاف على ثمن سجادة؟".

نظرت عن كثب إليه، لأرى إن كان يمزح، لكنه كان يبدو جاداً.

"بالطـــبع أتحرق شوقاً لتخبريني بالأحداث الأخيرة غير السارة في بكـــشو يا عزيزتي فلافيا، لكنني أعرف أن شفتيك مغلقتان تماماً حياءً، إخلاصـــاً، واحتراماً للقانون، وليس بالضرورة بذلك الترتيب، هل أنا محق؟".

أومأت برأسي. *مكتبة الرمحي أحمد*

"سؤالك يتعلق بالمشورة إذاً؟".

"هل كنت في غريمنستر؟".

ضـــحك ماكس بصوت مكبوت مثل عصفور أصفر صغير. "آه يـــا عزيزتي، لا. أخشى أنني لم ألتحق بمدرسة عظيمة مثل تلك. كانت دراســـتي في القـــارة [الأوروبية]، باريس على وجه التحديد، ولم تكن بالضرورة في مدارس داخلية. ابن عمي لومبارد أحد خريجي غريمنستر القدامـــى. يـــتكلم دائماً بحماسة شديدة عن ذلك المكان – عندما لا يشارك في سباق أو يلعب *آه* جحيم [لعبة ورق] في مونتفورت".

"هل ذكر مرة المدير د. كيسنغ؟".

"جامع الطوابع؟ لماذا يا فتاتي العزيزة، لأنه نادراً ما يتكلم عن أي شيء آخر. إنه يُجلّ السيد العجوز. يدّعي أن كيسنغ العجوز جعله ما

مكتبة الرمحي أحمد

هــو علــيه الــيوم، وهـــو ليس أمراً مهماً بالمناسبة، لكن بالرغم من ذلك...".

"لا ينبغـــي أن أظن أنه لا يزال على قيد الحياة؟ أعني د. كيسنغ. سيكون طاعناً في السن، إذا كان حياً، أليس كذلك؟ سأراهن بكل ما أملك على أنه ميت منذ وقت طويل".

هـــتف مـــاكس: "إذاً ستخسرين كل أموالك! كل بنس ميمون منها!".

كانـــت روك إيـــند تقبع في سهل جميل بين تلة سكوايرز وجاك أولانترن، والأخيرة قطعة بارزة من الأرض التي تبدو، من بعيد، ككومة تـــراب مـــن العصر الحديدي لكن، عند الاقتراب منها، يتبين أنها أكبر كثيراً وشكلها مثل جمجمة.

وجّهـــت غلاديـــز نحو طريق بوكر، الذي يمتد على طول حافة الـــبلدة، أو طـــرفها الـــشرقي. في نهاية الطريق، كان وشيعان كثيفان يشكلان مدخل روك إيند.

حالمـــا تجاوزت تلك الآثار الدارسة من أيام غابرة، كانت المروج الخضراء تمتد إلى الشرق، الغرب، والجنوب، مهملة وشائكة. بالرغم من أشـــعة الـــشمس، كـــان ضباب رقيق لا يزال ظاهراً في الظلال فوق الأعشاب التي تنمو كيفما اتفق. في أماكن متفرقة كانت إحدى أشجار الـــزان الضخمة، التي تذكّرني جذوعها الكبيرة وأغصانها المتدلية دائماً بقطـــيع من فيلة خائفة تتجول وحيدة في براري أفريقية، تقطع الامتداد الشاسع للمروج.

تحت الأغصان، كانت سيدتان عجوزان تنخرطان في حوار مفعم بالحـــيوية، كمـــا لو أنهما تتنافسان على دور الليدي ماكبث. كانت

مكتبة الربيعي أحمد

إحداهما ترتدي رداء نوم حريرياً رقيقاً، وتعتمر قلنسوة تبدو بطريقة ما مـــن طـــراز القرن الثامن عشر، بينما ترتدي صاحبتها فستاناً فضفاضاً أزرق، وتضع في أذنيها قرطين نحاسيين بحجم طبقي حساء.

كان المنـــزل نفسه ما يدعى غالباً بشكل رومانسي *مبنى ضخماً*. كـــان ذلـــك المكان سابقاً موطن أجداد عائلة دي لاسي، التي أخذت بيـــشوب لاسي اسمها منها (يُقال إنهم أقرباء بعيدون لآل دي لوس)، وقـــد انحدرت مكانته في العالم على مراحل؛ من كونه المنـــزل الريفي لتاجر كتّان هوغونوتي [بروتستانتي فرنسي] ناجح إلى ما هو عليه اليوم، مستشفى خاص كانت دافني ستصفه مباشرة على أنه *المنـــزل الكئيب*. كدت أتمنى لو كانت معي.

كانـــت ســـيارتان متهالكتان تقفان بجانب بعضهما في الساحة الأمامـــية تثبـــتان نقص كل من الكادر والزوّار. ألقيت غلاديز بجانب شجرة صنوبر قديمة، صعدت على درجات في حال يرثى لها وتكسوها الطحالب إلى الباب الرئيس.

كانت هناك لافتة كُتب عليها بخط اليد *اقرع من فضلك*، قرعت الجرس مرة واحدة. في مكان ما داخل المكان أعلن صليل أجوف، مثل جرس في رقبة بقرة، قدومي لأشخاص غير معروفين.

عـــندما لم يحـــدث شـــيء، قرعت مجدداً. على المرج، كانت السيدتان العجوزان قد بدأتا تتظاهران أنهما في حفلة شاي، تنحنيان لبعضهما احتراماً بتكلّف، تلويان أصابعهما، وتمسكان بأكواب غير مرئية.

وضـــعت أذني علـــى الباب الكبير، لكن ما عدا صوت خافت، والـــذي كان من دون شك صوت تنفس البناء، لم أسمع شيئاً. دفعت الباب، فانفتح، ودخلت.

مكتبة الربيعي أحمد

كـــان أول شيء أثار اهتمامي هو رائحة المكان. مزيج من قماش نتن، وسائد مطاطية، ماء غُسلت به صحون، وموت. فوق كل ذلك، كانـــت هناك رائحة مطهّر نفّاذة يبدو أنها تستخدم لمسح الأرضيات - كلوريد الأمونيوم، من رائحته - نفحة خفيفة من لوز مرّ لم يكن يشبه ذلـــك المـــستخدم في تحضير سيانيد الهيدروجين، الغاز الذي كان يتم استخدامه لإعدام قتلة في غرف الغاز الأمريكية.

كانـــت ردهـــة المدخل مطلية بلون تفاح أخضر مثل مستشفى المجـــانين، كانـــت هناك جدران خضراء، مصنوعات خشبية خضراء، وســـقوف خضراء. كانت الأرضية مغطاة بمشمّع بني رخيص مهترئ، مليء بثقوب كبيرة ربما تم جلبه من الكولسيوم [المسرح] الروماني. أينما كـــنت أضع قدمي على إحدى قطعه البنية الممزقة، كانت المادة تطلق هسيساً بغيضاً، وسجلت ملاحظة في ذهني لأكتشف ما إذا كان اللون يسبب الغثيان.

على الجدار البعيد، في كرسي مدولب من الكروميوم، كان رجل عجوز يجلس ويحدق إلى الأعلى في الهواء، فاغراً فمه، كما لو أنه يتوقع حدوث معجزة وشيكة في مكان ما قرب السقف.

في إحدى الزوايا البعيدة، كانت هناك طاولة ليس عليها شيء سوى جـــرس فضي وبطاقة متسخة مكتوب عليها *اقرع من فضلك*، والتي تشير إلى وجود موظف رسمي، بالرغم من أنه لم يكن ظاهراً للعيان.

قرعت الجرس بسرعة أربع مرات متتالية. مع كل *رنّة* من الجرس كانـــت عيـــنا الرجل تطرفان بقوة، لكنه لم يبعد عينيه عن الهواء فوق رأسه.

فجـــأة، كمـــا لو أنها دخلت من شق سري في ألواح الخشب، ظهـــرت امـــرأة صغيرة. كانت ترتدي زياً أبيض وتعتمر قبعة زرقاء،

مكتبة الربيعي أحمد

ومـــشغولة بلـــف خـــصلات صغيرة من شعرها الرطب البني بإحدى سبابتيها.

نظـــرت كمـــا لـــو أنها لا ترجو خيراً، وكانت تعرف تماماً أنني أعرف.

قالـــت بـــصوت رقيق لكن فضولي، من النوع الذي تسمعه في المستشفيات: "نعم؟".

قلت: "لقد جئت لرؤية د. كيسنغ. أنا ابنة حفيده".

سألت: "د. *إسحاق* كيسنغ؟".

قلـــت: "نعـــم، د. إسحاق كيسنغ. هل لديكم أحد آخر بهذا الاسم؟".

مـــن دون أن تنـــبس ببنت شفة استدارت *الشبح الأبيض* [رواية مـــاري إليزابيث برادون] على عقبيها وتبعتها، عبر قنطرة إلى مشمس [حجرة زجاجية تتعرض لأشعة الشمس] ضيق يمتد على طول المبنى. في منتـــصف الـــرواق توقفت، أشارت بإصبع نحيل مثل الشبح الثالث في *البخيل* [رواية تشارلز ديكنـــز]، وذهبت.

في نهايـــة غـــرفة نوافذها طويلة، تحت شعاع شمس واحد يخترق ظلمـــة المكان المتداعي، كان رجل عجوز يجلس على كرسي مصنوع من الصفصاف، وهالة من دخان أزرق ترتفع ببطء فوق رأسه. في حالة فوضى فوق طاولة صغيرة بجانبه، كانت هناك كومة من الصحف تبدو على وشك السقوط إلى الأرض.

كان يتدثر بثوب حمام بني اللون، مثل شارلوك هولمز، ما عدا أنه كـــان يبدو مثل جلد نمر بثقوب محروقة. كانت تبرز من تحت الثوب بذلـــة ســـوداء بالية وياقة طويلة من السليلويد قديمة الطراز. كان على شـــعره الأصـــفر - الرمادي المتجعد قبعة صغيرة مخملية بلون الخوخ،

مكتبة الربيعي أحمد

وتتدلى لفافة تبغ مشتعلة من شفتيه، ورمادها الرمادي يسقط مثل يرقانة حديقة محنّطة.

قال: "مرحباً يا فلافيا. لقد كنت بانتظارك".

كانت ساعة قد مرّت، ساعة أدركت من خلالها حقاً، لأول مرة، ما كنا قد فقدناه في الحرب.

لم تكن بداية حديثنا جيدة على وجه الخصوص، أنا ود. كيسنغ.

أعلن: "يجب أن أحذّرك منذ البداية أنني لا أجيد التحدث مع فتيات صغيرات".

عضضت شفتي، وأبقيت فمي مغلقاً.

"الفتى يمكن أن يصبح رجلاً مؤدباً بالعصا، أو أي من الوسائل الأخرى العديدة، لكن الفتاة، نظراً إلى ابتعادها بطبيعتها التي هي عليها عن مثل تلك القسوة الجسدية، يجب أن تبقى شيئاً من *أرض المجهول*. ألا تظنين ذلك؟".

أدركت أن هذا أحد تلك الأسئلة التي لا تتطلب جواباً. رفعت شفتي إلى ما كنت آمل أن تكون ابتسامة موناليزا، أو على الأقل ابتسامة تشير إلى الكياسة المطلوبة.

قال: "إذاً، أنتِ ابنة جاكو، لكنك لا تشبهينه إطلاقاً".

قلت: "قيل لي إنني أشبه والدتي هاريت".

"آه، نعم. هاريت. لقد كانت تلك مأساة مروّعة. إنه شيء مروّع لكم جميعاً".

مدّ يده، ومسّ عدسة مكبّرة كانت تجثم بشكل مائل فوق كومة صحف إلى جانبه. بالحركة نفسها فتح علبة بلايرز كانت على الطاولة، وأخرج منها لفافة تبغ جديدة.

مكتبة الربيعي أحمد

"أبـــذل قـــصارى جهدي لمجاراة أحدث التطورات في العالم كما تراها عيون الصحافيين الذين يكتبون بالحبر. عيناي، يجب أن أعترف، اللتان كانتا تركّزان على استعراضات حربية سابقة طيلة خمس وتسعين سنة، متعبتان للغاية مما كانتا قد رأتاه.

بالرغم من ذلك، استطعت بطريقة ما متابعة أنباء مثل الولادات، الوفـــيات، الـــزواج، وأشياء أخرى في مقاطعتنا. وما زلت مشتركاً في *بنش آند ليليبوت* [مجلة]، بالطبع.

لديك شقيقتان، كما أظن، أوفيليا ودافني؟".

أقررت أن ذلك صحيح.

"كـــان جاكـــو يميل دائماً إلى ما هو غريب، كما أتذكر. لم أتفاجـــأ كـــثيراً عـــندما قرأت أنه أطلق على أول ولدين له اسمي شخـــصيتين هـــستيريتين في أحد أعمال شكسبير ووسادة دبابيس إغريقية".

"عفواً؟".

"دافـــني، أصابها إيروس [سيد الحب في الأساطير اليونانية] بسهم حب قاتل قبل أن ينقلها والدها إلى شجرة".

قلت: "كنت أعني المرأة المجنونة، أوفيليا".

قال وهو يضغط عقب لفافة تبغه في منفضة ممتلئة ويشعل أخرى: "مجنونة، ألا تتفقين معي في ذلك؟".

كانت العينان اللتان تحدّقان إليّ من وجهه كثير التجاعيد، براقتين وصـــغيرتين مثل عيني أي معلّم يقف عند اللوح، يحمل العصا في يده، وكـــنت أعرف أنني قد نجحت في خطتي. لم أعد تلك *الفتاة الصغيرة*. بيـــنما تم نقل دافني الخيالية إلى شجرة غار، كنت قد أصبحت فتى في الصف الرابع الابتدائي.

مكتبة الرمحي أحمد

قلـــت: "ليس حقاً يا سيدي. أظن أن شكسبير جعل من أوفيليا رمزاً لشيء ما، مثل الأعشاب والورود التي تجمعها".

قال: "هه؟ ما معنى ذلك؟".

"رمزي يا سيدي. أوفيليا هي الضحية البريئة لعائلة إجرامية انشغل كل أفرادها تماماً بأنفسهم. على الأقل هذا ما أظنّه".

قال: "فهمت. هذا مثير جداً للاهتمام".

أضـــاف فجأة: "بالرغم من ذلك، كان من بواعث سروري أن أعـــرف أن والدك يتذكر ما يكفي من اللاتينية ليسميك فلافيا؛ ذات الشعر الأشقر".

"شعري أنا بني داكن".

"آه".

بدا أننا قد وصلنا إلى أحد تلك الطرقات المسدودة التي تنتهي بها كـــثير من الأحاديث مع كبار السن. كنت قد بدأت أفكّر في أنه غطّ في النوم وعيناه مفتوحتان.

قال أخيراً: "حسناً، الأفضل أن تدعيني ألقي نظرة عليه؟".

قلت: "سيدي؟".

"منـــتقم *الستر* الخاص بـــي. الأفضل أن تدعيني ألقي نظرة عليه. لقد أحضرته معك، أليس كذلك؟".

"أنا – نعم، سيدي، لكن كيف –؟".

قال بهدوء كما لو أنه يقول *لندعو*: "لنستنتج ذلك".

"ظهر هوراس بونبي، فتى فاتن سابقاً وفنان مخادع لوقت طويل، ميتاً في حديقة زميل دراسته القديم، جاكو دي لوس. لماذا؟ ابتزاز على الأرجـــح. لهذا السبب، لنفترض أنه ابتزاز. في غضون ساعات، تنقّب ابنة جاكو في أرشيف صحف بيشوب لاسي، تبحث عن تقارير تتناول

مكتبة الرمحي أحمد

مــوت زميلي القديم العزيز السيد توييننغ، رحمة الله [جل جلاله] عليه. كيف أعرف هذا؟ أظن أن ذلك واضح".

قلت: "الآنسة مونتجوي".

"جيد جداً يا عزيزتي. تيلدا مونتجوي بالفعل، أذناي وعيناي على القرية وضواحيها خلال ربع قرن مضى".

كان يجب أن أدرك ذلك! كانت الآنسة مونتجوي جاسوسة!

"لكــن دعيــنا نكمل. في آخر أيام حياته، كان اللص بونبني قد اخــتار أن يستأجر غرفة في ثلاثة عشر علجوماً. لقي الأحمق اليافع - حــسناً، لم يعد يافعاً، لكن لا يزال أحمق نظراً إلى كل تلك الأمور - حــتفه. قلــت مرة للسيد توييننغ إن نهاية ذلك الفتى ستكون وخيمة. أتــردد في الإشــارة إلى أنني كنت محقاً في تكهّني. كانت هناك دائماً رائحة كبريت تفوح من ذلك الغلام.

"لكن ذلك خارج عن الموضوع. بعد وقت قصير من انتقاله إلى دار الــبقاء، فتّــشت غرفة بونبني في الخان فتاة جميلة لا أجرؤ على قول اسمها بصوت عالٍ لكنها تجلس الآن أمامي برزانة، تضيق ذرعاً بقطعة خاصة من الــورق بلــون مربّى دندي، مطبوع عليها صورة جلالتها الراحلة الملكة فيكتوريا، وتحمل حرفي *تي أل*. "هذا المطلوب إثباته. إيتش. أم. أيه".

قلــت: "إيتش. أم. أل". ومن دون أن أنبس ببنت شفة، سحبت مغلــف الزجاجين من جيبــي وناولته إياه. بيدين مرتعشتين - بالرغم مــن أنني لم أكن واثقة ما إذا كانتا ترتعشان نتيجة العمر أم الإثارة - وباستخدام ورق شفاف رقيق كملقطين، فتح المغلف بأصابعه الملطخة بالنيكوتين. عندما ظهرت الزاويتان البرتقاليتان *لمنتقمي الستر* للعيان، لم يسعني سوى أن ألاحظ أن أصابعه الملطخة بالنيكوتين والطابعين كانت ذات لون واحد تقريباً.

مكتبة الربيعي أحمد

قــال وهو يهتز بشكل ظاهر للعيان: "يا الله! لقد عثرت على *أيه أيــه*. هذا الطابع يخص جلالته، كما تعرفين. لقد سُرق من معرض في لندن قبل أسابيع مضت. نُشر الخبر في كل الصحف".

رمقــني بنظرة اتهام من فوق نظارته، لكن نظرته عادت فوراً إلى الكنــــزين اللامعــين اللذين كانا بين يديه. بدا أنه قد نسي أنني في الغرفة.

همس، كما لو أنني لست هناك: "تحياتي يا صديقيّ القديمين. لقد مــضى وقــت طويل جداً". أمسك بالعدسة المكبّرة، وفحصهما عن كثب، كلاًّ على حده. "وأنت يا *تي أل* العزيز، ما الحكاية التي يمكنك أن تسردها لنا".

تطــوّعت: "كـــان هـــوراس بونبي يمتلك كلا الطابعين. عثرت عليهما في أمتعته في الخان".

ســأل د. كيـــسنغ من دون أن يشيح ببصره بعيداً عن العدسة المكبّـــرة: "أنتِ من فتّش أمتعته؟ أف! لن يرقص رجال الشرطة فرحاً فوق مروج القرية عندما يسمعون ذلك... ولا أنت، كما أظن".

قلــت: "لم أفتّش أمتعته بالتحديد. كان قد أخفى الطابعين تحت لصاقة سفر على صندوق ملابسه".

"وكـــنت، بالطـــبع، تضيّعين الوقت سدى هناك عندما وقعا في يديك".

قلت: "نعم. ذلك ما حدث بالضبط".

قـــال فجـــأة، وهو يستدير لينظر إلى عينيّ: "أخبريني، هل يعرف والدك أنكِ هنا؟".

قلت: "لا، لقد تم اتهام والدي بجريمة القتل. إنه معتقل في هنلي".

"يا الله! هل فعلها؟".

مكتبة الربيعي أحمد

"لا، لكن يبدو أن الجميع يظنون أنه ارتكبها. لبعض الوقت، حتى أنا ظننت ذلك".

قال: "آه. وماذا تظنين الآن؟".

قلت: "لا أعرف. أحياناً أظن شيئاً، ثم في أحيان أخرى شيئاً آخر. كل شيء مشوش".

"يبقى كل شيء مشوشاً إلى أن تتضح الحقائق. أخبريني يا فلافيا، ما الذي يثير اهتمامك أكثر من أي شيء آخر في الكون؟ ما شغفك الكبير؟".

قلت في أقل من نصف خفقة قلب: "الكيمياء".

قال د. كيسنغ: "أحسنتِ! كنت قد طرحت ذلك السؤال نفسه على مجموعة كبيرة من الهوتنتوت [شعب في جنوب أفريقية بشرته داكنة ضاربة إلى الصفرة] في أيامي، وكانوا دائماً يهذرون بهذا الشيء أو ذاك، يهذون ويثرثرون، وكان ذلك كل شيء. أنتِ، بالمقارنة، وصفت ذلك بكلمة واحدة".

طقطق الصفصاف بشكل مريع عندما استدار على كرسيه ليواجهني. للحظة شنيعة واحدة ظننت أن عموده الفقري قد تحطم.

قال: "نترات الصوديوم. تعرفين من دون شك نترات الصوديوم".

أعرفها؟ كانت نترات الصوديوم الترياق للتسمم بالسيانيد، وكنت أعرفها في كل تفاعلاتها المتنوعة كما أعرف اسمي. لكن كيف تسنّى له أن يختارها كمثال؟ هل كان وسيطاً روحياً؟

قال د. كيسنغ: "أغلقي عينيك. تخيلي أنك تمسكين بيدك أنبوب اختبار يمتلئ حتى نصفه بمحلول ثلاثين بالمئة من حمض الهيدروكلوريك. إليه، تُضيفين كمية صغيرة من نترات الصوديوم. ماذا تلاحظين؟".

مكتبة الرمحي أحمد

قلـــت: "لا داعٍ لأن أغلق عينيّ. يصبح المزيج برتقالياً... برتقالياً وعكراً".

"ممـــتاز! بلـــون الطابعين البريديين الغريبين، أليس كذلك؟ وبعد ذلك؟".

"بمرور الوقت، بعد عشرين أو ثلاثين دقيقة ربما، يصبح صافياً".

"يصبح صافياً. انتهت قضيتي".

كما لو أن حملاً ثقيلاً ارتفع عن كاهلي، رسمت ابتسامة غبية على وجهي.

قلت: "لا بد أنك كنت معلّماً بارعاً يا سيدي".

"نعم، كنت كذلك... في أيامي".

قـــال وهـــو ينظر إلى الطابعين مجدداً: "وقد أعدت الآن الطابعين إليّ".

لم يكـــن ذلك شيئاً في حسباني، كان شيئاً لم أفكّر فيه في الواقع. كنت أريد فقط أن أكتشف ما إذا كان مالك *منتقم الستر* لا يزال على قـــيد الحياة. بعد ذلك، كنت سأسلمهما إلى والدي، الذي سيقدّمهما إلى الشرطة، التي ستعيدهما، في الوقت المناسب، إلى مالكهما الأصلي. لاحظ د. كيسنغ ترددي على الفور.

قال: "دعيني أطرح سؤالاً آخر. ماذا لو أنك جئت إلى هنا اليوم، واكتشفتِ أنني انتقلت إلى العالم الآخر؛ انتقلت إلى عالم البقاء؟".

"تعني أنك مت يا سيدي؟".

"تلك هي الكلمة التي كنت أبحث عنها، مت. نعم".

"أظن أنه كان يجب أن أعطي طابعك إلى والدي".

"ليحتفظ به؟".

"كان سيعرف ما يفعله به".

مكتبة الرمحي أحمد

"أظـــن أن أفضل شخص يقرر هذا الشأن هو مالك الطابع، ألا تتفقين معي في ذلك؟".

كنت أعرف أن الجواب *نعم* لكنني لم أستطع قوله. كنت أعرف أنـــي أريد، أكثر من أي شيء آخر، تقديم الطابعين إلى والدي، بالرغم من أنه لم يكن لي لأمنحه إياه. في الوقت نفسه، كنت أريد منح المفتش هيوت كلا الطابعين. لكن لماذا؟

أشـــعل د. كيـــسنغ لفافة تبغ أخرى، وحدق إلى المشهد خارج النافذة. أخيراً، أخرج أحد الطابعين من المغلف وسلّمني الآخر.

قال: "هذا *أيه أيه*. *إنه ليس لي، ليس مُلكًا لي*، كما تقول الأغنية القديمـــة. يمكـــن لوالدك أن يفعل به ما يشاء. ليس من شأني أن أقرر ذلك".

تناولت منتقم *الستر* منه ولفقته بحرص بمنديلي.

"من ناحية أخرى، *تي أل* الرائع الصغير *لي*. مُلكي، من دون أدنى شك".

قلت مستسلمة وأنا أدفع توأمه في جيبـــي: "توقعت أنك ستشعر بالسعادة عندما تلصقه من جديد في ألبومك يا سيدي".

"ألبومـــي؟". أطلق ضحكة خافتة انتهت بسعال. "ألبوماتي، كما قال العزيز الراحل داوسون [إرنست كريستوفر، كاتب]، قد ذهبت مع الريح".

تحولت عيناه العجوزان نحو النافذة، وحدّق شارد الذهن إلى المرج في الخـــارج حـــيث كانـــت السيدتان العجوزان لا تزالان تتحركان وتدوران مثل فراشتين غريبتين تحت أشجار الزان الرمادية.

"لقد نسيت الكثير يا سينارا! ذهب أدراج الريح،

ورود جميلة، وورود كثيرة في زحمة العمل،

مكتبة الرمحي أحمد

الرقص، لأوضح الأمر، يُفقد الإنسان رشده،
لكنني كنت تعيساً وحزيناً من شغف قديم،
نعم، كل الوقت، لأن الرقص كان طويلاً،
لقد كنت مخلصاً لكِ يا سينارا! بطريقتي".

"إنها من سينارا. ربما تعرفينها؟".

هززت رأسي، وقلت: "إنها جميلة جداً".

قال د. كيسنغ مع إشارة من ذراعه: "بقيت منعزلاً في مكان مثل هذا، بوضعها المزري كما تلاحظين، والذي يحتاج إلى مساعدات مالية لمنع انهياره".

نظر إلي كما لو أنه ألقى دعابة. عندما لم أرد، أشار إلى الطاولة.

"اجلبـــي لي أحد تلك الألبومات. الموجود في الأعلى، كما أظن، سيفي بالغرض".

لاحظت آنذاك لأول مرة أن هناك رفاً مثبتاً أسفل غطاء الطاولة، عليه ألبومان سميكان. نفخت الغبار عنهما وسلمته الأعلى منهما.

"لا، لا... افتحيه بنفسك".

فـــتحت الألـــبوم على الصفحة الأولى، التي كانت تحتوي على طـــابعين؛ أحـــدهما أسود، والآخر أحمر. من العلامات الظاهرة للبقايا الـــصمغية والخطوط الرئيسة، لاحظت أن الصفحة كانت ممتلئة في ما مـــضى. قلبت إلى الصفحة التالية... والتي تليها. كان كل ما تبقى من الألبوم كتلة بالية. كان شيئاً بائساً حتى التلميذ لن يكون فخوراً به.

"تكلفـــة، كما ترين، إيواء قلب ينبض. يتنازل المرء عن جزء من حياته مع كل مربع صغير يبيعه. لم يتبق منه الكثير، أليس كذلك؟".

قلت: "لكن، منتقم *الستر*! لا بد أنه يساوي ثروة!".

قـــال د. كيـــسنغ وهو ينظر مرة أخرى عبر العدسة المكبرة إلى كنـــزه: "بالفعل".

مكتبة الربيعي أحمد

قال: "يقرأ المرء في روايات عن وصول إرجاء تنفيذ حكم الإعدام قبل أن يوضع حبل المشنقة حول عنق متهم، عن حصان يتوقف قلبه بعد بوصة من خط النهاية". ضحك بصوت خافت، وأخرج منديلاً ليمسح عينيه. *فات الأوان! فات الأوان!* صرخت *الفتاة*، وكل تلك الأشياء. *الناقوس لن يقرع الليلة!*

تابع همساً: "كيف يحب القدر المزاح. من قال ذلك؟ سيرانو دو بيجيراك [بطل مسرحية الفرنسي إدمون روستان عام 1897]، أليس كذلك؟".

لجزء من الثانية فقط، فكّرت كم كانت دافني ستستمتع بالحديث إلى هذا السيد العجوز. لكن لجزء من الثانية فقط. ثم هززت كتفيّ استخفافاً.

بابتسامة ساخرة قليلاً، أبعد د. كيسنغ لفافة تبغه عن فمه، ومسّ بطرفها المشتعل زاوية منتقم *الستر*.

شعرت كما لو أن أحداً رمى بكرة من النار على وجهي، كما لو أن صدري كان مقيداً بأسلاك شائكة. طرفت عيناي، ثم، متجمدة رعباً، شاهدت الطابع، وقد بدأ الدخان يخرج منه، وتحول إلى شعلة صغيرة قضت ببطء وثبات على وجه الملكة فيكتوريا اليافع.

عندما وصلت الشعلة إلى أطراف أصابعه، فتح د. كيسنغ يده، وترك الرماد الداكن يهبط إلى الأرض. من أسفل حاشية ثوب الحمام، برز حذاء أسود لامع وداس على البقايا ثم، ببضع حركات سريعة، جمّعها تحت أصابع القدم.

في ثلاث نبضات قلب مخيفة، لم يكن منتقم *الستر* أكثر من رماد أسود على بساط روك إيند.

قال د. كيسنغ: "لقد تضاعفت قيمة الطابع في جيبك للتو. احرصي عليه يا فلافيا. إنه الآن الوحيد من نوعه في العالم".

مكتبة الرمحي أحمد

الثاني والعشرون

كلما كنت أخرج من المنـــزل وأجد نفسي بحاجة إلى أفكار من الطراز الأول، كنت أستلقي على ظهري، أمد ذراعيّ وساقيّ حتى أبدو مثل علامة نجمية، وأحدّق إلى السماء. في الدقائق القليلة الأولى، كنت عـــادة أتـــسلّى بالأشـــياء التي *تطفو* أمامي، تلك الخيوط الصغيرة من البروتين التي تشبه الديدان وتعوم جيئة وذهاباً عبر مجال رؤية الفرد مثل مجرات صغيرة داكنة. عندما لم أكن على عجلة من أمري، كنت أقف بسرعة لأخلطها معاً، ثم أستلقي مجدداً لأشاهد العرض، كما لو أنه فيلم سينمائي.

اليوم، كانت هناك أشياء كثيرة تشغل بالي، ولم يكن لديّ وقت لأزعـــج نفسي بمثل تلك الأمور، لهذا عندما قدت دراجتي مسافة ميل تقـــريباً مـــن روك إيـــند، رميت بنفسي على حافة الطريق المعشوشبة وحدّقت إلى سماء الصيف.

لم أتمكّـــن من إخراج شيء من ذهني كان والدي قد أخبرني إياه، وهو أن كلاهما، هو وهوراس بونبي، قد قتلا السيد توييننغ، وأنهما كانا مسؤولين شخصياً عن وفاته.

هل كانت تلك إحدى أفكار والدي الخيالية التي يجب أن أشطبها علـــى الفور، أم أن وراء الأكمّة ما وراءها؟ كانت الآنسة مونتجوي، أيضاً، تظن أنهما قتلا خالها، وقد أخبرتني بذلك.

مكتبة الرمحي أحمد

كان سهلاً للغاية أن ألاحظ أن والدي ينتابه شعور حقيقي بالذنب. بالمحصلة، كان جزءاً من الجهد لرؤية مجموعة طوابع د. كيسنغ، وكانت صداقته السابقة مع بونبني، بالرغم من أنها انتهت، قد جعلته شريكاً بطريقة غير مباشرة نوعاً ما. لكن بالرغم من ذلك...

لا، كان لا بد من وجود شيء أكثر من ذلك، لكنني لم أستطع معرفة ما هو.

استلقيت على الأعشاب، أحدق إلى الأعلى، إلى القبة الزرقاء للسماء بجدية مثلما كان أولئك الزاهدون العجائز الذي يجلسون القرفصاء في الهند يحدّقون مباشرة إلى الشمس قبل أن نجعلهم متحضرين، لكنني لم أستطع التفكير في أي شيء مناسب. مباشرة فوقي، كانت الشمس قرصاً أبيض كبيراً، تسفع بحرارتها رأسي المكشوف.

تخيلت نفسي أعتمر قبعة تفكيري، أغطي بها أذنيّ كما كنت قد علّمت نفسي أن أفعل. كانت طويلة، مخروطية الشكل مثل قبعة لاعب خفة، مليئة بمعادلات وصيغ كيميائية، والكثير من الأفكار.

بالرغم من ذلك لم يكن هناك شيء.

لكن انتظري! نعم! لم يكن والدي قد فعل شيئاً. لا شيء! كان قد عرف - أو على الأقل شكّ - منذ اللحظة التي حدث فيها ذلك أن بونبني قد سرق أثمن طوابع المدير... وبالرغم من ذلك لم يخبر أحداً.

كان ذلك خطأ الإهمال، أحد تلك الذنوب من الكرّاس الكنسي عن الجرائم التي كانت فيلي تتحدث عنها باستمرار، ويبدو أنه ينطبق على الجميع ما عداها.

لكن ذنب والدي كان شيئاً أخلاقياً، وبالتالي ليس مقصوداً.

مكتبة الربيعي أحمد

بالرغم من ذلك، لم يكن هناك مجال لإنكار الأمر. كان والدي قد التزم الصمت، وربما دفع سكوته ذاك السيد توينغ العجوز الورع لتحمّل اللوم، وجعله يدفع حياته ثمناً.

بالتأكيد كان هناك بعض الكلام في ذلك الوقت. لم يكن أبناء البلد في هذا الجزء من إنكلترا معروفين أبداً بتكتّمهم، وهم أبعد ما يكونون عن ذلك. في القرن الماضي، كان شاعر هنلي هيربرت مايلز قد أشار إلى أننا "تلك المجموعة من المغفّلين التي تنهمك في القيل والقال فوق مروج خضراء". وكان هناك بعض من الحقيقة في كلماته. يحب الناس أن يتكلموا - خاصة عندما يتضمن الكلام إجابات عن أسئلة آخرين - لأن ذلك يجعلهم يشعرون أنهم محبوبون. بالرغم من وجود نسخة ملطخة بمرق اللحم من *استفسار عن كل شيء* [كتاب من العصر الفيكتوري]، والذي كانت السيدة موليت تحتفظ به على رف في خزانة الطعام، إلا أنني كنت قد اكتشفت منذ وقت طويل أن أفضل طريقة للحصول على إجابات بشأن أي شيء كانت الذهاب إلى أقرب شخص وسؤاله؛ الاستفسار الخارجي.

لم يكن بمقدوري سؤال والدي عن صمته في أيام الدراسة تلك. حتى إذا تجرأت على ذلك، وهو شيء لم أفعله، فقد كان معتقلاً في زنزانة شرطة، وسيبقى على الأرجح هناك. لم يكن بمقدوري سؤال الآنسة مونتجوي، التي أغلقت الباب في وجهي لأنني ابنة قاتل لا يعرف الرحمة. بالمختصر، كان الأمر منوطاً بي وحدي.

طيلة اليوم، كان هناك شيء يدور في الجزء الخلفي من ذهني مثل حاكٍ في غرفة بعيدة. لو كنت أستطيع فقط معرفة اللحن!

كان الشعور الغريب قد بدأ عندما كنت أتصفح أكوام الصحف في غرفة الصيانة خلف المكتبة. كان شيئاً قاله أحدهم... لكن ماذا؟

مكتبة الرمحي أحمد

أحـــياناً، تصبح محاولة الإمساك بفكرة عابرة مثل محاولة الإمساك بطائـــر في المنـــــزل. تطارده، تمشي على أطراف قدميك نحوه، تكاد تمسك به... والطائر يختفي، دائماً خلف أطراف أصابعك، بأجنحته...

نعم! أجنحته!

كـــان أحد تلاميذ غريمنستر قد قال: "كان يبدو مثل ملاك يهبط علـــى الأرض". توبـــي لونسديل، تذكرت اسمه آنذاك. يا له من تعبير غـــريب يقوله فتى عن معلّم يسقط إلى الأرض! وكان والدي قد قارن السيد تويننغ، قبل أن يقفز تماماً، برجل صالح كل الصلاح تحيط به هالة في مخطوطة مضاءة.

كانـــت المشكلة أنني لم أبحث كما يجب في الأرشيف. كانت *ذا هنلـــي كـــرونيكل* قد أوردت بوضوح تام أن تحقيق الشرطة في وفاة السيد تويننغ، وسرقة طابع د. كيسنغ، كانا مستمرين. وماذا عن نعيه؟ كان ذلك سيأتي لاحقاً، بالطبع، لكن ماذا قيل فيه؟

خـــلال وقـــت قصير جداً كنت على متن غلاديز، أضغط على الدواستين بقوة متجهة نحو بيشوب لاسي وطريق البقرة.

لم أرَ لافـــتة *مغلـــق* حتى أصبحت على بعد عشر أقدام من باب المكتـــبة. بالطبع! فلافيا، أحياناً تصابين بلوثة في دماغك، كانت فيلي محقـــة في ذلـــك. كان يوم الثلاثاء. لن تفتح المكتبة أبوابها مجدداً حتى الساعة العاشرة من صباح الخميس.

بينما كنت أدفع غلاديز ببطء نحو النهر وغرفة الصيانة، فكّرت في تلـــك القصص المثيرة التي يسردونها في *ساعة الأطفال* [مسرحية ليلان هيلمان]. تلك الحكايات الأخلاقية القصيرة التي تنطوي على عبرة مثل تلك الخاصة بالقاطرة المهر [قصة للأطفال] ("أظن أنني أستطيع... أظن

مكتبة الرمحي أحمد

أنـــي أستطيع") الذي كان بمقدوره جر قطار شحن بأكمله فوق جبل فقــط لأنـــه ظـــنّ أنه يستطيع ذلك، ظنّ أنه يستطيع ذلك. ولأنه لم يستسلم أبداً. كان عدم الاستسلام أبداً مفتاح النجاح.

المفــتاح؟ كــنت قــد أعــدت مفتاح غرفة الصيانة إلى الآنسة مونــتجوي، كنت أتذكر ذلك تماماً. لكن، هل هناك احتمال بوجود نــسخة أخــرى؟ مفتاح إضافي مخبّأ تحت عتبة نافذة ليتم استخدامه في حال غادرت شخصية كثيرة النسيان في عطلة إلى بلاكبول وهي تحمل الأصــلي في جيبها؟ نظراً إلى أن بيشوب لاسي لم تكن (أو على الأقل إلى مــا قــبل بضعة أيام) مرتعاً خصباً للجريمة، بدا وجود مفتاح مخبّأ احتمالاً مستبعداً.

مــرّرت إصبعي على طول العتبة فوق الباب، نظرت أسفل إبرة الراعي [نبات] في أوانيها الفخارية التي تمتد على طول الممشى، ورفعت حتى بعض الحجارة التي تبدو مشبوهة.

لا شيء.

بحــثت في شــقوق الجدار الحجري الذي يمتد من الطريق إلى الباب.

لا شيء أيضاً. لا شيء أبداً.

ضممت يديّ على النافذة، ونظرت إلى أكوام الصحف المتداعية الــتي تغفــو في مهدها. كانت قريبة جداً وبالرغم من ذلك بعيدة عن متناول اليد.

كنت ساخطة لدرجة يمكنني معها أن أبصق، وفعلت ذلك.

مــاذا كانــت مــاري - آن بول لافوازييّه ستفعل في مثل هذا الموقــف؟ تساءلت. هل كانت ستقف هنا تستشيط غضباً وترغي زبداً مــثل أحد تلك البراكين الصغيرة التي تثور عندما تشتعل فيها كمية من

مكتبة الرمحي أحمد

ثـــاني كرومات الأمونيوم؟ شككت في ذلك نوعاً ما. كانت ماري - آن ستنسى الكيمياء، وتحاول فتح الباب.

أدرت مقبض الباب بعنف، واندفعت إلى داخل الغرفة. كان أحمق قد جاء إلى هنا وترك الشيء اللعين من دون أن يوصده! كنت آمل ألا يكون هناك أحد يراقب ما يجري. كان جيداً أنني فكرت في ذلك، وقد أدركـــت مباشرة أنه سيكون من الحكمة أن أقوم بإدخال غلاديز إلى الغرفة حتى لا يراها عابر سبيل فضولي.

تفاديت الحفرة المغطاة بألواح خشبية في منتصف الغرفة، وسلكت طريقي بحذر شديد حولها إلى أكوام الصحف الصفراء.

لم أجـــد صـــعوبة في العـــثور على النسخ المطلوبة من *ذا هنلي كـــرونيكل*. نعـــم، كانت هناك. كما فكّرت تماماً، كان نعي السيد توييننغ قد ظهر يوم الجمعة بعد حادثة وفاته:

> **تويينـــنغ، غـــرينفل، ماجـــستير في الآداب (أوكسون). توفي فجأة الاثنين الماضي في مدرسة غريمنستر، قرب هنلي، عن عمر يناهز اثنين وسبعين عامـــاً. توفـــي والـــداه ســـابقاً، موريس ودوروثا توييننغ، من ونشستر، هانـــتس. لم يبق من أقربائه سوى ابنة أخت، تيلدا مونتجوي، التي تعيش فـــي بيـــشوب لاســـي. تمـــت مراســـم دفـــن السيد توييننغ في دار عبادة غريمنـــستر، حـــيث أقام رجلا الدين كانون بليك - سومز، رجل الدين في دار عـــبادة ســـان تانكـــريد في بيشوب لاسي، وقس غريمنستر الصلوات لراحة نفسه. كانت باقات الزهور كثيرة.**

لكن أين دفنوه؟ هل تمت إعادة جثته إلى ونشستر ودفنها بجانب والديه؟ هل دُفن في غريمنستر؟ كنت أشك في ذلك. كان يبدو مرجحاً أنني سأعثر على قبره في مقبرة دار عبادة سان تانكريد، التي تبعد مسافة لا يستغرق قطعها أكثر من دقيقتين سيراً على الأقدام من المكان الذي أقف عليه.

مكتبة الربيعي أحمد

كنت سأترك غلاديز خلفي في غرفة الصيانة، فلا فائدة ترجى من لفت انتباه غير ضروري. إذا توخيت الحرص وبقيت خلف الوشيع الذي يمتد على طول الطريق المحاذي لضفة النهر، يمكنني الانتقال بسهولة من هنا إلى المقبرة من دون أن يراني أحد.

عندما كنت أفتح الباب، نبح كلب. كانت السيدة فيرويذر، رئيسة جمعية سيدات المذبح، عند نهاية الطريق مع كلبها. أغلقت الباب بهدوء قبل أن تراني هي أو الكلب. نظرت من زاوية النافذة، ورأيت الكلب يقضي حاجته على جذع شجرة بلوط بينما كانت السيدة فيرويذر تحدق بعيداً، تتظاهر أنها لا تعرف ما الذي يجري على الطرف الآخر من رباط الحيوان.

تباً! كنت مضطرة إلى الانتظار حتى ينتهي الكلب مما يقوم به. نظرت حولي في أرجاء الغرفة.

على كلا جانبي الباب، كانت هناك خزانتا كتب مؤقتتان تبدو ألواحهما الخشبية المتداعية الضعيفة كما لو أن نجّاراً هاوياً حسن النية لكنه ليس بارعاً قد قام بتثبيتها معاً.

إلى اليمين، كان هناك عدد كبير من الكتب المرجعية التي أكل عليها الدهر وشرب، سنة إثر أخرى من *دليل كروكفورد الكنسي*، *حولية هازل*، *دليل وايتيكر السنوي*، *أدلّة كيلي*، *حولية براسي البحرية* - وكلها محشورة جنباً إلى جنب على رفوف من ألواح خشبية غير مطلية، وقد تحولت أغلفتها الفخمة الحمراء والزرقاء والسوداء إلى اللون البني الداكن بمرور الزمن وتعرضها للضوء، وتفوح منها كلها رائحة الفئران.

كانت الرفوف إلى اليسار مليئة بصفوف من مجلّدات رمادية متماثلة، على كل منها العنوان نفسه منقوشاً بأحرف ذهبية قوطية

مكتبة الربيعي أحمد

جميلة، *طلاب غريمنستر*. وتذكرت أن تلك هي الكتب السنوية من مدرسة والدي القديمة. كان لدينا بعض منها في بكشو. سحبت واحداً من الرف قبل أن ألاحظ أنه خاص بعام 1942.

أعدته إلى مكانه، ومرّرت إصبعي على الفهرس إلى اليسار على أغلفة المجلدات الباقية: 1930... 1925...

عثرت عليه، 1920! ارتعشت يداي بينما كنت أمسك بالكتاب وأقلّب صفحاته بسرعة من الخلف إلى الأمام. كانت صفحاته مليئة بمقالات عن الكريكت، التجذيف، ألعاب القوى، المنح الدراسية، الركبي، التصوير الضوئي، ودراسات عن الطبيعة. مما كنت أراه، لم تكن هناك كلمة واحدة عن *حلقة ألعاب الخفة* أو *جمعية الطوابع*. في أماكن متفرقة من الكتاب كانت هناك صور يظهر فيها صف إثر آخر من فتية يبتسمون، وأحياناً يكشّرون، أمام عدسة آلة التصوير.

مقابل صفحة العنوان، كانت هناك صورة ضوئية ضمن إطار أسود. فيها، كان رجل بهي الطلعة يعتمر قبعة ويرتدي عباءة يجلس على طرف دُرج مدرسي، يحمل كتاب قواعد اللاتينية بيده ويحدّق إلى المصور بنظرة ساخرة نوعاً ما. كان تحت الصورة تعليق: "غرينفل توينغ 1848-1920".

كان ذلك كل شيء. لم يكن هناك أي ذكر للأحداث التي أحاطت بموته، تأبين، أو كلمات مديح للرجل. هل كانت هناك مؤامرة صمت؟

كان وراء الأكمّة ما وراءها.

بدأت أقلّب الصفحات ببطء، ألقي نظرة على المقالات، وأقرأ التعليقات الخاصة بالصور أينما وجدت.

مكتبة الربيعي أحمد

بعد تصفّح ثلثي الكتاب التقطت عيناي اسم *دي لوس*. كانت الصورة تُظهر ثلاثة فتيان يرتدون قمصاناً بأردان قصيرة، ويعتمرون قبعات مدرسية يجلسون على مرج بجانب سلة من أغصان الصفصاف على بطانية مليئة بما يبدو أنه طعام لنزهة في الهواء الطلق، كان الطعام عبارة عن رغيف خبز، إناء مربى، كعك، تفاح، وقوارير من شراب الشعير بنكهة الزنجبيل.

كان التعليق يفيد "إعادة النظر في عمر الخيام [دراسة نقدية لإدوارد فيتزجيرالد]؛ غريمنستر تجعلنا فخورين. من اليسار إلى اليمين، هافيلاند دي لوس، هوراس بونبي، وروبرت ستانلي يقفون لالتقاط صورة تمثل مشهداً من كتاب الشاعر الفارسي".

لم يكن هناك شك في أن الفتى إلى اليسار، الذي يجلس على البطانية ويضع ساقاً على ساق، كان والدي، والذي يبدو أكثر سعادة وفرحاً وخلواً من الهموم مما عرفته يوماً. في الوسط، كان الغلام الطويل النحيل الذي يتظاهر أنه على وشك أن يقضم شطيرة هوراس بونبي. كنت قد تعرّفت إليه حتى من دون أن أقرأ التعليق. في الصورة، كانت خصلات شعره الأحمر المتجعد قد تسببت بظهور هالة شاحبة حول رأسه.

لم أستطع منع رعشة سرت في جسدي عندما فكرت في كيف كان سيبدو كجثة.

بعيداً قليلاً عن زميليه، كان الفتى الثالث، الذي يميل رأسه بزاوية غير طبيعية، يبدو مهتماً للغاية بإظهار أفضل صورة له. كان يبدو ضخماً وأكبر سناً من الآخرين، ويتمتع بسمات نجم فيلم صامت.

كان ذلك غريباً، لكن، كان ينتابني شعور أنني قد رأيت ذلك الوجه من قبل.

مكتبة الرمحي أحمد

مكتبة الرمحي أحمد

فجأة شعرت كما لو أن شخصاً ألقى بسحلية على عنقي. بالطبع كنت قد رأيت ذلك الوجه، ومنذ وقت ليس ببعيد أيضاً! كان الفتى الثالث في الصورة الشخص الذي عرّفني على نفسه قبل يومين فقط على أنه فرانك بمبرتون، فرانك بمبرتون، الذي كان قد وقف معي في كوخ بكشو تحت المطر، فرانك بمبرتون، الذي كان قد أخبرني هذا الصباح أنه سيذهب لرؤية ضريح في نيذر إيتون.

شيئاً فشيئاً كانت الحقائق تتجمع، رأيتها بوضوح كما لو أن الغشاوة زالت عن عينيّ.

كان فرانك بمبرتون هو بوب ستانلي وبوب ستانلي هو *الرجل الثالث*. كان هو من قتل هوراس بونبي في قطعة الأرض المزروعة بالخيار في بكشو. كنت مستعدة للمراهنة بحياتي على ذلك.

بعد أن اتضح كل شيء آنذاك، أخذ قلبي يخفق بقوة حتى ظننت أنه على وشك أن ينفجر.

كان هناك شيء مريب بشأن بمبرتون منذ البداية، ومجدداً كان هناك شيء لم أفكّر فيه منذ يوم الأحد عندما كنت في الكوخ. كان شيئاً قاله... لكن ماذا؟

كنا قد تكلمنا عن الطقس، وتعرّفنا إلى أسماء بعضنا. كان قد أقرّ أنه يعرف سلفاً من أكون، وأنه بحث عنا في *دليل المشاهير*. لماذا سيكون بحاجة إلى القيام بذلك إذا كان يعرف والدي معظم حياته؟ هل كانت تلك الكذبة التي جعلت قرن استشعاري غير المرئي يدور باتجاه آخر؟

كان هناك شيء في لهجته، كما أتذكر، طفيف، لكن بالرغم من ذلك...

كان قد أخبرني عن كتابه، *منازل بمبرتون الفخمة، جولة عبر الزمن*. افترضت أن ذلك يبدو معقولاً.

مكتبة الربيعي أحمد

ماذا كان قد قال أيضاً؟ لا شيء مهم حقاً، ثرثر عن تواجدنا معاً على جزيرة مهجورة. وإننا يجب أن نكون صديقين.

تحولت الكمية الصغيرة من المادة المشتعلة التي كان الدخان ينبعث منها في الجزء الخلفي من ذهني فجأة إلى نيران مستعرة!

"أنا واثق أننا سنصبح صديقين بسرعة".

كانت تلك كلماته بالضبط! لكن أين سمعت ذلك من قبل؟

مثل كرة على خيط مطاطي، عادت أفكاري إلى أحد أيام الشتاء. بالرغم من أن الوقت كان لا يزال باكراً، إلا أن لون الأشجار خارج نافذة غرفة الاستقبال كان قد تحول من الأصفر إلى البرتقالي فالرمادي، ولون السماء من الأزرق الداكن إلى الأسود.

كانت السيدة موليت قد جلبت لنا طبقاً من الكعك وأسدلت الستائر. كانت فيلي تجلس على الأريكة تنظر إلى انعكاس صورها على الجزء الخلفي من ملعقة طعام، وكانت دافني تستلقي على كرسي والدي الوثير القديم قرب الموقد. كانت تقرأ بصوت عالٍ من بينرود، وهو كتاب كانت قد استولت عليه من الرف الصغير المخصص لأدب الأطفال الذي كان محفوظاً في غرفة ملابس هاريت.

كان بينرود سكوفيلد في الثانية عشرة من عمره، أكبر مني بسنة وبضعة أشهر، لكنه بالرغم من ذلك لم يكن يثير اهتمامي. بالنسبة إليّ، كان بينرود يبدو مثل هكلبري فين [هاك فين أو التوت الفنلندي] وقد سافر إلى الأمام عبر الزمن إلى الحرب العالمية الأولى، واستقر في مدينة أمريكية غير معروفة في الغرب الأوسط. بالرغم من أن الكتاب كان مليئاً بالإسطبلات، والأزقّة، والأسيجة العالية، وعربات التوصيل التي كانت الخيول لا تزال تجرّها في تلك الأيام، إلا أن الشيء كله كان يبدو لي غريباً كما لو أن أحداثه وقعت على كوكب بلوتو. كنت

مكتبة الربيعي أحمد

وفيلي قد جلسنا مذهولتين عندما كانت دافني تقرأ *سكاراموتشا [رواية رافائيل ساباتنيني]*، *جزيرة الكنز*، *حكاية مدينتين*، لكن، كان هناك شيء بشأن بينرود جعل عالمه يبدو بعيداً عنا زمنياً مثل العصر الجليدي. قالت فيلي، التي تفكّر في الكتب بمعايير الألحان الغنائية، إنه مكتوب وفقاً لنوتة موسيقية.

بالرغم من ذلك، بينما كانت دافني تقلّب صفحاته ببطء، كنا قد ضحكنا مرة أو اثنتين، هنا وهناك، على تمرد بينورد على والديه والسلطة، لكنني كنت قد تساءلت في ذلك الوقت عن أوجه الشبه بين فتى مثير للمتاعب يتمتع بمخيلة كبيرة، وربما يحظى بالحب، والشابة هاريت دي لوس. ربما يمكنني الآن أن أخمّن.

كان المشهد الأكثر إثارة، كما أتذكر، عندما يتم تقديم بينرود لرجل الدين المنافق السيد كينوسلنغ، الذي ربت على رأسه وقال: "أنا واثق أننا سنصبح صديقين بسرعة". كان ذلك نوعاً من التنازل الذي تعايشت معه طيلة حياتي، وربما ضحكت منه بصوت عال أيضاً.

بيت القصيد أن بينرود كان كتاباً أمريكياً، ألّفه كاتب أمريكي. لم يكن محتملاً أن يكون معروفاً هنا في إنكلترا كما هي الحال في الخارج.

هل يمكن أن يكون بمبرتون - أو بوب ستانلي، كما أعرفه الآن - قد قرأ الكتاب، أو العبارة، في إنكلترا؟ كان ذلك ممكناً، بالطبع، لكنه بدا مستبعداً. ألم يخبرني والدي أن بوب ستانلي - بوب ستانلي نفسه الذي كان شريك هوراس بونبي - قد سافر إلى أمريكا وأسس تجارة مشبوهة في مجال الطوابع البريدية؟

كانت لهجة بمبرتون أمريكية! أحد طلاب غريمنستر القدامى مع لمسة فقط من العالم الجديد.

مكتبة الرمحي أحمد

يا لحماقتي!

ألقيت نظرة خاطفة عبر النافذة، واكتشفت أن السيدة فيرويذر قد رحلـــت، وطـــريق البقرة أصبح خاوياً. تركت الكتاب مفتوحاً على الطاولـــة، خرجت من الباب بهدوء، وشققت طريقي من خلف غرفة الصيانة إلى النهر.

قـــبل مئة سنة مضت، كان نهر إيفون جزءاً من نظام القنوات، بالرغم من أنه لم يتبق منه الآن سوى الدرب المحاذي لضفته. في نهاية طـــريق البقرة، كانت هناك بضع بقايا متهالكة لدعائم كانت تحدُّ ســـابقاً ساتراً ترابياً، لكن، عند اقترابها من دار العبادة، كانت مياه النهر تخرج عن مجراها الضيق لتشكل في أماكن محددة أحواضاً مائية واسعة، كان أحدها مركز منطقة المستنقعات الدنيا خلف دار عبادة سان تانكريد.

دخلت عبر البوابة المقنطرة العتيقة إلى المقبرة، حيث كانت شواهد القـــبور القديمـــة تميل مثل عوّامات طافية في بحر من الأعشاب الطويلة جداً، حتى إنني وجدت صعوبة في التقدم عبرها كما لو أنني أخوض في ماء يصل إلى خصري على الساحل.

كانت القبور القديمة، وتلك الخاصة بأغنى أبناء الأبرشية السابقين، الأقـــرب إلى دار العـــبادة، بيـــنما توجد في الخلف على طول الجدار الحجري قبور أولئك الذين تم دفنهم لاحقاً.

كانـــت هناك أيضاً كومة تراب كبيرة. كانت خمسمئة سنة من الاستخدام المتواصل قد منحت المقبرة شكل رغيف قائم، رغيف سميك من خبز طازج، يرتفع بشكل ظاهر للعيان فوق مستوى الأرض المحيطة بـــه. سرت في جسدي قشعريرة عندما فكّرت في الرفات المتحللة التي توجد تحت قدميّ.

مكتبة الرمحي أحمد

لــبعض الوقت تجولت على غير هدى بين شواهد القبور، أقرأ أسماء العائلات التي يسمعها المرء تتكرر غالباً في بيشوب لاسي؛ كومبز، نسبت، باركــر، هــور، وكارميكايل. كان هناك، مع حَمَل منقوش على شاهدة قبره، ويليام الصغير، الابن الرضيع لتولي ستوكر، الذي لو كُتبت له الحياة، لكان أصبح الآن رجلاً في الثلاثين من العمر، والشقيق الأكبر لماري. كان ويلــيام الــصغير قد توفي عندما كان عمره خمسة شهور وأربعة أيام فقط نتــيجة إصابته بالخناق، كما قيل، في ربيع العام 1919، قبل سنة من قيام السيد توييننغ بالقفز من أعلى برج الساعة في غريمنستر. كان هناك احتمال كبير، إذاً، أن يكون الدكتور مدفوناً أيضاً في مكان ما قريب.

للحظة ظننت أنني قد وجدته، شاهدة قبر سوداء مدببة كهرم من الأعلــى تحمل اسم *توييننغ* عليها. لكن، تبين أن توييننغ ذاك، عند إلقاء نظــرة أكثــر تفحصاً، هو أدولفوس الذي فُقد في البحر عام 1809. كانــت شــاهدة قبره بحال سليمة بشكل جدير بالملاحظة حتى إنني لم أستطع مقاومة حافز تمرير أصابعي فوق سطحها المصقول البارد.

قلت: "لترقد بسلام يا أدولفوس، أينما كنت".

كــنت أعــرف أن شاهدة قبر السيد توييننغ - على افتراض أنها موجودة، وكنت أجد صعوبة في تصديق عكس ذلك - لن تكون من نــوع الحجر الرملي المجوّى [يتغير لونه نتيجة العوامل الجوية] الذي يميل مثل أسنان بنية نخرة، أو أحد تلك الصروح الكبيرة التي تحيطها سلاسل متدلــية وأســيجة حديديــة مزخرفة تحدد قطع الأرض الخاصة بأغنى العائلات وأكثرها أرستقراطية في بيشوب لاسي (بما في ذلك أي عدد من آل دي لوس الراحلين).

وضــعت يــديّ على وركيّ، ووقفت بين الأعشاب التي كانت تــصل إلى خــصري في وسط المقبرة. على الطرف الآخر من الجدار

الحجـــري كـــان هناك درب، وخلفه، النهر. في مكان ما هناك كانت الآنسة مونتجوي قد اختفت إثر مغادرتها لدار العبادة، مباشرة بعد أن طلب القس منا الصلاة لراحة نفس هوراس بونبي. لكن إلى أين كانت تذهب؟

عبرت البوابة المقنطرة مرة أخرى نحو الدرب بمحاذاة النهر.

كـــان بمقدوري آنذاك أن أرى بوضوح أحجار الممشى التي تبدو بشكل متقطّع بين جداول تغطيها حشائش الماء، تحت سطح النهر الذي يجـــري ببطء. كانت تلك الأحجار تمتد عبر البحيرة الواسعة إلى ضفة طينية منخفضة على الطرف الآخر، والتي يمتد فوقها وخلفها وشيع من العلّيق يحدّ حقلاً يعود إلى مزرعة مالبلاكت.

خلعت حذائي وجوربـــي، ودست على أول حجر. كانت المياه أبرد مما توقعت. كان أنفي لا يزال يسيل قليلاً وعيناي تدمعان، وخطر ببالي أنني قد أموت من التهاب ذات الرئة خلال يوم أو اثنين، وسأصبح خـــلال وقـــت قصير جداً أحد سكان مقبرة دار عبادة سان تانكريد الدائمين.

ألوّح بيديّ بإشارات مثل تلك التي تنظم حركة المرور، مشيت في طريقـــي بحـــرص عـــبر الماء وخضت حافية القدمين في طين الضفة. بالإمساك بحزمة من أعشاب طويلة استطعت تسلق الساتر، وهو جدار ترابـــي يرتفع بين النهر والحقل المجاور.

جلـــست على الأرض لألتقط أنفاسي، وأمسح الوحل عن قدميّ بحزمة من أعشاب برية تنمو في مجموعات على طول الوشيع. في مكان مـــا قـــريب كان يلمر أصفر [نقّار خشب] يغني كسرة خبز من دون جـــبن. صـــمت الطائر فجأة. أنصتّ باهتمام، لكن كل ما استطعت سماعه كان أصواتاً ريفية خافتة، طنيناً بعيداً لآلات زراعية تعمل.

مكتبة الربيعي أحمد

انتعلت جوربي وحذائي، نفضت الغبار عن نفسي، وبدأت أمشي على طول الوشيع، الذي كان يبدو في البداية كتلة متشابكة لا يمكن اختراقها من الأشواك والعلّيق. ثم، عندما كنت على وشك أن أستدير وأعود أدراجي، وجدها، فتحة ضيقة في الأجمّة، لا تزيد عن شق، حقاً. دفعت نفسي عبرها، وخرجت إلى الطرف الآخر من الوشيع.

على بعد بضع ياردات إلى الخلف، باتجاه دار العبادة، كان هناك شيء يبرز من بين الأعشاب. اقتربت منه بحذر، ووقف شعر الجزء الخلفي من عنقي كما لو أنني رأيت إنسان النياندرتال [وادي في ألمانيا عُثر فيه على بقايا هيكل عظمي لإنسان قديم].

كانت شاهدة قبر، وقد نُقِشَ عليها اسم غرينفل توويننغ.

كان على القاعدة المائلة للقبر كلمة واحدي: فالي!

فالي! - الكلمة التي كان السيد توويننغ قد صرخ بها من أعلى البرج! الكلمة التي كان هوراس بونبني قد نطقها في وجهي وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة.

شعرت بإدراك يندفع بقوة عبر جسدي مثل موجة: لم يكن ذهن بونبني خلال احتضاره يريد شيئاً سوى الاعتراف بقتل توويننغ، وكان القدر قد منحه كلمة واحدة فقط ليفعل ذلك. بسماعي لاعترافه، كنت قد أصبحت الشخص الوحيد على قيد الحياة الذي يستطيع ربط حالتي الوفاة معاً. إلى جانب، ربما، بوب ستانلي. السيد بمبرتون كما أعرفه.

عندما خطرت لي تلك الفكرة، سرت قشعريرة على طول عمودي الفقري.

لم تكن هناك تواريخ مسجلة على شاهدة قبر السيد توويننغ، كما لو أن الذي دفنه هناك أراد طمس تاريخه. كانت دافني قد قرأت لنا

مكتبة الرمحي أحمد

حكايات عن منتحرين يتم دفنهم خارج المقابر أو عند تقاطع طرقات، لكـــني لم أكن أظن أنها أكثر من معتقدات قديمة. بالرغم من ذلك، لم يسعني سوى أن أتساءل ما إذا كان السيد توييننغ، مثل دراكولا، ممدداً تحت قدميّ وملفوفاً بإحكام بعباءته؟

لكـــن العباءة التي كنت قد عثرت عليها مخبأة في سطح برج دار الطلاب - التي كانت آنذاك مع الشرطة - لم تكن تخص السيد توييننغ. كان والدي قد أوضح بجلاء أن السيد توييننغ كان يرتدي عباءته عندما ســقط. وكذلك فعل، أيضاً، توبـــي لونسديل في الحكاية التي سردها لصحيفة *ذا هنلي كرونيكل*.

هـــل كان كلاهما على خطأ؟ كان والدي قد أقرّ، بالمحصلة، أن الشمس ربما سطعت في عينيه. ماذا كان قد قال لي أيضاً؟

أتذكـــر كلماته بالتحديد عندما وصف وقوف السيد توييننغ على حاجز السطح:

كان والدي قد قال: "كان رأسه كله يبدو متوهجاً. شعره يشبه قرصاً من نحاس مطروق تحت الشمس كهالة تحيط بصالح من الصالحين في مخطوطة مضاءة".

ثم اعـــتملت باقـــي الحقـــيقة بداخلي مثل نوبة من الغثيان: كان هـــوراس بونـــبي هناك في الأعلى عند السور. هوراس بونبي صاحب الشعر الأحمر؛ هوراس بونبي المقلّد؛ هوراس بونبي لاعب الخفة.

كان الأمر كله خدعة تم التخطيط لها ببراعة!

كانت الآنسة مونتجوي محقة. كان *قد* قتل خالها.

لا بد أنه وشريكه، بوب ستانلي، قد أغريا السيد توييننغ للصعود إلى ســطح الــبرج، على الأرجح بزعم إعادة الطابع البريدي المسروق الذي كانا يخفيانه هناك.

مكتبة الرمحي أحمد

كان والدي قد أخبرني عن حسابات بونبي الغريبة في الرياضيات، ولا بد أن تجواله خلسة بين المباني قد جعله يعرف تماماً وضع آجر البرج كما لو أنه غرفته الخاصة.

عندما هدّد السيد تويننغ بفضحهما، قتلاه، ربما بسحق رأسه بقطعة من القرميد. كان مستحيلاً اكتشاف الضربة القاتلة بعد ذلك السقوط الفظيع. ثم قاما بفبركة عملية الانتحار، تم التخطيط لكل شيء بدم بارد. ربما كانا قد تمرّنا على ذلك أيضاً.

كان السيد تويننغ من سقط على الحصى، لكن بونبي هو من داس على الحاجز تحت أشعة شمس الصباح، مرتدياً عباءة ومعتمراً قبعة مستعارتين، هو الذي صرخ *"فالي!"* نحو الصبية في الباحة. *"فالي!"*، كلمة لا يمكن أن تعني سوى الانتحار.

بعد قيامه بذلك، توارى عن الأنظار خلف الحاجز بينما كان ستانلي يرمي الجثة عبر فتحة التصريف في السقف. بالنسبة إلى مراقب على الأرض تسطع أشعة الشمس في عينيه، بدا الأمر كما لو أن الرجل العجوز قد سقط مباشرة على الأرض. لم تكن تلك أكثر من خدعة بعث *تشانغ فو*، لكن على مسرح أوسع، أمام عيون منبهرة من ضوء الشمس.

كان ذلك مقنعاً تماماً!

طيلة تلك السنوات، كان والدي يظن أن صمته هو الذي دفع السيد تويننغ للانتحار، وأنه كان مسؤولاً عن وفاة الرجل العجوز! يا له من عبء ثقيل، ورهيب، يحمله!

طيلة ثلاثين سنة، لغاية عثوري على الدليل بين آجر دار الطلاب، لم يشك أحد أنها جريمة. وكادا ينجوان بفعلتهما تلك.

مددت يدي، ومسست شاهدة قبر السيد تويننغ لأتمالك روعي.

مكتبة الرمحي أحمد

قال شخص خلفي: "أرى أنكِ قد عثرت عليه". وتجمدّت الدماء في عروقي عندما سمعت صوته.

استدرت، فوجدت نفسي وجهاً لوجه أمام فرانك بمبرتون.

مكتبة الربيعي أحمد

الثالث والعشرون

كلما تقابل شخص وجهاً لوجه مع قاتل في رواية أو فيلم، تكون كلماته الأولى دائماً مليئة بالوعيد، ومستوحاة غالباً من شكسبير.

يهمس غالباً: "حسناً، حسناً. الرحلات تنتهي بلقاء المحبين"، أو "الشبان الحكماء، كما يقولون، لا يعيشون طويلاً".

لكن فرانك بمبرتون لم يقل شيئاً من ذلك بل، في الواقع، على العكس تماماً:

قال بابتسامة باهتة: "مرحباً يا فلافيا. سعيد للقائك هنا".

كانت شراييني تنبض بقوة، وكان بمقدوري آنذاك أن أشعر بالغضب يزداد على وجهي، الذي أصبح مباشرة، بالرغم من برودة الطقس، حاراً مثل صينية خبز الكعك.

لم يخطر ببالي سوى فكرة واحدة فقط: يجب أن لا يعرف... يجب أن أحافظ على السر. يجب أن أكتم أنني أعرف أنه بوب ستانلي.

قلت وأنا آمل ألا يكون صوتي يرتعش خوفاً: "مرحباً. كيف كان الضريح؟".

كنت أعرف سلفاً أنني لا أخدع أحداً سوى نفسي. كان يراقب وجهي بالطريقة التي يراقب بها قطٌّ عصفوراً عندما يكونان لوحدهما في المنزل.

مكتبة الربيعي أحمد

قال: "الضريح؟ آه! بناء من رخام أبيض. يشبه كثيراً حلوى اللوز، لكن أكبر بالطبع".

قررت مجاراته إلى أن أتمكّن من الخروج بخطة ما.

"أتوقع أن ناشرك كان سعيداً".

"ناشري؟ آه، نعم. العجوز...".

قلت: "كوارنغتون".

"نعم. صحيح. كوارنغتون. شعر ببهجة كبيرة".

وضع بمبرتون - كنت لا أزال أفكر فيه على أنه بمبرتون - حقيبته أرضاً، وبدأ يفك أحزمتها الجلدية.

قال: "الطقس حار، أليس كذلك؟".

خلع سترته، رماها من دون اهتمام فوق كتفه، وأشار بإبهامه إلى شاهدة قبر السيد توينيغ.

"لماذا أنتِ مهتمة كثيراً به؟".

قلت: "كان مدير مدرسة والدي القديمة".

"آه!". جلس أرضاً، واستند إلى قاعدة القبر عَرضاً كما لو أنه لويس كارول وأنا أليس، نتنزه على ضفة نهر إيزس [التايمز كما كان يدعى في العهد الفيكتوري].

ما مقدار ما كان يعرفه؟ تساءلت. انتظرت أن يُقدم على خطوته الأولى. كان بمقدوري الاستفادة من الوقت للتفكير.

كنت أخطط آنذاك لهروبي. هل كان بمقدوري الفرار إذا أطلقت ساقيّ للريح؟ كان ذلك يبدو مستبعداً. إذا انطلقت نحو النهر، سيلحق بي قبل أن أقطع نصف المسافة. إذا توجهت نحو حقول مزرعة مالبلاكت، سيكون احتمال عثوري على مساعدة هناك أقل مما إذا ركضت إلى الشارع الرئيس.

مكتبة الرمحي أحمد

قال فجأة، وهو ينظر من دون اكتراث نحو المزرعة: "فهمت أن والدك مهتم بجمع الطوابع".

"إنه يجمع الطوابع، نعم. كيف عرفت ذلك؟".

"ذكر ناشري - السيد كوارنغتون - ذلك هذا الصباح في نيذر إيتون. كان يفكّر في أن يطلب من والدك أن يكتب تاريخ طابع بريدي غامض، لكنه لم يكن يعرف ما هي أفضل طريقة للتحدث إليه. نظراً إلى أنني لا أفقه شيئاً عن ذلك الأمر... خارج اهتماماتي... تقني تماماً... اقترحت أن يقوم بالتحدث إليك".

كانت تلك كذبة، واكتشفت ذلك على الفور. لأنني أجيد الكذب، لاحظت العلامات الفارقة للكذبة قبل أن ينتهي من قولها، التفاصيل المفرطة، الارتجال، وتغليفها كلها بدردشة عادية.

أضاف: "قد يساوي ذلك ثروة، كما تعرفين. أصبح كوارنغتون ثرياً جداً منذ تزوج ملايين نورود، لكن لا تدعي أحداً يعرف أنني أخبرتك ذلك. أتوقع أن والدك لن يرفض بعض المال لشراء بعض المعدّات الجديدة، أليس كذلك؟ لا بد أن الأمر يتطلب مبالغ طائلة للعناية بمكان مثل بكشو".

كانت تلك إهانة كبيرة. لا بد أن الرجل كان يعتبرني حمقاء.

قلت: "والدي مشغول هذه الأيام، لكنني سأنقل هذا إليه".

"آه، نعم، هذا، الوفاة المفاجئة التي تكلمت عنها... الشرطة وكل تلك الأمور. لا بد أن ذلك شكّل عبئاً كبيراً".

هل كان سيُقدم على خطوة أم أننا كنا سنجلس هناك نتجاذب أطراف الحديث إلى أن يحل الظلام؟ ربما سيكون من الأفضل أن أتولى زمام المبادرة. بتلك الطريقة، على الأقل، سأتمتع بأفضلية المفاجأة. لكن كيف؟

مكتبة الرمحي أحمد

تذكرت نصيحة أخوية كانت فيلي قد وجهتها إليّ وإلى دافني:

قالت: "إذا تحرّش رجل بكِ، اركليه في كازانوفا [المنطقة الحسّاسة] واهربي بسرعة!".

بالرغم من أنها كانت تبدو في ذلك الوقت معلومة مفيدة، إلا أن المشكلة الوحيدة أنني لم أكن أعرف أين تقع كازانوفا.

كنت مضطرة إلى التفكير في شيء آخر.

كشطت مقدمة حذائي بالرمل، وكنت سأمسك بحفنة منه وأقذفها في عينيه قبل أن يعرف ما أصابه. رأيته يراقبني.

نهض ونفض الغبار عن الجزء الخلفي من سرواله.

قال: "يفعل الشخص أحياناً شيئاً بسرعة ثم يندم عليه بعد ذلك".

هل كان يشير إلى هوراس بونبني أم إلى نفسه؟ أم كان يحذّرني من مغبة القيام بأي حركة سخيفة؟ "رأيتك في ثلاثة عشر علجوماً، كما تعرفين. كنت داخل الباب الرئيس تنظرين إلى السجل عندما توقفت سيارة الأجرة التي تقلّني".

اللعنة! لقد رآني أحدهم بالمحصلة.

قلت: "لدي أصدقاء يعملون هناك. ماري ونيد. أمرّ أحياناً لإلقاء التحية".

"وهل تفتشين دائماً غرف النزلاء؟".

شعرت أن لون وجهي يصبح أحمر وهو يقول ذلك.

تابع قائلاً: "كما توقعت. اسمعي يا فلافيا، سأكون صريحاً معك. شريكي في العمل كان يحتفظ بشيء ليس مُلكاً له. كان لي. الآن، أعرف حق المعرفة أنكِ وابنة صاحب الخان، إلى جانب شريكي، الوحيدون الذين دخلوا الغرفة. أعرف أيضاً أن ماري ستوكر ليس لديها سبب لتأخذ ذلك الشيء الخاص. بماذا يجب أن أفكّر؟".

مكتبة الرمحي أحمد

سألت: "هل تشير إلى ذلك الطابع القديم؟".

كان ذلك عملاً ينطوي على كثير من المجازفة، وقد كنت محصورة في خانة اليك(*). استرخى بمبرتون على الفور.

قال: "اعترفت بذلك؟ أنتِ فتاة أذكى مما كنت أظن".

قلت: "كان على الأرض تحت صندوق الثياب. لا بد أنه سقط هناك. كنت أساعد ماري على تنظيف الغرفة. كانت قد نسيت القيام ببعض الأمور، ووالدها، كما تعرف، يمكن أن يصبح -".

"فهمت. إذاً سرقتِ طابعي وأخذته إلى المنزل".

عضضت شفتيّ، لويت وجهي، وفركت عينيّ. "لم أسرقه في الواقع. ظننت أن أحداً أوقعه. لا، ذلك ليس صحيحاً تماماً. كنت أعرف أن هوراس بونبي قد أوقعه، ولأنه كان قد فارق الحياة، لم يكن بحاجة إليه. فكّرت في تقديمه هدية لوالدي ليهدأ غضبه بعد أن حطّمت مزهرية تيفاني. هذا كل شيء، وقد أصبحت تعرفه الآن".

صفّر بمبرتون: "مزهرية تيفاني؟".

قلت: "كانت تلك حادثة. ما كان يجب أن ألعب كرة المضرب في المنزل".

قال: "حسناً، هذا يحل المشكلة، أليس كذلك؟ لقد سلّمت طابعي وانتهى الأمر. اتفقنا؟".

أومأت بسعادة: "سأجري إلى المنزل وأحضره".

انفجر بمبرتون ضاحكاً وضرب بيده على ساقه. عندما تمالك نفسه، قال: "أنتِ بارعة، بالنسبة إلى عمرك. تذكرينني بنفسي. ستركضين إلى المنزل وتجلبينه بالفعل!".

(*) تعبير يستعمل في لعبة نرد الطاولة.

مكتبة الربيعي أحمد

قلــت: "حسناً إذاً. سأخبرك أين خبّأته، ويمكنك الذهاب وإحضاره بنفسك. سأبقى هنا. بشرف فتاة الكشّافة!".

أشــرت بتحــية فتــيات الكشّافة ثلاث مرات بأصابعي. لم أخــبره أنــي لم أعد فعلياً عضواً في تلك المنظمة، ولم أكن كذلك مــنذ طــردي بعد تصنيع هيدروكسيد الحديد لأحصل على شارة "الخدمــة الأهلية". لم يكن يبدو أن أحداً يهتم أنه الترياق للتسمم بالزرنيخ.

ألقــى بمبرتون نظرة على ساعة معصمه. قال: "لقد تأخر الوقت. ليس لدينا مزيد من الوقت للمزاح".

كانــت قــسمات وجهه قد تغيرت، كما لو أن ستارة أُسدلت عليها. كانت هناك برودة مفاجئة في الهواء.

اندفع نحوي، وأمسك بمعصمي. أطلقت صرخة ألم. كنت أعرف أنــه خلال بضع ثوانٍ أخرى سيلوي ذراعي خلف ظهري. استسلمت فوراً.

قلت من دون تفكير: "أخفيته في غرفة ملابس والدي في بكشو. هناك ساعتان في الغرفة، واحدة كبيرة بجانب رف الموقد وأخرى أصغر علــى الطاولة بجانب سريره. الطابع ملصق على رقّاص الساعة بجانب رف الموقد".

ثم حــدث شيء بغيض، بغيض و، كما تبين لاحقاً، رائع جداً في الوقت نفسه، عطست.

كــان زكامــي ساكناً، وكدت أنساه، معظم النهار. كنت قد لاحظــت أن الزكام، بالطريقة نفسها التي يختفي بها عندما يكون المرء نائمــاً، يزداد سوءاً عندما تشغل نفسك به. كان زكامي قد عاد فجأة بقوة أكبر من ذي قبل.

مكتبة الرمحي أحمد

نسيت للحظة أن منتقم *الستر* موجود داخله، أخرجت منديلي. لا بد أن بمبرتون، الذي فزع، قد ظن أن حركتي المفاجئة مقدمة للهرب، أو ربما تكون هجوماً على شخصه.

أياً كان الأمر، عندما رفعت المنديل إلى الأعلى نحو وجهي، وقبل حتى أن أفتحه، لوى بمبرتون ذراعي بحركة خاطفة، كوّر قطعة القماش القطنية على شكل كرة، ودسّها، مع الطابع، في فمي.

قال: "حسناً، إذاً. سنرى ما تؤول إليه الأمور".

سحب سترته عن كتفه، بسطها مثل رداء مصارع ثيران، وآخر شيء رأيته قبل أن يضع ذلك الشيء على رأسي كان شاهدة قبر السيد توييننغ، وكلمة *"فالي!"* المنقوشة على قاعدته. *الوداع*.

اشتد شيء حول صدغيّ، وأظن أن بمبرتون كان يستخدم حزامي حقيبته لإحكام تثبيت السترة في مكانها.

رفعني على كتفه، وحملني عائداً عبر النهر بسهولة كما يفعل جزّار بقطعة من لحم العجل. قبل أن يتوقف رأسي عن الدوران كان قد وضعني مجدداً على قدميّ.

ممسكاً بالجزء الخلفي من عنقي بإحكام بإحدى يديه، استخدم الأخرى للإمساك بأعلى ذراعي بقبضة تشبه الملزمة، ودفعني بقسوة أمامه على طول الدرب المحاذي للنهر.

"ضعي قدماً أمام الأخرى حتى أطلب منكِ التوقف".

حاولت أن أصرخ طلباً للنجدة، لكن فمي كان يملأه منديل رطب. لم يخرج مني شيء سوى تأفف غاضب. لم أستطع حتى إخباره كم كان يؤلمني.

أدركت فجأة أنني كنت أكثر خوفاً مما سبق في حياتي.

مكتبة الرمحي أحمد

بينما كنت أتعثر على طول الطريق، ابتهلت أن يرانا بعض الناس؛ لأنهم إذا رأونا، سيصرخون بالتأكيد، وبالرغم من أن رأسي ملفوف بإحكام بسترة بمبرتون، إلا أنني كنت من دون شك أستطيع سماعهم. إذا سمعتهم، كنت سأحرر نفسي بقوة وأندفع نحو الصوت. لكنني كنت أعرف أن القيام بذلك قبل الأوان سيجعلني عرضة لخطر التعثر في النهر، وأن يتركني بمبرتون هناك لأغرق.

قال فجأة، بعد أن مشيت مسافة قدّرت أنها مئة ياردة: "توقفي هنا من دون حراك".

أطعته.

سمعته يعبث بشيء معدني وبعد لحظة فتح ما بدا أنه باب، غرفة الصيانة!

قال: "خطوة واحدة إلى الأعلى، تماماً... والآن ثلاث خطوات إلى الأمام، وتوقفي".

خلفنا، أُغلق الباب مثل غطاء تابوت، وأصدر طقطقة خشبية.

قال بمبرتون: "أفرغي جيوبك".

لم يكن هناك سوى واحد، الجيب في سترتي. لم يكن فيه شيء سوى مفتاح باب المطبخ في بكشو. كان والدي قد أصرّ دائماً على أن تحمل كل منا مفتاحاً في كل الأوقات تحسباً لحالة طارئة مفترضة، ولأنه كان يقوم بإجراء تفقّد دوري، فقد كان دائماً بحوزتي. عندما قلبت جيبي إلى الخارج، سمعت المفتاح يسقط إلى الأرض الخشبية، ثم يثب وينزلق عليها. بعد ثانية كان هناك رنين خافت عندما استقر على الإسمنت.

قال: "تباً!".

جيد! كان المفتاح قد سقط في حفرة الخدمة، وكنت واثقة من ذلك. كان على بمبرتون آنذاك أن يسحب الألواح الخشبية التي تغطيها،

مكتبة الرمحي أحمد

وينـــــزل إلى الحفـــرة. كانت يداي لا تزالان حرتين، كنت سأمزّق سترته عن رأسي، أهرب من الباب، أسحب المنديل من فمي، وأصرخ مـــثل عـــذول عجوز وأنا أجري نحو الشارع الرئيس. لم يكن الأمر سيستغرق أكثر من دقيقة.

كـــنت محقة. مباشرة تقريباً، سمعت صوت سحب الألواح الثقيلة التي لا يمكن أن تخطئها أذني عبر أرض الغرفة. كان بمبرتون يتأفف وهو يسحبها بعيداً عن فتحة الحفرة. كان يجب أن أتوخى الحذر في اختيار طـــريق هروبـــي، خطوة واحدة غير صحيحة وسأقع في الحفرة وأدق عنقي.

لم أكـــن قد تحركت منذ أن دخلت من الباب والذي، إذا كنت محقة، سيكون خلفي والحفرة أمامي. كان يجب أن أستدير مئة وثمانين درجة وأنا معصوبة العينين.

إما أن بمبرتون يمتلك قدرات خارقة للطبيعة، أو أنه لاحظ حركة رأســـي الدقـــيقة. قبل أن أستطيع فعل أي شيء، كان إلى جانبـــي، جعلني أدور حول نفسي ست مرات، كما لو أنه يبدأ لعبة العثور على شـــخص ما. عندما توقف أخيراً، كنت مشوشة تماماً وبالكاد أستطيع الوقوف.

قال: "الآن إذاً، سننـــزل إلى الأسفل. احترسي لخطواتك".

هززت رأسي بسرعة من جانب إلى آخر، وفكّرت، وحتى عندما كـــنت أفعل ذلك، كم كان الأمر يبدو سخيفاً، وسترته الصوفية تلف رأسي.

"اسمعـــي يـــا فلافيا، كوني فتاة طيبة. لن أؤذيك طالما أحسنت التـــصرف. حالمـــا يصبح الطابع في بكشو بين يديّ، سأرسل شخصاً ليحررك، وإلا...".

مكتبة الرمحي أحمد

وإلا؟

"... سأكون مرغماً على فعل شيء بغيض".

ظهرت صورة هوراس بونبي يلفظ أنفاسه الأخيرة في وجهي أمام عيني المعصوبتين، وكنت أعرف أن بمبرتون يستطيع تنفيذ تهديده.

سحبني من مرفقي إلى موقع افترضت أنه حافة الحفرة.

قال: "ثماني درجات إلى الأسفل. سأعدّها. لا تقلقي، سأمسك بك".

تقدمت خطوة في الفراغ.

قال بينما كانت قدمي تطأ على شيء صلب: "واحدة". وقفت هناك أترنح.

"أمر سهل أليس كذلك... اثنتان... ثلاثة، لقد قطعت نصف المسافة تقريباً".

مددت يدي اليمنى، وشعرت بحافة الحفرة على مستوى كتفي تقريباً. عندما اكتشفَت ركبتاي العاريتان هواء الحفرة البارد، بدأت ذراعي ترتعش مثل غصن يابس في ريح الشتاء. شعرت بقبضة محكمة على حنجرتي.

"جيد... أربعة... خمسة... لم تبق سوى اثنتين فقط".

كان ينزل متثاقلاً على الدرجات خلفي، واحدة في كل مرة. تساءلت إن كان بمقدوري الإمساك بذراعه، وسحبه بقوة إلى الحفرة. بقليل من الحظ كان رأسه سيتحطم على الإسمنت وسأزحف على جثته إلى الحرية.

تجمد في مكانه فجأة، وأمسكت أصابعه بعضلة ساعدي. أطلقت صرخة مكبوتة، فأرخى قبضته قليلاً.

قال بلهجة غاضبة لا يمكن العبث معها: "سكوتاً!".

مكتبة الرمحي أحمد

في الخارج، في طريق البقرة، كانت هناك شاحنة تتوقف، وجهاز تعشيق التروس يصدر أصواتاً مختلفة. كان أحدهم قادماً!

وقف بمبرتون ساكناً من دون حراك، وأنفاسه السريعة تثير الأعصاب في سكون الحفرة الباردة.

برأسي المغطّى بسترته، لم يكن بمقدوري سماع سوى أصوات في الخارج، تبعها صرير باب خلفي فولاذي.

غريب جداً أن الفكرة التي خطرت ببالي كانت عن فيلي. لماذا، كانت ستسأل، لم أصرخ؟ لماذا لم أمزق السترة عن رأسي، وأغرز أسناني في ذراع بمبرتون؟ كانت سترغب في معرفة كل التفاصيل، وبغض النظر عمّا أقوله، ستجادل كل حجة أقدّمها كما لو أنها رئيس المحكمة العليا [كبير القضاة في إنكلترا] نفسه.

كانت الحقيقة أنني أواجه صعوبة في التنفس. كان منديلي - قطعة متينة من القطن - محشوراً بإحكام في فمي لدرجة أنني شعرت بألم مبرّح في فكي. كان عليّ أن أتنفس عبر أنفي، وحتى عندما كنت أسحب شهيقاً عميقاً، لم يكن بمقدوري الحصول سوى على ما يكفي من الأوكسجين للبقاء صاحية.

كنت أعرف أنني إذا بدأت أسعل سأهلك لا محالة، وكان أقل جهد يجعل رأسي يدور. إضافة إلى ذلك، أدركت أن بضعة رجال يقفون في الخارج إلى جانب شاحنة تصدر ضوضاء عالية لن يستطيعوا سماع سوى هدير محركها. إذا لم أستطع الخروج بشيء يصمّ الآذان، لن يسمعني أحد. في أثناء ذلك، كان من الأفضل أن أقف ساكنة من دون حراك وألتزم الصمت. كان ذلك سيحافظ على طاقتي.

أغلق أحدهم الباب الخلفي للشاحنة الذي صدر عنه صرير فولاذي، وتحركت الشاحنة ببطء على التروس الأول. كنا لوحدنا مجدداً.

مكتبة الرمحي أحمد

قال بمبرتون: "حسناً... تابعي طريقك إلى الأسفل. لا تزال هناك درجتان".

قرصني من ذراعي بقوة فدفعت قدمي إلى الأمام.

قال: "سبعة".

توقفت، مترددة في نـــزول الدرجة الأخيرة التي ستضعني في قعر الحفرة.

"درجة أخرى. توخي الحذر".

كما لو أنه كان يساعد سيدة عجوز على عبور شارع مزدحم.

نـــــزلت درجـــة أخرى، ووجدت نفسي مباشرة أغوص حتى كاحلــيّ في نفايـــات. كان بمقدوري سماع بمبرتون يحرك تلك الأشياء بقدمه. كانت قبضته لا تزال قوية على ذراعي، ولم يخفف شدّها سوى لحظـــة واحدة عندما كان ينحني ليلتقط شيئاً. كان واضحاً أنه المفتاح. إذا كـــان يستطيع رؤيته، كما فكّرت، فلا بد أن ضوء النهار يصل إلى قعر الحفرة.

ضوء النهار في قعر الحفرة. لسبب لا يمكن تفسيره، أعادت تلك الفكـــرة إلى ذهني كلمات المفتش هيوت، بينما كان يقلّني إلى المنـــزل مـــن مخفر شرطة المقاطعة في هنلي؛ *إذا لم تكن هناك بعض الحلاوة في الأسفل، من يهتم بعدد طبقات الفطيرة؟*

ما الذي كان يعنيه بذلك؟ كان ذهني مشوشاً.

قال بمبرتون فجأة بشكل قطع سلسلة أفكاري: "آسف يا فلافيا، لكنني مضطر إلى تقييدك".

قبل أن أتمكن من استيعاب كلماته، كان قد وضع يدي اليمنى خلفـــي وأوثـــق معـــصميّ معاً. تساءلت عمّا كان قد استخدمه، ربطة عنقه؟

مكتبة الربيعي أحمد

بينما كان يشد وثاقي، تذكرت أن أضع رؤوس أصابعي معاً لتشكل قوساً، تماماً كما كنت قد فعلت عندما حبستني فيلي ودافني في الخزانة. متى كان ذلك؟ الأربعاء الماضي؟ بدا أن دهراً قد مرّ منذ ذلك الوقت.

لكن بمبرتون لم يكن أحمق. رأى فوراً ما كنت أنوي القيام به، ومن دون أي كلمة، ضغط ظاهر يديّ بين إبهامه وسبابته وانهار قوس الأمان الصغير نتيجة الألم الذي شعرت به. شد العقدة بإحكام حتى التصق معصماي معاً، ثم أوثق عقدة ثانية وثالثة، وكان يقوم بذلك بقوة وقسوة في كل خطوة.

مرّرت إبهاماً فوق العقدة، وشعرت بنعومتها المصقولة، بحرير محبوك. نعم، كان قد استخدم ربطة عنقه. لم تكن هناك فرصة كبيرة لأن أتخلص من *تلك* العقد!

كان معصماي يتصببان عرقاً آنذاك، وكنت أعرف أن الرطوبة ستجعل الحرير يتقلص قريباً. حسناً، ليس بالضبط، فالحرير مثل الشعر، بروتين ولا يتقلص من تلقاء نفسه، لكن الطريقة التي يُنسج بها يمكن أن تجعله يشتد كثيراً عندما يتعرض للرطوبة. بعد وقت قصير، كانت الدورة الدموية في يديّ ستتوقف، وعندها...

أمر بمبرتون وهو يدفعني من كتفيّ إلى الأسفل: "اجلسي". فجلست.

سمعت طقطقة إبزيم حزامه عندما خلعه، ولفّه حول كاحليّ ثم شدّه بإحكام.

لم ينبس ببنت شفة أخرى. طقطق حذاؤه على الإسمنت عندما كان يصعد على درجات الحفرة، ثم سمعت صوت سحب الألواح الخشبية الثقيلة فوق فتحتها.

مكتبة الرمحي أحمد

بعد بضع دقائق، أطبق الصمت. كان قد رحل.

كنت وحيدة في الحفرة، ولا أحد سوى بمبرتون يعرف مكاني.

كنت سأموت هناك، وعندما يجدون جثتي في نهاية المطاف، سيحملونني في عربة موتى سوداء لامعة، وينقلونني إلى مشرحة قديمة رطبة حيث سيضعونني على طاولة فولاذية.

سيكون أول شيء يفعلونه، هو فتح فمي وإخراج منديلي الرطب منه، وعندما يفتحونه على الطاولة بجانب رفاتي البيضاء، سيقع طابع برتقالي - طابع يعود للملك - إلى الأرض. كان الأمر شبيهاً بشيء يحدث في روايات أغاثا كريستي. سيكتب أحدهم - ربما حتى الآنسة كريستي نفسها - رواية بوليسية عن ذلك.

سأكون ميتة، لكنني سأظهر على الصفحة الأولى لصحيفة *نيوز أوف ذا ورلد* [أخبار العالم]. لو أنني لم أكن خائفة جداً، مرهقة للغاية، أتنفس بصعوبة بالغة، وأعاني ألماً فظيعاً، لكان الأمر بدا مسلياً.

مكتبة الرمحي أحمد

مكتبة الرمحي أحمد

الرابع والعشرون

لا تـــسير عملـــية الاختطاف أبداً بالطريقة التي تتخيلها. في المقام الأول، لم أعض وأخدش مختطفي. و لم أصرخ، كنت قد مشيت بهدوء مثل حمل وديع إلى الذبح.

العذر الوحيد الذي يمكنني التفكير فيه، هو أن كل قواي توجهت إلى تغذية أفكاري المتسارعة، وأنه لم يبق منها شيء لتحريك عضلاتي. عندما يحدث لك شيء مثل ذلك حقاً، يمكن أن تصبح نوعية الهراء التي تتوارد فوراً إلى ذهنك مذهلة.

تذكـــرت، مثلاً، ادّعاء ماكسيمليان أنه في جزر القنال يمكن أن تحتج وتصرخ قائلاً: *"انتبه يا أميري. شخص ما يهدّدني!"* .

كـــان القول سهلاً لكن الفعل صعب عندما يكون فمك محشواً بقطعة من القطن، ورأسك تغطيه سترة غريب صوفية تفوح منها رائحة عرق ومرهم عطري للشعر.

بالإضـــافة إلى ذلك، كما فكّرت، كان هناك نقص ملحوظ في عدد الأمراء في إنكلترا هذه الأيام. كان الوحيدان اللذان يمكنني التفكير فـــيهما، في تلـــك اللحظة، هما زوج الأميرة إليزابيث، الأمير فيليب، وابنهما الصغير، الأمير تشارلز.

كـــان ذلـــك يعـــني، بكـــل المعـــايير العملـــية، أنني كنت لوحدي.

مكتبة الربيعي أحمد

ماذا كانت ماري – آن بول لافوازييّه ستفعل؟ تساءلت. أو في ما يتعلق بتلك القضية، ماذا سيفعل زوجها أنطوان؟

كانت ورطتي آنذاك تذكرني تماماً بشقيق ماري – آن، الذي تم لفّه بحرير مدهون بالزيت وجعله يتنفس عبر قشّة. وكان مستبعداً، وفقاً لما كنت أعرفه، أن يندفع أحد إلى غرفة الصيانة لينقذني. لم تكن هناك مقصلة في بيشوب لاسي، لكن، لم تكن هناك أيضاً أي معجزات.

لا، كان التفكير في ماري – آن وعائلتها التي قضت نحبها ببساطة أمراً يثير الكآبة في النفس. كان يجب أن أتطلع إلى كيميائيين كبار آخرين ليكونوا مصدر إلهام لي.

ماذا، إذاً، كان روبرت بنسن، مثلاً، أو هنري كافنديش سيفعلان إذا وجدا نفسيهما مقيدين ومكممين في قعر حفرة تشحيم؟

أصابتني الدهشة من السرعة التي خطر بها الجواب على ذهني، سيقومان بتقييم الموقف.

حسناً، سأقوم بتقييم الموقف.

كنت في قعر حفرة طولها ست أقدام، والتي كانت أبعادها قريبة بشكل غير مريح من أبعاد قبر. كانت يداي وقدماي مقيدة ولن يكون سهلاً أن أتلّمس طريق خروجي. برأسي المغطى بسترة بمبرتون – والتي من دون شك أحكم شدّها في مكانها من ردنيها – لم يكن بمقدوري رؤية أي شيء. كان سمعي ضعيفاً لأن تلك القطعة الثقيلة من الملابس غطّت أذنيّ، وحاسة الذوق معطّلة لأن المنديل محشو في فمي.

كنت أجد صعوبة في التنفس لأن أنفي مغطى جزئياً، وكان أدنى جهد يستهلك كمية الأوكسجين القليلة التي تصل إلى رئتيّ. كنت بحاجة إلى الحفاظ على الهدوء.

مكتبة الرمحي أحمد

كانت الحاسة التي يبدو أنها تعمل بمرور الوقت هي الشم، وبالرغم من أن رأسي كان مغطّى تماماً، إلا أن رائحة الحفرة النتنة تسللت بكامل قوتها إلى أنفي. من الأسفل كانت تفوح رائحة كريهة لتربة بقيت سنوات طويلة تحت منزل إنسان، رائحة نفّاذة لأشياء من الأفضل عدم التفكير فيها. كان يطغى على تلك الخلفية روائح زيوت محركات قديمة، بنزين عتيق، أول أوكسيد الكربون، مطاط عجلات، وربما نفحة خفيفة من أوزون شمعات اشتعال احترقت منذ وقت طويل.

كانت هناك تلك النفحة الباقية من النشادر التي كنت قد شممتها من قبل. كانت الآنسة مونتجوي قد ذكرت الجرذان، ولم يكن سيفاجئني اكتشاف أنها تتكاثر في هذه المباني المهجورة على طول ضفة النهر.

كانت الأكثر إزعاجاً رائحة غاز الصرف الصحي، مزيج كريه من الميثان، كبريتيد الهيدروجين، أوكسيد الكبريت، وأوكسيد النيتروجين؛ رائحة تحلل وتعفن، رائحة أنبوب مفتوح من ضفة النهر إلى الحفرة التي كنت مقيدة فيها.

ارتعشت عندما فكّرت في الأشياء التي ربما كانت تشق طريقها آنذاك عبر مثل تلك القناة. كان من الأفضل أن أمنح خيالي استراحة، كما فكّرت، وأمضي قدماً لمعرفة ما يوجد في الحفرة.

كنت قد نسيت تقريباً أنني كنت جالسة. كان بمبرتون قد أمرني بالجلوس، ودفعني إلى الأسفل، واندهشت كثيراً لأنني لم أكن قد لاحظت ما كنت أجلس عليه. كنت أشعر به تحتي آنذاك، كان مسطحاً، متيناً وثابتاً. بالاهتزاز إلى الخلف، تمكّنت من معرفة تفاصيل ذلك الشيء، إلى جانب طقطقة الخشب المصنوع منه. كان صندوق شاي كبير، كما فكّرت، أو شيئاً يشبهه كثيراً. هل كان بمبرتون قد وضعه هناك سلفاً، قبل أن يكلمني في فناء دار العبادة؟

مكتبة الربيعي أحمد

أدركت في ذلك الوقت أنني أتضور جوعاً. لم أكن قد تناولت شيئاً منذ إفطاري البسيط، وهو شيء، عندما فكّرت فيه، عطّله ظهور بمبرتون المفاجئ عند نافذتنا. عندما بدأت معدتي ترسل وخزات ألم صغيرة، تمنيت لو أنني أوليت اهتماماً أكبر بالخبز المحمّص والحبوب.

علاوة على ذلك، كنت متعبة. أكثر من ذلك، كنت مرهقة تماماً. لم أنعم بنومٍ هانئ، وكانت التأثيرات المتوالية لزكامي تستنفد ما أحصل عليه من الأوكسجين.

استرخي يا فلافيا. حافظي على برودة أعصابك. سيصل بمبرتون قريباً إلى بكشو.

كنت قد اعتمدت على حقيقة أنه عندما يدخل المنزل لاستعادة *منتقم الستر*، سيلتقي دوغر الذي سيقضي عليه بكل تأكيد.

دوغر العجوز الطيب! كم اشتقت إليه. كان *المجهول الغامض* الذي يعيش تحت السقف نفسه والذي لم أفكّر أبداً في أن أسأله، وجهاً لوجه، عن ماضيه. إذا استطعت تلمّس طريق هروبي من هذه الورطة الشنيعة، أقسمت إنني، في أول فرصة تسنح لي، سأصطحبه في نزهة خاصة. كنت سأذهب معه إلى الكوخ، حيث سأمطره بوابلٍ من الأسئلة وهو يتناول شطيرة عجينة الشعير، وأدفعه ليخبرني بكل التفاصيل المثيرة. سيكون مرتاحاً جداً لهروبي ولن يجرؤ على أن يرفض إخباري بكل شيء.

كان الرجل العزيز قد ادّعى أنه قتل هوراس بونبني، وإن كان عن غير قصد منه خلال إحدى *حالاته الخاصة*، وأنه قد فعل ذلك ليحمي والدي. كنت واثقة من ذلك. ألم يكن دوغر هناك معي في الممر خارج مكتب والدي؟ ألم يسترق السمع، كما فعلت أنا، إلى الشجار الذي سبق وفاة بونبني؟

مكتبة الرمحي أحمد

بلى، بغض النظر عما حدث، سيعتني دوغر بي. كان دوغر وفياً بشدة لوالدي، وفياً حتى الموت.

حسناً إذاً. سيمسك دوغر ببمبرتون وستكون تلك نهاية القصة.

أم أن الأمر لن يكون على تلك الحال؟

ماذا إن نجح بمبرتون فعلاً في التسلل إلى بكشو من دون أن يلاحظه أحد، والدخول إلى غرفة ملابس والدي؟ ماذا إن أوقف الساعة بجانب الموقد، مدّ يده خلف الرقّاص، ولم يعثر على شيء هناك سوى البنس الأسود المشوّه؟ ماذا سيفعل عندها؟

كان الجواب بسيطاً، سيعود إلى غرفة الصيانة ويعذّبني.

كان شيء واحد واضحاً، كان يجب أن أهرب قبل أن يعود. لم يكن هناك وقت أضيعه سدى.

طقطقت ركبتاي مثل غصنين يابسين بينما كنت أكافح للوقوف على قدميّ.

كان أول وأهم شيء هو إجراء فحص للحفرة، ووضع خريطة لمعالمها واكتشاف أي شيء قد يساعد في هروبي. بيديّ المقيدتين من الرسغين خلفي، لم يكن بمقدوري وضع خريطة سوى للجدار الإسمنتي، تحركت ببطء على طول محيطه، ظهري يستند إليه، واستخدمت أصابعي لتحسس كل بوصة من السطح. بقليل من الحظ، ربما كنت سأجد نتوءاً بارزاً لاستخدمه كأداة في تحرير يديّ.

كانت قدماي مربوطتين بإحكام حتى إنني شعرت بعظام كاحليّ تلتصقان معاً، وكان لا بد أن أبتكر نوعاً من قفزة الضفدع. كانت كل خطوة مني تترافق بخشخشة أوراق قديمة تحت قدميّ.

عندما قدّرت أنني وصلت إلى الطرف البعيد للحفرة، شعرت بتيار من الهواء البارد يهبّ على كاحليّ، كما لو أن هناك فتحة في الأسفل

مكتبة الرمحي أحمد

قـــرب أرض الحفرة. استدرت وواجهت الجدار، وحاولت وضع قدمي علـــى شـــيء مـــا، لكن وثاقي كان محكماً. كانت كل خطوة تهدد بسقوطي على وجهي.

شـــعرت أن يـــديّ أصبحتا بسرعة مغطاتين بقاذورات نتنة من الجدران، وكانت الرائحة وحدها تجعلني أشعر بالغثيان.

مـــاذا إن اســـتطعت، كما فكّرت، الصعود على سطح صندوق الشاي؟ بتلك الطريقة، سيكون رأسي فوق مستوى الحفرة، وقد يكون هـــناك نـــوع من الخطّاف في مكان ما أعلى الجدار، شيء، ربما، كان يُستخدم سابقاً لتعليق حقيبة أدوات، أو مصباح.

لكن أولاً كان يجب أن أتلمس طريق عودتي إلى الصندوق.

مقـــيدة ومـــربوطة بـــتلك الطريقة، استغرق ذلك وقتاً أطول مما تـــوقعت. لكـــن عاجلاً أو آجلاً، كما كنت أعرف، كانت قدماي ستـــصطدمان بذلك الشيء، وبعد أن أكون قد انتهيت من التجوال في أرجاء الحفرة، سأعود إلى حيث بدأت.

بعـــد عشر دقائق كنت ألهث مثل كلب إثيوبـــي، وبالرغم من ذلك، لم أكن قد وصلت إلى صندوق الشاي. هل أخطأته؟ هل أمضي قدماً أم أعود أدراجي؟

ربمـــا كـــان ذلك الشيء في منتصف الحفرة وكنت أتعب نفسي بالـــوثب في مستطيلات حوله. لكن، مما كنت أتذكره عن الحفرة من زيـــارتي الأولى - بالرغم من أنها كانت مغطاة بألواح خشبية ولم أنظر في الواقـــع إلى ما يوجد داخلها - ظننت أن أبعادها لا يمكن أن تكون أكثر من ثماني أقدام طولاً وست أقدام عرضاً.

بكاحلـــيّ المقيدين، لم يكن بمقدوري الوثب أكثر من نحو ست بوصـــات في كل مرة بأي اتجاه، هذا يعني، اثنتي عشرة وثبة بست عشرة.

مكتبة الربيعي أحمد

كان سهلاً جداً الاستنتاج أنه إذا أسندت ظهري إلى الجدار فإن مركز الحفرة لن يبعد أكثر من ست أو ثماني قفزات.

بحلـــول ذلك الوقت كان الإرهاق قد نال مني. كنت أقفز هناك مـــثل جندب في جرّة مربّى ولا أصل إلى أي مكان. ثم، عندما كنت علـــى وشـــك أن أستسلم، اصطدمت قصبة ساقي بصندوق الشاي. جلست عليه فوراً لألتقط أنفاسي.

بعـــد بعض الوقت، بدأت بتحريك كتفيّ، إلى الخلف واليمين قليلاً. عندما تحركت إلى اليسار، مسّ كتفي الإسمنت. كان ذلك مشجعاً! كان الـــصندوق مستنداً إلى الجدار، أو قريباً جداً منه. إذا استطعت بطريقة ما الصعود على سطح ذلك الشيء، ربما تسنح لي فرصة أن أقذف نفسي من فـــوق حافـــة الحفـــرة مثل أسد بحر في حوض مائي. حالما أصبح خارج الحفـــرة، ســـتكون هناك فرصة أكبر على الأرجح للعثور على خطّاف أو نـــتوء يـــساعدني في تمزيق سترة بمبرتون عن رأسي. ثم سأرى ما أقوم به. سأحرّر يديّ، ثم قدميّ. كان كل ذلك يبدو بسيطاً من الناحية النظرية.

بحـــرص قدر الإمكان، استدرت تسعين درجة حتى أصبح ظهري إلى الحـــائط. نقلـــت مؤخـــرتي إلى الحافة الخارجية لصندوق الشاي، ورفعت ركبتيّ حتى مستا الجزء من السترة الذي كان تحت ذقني.

كانت هناك حافة صغيرة جداً حول سطح الصندوق، واستطعت إســـناد عقـــبيّ إليها. ثم ببطء... بحرص... بدأت بتمديد ساقيّ، نقل ظهري، بوصة إثر أخرى، إلى الأعلى على الجدار.

كنا مثلثاً قائم الزاوية. الجدار وسطح الصندوق يشكلان الضلعين بينما أنا أشكل الوتر.

أصـــاب تقلص مفاجئ عضلات باطن ساقي وأردت أن أصرخ. إذا سمحت للألم بالتغلب عليّ، كنت سأقع عن الصندوق وينتهي بـــي

مكتبة الربيعي أحمد

الأمر على الأرجح بكسر في الذراع أو الساق. امتلأت عزماً وتصميماً، وانتظـــرت أن يزول الألم، عضضت وجنتي من الداخل بقوة وتذوقت، مباشرة تقريباً، طعم دمائي الدافئة المالحة.

تماســـكي يا فلافيا، كما قلت لنفسي، هناك أشياء أسوأ. لكن في ما يتعلق بحياتي، لم أستطع التفكير في شيء واحد.

لا أعرف المدة التي وقفتها هناك أرتعش لكنها بدت طويلة جداً. كـــنت أتـــصبب عرقاً، وكان الهواء البارد لا يزال يهبّ من مكان ما، وأشعر بنفحات تياراته على قدميّ العاريتين.

بعـــد كفـــاح طـــويل، وجدت نفسي أخيراً أقف منتصبة على صـــندوق الـــشاي. مررت أصابعي على طول حافة الجدار العليا التي استطعت الوصول إليها، لكنها كانت ملساء بشكل يثير الجنون.

علـــى نحو أخرق، مثل فيل يرقص الباليه، درت مئة وثمانين درجة حتى ظننت أنني أصبحت أواجه الجدار. انحنيت إلى الأمام وتحسست – أو ظنـــنت أنني تحسست – حافة الحفرة تحت ذقني. لكن نظراً إلى أن يديّ كانتا مقيدتين بسترة بمبرتون، لم أكن واثقة من ذلك.

لم يكن هناك مهرب، أو على الأقل، من ذلك الاتجاه. كنت مثل همستر [حيوان من القوارض شبيه بالجرذ] الذي كان قد تسلق إلى أعلى سلم في قفصه، واكتشف أنه لا توجد طريقة سوى النـــزول إلى الأسفل. لكن حيوانات الهمستر تعرف بالتأكيد في قرارة نفسها أن الهروب غير ذي معنى، ووحدنا نحن البشر لا يمكننا تقبّل عجزنا ويأسنا.

نـــزلت بـــبطء لأستند إلى ركبتي فوق صندوق الشاي. كان النـــزول، علـــى الأقل، أسهل من الصعود، بالرغم من أن الخشب القاســـي الخـــشن، وما بدا بشكل مؤلم أنه إطار قصديري على سطح الصندوق، قد أزعجا ركبتيّ العاريتين. من هناك، تدبرت الالتواء جانبياً

مكتبة الربيعي أحمد

إلى وضـــعية الجلوس وأنـــزلت قدميّ من فوق الحافة حتى شعرت بهما تمسّان الأرض.

إن لم أعثـــر على الفتحة التي يدخل منها الهواء البارد إلى الحفرة، فـــإن الطريق الوحيد للخروج منها هو الأعلى. إذا كان هناك في الواقع أنـــبوب أو قناة تقود إلى النهر، هل سيكون قطرها مناسباً لأزحف من خلالهـــا؟ وحتى إذا كانت كذلك، هل ستكون خالية من أي عائق، أم أنني سأزحف ووجهي إلى الأمام - مثل عظاءة عمياء ضخمة - داخل شـــيء مروّع في ظلمة حالكة وأعلق في الأنبوب، لا يمكنني التقدم إلى الأمام أو التراجع إلى الخلف؟

هـــل سيعثر عالم آثار على عظامي في إنكلترا في المستقبل ويشعر بحـــيرة مـــن أمره؟ هل سيتم عرضي في صندوق زجاجي في المتحف الـــبريطاني، لتحدّق إليّ عامة الشعب؟ كانت الأفكار تتسارع في ذهني عن محاسن ومساوئ الإقدام على ذلك الأمر؟

لكـــن انتظري! كنت قد نسيت الدرجات في نهاية الحفرة! كنت ســـأجلس على الدرجة الدنيا وأدفع نفسي إلى الخلف، درجة في كل مرة. عندما أصل إلى الأعلى، سأدفع وأزيح بكتفيّ الألواح الخشبية التي تغطـــي الحفـــرة. لماذا لم أفكر في ذلك في المقام الأول، قبل أن أجهد نفسي إلى هذه الحالة من الإرهاق المضني؟

انـــتابني عـــندها شيء خنق رشدي مثل وسادة. قبل أن أميّز من خـــلال إرهاقي الكامل ماهيته، قبل أن أستطيع مقاومته، تغلّب عليّ. شعرت بنفسي أسقط إلى الأرض وسط الأوراق التي تخشخش، أوراق كانت تبدو، بالرغم من الهواء البارد من الفتحة، دافئة بشكل مدهش.

تحركت قليلاً كما لو أنني أحفر إلى أعماقها، ورفعت ركبتيّ إلى ذقني، وغشاني النوم مباشرة.

مكتبة الربيعي أحمد

حلمت أن دافني كانت تقدم عرض الميلاد الإيمائي. كانت الردهة الكبيرة في بكشو قد تحولت إلى أحد مسارح فيينا على شكل صندوق جواهر رائع، مع ستارة مخملية حمراء وثريا كريستال كبيرة تتلألأ فيها أضواء مئة شمعة.

كنت، ودوغر، وفيلي، والسيدة موليت نجلس، جنباً إلى جنب، على صف واحد من الكراسي، وفي مكان قريب منا على مقعد خشبي كان والدي مشغولاً بطوابعه.

كانت المسرحية *روميو وجولييت* [شكسبير]، ودافني، في عرض فني مميز، تلعب كل الأدوار. في لحظة كانت جولييت على الشرفة (المنبسط أعلى السلالم الغربية) وفي التالية، بعد أن تكون قد اختفت في طرفة عين، تظهر مجدداً على خشبة المسرح بدور روميو.

كانت تتحرك صعوداً وهبوطاً، إلى الأعلى والأسفل، تعذّب قلوبنا بكلمات الحب اللطيفة.

من وقت إلى آخر، كان دوغر يضع سبابته على شفتيه وينسل خلسة من الغرفة، يعود بعد دقائق وهو يدفع عربة يد مطلية مليئة بطوابع بريدية يرميها عند قدميّ والدي. كان والدي، المشغول بتمزيق طوابع إلى شطرين باستخدام زوجٍ من مقصات أظافر هاريت، يتأفف من دون أن ينظر إليه ويتابع عمله.

كانت السيدة موليت تضحك ملء القلب من ممرضة جولييت العجوز، تتورد خجلاً وترمقنا بنظرات كما لو أن هناك رسالة مشفّرة في الكلمات لا يستطيع غيرها فهمها. كانت تمسح وجهها الأحمر بمنديل من قماش منقّط، تجدله في يديها قبل أن تلفه على شكل كرة وتدفعه في فمها لتوقف ضحكها الهستيري.

مكتبة الربيعي أحمد

كانـــت دافني آنذاك (بدور ميركوشو) تصف كيف تجري ماب، الملكة الخيالية:

فوق شفاه السيدات، اللواتي يحببن أحلام القبلات،
التي تصيبها ماب الغاضبة ببثور وأورام،
لأن أنفاسهن مع الفاكهة المجففة تلوّثها.

ألقـــيت نظرة خاطفة على فيلي التي كانت، بالرغم من حقيقة أن شفتيها كانتا تبدوان مثل شيء قد تراه على عربة بائع أسماك، قد أثارت انتـــباه نيد الذي كان يجلس خلفها، ينحني إلى الأمام فوق كتفها، يزم شفتيه، ويلتمس قبلة. لكن، في كل مرة كانت دافني تنـــزل من الشرفة إلى خـــشبة المسرح في الأسفل لأداء دور روميو (الذي يبدو، بشاربه الرفيع، أكثر شبهاً بديفيد نيفن [روائي وممثل إنكليزي] في *مسألة حياة ومـــوت* من مونتاج [شخصية في روميو وجولييت] النبيل)، كان نيد يقف على قدميه، يصفق بحرارة ثم يصفر بقوة بينما تدفع فيلي، التي لا تحـــرك ســـاكناً، قطع شوكولاته بالنعناع واحدة إثر أخرى في فمها، وتشهق فجأة عندما يندفع روميو إلى قبر جولييت الرخامي:

هنا ترقد جولييت، وجمالها يجعل
هذا المدفن حلّة بهية مليئة بالضوء.
أيها الموت، ارقد أنت هناك -

اســـتيقظت. تباً! كان شيء يمشي فوق قدميّ، شيء رطب وذو فراء.

حاولت أن أصرخ دوغر! لكن فمي كان مليئاً بكتلة رطبة. كان فكّـــاي يؤلمانني وأشعر أن رأسي سُحب عن خشبة يقطّع عليها الجزّار اللحم.

ركلـــت بكلـــتا قدميّ، فهرب شيء فوق الأوراق وهو يطلق أصواتاً غاضبة.

مكتبة الرمحي أحمد

جرذ ماء. كانت الحفرة على الأرجح مليئة بتلك الحيوانات. هل كانت تقضمني بينما كنت فاقدة الوعي؟ جعلتني تلك الفكرة بحد ذاتها أشعر بالخوف.

دفعت نفسي إلى الأعلى، واستندت إلى الجدار، وركبتاي تحت ذقني. لم يكن معقولاً أن أتوقع قيام الجرذان بقضم وثاقي كما فعلت في حكايات خيالية. كانت ستقضم على الأرجح مفاصلي حتى العظام ولن يكون بمقدوري إيقافها.

توقفي عن ذلك يا فلافي، كما فكّرت. لا تدعي مخيلتك تحملك بعيداً.

كانت هناك عدّة مناسبات في الماضي، خلال العمل في مختبري الكيميائي أو استلقائي في السرير ليلاً، ضبطت فيها نفسي أفكّر *أنت وحيدة مع فلافيا دي لوس*، وقد كانت أحياناً فكرة مخيفة وأحياناً أخرى ليست كذلك. كانت تلك واحدة من المناسبات الأكثر ترويعاً.

كانت أصوات الجري حقيقية تماماً، وكان هناك شيء يفتش في الأوراق في زاوية الحفرة. عندما كنت أحرّك ساقيّ أو رأسي، كانت الأصوات تتوقف للحظة، ثم تعاود الظهور مجدداً.

كم مضى من الوقت وأنا نائمة؟ هل كانت ساعات أم دقائق؟ هل لا يزال ضوء النهار ساطعاً في الخارج، أم أن الظلام قد حل؟

تذكرت أن المكتبة ستبقى مغلقة حتى صباح الخميس، وأن ذلك اليوم كان الثلاثاء. كان ممكناً أن أبقى هناك لوقت طويل جداً.

سيبلّغ أحدهم عن اختفائي، بالطبع، وربما يكون دوغر. هل كان أملي كبيراً أن يمسك دوغر بمبرتون بجرم سرقة بكشو؟ لكن، حتى إذا تم إلقاء القبض عليه، هل سيخبرهم بمبرتون عن المكان الذي كان قد وضعني فيه؟

مكتبة الرمحي أحمد

كانـــت يداي وقدماي تفقدان الإحساس، وفكّرت في العجوز إيـــرلي فوربس، الذي اضطر أحفاده إلى سحبه على طول الشارع الـــرئيس علـــى منصة صغيرة مدولبة. كان إيرلي قد فقد يداً وكلتا قدميه نتيجة إصابتهما بالغرغرينا في الحرب، وقالت فيلي لي مرة إنه يجب أن –

توقفي عن ذلك فلاڤي! توقفي عن كونك طفلة كثيرة البكاء!
فكّري في شيء آخر. فكّري في شيء.
فكّري، مثلاً، في الانتقام.

مكتبة الربيعي أحمد

الخامس والعشرون

هناك أوقات، خاصة عندما أكون محتجزة، تميل فيها أفكاري، مثل الإنسان في قصة ستيفن ليكوك [كاتب كندي]، إلى الانطلاق بجنون في كل الاتجاهات.

أكاد أشعر بالخجل للإقرار بالأشياء التي خطرت ببالي في البداية. كان معظمها يتضمن سموماً، بعضها يتضمن أواني منزلية شائعة الاستخدام، وكلها تتضمن فرانك بمبرتون.

عاد ذهني إلى أول لقاء لنا في ثلاثة عشر علجوماً. بالرغم من أنني كنت قد رأيت سيارة الأجرة التي تقلّه تتوقف أمام الباب الرئيس، وسمعت تولي ستوكر يصرخ على ماري أن السيد بمبرتون قد وصل مبكراً، إلا أن بصري لم يكن في الحقيقة قد وقع على الرجل نفسه. لم يحدث ذلك حتى يوم الأحد، في الكوخ.

بالرغم من وجود عدّة أشياء غريبة بشأن ظهور بمبرتون المفاجئ في بكشو، إلا أنني في الواقع لم أحظ بوقت للتفكير فيها.

في المقام الأول، لم يكن قد وصل إلى بيشوب لاسي إلا بعد ساعات من لفظ هوراس بونبي أنفاسه الأخيرة في وجهي. أم أنه كان فيها قبل ذلك؟

عندما نظرت إلى الأعلى، ورأيت بمبرتون واقفاً على حافة البحيرة، أصابتني الدهشة. لكن لماذا؟ كان بكشو منزلي، كنت قد

مكتبة الربيعي أحمد

ولدت وعشت هناك كل لحظة من حياتي. ما المفاجئ بشأن رجل يقف على حافة بحيرة اصطناعية؟

كنت أشعر أن جواب ذلك السؤال على رأس لساني قبل أن أقع مغشياً عليّ. لا تنشغلي بالأمر، كما خطر ببالي، بل فكّري في شيء آخر، أو على الأقل تظاهري بذلك.

كان الجو ماطراً ذلك اليوم، أو أن المطر كان قد بدأ ينهمر للتو آنذاك. كنت قد نظرت إلى الأعلى من حيث أجلس على درجات الكوخ العتيق ورأيته، يعبر الماء من الطرف الجنوبي للبحيرة، أقصى الطرف الجنوبي، لأكون دقيقة. لماذا كان قد ظهر من ذلك الاتجاه؟

كان ذلك سؤالاً أعرف جوابه منذ بعض الوقت.

كانت بيشوب لاسي تقع إلى الشمال الشرقي من بكشو. من بوابات ملفورد، عند مدخل طريق أشجار الكستناء، كان الطريق يمتد بشكل مستقيم تقريباً إلى القرية. وكان بمبرتون قد ظهر من الجنوب الشرقي، من اتجاه دودنغسلي، التي تبعد قرابة أربعة أميال عبر الحقول. لماذا إذاً، تساءلت، اختار أن يأتي من تلك الطريق؟ كانت الخيارات تبدو محدودة، وكنت قد سجلتها بسرعة في دفتر ملاحظاتي:

1. إذا كان بمبرتون (كما أشك) قاتل هوراس بونبني، هل يعقل أن يكون، كما يقال عن كل القتلة، قد عاد إلى مسرح الجريمة؟ هل كان قد ترك شيئاً خلفه؟ شيئاً مثل أداة الجريمة؟ هل كان قد عاد إلى بكشو لاستعادته؟
2. نظراً إلى أنه كان قد ذهب إلى بكشو قبل ليلة، كان يعرف الطريق عبر الحقول ولم يكن يرغب في أن يراه أحد (انظر 1 فوق).

مكتبة الربيعي أحمد

ماذا إن كان بمبرتون - الجمعة، ليلة الجريمة - ظناً منه أن بونبي يحمل منتقمي *الستر*، قد تبعه من بيشوب لاسي إلى بكشو وقتله هناك؟

لكن، تمهلي قليلاً يا فلافي، كما فكّرت. اكبحي جماح خيالك وخيولك. لا تجعليها تنطلق عدواً بتلك الطريقة.

لماذا لم يتربص بمبرتون ببساطة بضحيته في واحدة من تلك الوشائع الهادئة التي تحدّ تقريباً كل طريق في هذا الجزء من إنكلترا؟

كان الجواب قد ظهر أمامي فجأة كما لو أنه مصنوع من أنابيب نيون أحمر في سيرك بيكاديلي، لأنه أراد أن يتحمل والدي وزر الجريمة!

كان يجب قتل بونبي في بكشو!

بالطبع! نظراً إلى أن والدي منعزل بطبعه، لن يكون على الأرجح بعيداً عن المنزل. كان يجب التخطيط لعمليات القتل - على الأقل تلك الجرائم التي يتوقع فيها القتلة الإفلات من العدالة - مسبقاً، وإيلاء عناية خاصة بالتفاصيل الدقيقة. كان واضحاً أن وزر جريمة تتعلق بالطوابع سيُلقى على عاتق جامع طوابع. إذا لم يكن محتملاً أن يذهب والدي إلى مسرح الجريمة، كان مسرح الجريمة سيأتي إلى والدي.

وهذا ما كان.

بالرغم من أنني كنت في البداية قد استنبطت سلسلة الأحداث تلك - أو، على الأقل، بعض الصلات - قبل ساعات مضت، إلا أنني لم أتمكّن حتى الآن، عندما تم إرغامي أخيراً على أن أكون وحدي مع فلافيا دي لوس، من وضع كل قطع الأحجية معاً.

فلافيا، أنا فخورة بك! ستكون ماري - آن بول لافوازييّه فخورة بك أيضاً.

مكتبة الرمحي أحمد

الآن إذاً، كـــان بمبرتون، بالطبع، قد لحق ببونبي إلى دودنغسلي، ربمـــا حتى كل الطريق من ستافانغر. كان والدي قد رآهما في معرض لـــندن قبل بضعة أسابيع، وهو الدليل الأكيد على أن أياً منهما لم يكن يعيش في الخارج بشكل دائم.

ربمـــا كانا قد خططا لذلك معاً، أعني عملية ابتزاز والدي. تماماً كما كانا قد خططا لقتل السيد تويننغ. لكن بمبرتون كانت لديه خطة خاصة به.

حالمـــا تأكد من أن بونبي كان في طريقه إلى بيشوب لاسي (إلى أين، بالفعل، يمكن أن يذهب؟). كان بمبرتون قد ترجل من القطار في دودنغـــسلي، وسجّل نفسه في فندق الحوذي المرح. كنت أعرف ذلك حـــق المعرفة. ثم، في ليلة الجريمة، كل ما كان عليه فعله هو السير عبر الحقول إلى بيشوب لاسي.

هـــناك، كان قد انتظر حتى رأى بونبي يغادر الخان، ويتجه سيراً علـــى القدمين نحو بكشو. بعد خروج بونبي من دون أن يشك في أن أحداً يلاحقه، فتّش بمبرتون الغرفة في ثلاثة عشر علجوماً، ومحتوياها - بمـــا في ذلك أمتعة بونبي - ولم يعثر على شيء. لم يفكّر أبداً، بالطبع، كما فعلت أنا، في شق لصاقات الشحن.

بحلول ذلك الوقت، لا بد أنه كان يستشيط غضباً.

خـــرج من الخان من دون أن يراه أحد (على الأرجح عن طريق تلـــك الـــسلالم الخلفية)، تعقّب فريسته سيراً على القدمين إلى بكشو، حيث لا بد أهما تعاركا في حديقتنا. كيف إذاً، تساءلت، لم أسمعهما؟

في غضون نصف ساعة، كان قد ترك بونبي يحتضر، بعد أن سلبه مـــا في جيوبه ومحفظته. لكن منتقم *ألستر* لم يكن هناك. لم يكن بونبي يحمل الطابعين معه بالمحصلة.

مكتبة الربيعي أحمد

كان بمبرتون قد اقترف جريمته، ثم مشى ببساطة في الليل، عبر الحقول إلى الحوذي المرح في دودنغسلي. في صبيحة اليوم التالي، كان قد ظهر مع الكثير من الجلبة في سيارة أجرة عند الباب الرئيس لثلاثة عشر علجوماً، متظاهراً أنه قد وصل للتو على متن قطار من لندن. كان يجب أن يفتش الغرفة مجدداً. كان ذلك أمراً ينطوي على خطورة كبيرة، لكنه ضروري. كان الطابعان لا يزالان مخبأين هناك بالتأكيد.

كان الشك قد خامرني بشأن أجزاء من سلسلة الأحداث تلك لبعض الوقت، وبالرغم من أنني لم أكن قد جمعت الحقائق الباقية معاً، إلا أنني كنت قد تحققت من وجود بمبرتون في دودنغسلي بإجراء مكالمة هاتفية مع السيد كليفر، صاحب خان الحوذي المرح.

في استعادة لما جرى، كان كل شيء يبدو بسيطاً للغاية.

توقفت عن التفكير لحظة لأستمع إلى تنفّسي. كان بطيئاً ومنتظماً بينما كنت أجلس هناك ورأسي يرتاح على ركبتيّ اللتين كانتا لا تزالان ترتفعان على شكل (8).

في تلك اللحظة فكّرت في شيء كان والدي قد أخبرني إياه في ما مضى؛ إن نابليون كان قد دعا مرة الإنكليز أنهم أمة من أصحاب المتاجر. خطأ يا نابليون!

بعد أن كنا قد خرجنا من حرب تم فيها إلقاء أطنان من ثالث نترات التولويين [تي أن تي] على رؤوسنا في الظلام، كنا أمة من الناجين، وكان بمقدوري، أنا فلافيا دي لوس، أن أرى ذلك حتى في نفسي.

ثم تمتمت جزءاً من الأنشودة الدينية الثالثة والعشرين تحسباً لما قد يقع. لا يمكن للمرء أن يكون واثقاً تماماً مما سيحدث.

الآن: جريمة القتل.

مكتبة الربيعي أحمد

مجـــدداً طاف وجه هوراس بونبي المحتضر أمامي في الظلام، يفتح ويغلق فمه مثل سمكة خرجت من الماء وتلهث على الأعشاب. كانت كلمته الأخيرة ونفسه الأخير قد خرجا معاً؛ قال *"فالي"* . وقد خرجت مـــن فمه مباشرة إلى أنفي. وكانت قد وصلت إليّ مع موجة من رابع كلوريد الكربون.

لم يكن هناك شك أبداً في أنه كان رابع كلوريد الكربون، إحدى أروع المواد الكيميائية.

بالنـــسبة إلى كيميائي، رائحته الحلوة مميزة جداً، بالرغم من أنها تـــذوي سريعاً، وهي ليست بعيدة في جدول العناصر عن الكلوروفورم الذي يستخدمه أطباء التخدير في الجراحة.

في رابـــع كلوريد الكربون (أحد الأسماء العديدة للمادة)، ترتبط أربع ذرات كلور بذرة كربون واحدة. إنه مبيد حشرات قوي، لا يزال يـــستخدم بين الحين والآخر في حالات مستعصية من الإصابة بالدودة الشـــصّية، تلك الطفيليات الصغيرة الصامتة التي تتغذى على الدماء التي تمتصها في الظلام من أمعاء الإنسان والحيوان على حدٍّ سواء.

لكـــن الأمر الأكثر أهمية هو أن جامعي الطوابع يستخدمون رابع كلوريد الكربون لإظهار علامات الطابع المائية غير المرئية تقريباً. وكان والدي يحتفظ بقوارير من المادة في مكتبه.

عادت أفكاري إلى غرفة بونبي في ثلاثة عشر علجوماً. لقد كنت حمقـــاء عـــندما فكّرت في فطيرة مسمومة! لم تكن تلك حكاية غريم خيالية [حكايات شعبية ألمانية نُشرت أول مرة عام 1812]، وإنما قصة فلافيا دي لوس.

لم تكن قشرة الفطيرة أكثر من طبقة رقيقة منها، مجرد قشرة. قبل أن يغادر النرويج، كان بونبي قد أزال الحشوة، ووضع مكانها الشُنقب

مكتبة الرمحي أحمد

الذي خطط لترويع والدي به. كانت تلك هي الطريقة التي سيهرّب بها الطائر الميت إلى إنكلترا.

لم يكـــن ما وجدته في غرفته مهماً مقارنة بما لم أعثر عليه. وكان ذلك، بالطبع، شيئاً واحداً مفقوداً من الحقيبة الجلدية الصغيرة التي كان بونبي يضع فيها أدوات معالجة السكري، محقنة.

كان بمبرتون قد عثر على المحقنة ودسّها في جيبه عندما فتّش غرفة بونبي قبل ارتكابه الجريمة. كنت واثقة من ذلك.

كانـــا شريكين في الجريمة، ولم يكن أحد يعرف مثل بمبرتون أن المعدات الطبية ضرورية لنجاة بونبي.

حـــتى إذا كـــان بمـــبرتون قد خطط بطريقة مختلفة للتخلص من ضـــحيته - بحجـــر على الجزء الخلفي من الرأس أو بقضيب خيزران أخـــضر مصفر - لا بد أن المحقنة في أمتعة بونبي قد بدت هبة من الله. فكرة التنفيذ نفسها جعلتني أرتعش.

كـــان بمقدوري أن أتخيلهما يتعاركان هناك في ضوء القمر. كان بونـــبي طـــويلاً، لكن، ليس مفتول العضلات. لا بد أن بمبرتون ألقاه أرضاً كما يفعل فهد بظبـــي.

جاءت بعد ذلك الحقنة والتي وصلت محتوياتها إلى قاعدة دماغ بونبي. بمـــثل تلـــك البساطة. لم يستغرق الأمر أكثر من ثانية، وكان تأثيرها لحظياً تقريباً. كنت واثقة أن تلك هي الطريقة التي لقي بها هوراس بونبي حتفه.

في حـــال كان قد تناول المادة - وكان إرغامه على ابتلاعها شبه مستحيل - كان الأمر يتطلب كمية أكبر بكثير من السم، كمية كان سيتقيأها مباشرة.

بينما ستكون خمسة سنتيمترات يتم حقنها في جذع الدماغ كافية لقتل ثور.

مكتبة الرمحي أحمد

كانت غازات رابع كلوريد الكربون قد انتقلت بسرعة إلى فمه وجيوبه الأنفية كما كنت قد لاحظت. لكن، عندما وصل المفتش هيوت والرقيبان المحققان، كانت قد تبخّرت من دون أن تترك أثراً.

كانت الجريمة الكاملة تقريباً. في الواقع كانت ستصبح كاملة لو أنني لم أنزل إلى الحديقة في ذلك الوقت.

لم أكن قد فكّرت في ذلك من قبل. هل كان وجودي على قيد الحياة هو كل ما يحول بين فرانك بمبرتون والحرية؟

سمعت صوتاً خافتاً.

لم أستطع معرفة الاتجاه الذي جاء الصوت منه. أدرت رأسي، توقف الصوت فوراً.

للحظة أو أكثر أطبق الصمت. أصغيت السمع لكنني لم أسمع سوى أصوات تنفسي، والتي لاحظت أنها قد أصبحت أسرع، وأكثر إجهاداً.

ظهر مجدداً! كما لو أن لوحاً خشبياً يتم سحبه، ببطء شديد، فوق سطح مليء بالحصى.

حاولت أن أصرخ "من هناك؟". لكن المنديل المكوّر في فمي حوّل كلماتي إلى غمغمة مكتومة. مع ذلك الجهد، شعرت كما لو أن شخصاً مرّر قضيب سكة حديدي على جانبي رأسي.

كان الأفضل أن أصغي السمع، كما فكّرت. الجرذان لا تحرك ألواح الخشب، وإذا لم أكن غير مصيبة تماماً في تقديري، فإنني لم أعد وحدي في غرفة الصيانة.

مثل أفعى، حرّكت رأسي ببطء من جانب إلى آخر، على أمل الاستفادة من سمعي المرهف، لكن السترة الصوفية الثقيلة التي تغطي رأسي كانت تحجب كل الأصوات ما عدا العالي منها.

مكتبة الرمحي أحمد

لكن الأصوات الخافتة لم تكن مزعجة مثل أوقات الصمت بينها. أياً كان الشخص الموجود في الغرفة فقد كان يحاول إخفاء وجوده فيها. أم أنه كان يحاول التزام الهدوء كي لا يثير أعصابي؟

كان هناك صرير ثم تكتكة خافتة، كما لو أن حصاة قد سقطت على صخرة كبيرة.

ببطء تفتّح زهرة، مددت ساقيّ إلى الأمام، لكن عندما لم تقابلهما أي مقاومة، سحبتهما إلى الخلف ووضعتهما تحت ذقني. كان الأفضل أن أتكوّر على نفسي، كما فكّرت، وأن أشكّل هدفاً صغيراً.

للحظة، ركّزت اهتمامي على يديّ، اللتين كانتا لا تزالان مقيدتين خلفي. ربما كانت هناك عجيبة، ربما أن السلك قد تمدد وارتخى، لكنني لم أكن محظوظة إلى ذلك الحد. كان بمقدور حتى أصابعي الخدرة أن تشعر أن وثاقي لا يزال محكماً تماماً. لم يكن لدي أمل بالتحرر. كنت في الواقع سأموت هناك.

ومن سيفتقدني؟

لا أحد.

بعد مدة حداد مناسبة، سيعود والدي مجدداً إلى طوابعه، ستتناول دافني كتاباً آخر من مكتبة بكشو، وستكتشف أوفيليا نوعاً جديداً من أحمر الشفاه. وعاجلاً - عاجلاً بشكل مؤلم - سيكون الأمر كما لو أنني لم أكن موجودة أصلاً.

لم يكن أحد يحبني، وكانت تلك حقيقة. ربما كانت هاريت قد أحبتني عندما كنت طفلة، لكنها كانت ميتة.

ثم، لخوفي الشديد، وجدت نفسي أبكي.

كنت مرعوبة. كانت عينان مغرورقتان بالدموع شيئاً كافحت ضده طويلاً، وبالرغم من أن عينيّ كانتا منهكتين، إلا أنني رأيت أمامي

مكتبة الرمحي أحمد

وجهـــاً لطــيفاً، وجهاً كنت قد نسيته في محنتي. كان، بالطبع، وجه دوغر.

سيشعر دوغر بالحزن إذا مت!

تمالكـــي نفسك يا فلافي... إنها مجرد حفرة. ماذا كانت تلك القصة التي قرأتها لنا دافني عن حفرة؟ حكاية إدغار ألان بو؟ الخاصة بالرقّاص؟

لا! لن أفكر فيها. لن أفعل!

ثم كان هناك ثقب كلكوتا الأسود [غرفة حراس قديمة في حصن المديـــنة] التي سجن فيها نوّاب [حاكم مقاطعة في الإمبراطورية المنغولية في الهند] البنغال مئة وأربعين جندياً بريطانياً في زنـــزانة لا تتسع لأكثر من ثلاثة أشخاص.

كـــم عدد الذين بقوا على قيد الحياة تلك الليلة في ذلك الفرن الخانـــق؟ كانـــوا ثلاثـــة وعشرين، كما أتذكر، وبحلول الصباح، كانـــت تلـــك المحنة القاسية قد أصابتهم بالجنون، حتى آخر واحد منهم.

لا! ليس فلافيا!

كـــان ذهني مثل دوّامة، يدور... ويدور. سحبت شهيقاً عميقاً لأهدّئ من روعي، وامتلأ أنفي برائحة الميثان. بالطبع!

كـــان الأنـــبوب إلى ضفة النهر مليئاً بتلك المادة. لم يكن الأمر يـــتطلب سوى مصدر حراري لإشعاله، وكان الانفجار الذي سينجم عن ذلك سيبقى موضع حديث طيلة سنوات.

كـــنت ســـأعثر على طرف الأنبوب وأركله. إذا كان الحظ إلى جانبـــي، ســـتنجم شـــرارة جرّاء احتكاك المسامير في نعل حذائي بالأنبوب، سينفجر الميثان، وسأكون قد أنجزت شيئاً.

مكتبة الرمحي أحمد

كانـــت الناحية السلبية الوحيدة في هذه الخطة أنني سأكون واقفة عند طرف الأنبوب عندما تشتعل النار فيه. كان الأمر يشبه أن تكون مربوطاً إلى فوهة مدفع.

حـــسناً، اللعنة على المدفع! لم أكن سأموت هناك في تلك الحفرة النتنة من دون كفاح.

اســـتجمعت كل ما تبقى من قوتي، وضعت قدميّ على الأرض، ودفعـــت نفـــسي بمحاذاة الجدار حتى وقفت. استغرق الأمر مني وقتاً أطـــول ممـــا توقعت لكن على الأقل، بالرغم من ترنّحي، كنت أقف منتصبة على قدميّ.

لم يكن لدي وقت للتفكير. كنت سأعثر على مصدر غاز الميثان أو أموت في أثناء ذلك.

عـــندما قمت بوثبة تجريبية إلى الأعلى نحو المكان الذي ظننت أن الأنـــبوب موجود فيه، همس صوت يرتعش في إذني: "والآن جاء دور فلافيا".

مكتبة الرمحي أحمد 116

مكتبة الرمحي أحمد

السادس والعشرون

كان بمبرتون، ولدى سماعي صوته، شعرت بغصّة في قلبـــي. ماذا كـــان يعني؟! بقوله "والآن جاء دور فلافيا"؟ هل كان قد ألحق الأذى بدافني، أو فيلي... أو حتى دوغر؟

قبل حتى أن أبدأ تخيل ما حدث، كان قد أمسك ذراعي بقبضة قـــوية، دفع بإبهامه على العضلة كما كان قد فعل من قبل. حاولت أن أصـــرخ، لكـــن لم يخرج مني صوت. ظننت أنني على وشك أن أتقيأ.

هـــززت رأسي بعنف من جانب إلى آخر، لكنه لم يدعني إلا بعد ما بدا أنه دهر.

قـــال بلهجـــة لطيفة كما لو أننا نمشي في متنـــزه: "لكن أولاً، فـــرانك وفلافيا سيتحدثان قليلاً". وأدركت في تلك اللحظة أنني كنت وحيدة مع رجل مجنون في كلكوتا الخاصة بـــي.

"سأزيل الغطاء عن رأسكِ، هل تفهمين؟".

توقفت ساكنة من دون حراك، مذهولة.

"أصـــغي إلي يا فلافيا، وأصغي جيداً. إذا لم تفعلي ما أقوله لك تماماً، سأقتلك. الأمر بتلك البساطة. هل تفهمين؟".

أومأت برأسي قليلاً.

"جيد. حافظي على هدوئك الآن".

مكتبة الربيعي أحمد

شعرت أنه يحرر العقد التي كان قد أوثقها في سترته، ومباشرة تقريباً بدأت بطانتها الحريرية المصقولة تنزلق من فوق وجهي، ثم سقطت بأكملها بعيداً.

أصابني شعاع مصباحه مثل ضربة مطرقة، وبهرني الضوء.

تراجعت إلى الخلف من الصدمة. ظهرت نجوم ساطعة ورقع سوداء بالتناوب في مجال رؤيتي. كنت قد أمضيت وقتاً طويلاً في الظلام لدرجة أن ضوء عود ثقاب واحد كان مؤلماً، لكن بمبرتون كان يوجه مصباحاً قوياً بشكل مباشر - ومتعمد - إلى عينيّ.

نظراً إلى عدم قدرتي على رفع يديّ لحماية نفسي، لم يكن بمقدوري سوى أن أدفع برأسي بعيداً إلى أحد الجانبين، أغلق عينيّ، وأنتظر أن يهدأ الغثيان.

قال: "أمر مؤلم، أليس كذلك. لكن ما سأفعله بك سيكون أشد إيلاماً إذا كذبت عليّ مجدداً".

فتحت عينيّ المتألمتين، وحاولت تركيز بصري على زاوية عاتمة من الحفرة.

أمرني: "انظري إلي!".

أدرت رأسي، ونظرت إليه شزراً بما بدا أنها تكشيرة مريعة حقاً. لم يكن بمقدوري رؤية شيء من الرجل خلف العدسة الدائرية لمصباحه، الذي كان شعاعه القوي لا يزال يزعج دماغي مثل شمس صحراء بيضاء عملاقة.

ببطء، استغرق ذلك وقتاً طويلاً، أبعد الضوء الساطع ووجّهه إلى الأرض. في مكان ما خلف الضوء لم يكن أكثر من مجرد صوت في الظلام.

"لقد كذبت عليّ".

مكتبة الرمحي أحمد

صدر عني شيء يدل على عدم المبالاة.

كــرّر بمبرتون بصوت أعلى، وكان بمقدوري تلك المرة أن أسمع توتـراً في صـوته: "لقد كذبتِ عليّ. لم يكن هناك شيء مخبأ في تلك الساعة ما عدا بنس أسود".

إذاً، فقد ذهب إلى بكشو! كان قلبــي يخفق بقوة مثل طائر حبيس.

قلت: "همم".

فكّر بمبرتون في ذلك للحظة لكنه لم يفهم شيئاً منه.

"سأُخرج المنديل من فمك، لكن أولاً دعيني أريك شيئاً".

التقط سترته الصوفية عن أرض الحفرة، ومد يده في الجيب. عندما أخــرج يده، كانت تمسك شيئاً لامعاً من زجاج ومعدن. كانت محقنة بونبي! رفعها أمامي لأراها بوضوح.

"كــنتِ تبحثين عن هذه، أليس كذلك؟ في الخان وفي حديقتك؟ وقد كانت هنا طيلة الوقت!".

ضحك من أنفه مثل حيوان نتن، وجلس على الدرجات. ممسكاً المصباح بين ركبتيه، رفع المحقنة إلى الأعلى بينما كان يبحث مرة أخرى في السترة، وأخرج قارورة بنية صغيرة. استطعت بالكاد أن أقرأ اللصاقة قبل أن ينــزع السدادة، ويملأ المحقنة بسرعة.

"أتوقــع أنــكِ تعرفين هذه المادة، أليس كذلك يا آنسة السروال الذكية؟".

نظــرت إلى عينيه لكن لم تصدر عني أي إشارة أخرى تدل على أني سمعته.

"ولا تظـــني أني لا أعرف بدقة كيف وأين أحقنها. لم أمضِ كل تلــك الــساعات في مشرحة مستشفى لندن عبثاً. حالما أوقعت بوني العجــوز أرضاً، كان الحقن أمراً في غاية البساطة، تنغرز في زاوية حادة

مكتبة الربيعي أحمد

تقريباً، عبر العضلة الطحالية [إحدى عضلتين منبسطتين على جانبي الجزء الخلفي من العنق] وسعفة الرأس، تثقب الرباط الأمامي، وتصل إلى الفقرة الثانية في العنق. بضربة واحدة! ينتهي كل شيء. يتبخر مركّب الكربون فوراً، من دون أن يترك أثراً. الجريمة الكاملة، إذا كان بمقدوري قول ذلك بنفسي".

كما كنت قد استنتجت تماماً! لكنني كنت أعرف آنذاك *بدقة* كيف فعل ذلك! كان الرجل مجنوناً بكل معنى الكلمة.

قال: "أصغي الآن. سأقوم بإخراج ذلك المنديل من فمكِ وستخبرينني عمّا فعلته بمنتقمي *الستر*. كلمة واحدة غير صحيحة... حركة واحدة غير صحيحة و...".

رفع المحقنة إلى الأعلى حتى كادت تمس أنفي، وضغط على المكبس قليلاً. ظهرت بضع نقاط من رابع كلوريد الكربون للحظة، مثل ندى، على طرف الإبرة، ثم سقطت على الأرض. التقط أنفي الرائحة المألوفة للمادة.

وضع بمبرتون المصباح على الدرجات، وعدّل وضعيته ليضيء وجهي. وضع المحقنة بجانبه.

قال: "افتحي".

إليك ما خطر ببالي آنذاك، كان سيدس إبهاماً وسبابة في فمي ليسحب المنديل. كنت سأعضهما بكل قوتي حتى أقطعهما!

لكن ماذا بعد ذلك؟ كنت لا أزال مقيدة اليدين والقدمين، وحتى إذا كان يتألم كثيراً، كان بمقدور بمبرتون أن يقتلني بسهولة.

فتحت فكّي اللذين يؤلمانني قليلاً.

قال وهو يدفعهما بعيداً عن بعضهما: "أوسع". ثم بطرفة عين دفع يده إلى الداخل وأخرج المنديل الرطب من فمي. للحظة واحدة حجب

مكتبة الرمحي أحمد

ظـــل يـــده ضوء المصباح، ولهذا لم ير، كما رأيت أنا، لمعان القصاصة البرتقالية عندما سقطت الكرة الرطبة في الظلام على الأرض.

همست بصوت أجش، وكانت تلك خطوتي الأولى في الجزء الثاني من اللعبة: "شكراً لكِّ".

بدا بمبرتون مشدوهاً.

قلـــت بـــصوت أجـــش: "لا بد أن شخصاً قد وجدهما. أعني الطابعين. لقد وضعتهما في الساعة، أقسم على ذلك".

عـــرفت فوراً أنني قد مضيت بعيداً. إذا كنت أقول الحقيقة، لن يكـــون لدى بمبرتون أي سبب لإبقائي على قيد الحياة. كنت الوحيدة التي تعرف أنه قاتل.

أضفت على عجل: "إلا إذا...".

"إلا؟ إلا إذا ماذا؟".

ترقّب كلماتي كما يترقب ابن آوى ظبياً.

تذمرت: "قدماي. الألم. لا يمكنني التفكير في شيء. لا يمكنني... أرجوك، على الأقل حلّ الوثاق قليلاً فقط".

قال وهو مستغرق بشكل مفاجئ بالتفكير: "حسناً. لكنني سأترك يديك مقيدتين. بتلك الطريقة لن تذهبـــي إلى أي مكان".

أومأت بلهفة.

جثا بمبرتون، وحرّر إبزيم حزامه. عندما نـــزل الجلد عن كاحليّ استجمعت قواي وركلته على أسنانه.

عندما كان يتدحرج إلى الخلف، ارتطم رأسه بالإسمنت، وسمعت صـــوت القـــارورة الزجاجية تصطدم بالأرض وتنـــزلق نحو الزاوية. ارتطـــم بمبرتون بالجدار بقوة، واتخذ وضعية الجلوس بينما كنت أعرج نحو الدرجات.

مكتبة الرمحي أحمد

صعدت... واحدة... اثنتان... ارتطمت قدماي الثقيلتان بالمصباح، الذي تدحرج على أرضية الحفرة حيث استقر أخيراً وشعاعه يضيء نعلي حذاء بمبرتون.

ثلاثة... أربعة... شعرت أن قدميّ تلقتا ضربة على الكاحلين.

خمسة...

لا بد أن رأسي كان آنذاك فوق مستوى الحفرة، لكن إذا كان الأمر كذلك، فلا بد أن الغرفة كانت غارقة في الظلام. لم يكن هناك أكثر من ضوء أحمر خافت يأتي من النوافذ في الباب. لا بد أن الظلام كان حالكاً في الخارج، ولا بد أنني قد نمت لساعات.

بينما كنت أحاول أن أتذكر مكان الباب، كانت هناك حركة في الحفرة. تحرك شعاع المصباح بشكل جنوني على السقف وفجأة كان بمبرتون واقفاً أعلى الدرجات، وانقضّ عليّ.

رمى بذراعيه حولي، وضغط حتى لم يعد بمقدوري أن أتنفس. كنت أستطيع سماع صوت العظام تطقطق في كتفيّ ومرفقيّ.

حاولت ضربه على قصبة ساقه، لكنه تغلب عليّ بسرعة.

جيئة وذهاباً مضينا، عبر الغرفة، مثل شيء يدور لولبياً.

صرخ عندما فقد توازنه: "لا!". وسقط إلى الخلف في الحفرة وسحبني معه.

ارتطم بالقعر بشكل مروّع في اللحظة نفسها التي وقعت فيها فوقه. سمعته يلهث في الظلام. هل كان قد تعرض لكسر في ظهره؟ أم أنه كان سيقف على قدميه مجدداً، ويهزّني مثل دمية قماشية؟

بثورة قوة مفاجئة، دفعني بمبرتون بعيداً عنه، فطرت في الهواء، وجهي للأسفل، إلى زاوية الغرفة. مثل دودة حلقية، التمست طريقي

مكتبة الربيعي أحمد

إلى الأعلى على ركبتيّ، لكن الوقت كان قد فات، أمسك بمبرتون ذراعي بقبضة قوية، وأخذ يسحبني نحو الدرجات.

كان الأمر سهلاً جداً، جلس القرفصاء، وأمسك بالمصباح من حيث كان قد سقط، ثم مدّ يده نحو الدرجات. كنت أظن أن المحقنة قد سقطت على الأرض، لكن، لا بد أن ما سمعته كان صوت القارورة، وقد اعتقدت للحظة أنني لمحت الإبرة في يده، ثم شعرت بها تثقب الجزء الخلفي من عنقي.

كانت فكرتي الوحيدة أن أكافح لكسب مزيد من الوقت.

قلت وأنا ألهث: "قتلت السيد توييننغ، أليس كذلك؟ أنت وبونبي".

بدا أن ذلك فاجأه. شعرت بقبضته ترتخي قليلاً.

تنفس في أذني: "ما الذي يجعلك تظنين ذلك؟".

قلت: "كان بونبي على السطح. بونبي من صرخ *فالي*! هو من قلّد صوت السيد توييننغ. كنت أنت من رمى جثته من الفتحة".

تنفّس بمبرتون بصوت مسموع من أنفه. "هل أخبرك بونبي ذلك؟".

قلت: "عثرت على القبعة والعباءة تحت قطع الآجر. استنتجت ذلك بنفسي".

قال آسفاً تقريباً: "أنتِ فتاة ذكية جداً".

"والآن بعد أن قَتلت بونبي أصبح الطابعان لك. على الأقل سيكونان كذلك إذا عرفت مكانهما".

بدا أن ذلك قد أصابه بالحنق. شدّ قبضته على ذراعي، وضغط مجدداً بمفصل إبهامه على عضلتي. صرخت ألماً.

همس: "أربع كلمات يا فلافيا. أين هما الطابعان اللعينان؟".

مكتبة الربيعي أحمد

خلال الصمت الطويل الذي تبع ذلك، بالرغم من الألم والخدر اللذين كنت أشعر بهما، اكتشف ذهني ملاذاً بالتحليق خارج ذلك المكان.

هل كانت تلك نهاية فلافيا؟ تساءلت.

إذا كانت كذلك، هل كانت هاريت تراقب ما يجري من فوق؟ هل كانت تجلس في تلك اللحظة على غيمة، وقدماها تتدليان من فوقها، تقول: "آه لا يا فلافيا! لا تفعلي هذا، لا تفعلي ذاك! خطر يا فلافيا، خطر!".

إذا كانت كذلك فعلاً، لم يكن بمقدوري سماعها، ربما كنت أبعد عن هاريت من فيلي ودافني، ربما كانت تحبني أقل منهما.

كانت حقيقة محزنة أنه من بين بنات هاريت الثلاث كنت الوحيدة التي لا تمتلك ذكريات حقيقية عنها. كانت فيلي، مثل شحيح، قد اختبرت واختزنت سبع سنوات من حب والدها. وكانت دافني تصر، بالرغم من أنها كانت بالكاد في الثالثة من عمرها عندما اختفت هاريت، أنها تمتلك ذكريات واضحة تماماً عن شابة نحيلة ضاحكة كانت تجعلها ترتدي فستاناً منشّى وقلنسوة، تضعها على بطانية على مرج تحت أشعة الشمس، وتلتقط لها صورة بآلة تصوير قبل أن تقدم لها مخلل الخيار.

أعادتني وخزة أخرى إلى الواقع، كانت الإبرة على جذع دماغي.

"*منتقما ألستر*، أين هما؟".

أشرت بإصبع إلى زاوية الحفرة حيث يوجد المنديل مكوراً في الظلال. عندما اتجه شعاع مصباح بمبرتون نحوه، أشحت بوجهي بعيداً عنه، ثم نظرت إلى الأعلى، كما يقال إن الصالحين الأتقياء القدامى يفعلون عندما يلتمسون الخلاص.

مكتبة الربيعي أحمد

سمعته قبل أن أراه. كان هناك صوت صرير مكبوت، كما لو أن زاحفاً مجنحاً آلياً عملاقاً يحوم خارج غرفة الصيانة. بعد لحظة، سمعت صوت تهشّم مخيف وزجاج يتحطم.

غرقت الغرفة فوقنا، خارج فوهة الفتحة، بضوء أصفر ساطع، وظننت أنها سحب من بخار.

كنت لا أزال متسمّرة في مكاني، وقفت أحدّق إلى الأعلى في الهواء على الشبح المألوف بشكل غريب الذي جثم يهتز فوق الحفرة.

لقد أطبق عليّ، كما فكّرت. لقد أُصبت بالجنون.

كان فوق رأسي مباشرة، يهتز مثل كائن حي، محمل [الجزء من السيارة الذي يرتكز عليه بدنها] رولز - رويس هاريت.

قبل أن أطرف عيني، سمعت صوت أبوابها تُفتح، وصوت أقدام تضرب الأرضية فوقي.

قفز بمبرتون نحو الدرجات، صعد عليها بسرعة مثل جرذ محاصر. في الأعلى توقف، وحاول أن يشق طريقه بقوة بين حافة الحفرة والمصد الأمامي للفانتوم.

ظهرت يد منفصلة، وأمسكت به من ياقته، وأخرجته من الحفرة مثلما يتم سحب سمكة من بركة. اختفى حذاؤه في الضوء فوقي، وسمعت صوتاً - صوت دوغر! - يقول: "سامح مرفقي!".

كانت هناك جلبة مقززة وارتطم شيء بالأرضية فوقي مثل كيس من اللفت.

كنت لا أزال أعاني من دوار عندما ظهر الشبح. كان يرتدي ملابس بيضاء، ومرّ بسهولة عبر الفتحة الضيقة بين الكروم والإسمنت قبل أن ينزل بسرعة إلى قعر الحفرة.

مكتبة الرمحي أحمد

عـــندما رمـــى ذراعيه حولي ونشج على كتفي، شعرت بالجسد النحيل يهتز مثل ورقة شجر.

صـــرخت مراراً وتكراراً، وشفتاها الحمراوان الخشنتان تضغطان على عنقي: "حمقاء صغيرة سخيفة! حمقاء صغيرة سخيفة!".

قلـــت، وقد أخذتني الدهشة: "فيلي! لقد اتسخ أفضل فساتينك بالزيت!".

خارج معتزل الحفرة، في طريق البقرة، كان الأمر خيالياً، كانت فيلي تجثو على ركبتيها تنشج، ذراعاها تطوقان بإحكام خصري. عندما وقفـــتُ هناك ساكنة من دون حراك، بدا أن كل مشكلة قد تلاشت بينـــنا، وللحظـــة كنت وفيلي مخلوقاً واحداً يقف تحت ضوء القمر في الطريق الظليل.

ثم بـــدا أن الجميع في بيشوب لاسي قد تجسّدوا أمامي، خرجوا ببطء من الظلام، يطقطقون بألسنتهم مثل أعضاء مجلس محلي في مكان تـــضيئه المـــشاعل، وعند الفتحة الواسعة التي كان باب غرفة الصيانة عـــندها، كانوا يخبرون بعضهم بعضاً ما كانوا يقومون به عندما تردد صـــوت الـــتحطم عـــبر القـــرية. كان ذلك مثل مشهد من مسرحية *بريغادون*، حيث تعود القرية ببطء إلى الحياة ليوم واحد كل مئة سنة.

كانت فانتوم هاريت، بمشعّها الجميل المثقوب بعد استخدامه ككَبش [أداة حـــربية لدك الحصون]، تقف آنذاك، والبخار يخرج منها بهدوء أمام غرفة الصيانة والماء يتسرب منها ببطء إلى التراب. كان بعض القرويين مفـــتولي العضلات - كان أحدهم تولي ستوكر، كما لاحظت - قد دفعوا المركبة الثقيلة إلى الخلف ليسمحوا لفيلي بإخراجي من الحفرة إلى الضوء الساطع لمصابيحها الأمامية الدائرية الكبيرة.

مكتبة الربيعي أحمد

كانـــت فيلي قد نهضت على قدميها، لكنها لا تزال تمسك بـــي مثل بطلينوس يلتصق بسفينة حربية، وتهذر بسعادة.

"لحقـــنا بـــه كمـــا ترين. كان دوغر يعرف أنك لم تعودي إلى المنـــزل، وعندما رأى شخصاً يحوم حول المنـــزل...".

كانـــت قد وجّهت إليّ كلمات متعاقبة أكثر مما تكلمت معي في حياتي كلها، ووقفت هناك أراقبهم لبعض الوقت.

"اتصل بالشرطة، بالطبع؛ ثم قال إننا إذا تبعنا الرجل... إذا لم نقم بتشغيل المصابيح الأمامية وبقينا على مسافة بعيدة منه... آه يا الله! كان يجب أن ترينا نتقدم على الطرقات!".

رولـــز جيدة قديمة وصامتة، كما فكّرت. كان والدي سيغضب بالطبع عندما يرى الضرر.

كانـــت الآنـــسة مونتجوي تقف إلى جانب الحشد، تشد شالاً صـــوفياً بإحكـــام على كتفيها، وتحدّق بخبث إلى المغارة المحطمة حيث كان باب غرفة الصيانة، كما لو أن انتهاك حرمة مبنى المكتبة كان أمراً لا يمكن السكوت عنه. حاولت لفت انتباهها، لكنها أشاحت ببصرها بعصبية نحو كوخها كما لو أنها رأت الكثير من الإثارة لأمسية واحدة، ويتوجب عليها العودة إلى منـــزلها.

كانـــت السيدة موليت هناك أيضاً، مع رجل قصير بدين يلتصق بـــشكل ظاهر بها. لا بد أنه كان زوجها، آلف، كما فكّرت، لم يكن يـــشبه جـــاك سبرات [بطل سلسلة روايات كتبها غاسبر فورد] كما تخـــيلت علـــى الإطلاق. لو أنها كانت لوحدها، كانت السيدة ميم. ستندفع نحوي، وترمي بذراعيها حولي وهي تبكي، لكن، بدا أن آلف يـــدرك تماماً أن مشاهد الحميمية أمام العامة ليست مناسبة أبداً. عندما ابتسمت لها بغموض، وضعت إصبعها على إحدى عينيها.

مكتبة الربيعي أحمد

في تلــك اللحظــة، وصل د. داربـــي إلى المكان كما لو أنه قد خـــرج في نـــزهة مسائية. بالرغم من محياه الهادئ، لم يسعني سوى أن ألاحـــظ أنه قد أحضر حقيبته الطبية السوداء. كانت عيادته الجراحية عند الزاوية في الشارع الرئيس، ولا بد أنه قد سمع صوت تحطم الخشب والزجاج. نظر إليّ باهتمام من أعلى رأسي إلى أخمص قدميّ.

سأل فيما كان ينحني إلى الأمام لإلقاء نظرة أكثر قرباً على عينيّ: "هل أنتِ بخير يا فلافيا؟".

قلتُ بسعادة: "على أحسن ما يرام، شكراً د. داربـــي، وأنت؟".

بحـــث عن قطع النعناع التي يحملها دائماً. قبل أن يخرج الكيس الورقي من جيبه، كان لعابـــي يسيل مثل كلب، وكانت ساعات من الاحتجاز والتكميم قد جعلت فمي جافاً تماماً.

بحـــث د. داربـــي للحظة بين قطع النعناع، انتقى بعناية واحدة بـــدت الأفـــضل، ودفعها في فمه. بعد لحظة كان في طريق عودته إلى منـــزله.

أفـــسح الحـــشد الصغير الطريق عندما انعطفت سيارة إلى طريق البقرة من الشارع الرئيس. بينما كانت تخفف سرعتها لتتوقف بجانب الجـــدار الحجري، وجهت مصابيحها الأمامية الضوء إلى شخصين كانا يقفـــان معاً تحت شجرة بلوط، ماري ونيد. لم يتقدما إلى الأمام، وبقيا واقفين يبتسمان لي بخجل في الظلال.

هل كانت فيلي قد رأتهما معاً؟ لا أظن أنها فعلت لأنها كانت لا تـــزال تثرثر، وهي تبكي، عن عملية الإنقاذ. لو أنها كانت قد رأتهما، لكـــنت وجدت نفسي بسرعة أفض شجاراً سخيفاً بالأيدي والأرجل. كـــان ذلك سيجعلني أشعر بإحباط كبير. قالت دافني لي مرة إنه عندما يـــتعلق الأمر بالشجار، تتلقى ابنة صاحب الأرض عادة اللكمة الأولى،

مكتبة الرمحي أحمد

ولم يكن أحد يعرف أفضل مني أن فيلي غيورة جداً. بالرغم من ذلك، أفتخر بالقول إنني كنت أتمتع بسرعة البديهة - والشجاعة - لأرفع إبهامي خلسة إلى الأعلى بإشارة تهنئة إلى نيد.

فُتح الباب الخلفي للفوكسهويل، وخرج منه المفتش هيوت. في الوقت نفسه، مدّ الرقيبان المحققان غريفز وولمار نفسيهما من المقعدين الأماميين، وخرجا من السيارة برشاقة مدهشة إلى طريق البقرة.

مشى الرقيب ولمار بخطوات واسعة سريعة إلى حيث كان دوغر يمسك بمبرتون بقبضة مؤلمة، والتي كانت تجعله ينحني مثل تمثال أطلس والعالم على كتفيه.

قال الرقيب ولمار: "سآخذه الآن يا سيدي". وبعد لحظة ظننت أنني سمعت تكة أصفاد من النيكل.

راقب دوغر ما يجري بينما كان بمبرتون يُساق إلى سيارة الشرطة، ثم استدار، ومشى ببطء نحوي. عندما كان يقترب، همست فيلي بسعادة في أذني: "كان دوغر من فكّر في استخدام مدخرة الجرّار لتشغيل الرويس. يجب أن تشكريه لذلك".

تركت يدي، وابتعدت عني.

وقف دوغر أمامي، يداه تتدليان إلى جانبيه. لو كانت لديه قبعة، كان سيفتلها. وقفنا هناك ننظر إلى بعضنا بعضاً.

لم أكن على وشك أن أبدأ شكري له بالحديث عن المدخرة. كنت أودّ أن يكون كلامي مناسباً، كلمات شجاعة سيتكلم عنها الناس في بيشوب لاسي لسنوات قادمة.

أثار شكل داكن يتحرك أمام مصابيح الفوكسهويل الأمامية انتباهي عندما حجب، للحظة، الضوء عني ودوغر. كان شكلاً مألوفاً، يرسم ظلاً بالأبيض والأسود، يقف مثل مقطع ورق في الضوء الساطع، والدي.

مكتبة الربيعي أحمد

بدأ يمشي متثاقلاً، بخجل تقريباً، نحوي. لكن عندما رأى دوغر إلى جانبـــــي، توقف وكما لو أنه فكّر آنذاك في شيء بالغ الأهمية، تنحّى جانباً ليتبادل بضع كلمات بهدوء مع المفتش هيوت.

أشـــارت الآنسة كول، مديرة مكتب البريد، نحوي بإيماءة سارة لكنها بقيت في الخلف، كما لو أنني كنت بطريقة ما فلافيا مختلفة عن تلـــك الـــتي - هل مرّ حقاً يومان فقط؟ - كانت قد اشترت ما قيمته جنيه وستة شلنات من الحلويات من متجرها.

قلـــت وأنا أستدير نحوها: "فيلي، أريد منكِ معروفاً، عودي إلى الحفـــرة واجلبـــي منديلي، وتأكدي من إحضار ما يوجد في داخله. فستانك متسخ، لهذا لن يشكل الأمر فرقاً. أنتِ فتاة طيبة".

فغـــرت فيلي فمها دهشة، وفكّرت للحظة في أنها ستلكمني على أســـناني. أصـــبح وجهها كله أحمر مثل شفتيها. ثم فجأة دارت على عقبيها، واختفت في ظلال غرفة الصيانة.

استدرت إلى دوغر لأعبّر له عن تقديري لما فعله، لكنه سبقني.

قـــال: "يـــا للعجب يا آنسة فلافيا. لقد تبين أنها أمسية لطيفة، أليست كذلك؟".

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

السابع والعشرون

كان المفتش هيوت يقف في منتصف مختبري، يستدير ببطء، وعيناه تجولان على المعدات العلمية والخزائن الكيميائية مثل شعاع منارة. عندما أتم دورة كاملة، توقف، ثم قام بأخرى في الاتجاه المعاكس.

قال بإعجاب: "رائع! رائع ببساطة!".

كان شعاع من ضوء الشمس الدافئ المبهج يدخل عبر زجاج النوافذ الطويلة، يضيء إناء فيه سائل أحمر كان على وشك الغليان. سكبت نصف المادة في كوب خزفي، وأعطيته إلى المفتش. حدّق إليه متشككاً.

قلت: "إنه شاي. آسام من فورتنم وماسون [شركة]. آمل ألا تمانع أنني قد سخّنته".

قال: "كل ما نشربه في المخفر مسخّن. لا أرضى بغير ذلك".

بينما كان يرتشف، تجول ببطء في أرجاء الغرفة، تفحّص الأدوات الكيميائية باهتمام مهني. تناول مرطباناً أو اثنين عن الرفوف، ورفع كلاًّ منها عالياً في الضوء، ثم انحنى لينظر عبر عدسة مجهر ليتز. كان بمقدوري ملاحظة أنه يواجه بعض الصعوبة في الدخول إلى صلب الموضوع.

أخيراً، قال وهو يرفع الكوب فوق رأسه، ويقرأ اسم الصانع في الأسفل: "قطعة جميلة من الخزف".

مكتبة الربيعي أحمد

قلــت: "سبود [خزف إنكليزي فاخر] قديم جداً. شرب ألبرت أينشتاين [عالم فيزياء ألماني صاحب نظرية النسبية] وجورج برنارد شو [كاتــب مسرحي أيرلندي] الشاي من الكوب نفسه عندما زارا عمي تاركين، ليس في الوقت نفسه، بالطبع".

قال المفتش هيوت وهو يرمقني بنظرة: "يتساءل المرء عمّا استفاده أحدهما من الآخر؟".

قلت وأنا أرمقه بنظرة مماثلة: "يتساءل المرء؟".

تــناول المفــتش رشــفة أخرى من الشاي. بطريقة ما، بدا غير مــرتاح، كمــا لو أن هناك شيئاً يود أن يقوله، لكنه لا يعرف طريقة للشروع في ذلك.

قــال: "كانــت قضية صعبة. غريبة حقاً. الرجل الذي كنت قد وجدتِ جثته في الحديقة غريب تماماً، أو هذا ما كان يبدو. كل ما كنا نعرفه أنَه قد جاء من النرويج".

قلت: "الشُنقب".

"أستميحكِ عذرا؟".

"الشُنقب الميت على عتبة باب مطبخنا. لا يمكن العثور على طيور الــشُنقب أبــداً في إنكلتــرا قبل الخريف. لا بد أن أحداً قد جلبه من النرويج، في فطيرة. لقد عرفت بتلك الطريقة، أليس كذلك؟".

بدا المفتش مرتبكاً.

قــال: "لا. كان بونبي ينتعل حذاءً جديداً عليه اسم الصانع في ستافانغر".

قلت: "أوه".

"من خلال ذلك، استطعنا تعقّب آثاره بسهولة كبيرة". بينما كان يــتكلم، كانــت يدا المفتش هيوت ترسمان خريطة في الهواء. "أفادتنا

مكتبة الربيعي أحمد

مصادرنا هنا وفي الخارج أنه استقل القارب من ستافانغر إلى نيوكاسل، وسافر من هناك عبر القطار إلى يورك، ثم إلى دودنغسلي. من دودنغسلي استقل سيارة أجرة إلى بيشوب لاسي".

آها! كما كنت قد استنتجت تماماً.

قلت: "بالضبط. ولحق بمبرتون - أم ينبغي أن أقول بوب ستانلي؟ - به، لكنه توقف في دودنغسلي. أقام في الحوذي المرح".

ارتفع أحد حاجبي المفتش هيوت مثل كوبرا [أفعى سامة]. قال: "أوه؟ كيف عرفت ذلك؟".

"اتصلت بالحوذي المرح، وتكلمت مع السيد كليفر".

"هل ذلك كل شيء؟".

"كانا شريكين في ذلك، تماماً كما كانا في جريمة قتل السيد توييننغ".

قال: "أنكر ستانلي ذلك. يدّعي أن لا علاقة له بذلك. هو نقي مثل الثلج، كما يقول".

"لكنه أخبرني في غرفة الصيانة أنه قتل بونيي! بالإضافة إلى ذلك، أقرّ تقريباً أن نظريتي صحيحة، كان انتحار السيد توييننغ مسرحية وهمية".

"حسناً، ذلك غير مؤكد. ننظر في ذلك حالياً، لكن الأمر سيستغرق بعض الوقت، بالرغم من أنني يجب أن أقول إن والدك كان مفيداً جداً. أخبرنا القصة الكاملة التي قادت إلى موت المسكين توييننغ. أتمنى فقط لو كان قد قرّر الإفصاح عن ذلك في وقت أبكر. ربما كنا قد وفّرنا عليك...".

قال: "آسف. كنت أفترض".

قلت: "الاختطاف".

مكتبة الربيعي أحمد

أعجبتني السرعة التي غيّر المفتش بها الموضوع.

قال: "لنعد إلى الحاضر. دعيني أرى إن كنت قد فهمت الأمر كما يجب. تظنين أن بونبني وستانلي كانا شريكين؟".

قلت: "كانا دائماً شريكين. كان بونبني يسرق طوابع، وستانلي يبيعها في الخارج إلى جامعين عديمي ضمير. لكن، بطريقة ما، لم يتمكّنا أبداً من بيع *منتقمي الستر* لأنهما كانا ببساطة معروفين جداً. ونظراً إلى أن أحدهما كان مسروقاً من الملك، فقد كان خطيراً على أي جامع أن يتم ضبطهما في مجموعته".

قال المفتش: "مثير للاهتمام، و؟".

"كانا يخططان لابتزاز والدي، لكن في مكان ما على الطريق، لا بد أنهما تشاجرا. كان بونبني قادماً من ستافانغر ليفعل ذلك، وفي مرحلة ما أدرك ستانلي أن بمقدوره أن يتبعه، يقتله في بكشو، يأخذ الطابعين، ويغادر البلاد. بكل بساطة. وسيقع اللوم كله على والدي. وهذا ما كان". قلت ذلك مع نظرة ذات مغزى.

أطبق صمت ثقيل على المكان.

قال أخيراً: "اسمعي يا فلافيا. لم تكن لدي فعلاً خيارات كثيرة، كما تعرفين. لم يكن هناك مشتبه بهم آخرون".

قلت: "ماذا عني. كنت في مسرح الجريمة". لوّحت بيدي على قوارير المواد الكيميائية التي تملأ الجدران. "بالمحصلة، أعرف الكثير عن السموم. يمكن اعتباري شخصاً خطيراً جداً".

قال المفتش: "همم. أمر مثير للاهتمام. وقد كنتِ في الموقع وقت الوفاة. لو أن الأمور لم تجرِ بالطريقة التي وقعت بها تماماً، ربما كان الحبل قد التف حول عنقك".

لم أكن قد فكّرت في ذلك. سرت قشعريرة في جسدي، وارتعشت.

مكتبة الرمحي أحمد

تابع المفتش كلامه: "الدلائل ضد ذلك، على كل حال، كحجم جسدك، افتقارك إلى أي دافع حقيقي، وحقيقة أنكِ لم تبتعدي عن المكان. يبتعد القاتل العادي عادة عن الشرطة قدر المستطاع، بينما كنت أنتِ... حسناً، *حاضرة* هي الكلمة التي تخطر ببالي. إذاً، ماذا كنت تقولين؟".

"ترصّد ستانلي بونبي في حديقتنا. كان بونبي مصاباً بالسكري، و -".

قال المفتش كما لو أنه يكلّم نفسه: "آه، الأنسولين! لم نفكر في إجراء اختبار لذلك".

قلت: "لا. ليس الأنسولين، رابع كلوريد الكربون. مات بونبي من حقن رابع كلوريد الكربون في جذع دماغه. اشترى ستانلي قارورة من المادة من جونز، الصيدلاني، في دودنغسلي. رأيت اللصاقة على القارورة عندما ملأ المحقنة في غرفة الصيانة. ربما تكون قد وجدها على الأرجح تحت الأنقاض".

من ملامح وجهه عرفت أنهم لم يجدوها.

قال: "لا بد أنها تدحرجت إلى داخل الأنبوب. هناك قناة صرف قديمة تمتد إلى النهر. يجب أن يجدها أحدهم".

مسكين الرقيب غريفز! كما فكّرت.

أضفت من دون تفكير: "سرق ستانلي المحقنة من حقيبة الأدوات في غرفة بونبي في ثلاثة عشر علجوماً".

تباً!

فزع المفتش، وسأل بحدة: "كيف تعرفين ما كان يوجد في غرفة بونبي؟".

قلت: "آه... سآتي على ذكر ذلك خلال بضع دقائق. كان ستانلي يظن أنه يستحيل اكتشاف أي آثار محتملة لرابع كلوريد

مكتبة الربيعي أحمد

الكـــربون في دمـــاغ بونبني. المثير للاهتمام أنك لم تلاحظ ذلك. ربما تكون قد افترضت أنها جاءت من إحدى قوارير والدي. هناك غالونات من تلك المادة في المكتب".

ســحب المفتش هيوت دفتر ملاحظاته، وكتب على عجل بضع كلمات، والتي افترضت أنها *رابع كلوريد الكربون*.

قلت وقد تغضن أنفي: "كنت أعرف أن المادة تحتوي على كربون لأن بونبني لفظ آخر نفحة من تلك المادة بوجهي عندما كان يحتضر".

إذا كان ممكناً القول إن بشرة المفتش هيوت أصبحت بيضاء، فإن هذا ما حدث.

"هل أنتِ واثقة من ذلك؟".

"أعرف تماماً مركبات الهيدروكربون المعالجة بالكلور، شكراً".

"هل تقولين لي إن بونبني كان لا يزال حياً عندما عثرت عليه؟".

قلت: "برهة فقط. لقد... أه... توفي فوراً تقريباً".

أطبق الصمت لوقت طويل مجدداً.

قلت: "الآن، سأشرح لك كيف تم الأمر".

أمسكت بقلم رصاص أصفر، أدرته عدّة مرّات في المبراة، وذهبت إلى الزاوية حيث كان الهيكل العظمي المتمفصل يتدلى من طرف سلكه.

قلت وأنا أضع يدي بتأثر على الجمجمة: "كان عالم التاريخ الطبيعي فرانك بوكلاند قد أهداه إلى عمي الأكبر، تاركين. أدعوه يوريك".

لم أخبر المفتش أن بوكلاند، في آخر أيامه، قد منح هديته تقديراً لموهــبة تار الشاب الكبيرة. كان بوكلاند قد كتب على بطاقته "نحو مستقبل علمي لامع".

وضعت الطرف الدقيق لقلم الرصاص أعلى العمود الفقري، دفعته بـــبطء إلى أســـفل الجمجمة فيما كنت أردّد كلمات بمبرتون في غرفة

مكتبة الربيعي أحمد

الـــصيانة: "بزاوية حادة... عبر العضلة الطحالية وسعفة الرأس، تثقب الرباط الأمامي، وتصل الإبرة –".

قـــال المفتش فجأة: "شكراً يا فلافيا. ذلك كافٍ فعلاً. هل أنتِ واثقة تماماً أن ذلك ما قاله؟".

قلـــت: "كلماتـــه بالتحديد. كان علي أن أبحث عن معانيها في *غراي للتشريح*. يوجد في *موسوعة الأطفال* عدّة صور، لكن ليس هناك ما يكفي من التفاصيل".

فرك المفتش هيوت ذقنه.

أضفت متمنية: "أنا واثقة من أن د. داربـــي يمكن أن يجد علامة الإبرة على الجزء الخلفي من عنق بونبي إذا كان يعرف أين يبحث. ربما يفحـــص الجيوب الأنفية أيضاً. رابع كلوريد الكربون ثابت في الهواء، وربما يكون لا يزال عالقاً هناك، لأن الرجل لم يعد يتنفس.

أضـــفت: "وقـــد تذكّـــره أن بونبي تناول شراباً في ثلاثة عشر علجوماً قبل أن ينطلق سيراً على القدمين إلى بكشو".

كان المفتش لا يزال يبدو حائراً.

شـــرحت: "تـــزداد تأثيرات رابع كلوريد الكربون نتيجة تناول المشروبات الكحولية".

ســـأل بابتـــسامة باهتة: "وهل لديك أي نظرية معينة عن سبب وجـــود تلك المادة في جيوبه الأنفية؟ أنا لست كيميائياً، لكنني أظن أن رابع كلوريد الكربون يتبخر بسرعة كبيرة".

كـــان لـــدي ســـبب، لكنني لم أكن مستعدة لمشاركته مع أي شخص، خاصة مع الشرطة. كان بونبي يعاني من زكام شديد، زكام كـــان قـــد نقلـــه، عـــندما لفظ كلمة *"فالي!"* في وجهي، إليّ. شكراً يا هوراس! كما فكّرت.

كنت أشك أيضاً في أن قصبات بونبي الهوائية المسدودة، ربما تكون قد احتفظت بكمية من رابع كلوريد الكربون، والذي لا ينحل بالماء - أو بالمخاط، في تلك الحال - مما قد يكون ساعد أيضاً على تثبيط استنشاق الهواء الخارجي.

قلت: "لا. لكن، ربما يمكنك سؤال المختبر في لندن الذي أجرى الاختبار وفقاً للأقرباذين [كتاب يحتوي على عناصر الأدوية وطريقة تركيبها] البريطاني".

قال المفتش هيوت: "لا يمكنني القول إنني أتذكر ذلك، ارتجالاً".

قلت: "إنه إجراء بسيط للغاية. يختبر حدود غاز الكلور الحر عندما يتحرر اليود من يوديد الكادميوم. أنا واثقة من أنهم يعرفون ذلك. سأعرض أن أقوم بذلك بنفسي، لكنني لا أتوقع أن سكوتلنديارد ستكون مرتاحة لتسليم أجزاء من دماغ بونبي إلى فتاة في الحادية عشرة من عمرها".

حدّق المفتش هيوت إليّ لما بدا أنه دهر.

قال أخيراً: "حسناً. لنلق نظرة".

قلت، وقد وضعت قناع البراءة الخجولة جانباً: "على ماذا؟".

"أياً كان الذي قمت به. لنلق نظرة عليه".

قلت: "لكنني لم أفعل أي شي. أنا -".

"لا تسخري مني يا فلافيا. لا أحد كان قد حظي بمتعة معرفتك شخصياً سيصدّق للحظة واحدة أنك لم تقومي بفرضك المنزلي".

كشّرت بارتباك. قلت: "إنه هنا". وتحركت نحو طاولة جانبية عليها مستوعب زجاجي مغطى بمنشفة شاي رطبة.

أزحت قطعة القماش جانباً.

قال المفتش: "يا الله! ما هذا -؟".

فغـــر فمه دهشة لرؤية المادة الدماغية القرنفلية تطفو بسكون في المستوعب.

قلـــت: "إنهـــا قطعة دماغ لطيفة. أخذتها من مستودع اللحوم. اشـــترتها الـــسيدة موليت من كارنفورث أمس لعشاء الليلة. ستشعر بغضب شديد".

قال وهو يضرب يديه ببعضهما: "وأنتِ...؟!".

"نعم، ذلك صحيح. حقنتها بسنتيمترين ونصف مكعّبين من رابع كلوريد الكربون. تلك هي طريقة عمل محقنة بونبي".

تابعـــت قائلة: "يزن دماغ الإنسان العادي ثلاثة باوندات، وعند الذكـــر قد يكون أثقل قليلاً. كنت قد اقتطعت خمس اونصات إضافية لإنجاح التجربة".

سأل المفتش هيوت: "كيف عثرت على طريقة القيام بذلك؟".

"إنهـــا في مجلدات كتب آرثر مي [كاتب بريطاني مؤلف موسوعة الأطفال]. *موسوعة الأطفال* مجدداً، كما أظن".

"وقـــد اختـــبرت هـــذا... الدماغ، لتأكيد وجود رابع كلوريد الكربون؟".

قلـــت: "نعـــم، لكن ليس بعد خمس عشرة ساعة من حقنه به. قدّرت أن ذلك هو الوقت الذي انقضى بين حقن المادة في دماغ بونبي وتشريح الجثة".

"و؟".

قلـــت: "كـــان لا يزال ممكناً اكتشافه. أمر سهل جداً. بالطبع اســـتخدمت إحدى أمينو ميثيل الأنيلين. ذلك اختبار جديد، لكنه بسيط. إنـــه مذكور بالتفصيل في *المحلل* [جورج بيركلي ونُشر عام 1734] قبل نحو خمس سنوات. اسحب كرسياً وسأُريك".

مكتبة الرمحي أحمد

ضحك المفتش هيوت بصوتٍ خافت: "لن ينفع ذلك، كما تعرفين".

قلت: "لن ينفع؟ بالطبع سيجدي نفعاً. لقد فعلت ذلك من قبل".

"أعني أنكِ لن تذهليني بعمل مختبر وتجعليني أنسى شأن الطابع. بالمحصلة، المسألة برمتها تتعلق به، أليس كذلك؟".

كان قد حصرني في خانة اليك. كنت قد خططت ألا أقول شيئاً عن منتقم *الستر* ثم تسليمه بهدوء إلى والدي. من سيكون الأكثر حكمة؟

قال: "اسمعي، أعرف أنه لديك. لقد زرنا د. كيسنغ في روك إيند".

حاولت أن أبدو غير مقتنعة.

"كان بوب ستانلي، بمبرتون كما تطلقين عليه، قد أخبرنا أنكِ سرقته منه".

سرقته منه؟ الفكرة! يا للصفاقة!

اعترضت: "إنه يخص الملك. سرقه بونبي من معرض في لندن".

"حسناً، أيا كان الشخص الذي يمتلكه، إنه مسروق، وواجبي أن أعيده. كل ما أريد معرفته هو كيف أصبح في عهدتك".

تباً للرجل! لم يكن بمقدوري المراوغة أكثر من ذلك. كان يجب أن أعترف بما فعلته في ثلاثة عشر علجوماً.

قلت: "لنعقد صفقة".

انفجر المفتش هيوت ضاحكاً. قال: "هناك أوقات يا آنسة دي لوس تستحقين فيها ميدالية برونزية. وهناك أوقات أخرى تستحقين أن يتم إرسالك بها إلى غرفتك مع خبز وماء".

سألت: "وأي تلك الأوقات هي السائدة الآن؟".

مهلاً! من الأفضل أن تتوخي الحذر يا فلافيا.

هزّ أصابعه نحوي، وقال: "أنا مصغٍ".

مكتبة الربيعي أحمد

قلت له: "حسناً، لقد كنت أفكر. لم تكن حياة والدي ممتعة مؤخراً. في المقام الأول، جئت إلى بكشو وقبل أن نعرف ما يجري اتهمته بارتكاب جريمة قتل".

قال المفتش: "مهلاً... مهلاً. لقد استعرضنا ذلك سلفاً. تم اتهامه بارتكاب جريمة القتل لأنه اعترف بذلك".

هل فعل؟ كان ذلك شيئاً جديداً.

"ولم يكد ينتهي من ذلك حتى ظهرت فلافيا. كانت تظهر اعترافات أكثر مما تظهر السيدة لورد ليلة السبت".

قلت: "كنت أحاول حمايته فحسب. في ذلك الوقت، كنت أظن أنه ربما فعل ذلك".

سأل المفتش هيوت، وهو يراقبني بحرص: "ومن كان هو يحاول أن يحمي؟".

كان الجواب، بالطبع، دوغر. كان ذلك ما يعنيه والدي عندما قال *كنت أخشى ذلك*، بعد أن أخبرته أن دوغر، أيضاً، كان قد استرق السمع إلى ما حدث في مكتبه مع هوراس بونبي.

كان والدي يظن أن دوغر قد قتل الرجل، وكان ذلك واضحاً للغاية. لكن لماذا؟ هل كان دوغر قد فعل ذلك بدافع الولاء، أم خلال إحدى *حالاته الخاصة*؟

لا، الأفضل أن أترك دوغر خارج هذا الأمر. كان ذلك أقل ما يمكنني فعله.

كذبت: "ربما أنا. كان والدي يظن أنني قد قتلت بونبي. بالمحصلة، ألست من كان موجوداً، إذا صح التعبير، في مسرح الجريمة؟ كان يحاول حمايتي *أنا*".

سأل المفتش هيوت: "هل تصدقين ذلك فعلاً؟".

مكتبة الربيعي أحمد

قلت: "كان لطفاً منه أن يفكر على ذلك النحو".

قال المفتش هيوت: "أنا واثق من ذلك. أنا متأكد تماماً أنه كان يحاول حمايتك. نعود الآن إلى الطابع. لم أنسَ أمره، كما تعرفين".

"حسناً، كما كنت أقول، أود القيام بشيء من أجل والدي، شيء يجعله سعيداً، حتى لبضع ساعات. أودّ أن أمنحه *منتقم الستر*، حتى إذا لم يكن ذلك سوى لبضع ساعات فقط. اسمح لي أن أفعل ذلك، وسأخبرك بكل ما أعرفه. أعدك".

مشى المفتش بهدوء إلى خزانة الكتب، أخرج مجلداً عنوانه *إجراءات الجمعية الكيميائية* لعام 1907، ونفخ سحابة من الغبار عن ظهر الكتاب. قلّب صفحاته بتكاسل، كما لو أن يبحث عمّا سيقوله تالياً.

قال: "ليس هناك شيء تكرهه زوجتي، أنتيغون، أكثر من التسوق. قالت لي مرة إنها تفضّل معالجة إحدى أسنانها على تمضية نصف ساعة في تسوق فخذ لحم ضأن. لكنها يجب أن تقوم بالتسوق، سواء أكانت تحب ذلك أم لا. إنه قدرها، كما تقول. لإثراء التجربة، تقوم أحياناً بشراء كتيب أصفر صغير بعنوان *أنت وأبراجك*.

يجب أن أعترف أنني كنت حتى الآن قد سخرت من بعض الأشياء التي قرأتها لي على الإفطار، لكن هذا الصباح قال برجي، وأقتبس هنا: *سيتم اختبار صبرك إلى أقصى حدّ*. هل تظنين أنني كنت أسيء الحكم على تلك الأشياء يا فلافيا؟".

قلت وأنا ألحن بالقول: "أرجوك!".

قال: "أعطيك مهلة أربع وعشرين ساعة، ولا دقيقة واحدة بعدها".

وفجأة بدا أن كل شيء ينكشف، ووجدت نفسي أثرثر عن الشُنقب الميت، فطيرة كسترد السيدة موليت البريئة تماماً (بالرغم من أنها لا تصلح للأكل)، تفتيشي غرفة بونبي في الخان، عثوري على

مكتبة الرمحي أحمد

الطابعين، زيارتيّ للآنسة مونتجوي ود. كيسنغ، لقائي بمبرتون في الكوخ وفناء دار العبادة، واحتجازي في غرفة الصيانة.

الجزء الوحيد الذي أغفلته كان عن تسميمي لأحمر شفاه أوفيليا بخلاصة اللبلاب السام. لماذا أزعج المفتش بتفاصيل غير ضرورية؟

بينما كنت أتكلم، كان يكتب على عجل بين الفينة والأخرى في دفتر ملاحظات صغير أسود، والذي كانت صفحاته، كما لاحظت، مليئة بسهام وعلامات مبهمة ربما كانت مستلهمة من صيغ خيميائية من العصور الوسطى.

سألت وأنا أشير إلى الدفتر: "هل اسمي مكتوب فيه؟".

قال: "اسمك مكتوب".

"هل يمكنني إلقاء نظرة؟ لمحة فقط؟".

أغلق المفتش هيوت دفتر الملاحظات. قال: "لا. إنها وثيقة سرية خاصة بالشرطة".

"هل كتبت اسمي بالكامل، أم أشرت إليّ بأحد تلك الرموز؟".

قال وهو يدفع الدفتر في جيبه: "لك رمز خاص. حسناً، حان وقت مغادرتي".

مدّ يده، وصافحني بقوة. قال: "إلى اللقاء يا فلافيا. كانت القضية... تجربة مفيدة".

ذهب نحو الباب، وفتحه.

"أيها المفتش...".

توقف واستدار.

"ما هو؟ أعني رمزي؟".

قال: "إنه بي، حرف بي".

سألت مندهشة: "بي؟ ماذا يعني بي؟".

مكتبة الرمحي أحمد

قال: "آه، من الأفضل ترك ذلك للمخيلة".

كانت دافني في غرفة الاستقبال، تتمدد بكامل طولها على البطانية، تقرأ *سجين زيندا* [رواية مغامرات لأنطوني هوب].

سألت: "هل تعرفين أنكِ تحركين شفتيك عندما تقرأين؟".

تجاهلتني، وقررت المخاطرة بحياتي.

قلت: "بمناسبة الحديث عن الشفاه، أين فيلي؟".

قالت: "عند الطبيب. إنها مصابة بنوع من الحساسية. إنه شيء كانت قد تعرضت له".

آها! كانت تجربتي قد حققت نجاحاً باهراً! لن يعرف أحد ذلك أبداً. عندما ستسنح لي لحظة للاختلاء بنفسي، سأسجل في دفتر ملاحظاتي:

الثلاثاء، السادس من حزيران 1950، 1:20 بعد الظهر. نجاح النتيجة كما هي متوقعة. تحققت العدالة.

أفلتت مني زفرة خافتة. لا بد أن دافني قد سمعتها، لأنها قلّبت نفسها، ووضعت ساقاً على ساق.

قالت بهدوء: "لا تظني للحظة أنكِ قد أفلت بذلك".

قلت: "هه؟". كان الارتباك البريء صنعتي.

"أي خلطة وضعتها في أحمر شفاهها؟".

قلت: "لا أعرف أبداً ما تتكلمين عنه".

قالت دافني: "ألقي نظرة على نفسك في المرآة. احذري كي لا تكسريها".

استدرت ومشيت ببطء إلى رف الموقدة حيث كانت مرآة قاتمة من عهد الوصاية على العرش معلقة تعكس ما يوجد في الغرفة.

مكتبة الرمحي أحمد

انحنيت مقتربة منها، ونظرت إلى صورتي. في البداية لم أرَ شيئاً سوى شخصيتي المشرقة المعتادة، عينيّ الذابلتين، بشرتي الشاحبة، لكن عندما حدّقت أكثر، بدأت ألاحظ تفاصيل أكثر في الانعكاس.

كانت هناك لطخة على عنقي. لطخة حمراء ملتهبة! أين كانت فيلي قد قبّلتني؟!

أطلقت صرخة ألم.

"قالت فيلي قبل أن تنزل إلى الحفرة بخمس ثوانٍ إنها ستجعلك تدفعين الثمن غالياً".

حتى قبل أن تقلّب دافني نفسها، وتعود لمتابعة قراءة تلك القصة السخيفة عن السيوف، كنت قد خرجت بخطة.

مرة، عندما كنت في قرابة التاسعة من العمر، كنت قد احتفظت بمذكرات حول ما يعنيه أن تكون فرداً من آل دي لوس، أو على الأقل ما سأكون أنا عليه كفرد من آل دي لوس. فكّرت كثيراً في مشاعري آنذاك، وتوصلت إلى خلاصة أن كوني فلافيا دي لوس، يعني أنني مثل مادة كيميائية متغيرة، مثل بقية من كريستال أسود تتركها أبخرة يود بنفسجية على زجاج بارد لأنبوب اختبار. في ذلك الوقت، فكّرت في أن ذلك هو الوصف المثالي، ولم يحدث شيء في السنتين الماضيتين يجعلني أغير رأيي.

كما كنت قد قلت، هناك شيء ينقصنا نحن آل دي لوس؛ عروة كيميائية من نوع ما، أو الافتقار لها، والتي تربطنا معاً كلما تعرضنا لتهديد. كان احتمال قيام إحدانا بإبلاغ الأخرى أنها تحبها مثل احتمال أن تنحني إحدى قمم جبال هملايا، وتهمس بكلمات لطيفة لقمة مجاورة.

مكتبة الرمحي أحمد

تأكدت وجهة نظري تلك عندما سرقت فيلي مذكراتي، خلعت القفل النحاسي بأداة فتح علب معدنية من المطبخ، وقرأت بصوتٍ عالٍ منها بينما كانت تقف أعلى السلالم ترتدي ملابس كانت قد سرقتها من فزّاعة أحد الجيران.

كانت تلك الأفكار في ذهني عندما كنت أقترب من باب مكتب والـــدي. توقفت، غير واثقة مما سأقدم عليه. هل كنت أرغب حقاً في فعل ذلك؟

طرقت بتردد على الباب. كان هناك صمت طويل قبل أن يقول صوت والدي: "تفضلي".

أدرت المقبض، ودخلت الغرفة. جالساً إلى الطاولة بجانب النافذة، رفـــع والـــدي عينه للحظة عن عدسته المكبّرة، ثم تابع تفحّصه لطابع أرجواني.

ســـألت، قلقة، حتى عندما كنت أقول ذلك، من أن يكون وقع ذلـــك غـــريباً، لكـــنها بـــدت بالرغم من ذلك الخيار الصحيح تماماً للكلمات: "هل يمكنني أن أتكلم؟".

وضع والدي العدسة جانباً، رفع نظارته، وفرك عينيه. بدا متعباً.

مـــددت يـــدي إلى داخل جيبـــي، وسحبت ورقة كتابة زرقاء كـــنت قد وضعت فيها منتقم *الستر*. تقدمت إلى الأمام مثل متوسل، وضعت الورقة على طاولته، وتراجعت إلى الخلف مجدداً.

فتحها والدي.

قال: "يا الله! إنه *أيه أيه*".

وضع نظارته مجدداً، وأمسك بمكبرة الجواهرجي لينظر إلى الطابع.

كنت سأحصل آنذاك، كما فكّرت، على جائزتي. وجدت نفسي أركّز على شفتيه، أنتظر أن تتحركا.

مكتبة الربيعي أحمد

أخيراً، قال بصوته اللطيف الذي يثبّت سامعه مثل فراشة على دبوس: "من أين حصلت عليه؟".

قلت: "وجدته".

كانت نظرة والدي عسكرية – صارمة.

قلت: "لا بد أن بونبني قد أوقعه. إنه لك".

تفحّص والدي وجهي بالطريقة التي يتفحّص بها عالم فلك نجماً يزداد توهجه حتى ينفجر.

قال أخيراً، بجهد كبير: "هذا كرم كبير منك يا فلافيا".

وسلّمني *منتقم الستر*.

"يجب أن تعيديه حالاً إلى مالكه الشرعي".

"الملك جورج؟".

أومأ والدي، بحزن نوعاً ما، كما ظننت. "لا أعرف كيف أصبح هذا الشيء بحوزتك ولا أريد أن أعرف. لقد قطعت شوطاً طويلاً بمفردك ويجب أن تكملي الطريق الآن".

"يريد المفتش هيوت مني أن أسلّمه إياه".

هزّ والدي رأسه، وقال: "هذا لطف كبير منه، لكنه رسمي جداً أيضاً. لا يا فلافيا، لقد تناقلت *أيه أيه* هذا أيد كثيرة، قلة منها سام والعديد منها وضيع. يجب أن تفهمي أن يديك هما الأجدر بحمله".

"لكن، كيف يكتب المرء رسالة إلى الملك؟".

قال والدي: "أنا واثق أنكِ ستجدين طريقة. من فضلك أغلقي الباب في طريق خروجك".

كما لو أنه يريد إخفاء الماضي، كان دوغر ينقل التراب بمجرفة من عربة يد إلى قطعة الأرض المزروعة بالخيار.

مكتبة الربيعي أحمد

قال وهو يرفع قبعته، ويمسح جبينه بردن قميصه: "آنسة فلافيا".

سألت: "كيف يمكن للمرء أن يوجّه رسالة إلى الملك؟".

أسند دوغر مجرفته بحرص إلى الدفيئة.

"نظرياً، أم من الناحية العملية؟".

"من الناحية العملية".

قال: "همم. أظن أنني يجب أن أبحث عن ذلك في مكان ما".

قلت: "مهلاً. كتاب السيدة موليت المعنون *استفسار عن كل شيء*. إنها تحتفظ به في خزانة الطعام".

قال دوغر: "إنها تتسوق في القرية. إذا أسرعنا، قد ننجو بحياتنا".

بعد دقيقة كنا نبحث في خزانة الطعام.

قلت بسعادة، عندما وقع الكتاب بين يدي: "هذا هو. لكن مهلاً، نُشر هذا الكتاب قبل ستين سنة. هل لا يزال صالحاً؟".

قال دوغر: "بالتأكيد. لا تتغير الأشياء بسرعة في الدوائر الملكية مثلما تتغير بالنسبة إليّ وإليك، ولا ينبغي لها أن تتغير".

كانت غرفة الاستقبال خاوية. كانت دافني وفيلي خارجاً في مكان ما، تخططان على الأرجح لهجومهما التالي.

عثرت على ورقة كتابة لائقة في درج، وبعدها، غمست القلم في الدواة، نسخت التحية من كتاب السيدة موليت الملطخ بالدهن، وحاولت جعل خطي أنيقاً قدر الإمكان:

جلالة الملك المعظم

أرجو أن تكونوا بخير

تجدون مرفقاً قصاصة ذات قيمة كبيرة تعود لجلالتكم، والتي كانت قد سُرقت في وقت سابق من هذه السنة. كيف وقعت بين يديّ (بلمسة لطيفة، كما أظن) هو أمر غير مهم، لكنني أؤكد لجلالتكم أنه تم إلقاء القبض على المجرم.

مكتبة الربيعي أحمد

قال دوغر وهو يقرأ من فوق كتفي: "اعتقال".

غيّرت الكلمة.

"ماذا أيضاً؟".

قال دوغر: "لا شيء. وقّعيها فحسب. الملوك يفضلون الإيجاز".

حريصة على عدم تلويث الصفحة، نسخت الخاتمة من الكتاب.

أبقى دائماً، بكل احترام، إحدى رعايا جلالتكم الأشد إخلاصاً
وخادمتكم المطيعة.
فلافيا دي لوس (آنسة)

قال دوغر: "ممتاز!".

طويت الرسالة بأناقة، وجعلت الطية الأخيرة حادة بإبهامي. وضعتها في أحد أفضل مغلفات والدي وكتبت العنوان:

صاحب السمو الملكي الملك جورج السادس
قصر باكنغهام، لندن، أس. دبليو. آي.
إنكلترا

"هل يجب أن أكتب عليه، شخصي؟".

قال دوغر: "فكرة جيدة".

بعد أسبوع، كنت أُبرّد قدميّ في مياه البحيرة الاصطناعية، أعدّل ملاحظاتي عن الكونيان، أقوى المواد شبه القلوية في الشوكران السام، عندما ظهر دوغر فجأة، يلوح بشيء في يده.

نادى: "آنسة فلافيا!". ثم خاض في الماء عبر الجزيرة، بحذائه وكل ملابسه.

كان سرواله يقطر ماءً، وبالرغم من أنه وقف هناك مبتلاً مثل بوسيدون [سيد البحر عند الإغريق]، إلا أن ابتسامته كانت مشرقة مثل شمس بعد الظهر في الصيف.

مكتبة الرمحي أحمد

سلّمني المغلف الذي كان طرياً وأبيض مثل إوزة مطبوخة.

سألت: "هل أفتحه؟".

فزع دوغر بينما كنت أمزق المغلّف، وأسحب الصفحة الوحيدة من الورق الأصفر الجميل المطوية داخله:

عزيزتي الآنسة دي لوس،

أنا ممتن للغاية لرسالتك الأخيرة واستعادة المادة الرائعة الموجودة معها، التي كانت، كما تعرفين، قد لعبت دوراً مميزاً، ليس في تاريخ عائلتي فقط، وإنما في تاريخ إنكلترا.

أرجو أن تتقبلي شكري القلبي.

وقد كانت موقعة ببساطة جورج.

مكتبة الرمحي أحمد **tele @ktabpdf**

للمزيد والجديد من الكتب والروايات زوروا صفحتنا على فيسبوك

مكتبة الرمحي أحمد

116

مكتبة الرمحي أحمد

مكتبة الرمحي أحمد

عبر صفحات هذه الرواية نتعرف إلى فلافيا الطفلة البالغة الحادية عشرة من عمرها الشغوفة بالكيمياء وعناصرها السامة بشكل خاص.

إنه صيف العام 1950 – حيث تقع سلسلة من الأحداث المفاجئة في باكشو، القرية الإنكليزية الوادعة والتي تتخذها عائلة فلافيا منزلاً. يتم اكتشاف طائر ميت على عتبة المنزل وقد ثُبت في منقاره طابع بريدي بطريقة غريبة. بعد ساعات، تكتشف فلافيا رجلًا ممدداً في حديقة الخيار يعاني سكرات الموت. تصاب فلافيا بالرعب المشوب بالإثارة، فالحياة بدأت لتوها تدب في باكشو الناعسة مع اكتشاف جريمة القتل فيها. «أتمنى لو أصابني الخوف، حتى إنه لم يساورني، بل على العكس، فإن هذا الحدث كان الأكثر إثارة ومتعة طوال حياتي».

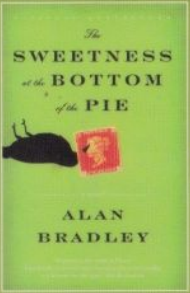

إن **حقيقة جريمة الحديقة** رواية خداع مشوّق كُتبت باحتراف وتشكل بهجة أدبية غامرة للقارئ.

«رواية رائعة... متعة خالصة أن تتابع فلافيا في أثناء تحقيقاتها في عالمها الضيق لكن المليء بمشاعر لا يمكن حصرها بحدود. ولطيف أن نعرف أنها ستعود».

– أسبوعية إينترتيمنت

«مثل كل شخص آخر تقريباً كنت أقرأ – أنهيت القراءة للتو، في الواقع – رائعة ألان برادلي **حقيقة جريمة الحديقة**. جعلتني أشعر بسعادة بالغة، لكل أنواع الأسباب؛ لحسّ الدعابة، للظهور الرائع للمحققة – الكيميائية ذات الأحد عشر ربيعاً فلافيا دي لوس، لاهتمامها الكبير بالتفاصيل الزمنية، والأهم لأنها تدل على موهبة ومهارة كبيرتين، من البداية إلى النهاية. ليس عليك أن تقلق أبداً من خرق القواعد الأساسية، كما تفعل كتب كثيرة هذه الأيام».

– بيل ريتشاردسون، غلوب وميل